027:T19kA:v.1:c.1
طرازى ،فيليب دى (الفيكونت)
خزائن الكتب العربية في الخافقين
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01000312


DATE DUE
JAFET LIB.
30 JUN 2009
Circulation Dept. 3
JAFET LIB.
30 JUN 2006
Circulation Dept. 4
JAFET LIB.
30 SEP 2006
Circulation Dept. 2
JAFET LIB.
30 JUN 2008
Circulation Dept. 1
JAFET LIB.
30 JUN 2008
Circulation Dept. 5
JAFET LIB.
30 APR 2010
Circulation Dept. 1

027
T19kA
v.1
c.1

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARY

الجمهورية اللبنانية

منشورات وزارة التربية الوطنية والفنون الجميلة

دار الكتب

خزائن الكتب العربية

في الخافقين

بقلم

الفيكنت فيليب دي طرازي

مؤسس دار الكتب اللبنانية

والعضو في عدة مجامع علمية شرقية وغربية

67732

المجلد الأول

AMERICAN UNIVERSITY
LIBRARY
OF BEIRUT

تمهيد

يقظة ابناء الضاد في النهضة العلمية الحديثة

تجلت منذ صدر القرن العشرين نهضة مباركة في عالم الادب العربي . فاستيقظ المفكرون الناطقون بالضاد في جميع البلدان واخذوا يتبارون في مضمار هذه النهضة المجيدة متذرعين بالوسائل الناجعة للوصول الى هدفهم المنشود.

وقد سالت قرائح حملة الاقلام فلم يهملوا موضوعاً من المواضيع العلمية الا عالجوه ولا باباً من الابحاث المهمة الا ولجوه . وراح فريق منهم ينقل الى اللسان العربي العلوم الحديثة والاختراعات المفيدة والاكتشافات المدهشة . فاضافوا الى ثروة اللغة العربية ثروة جديدة عظيمة اولتهم الثناء والفخار على ممر الاعصار.

وممن عزز هذه النهضة العربية الحديثة ملوك عظام وامراء همام اخذوا على عاتقهم قيادة الامة وترقيتها في معارج العلم والحضارة. فانشأ كل منهم في بلاده شتى المدارس والمطابع والنشرات الدورية والمجامع العلمية والبعثات المدرسية والمراصد الفلكية ودور الصناعات والآثار وخزائن الكتب الخ... ولم يُغفلوا في الوقت عينه عن تنشيط العلماء وتكريمهم والاحسان اليهم اسوة بمشاهير الخلفاء في سالف الازمان. وكان للافراد والجماعات المليّة ايضاً يد طولى في تعزيز تلك النهضة بما انشأوه من مشاريع جليلة كالمشاريع المار ذكرها فاستفادوا وافادوا. وبهذه الوسيلة تسنى للغة العربية تمهيد السبيل لتجديد عصرها الذهبي والتطلع الى مستقبل باهر يعيد اليها مجدها الغابر.

الحاجة الى مؤلف شامل لاخبار المكتبات العربية

وتحقيق هذه الامنية

رأيت ان لا ابقى مكتوف اليدين ازاء هذه النهضة الشريفة التي رَفَعَت مستوى ابناء الشرق وجعلتهم يتقدمون في مدارج العمران كسائر الشعوب الراقية. فلبلوغ الغاية المقصودة رسمتُ خطة منظمة لما انتويت تأليفه من الكتب او القيام به من المشاريع الادبية والعلمية. وتتلخص خطتي هذه باني تحريت الاعمال المفيدة وتحاشيت بحث المواضيع التي طرقها قبلي كتّاب عديدون ومحّصوها وانشأوا فيها تصانيف وافية. هكذا أتيح لي ان اخدم الامة العربية بعض خـــدم يسوغ ان تُعدُ فريدة في بابها.

وبتوالي الايام اختمرت فيّ فكرة أحسبها مبتكرة وهي تأليف كتاب ينطوي على اخبار خزائن الكتب العربية في الخافقين قديماً وحديثاً. وقد اتضح لي بعـــد امعان الروية ان المراجع الدراسية هي في اشد الحاجة الى تاريخ يضم بين دفتيه كلّ ما يتعلق بهذا الموضوع الخطير. فانصرفت لتحقيق هذه الامنية الى مطالعـــة ما لا يحصى من شتى التصانيف لا في اللغة العربية وحدها بل في غيرها من اللغات.

يعتبر هذا السفر وحيداً من نوعه في المكتبة العربية

قد اثبتُ في هذا المؤلف اخباراً ووثائق معززة بحجج دامغة لم يتيسر لمؤرخ اثباتها قبل الآن. واضفت اليها ما ادخرته من المفكرات التي سبقت فدونتها خلال مطالعاتي الكثيرة منذ عشرات السنين. وفي ذلك كله بسطت الحق الصراح دون تهيب ولا وجل خدمة للعلم والتاريخ. ثم انتقدت ما رأيته مستحقاً الانتقاد ولئن ساء انتقادي بعض الذين تعودوا استماع عبارات التمليق وغمّضوا في كتاباتهم عن التحقيق والتدقيق.

يُعتبر هذا التاريخ من المؤلفات التي لا يُستغنى عنها في المكتبة العربية ولا سيما انه لم يتحرّ احد من المؤلفين ان بحث هذا الموضوع بحثاً مستقلاً مستوفىً. على ان جميع الذين تناولوه كتبوا عنه عرَضاً في سياق كتاباتهم عن حوادث مختلفة واخبار متفرقة. وخلاصة القول ان هذا المؤلف هو ثمرة درس ناضج مقرون باختبار واسع لا يقدرهما الا من عانى الاشتغال في التنقيب عن المراجع الدراسية. ولا يدركهما الا من تيقّن بذاته مصاعب الوصول الى اوثق المصادر التي تكشف النقاب عن الحقائق التاريخية التي لا تقبل الرد او الارتياب. ولا اخشى القول ان هذا المصنف الذي اتحف به ابناء الضاد اصبح حلقة ثمينة في سلسلة التآليف العربية. ولي الثقة انه ينال استحساناً لدى من يقدر الجهود قدرها بين العلماء المدققين واعلام المفكرين.

ابواب الكتاب وخلاصة ابحاثه

يقع الكتاب برمته في ثلاثة مجلدات احتوت ثمانية عشر باباً نلخصها كما يلي :

ففي المجلد الاول اربعة ابواب اشتملت على مباحث متعددة عن علوم العرب في الجاهلية وصدر الاسلام، وعن الحالة الفكرية في المشرق قبل الفتح العربي، وعن ثقافة شعوب البلاد التي فتحها العرب، وعن نقل العلوم الدخيلة الى اللسان العربي ومشاهير نقلتها، وعن عصر النهضة العربية الذهبي. وتحدثت فيها ايضاً عن تكوين المكتبات العربية وانتشارها في الامصار شرقاً وغرباً، ومقابلتها مع مكتبات البلدان الاجنبية. واوردت بعد ذلك اخبار المكتبات الاسلامية العامة ثم المكتبات الاسلامية الخاصة.

وتضمن المجلد الثاني ستة ابواب دوّنت فيها : اخبار المكتبات النصرانية والمكتبات العربية في اوروبا واميركا، والمكتبات الاسرائيلية، واخبار غلاة الكتب وهواة المكتبات.

واشتمل المجلد الثالث على ثمانية ابواب المعت فيها الى خزنة دور الكتب والى المخطوطات العربية والعاملين فيها من ورّاقين وخطاطين ونسّاخين ومجلدين مع طُرفٍ من غرائبهم ونوادرهم، والى تجارة الكتب واشهر اسواقها والى عبّاد المخطوطات وعشّاقها وسرّاقها. يليها باب المخطوطات المصوّرة والمزوّقة وباب رزايا الكتب والمكتبات وباب النوازل الادبية بالمكتبات والكتب الخ . الخ..

وختمت جميع ذلك بالباب الثامن عشر فخصصته بدار الكتب اللبنانية التي اتيح لي ان اقوم بتأسيسها تعزيزاً للعلم في بلادي المحبوبة. والامل بان جهودي تعود بالفائدة التي توخيتها من وضع هذا المؤلف، وعلى الله سبحانه اتكالي وبه ثقتي واعتصامي .

الباب الأول

مقدمة الكتاب وفيها ثمانية فصول

الفصل الاول

علوم العرب فى الجاهلية وصدر الاسلام

١ - الحفظ والتدوين عند العرب

ليس غرضنا من هذا المقال الاحاطة بتاريخ العلوم عند العرب وتدوين مبلغ ثقافتهم بين سائر الشعوب قديمها وحديثها . فان هذا البحث الدقيق يتطلب درساً خاصاً يخرج عن دائرة الموضوع الذي نتوخّاه . على ان هدفنا لا يتعدى الآن وصف حالة المعارف عند العرب في عصر الجاهلية وصدر الاسلام . كما يتضح من العنوان الذي توّجنا به هذا الفصل . وذلك ليتهيأ لنا تمهيد السبيل لما ازمعنا اثباته من المباحث في الفصول اللاحقة .

ولما كان احمد زكي باشا العلاّمة المصريّ قد طرق هذا الموضوع ومحّصه في كتابه « الحضارة الاسلامية » رأينا ان ننقل بالحرف الواحد كلامه المبني على حقائق راهنة لانه يُعتبر في ابحاثه مرجعاً لكل طالب وحجةً لكل مؤرخ . قال بعنوان « الحفظ والتدوين » ما يلي :

« قد علمنا ان الأمة العربية في زمن الجاهلية لم تكن من الكتابة في شيء. ونزيد الآن انها لم تكن منذ برأها الله حتى منبثق فجر الاسلام تعرف من العلوم الا ما تقتضيه ادنى معيشة كتربية بعض الدواب وانتجاع منازل الغيث والعلم بالأنساب وبرمي السهام والحداء وغير ذلك من المبادىء التي لا يسع البدوي جهلها... غير ان نصيبهم من العلوم كان قليلاً فلم يبلغوا فيها اذ ذاك مبلغاً يضطرّهم الى التدوين. فكانوا يكتفون فيها بالحفظ ولم يفطنوا للتدوين لقلة حاجتهم اليه... (١).

واستتلى في « الحفظ والتدوين » قوله : « وما كانوا (العرب) يعرفون الكتب بل كانوا ينهون الطلبة عن النظر فيها والاعتماد عليها لئلا تتناولها ايدي التصحيف والتحريف او التزوير المقصود فيقعوا في شر اعمال المفسدين ، او خوفاً من ان يقصروا همتهم على اللفظ دون المعنى ، او يعتمدوا على الكتب فيهملوا الرواية التي هي عندهم قوام العلوم لا سيما الادبية والنقلية منها . ولقد كان العلماء وقتئذ يفاخر بعضهم بعضاً بالحفظ . وقلّما يكون لاحدهم كتاب واحد يعتمد عليه في ما يزاول ، وكان بعضهم يُهلك كتبه خوفاً من الاتكال عليها...

« واذ كان السماع هو العمدة في صدر الاسلام كانت الكتب بالضرورة غير معتدٍّ بها ولا معوّلٍ عليها في شيء اذ المسألة مسألة حفظ محض .

« ان الصحابة والتابعين لقرب عهدهم بصاحب الشريعة الاسلامية ولقلة الاختلاف والواقعات ولتمكنهم من مراجعة الثقات كانوا لكل ذلك مستغنين عن تدوين علم الشرائع والاحكام . حتى ان بعضهم كره كتابة العلم . فقد رُوي عن ابن عبّاس انه نهى عن الكتابة وقال انما ضلّ من كان قبلكم بالكتابة . وجاء رجل الى عبد الله بن عبّاس رضي الله عنه فقال اني كتبت كتاباً اريد ان اعرضه عليك. فلما عرضه عليه اخذه منه ومحاه بالماء . فقيل له لماذا فعلت ذلك قال لانهم اذا كتبوا اعتمدوا على الكتابة وتركوا الحفظ فيعرض للكتاب عارض فيفوت علمهم (٢) »

---

(١) الحضارة الاسلامية : لاحمد زكي باشا المصري : صفحة ٧٦

(٢) الحضارة الاسلامية صفحة ٧٧ ـ ٧٨

ومما يؤيد عناية العرب بالحفظ قول الامام ابي محمد علي بن حزم الظاهري

وان تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذي تضمّنه القرطاس اذ هو في صدري
يسير معي حيث استقلتْ ركائبي ويـنزل ان انزل ويدفن في قبري

٢ - الخط وتعليم الكتابة في صدر الاسلام

وقال احمد زكي باشا المشار اليه بعنوان « الخط » ما نصه :

« ولما هاجر المسلمون الى المدينة وجدوا في اهلها نفراً قليلًا من اليهود ومن الأوس والخزرج يعرف الخط . فاستعملوا من الأوس والخزرج لكتابة الوحي اكثر من ثلاثين رجلًا . وكان اول من كتب الوحي ابن ابي كعب الانصاري... وبعد ان استقر الاسلام في المدينة امر النبي صلى الله عليه وسلم ان تُعلم صُبيانها الكتابة والقراءة . واستعمل في ذلك من اسرى بدر من لم يستطع ان يفتدي نفسه بالمال. فكان فداء الرجل الواحد منهم تعليمه عشرة من اولاد المسلمين الكتابة والقراءة . ثم امر صلى الله عليه وسلم زيد بن ثابت الانصاري ان يتعلم العبرانية او السريانية . فتعلم هـــذه اللغة في نصف شهر على ما قيل فـــكان اول مترجم في الاسلام. ولعظيم شأن الخط اذ ذاك عند العرب وقلة عارفيه كانوا يسمّون من يعرفه ويعرف الرمي والسباحة بالكامل (١) ».

ولنا شهادات كثيرة من هذا القبيل ايضاً نروي واحدة منها للبحاثة الشيخ محمد الخضري مدرس التاريخ الاسلامي في الجامعة المصرية قال : « اما بادية العرب فلم تكن تخط حتى انهـــا كانت لترى في ذلك سمـــة عيب كما هو شأنها في سائر الصناعات (٢) »

---

(١) الحضارة الاسلامية صفحة ٦٦

(٢) محاضرات تاريخ الامم الاسلامية : لمحمد الخضري : صفحة ٧٣ طبعة ثالثة

٣ ـ خمول الحالة العلمية عند العرب في اوائل الاسلام

لابن خلدون عدة فصول اودعها مباحثه وآراءه عن حالة العلم عند العرب في الجاهلية وصدر الاسلام نثبت منها الفقرة التالية قال : « والسبب في ذلك ان الملّة في اولها لم يكن فيها علم ولا صناعة لمقتضى احوال السذاجة والبداوة . وانما احكام الشريعة التي هي اوامر الله ونواهيه كان الرجال ينقلونها في صدورهم. وقد عرفوا مأخذها من الكتاب والسنة بما تلقوه من صاحب الشرع واصحابه . والقوم يومئذ عرب لم يعرفوا امر التعليم والتأليف والتدوين ولا دُفعوا اليه ولا دعتهم اليه حاجة (١) »

اتضح ممّا اوردناه ان الحالة العلمية عند العرب في عصر الجاهيلة وصدر الاسلام كانت في خمول لا مزيد عليه . فانهم لبثوا يعيشون منذ خلقهم الله عاكفين حول الشعاب والهضاب قانعين في خمولهم بنعمة الحريّة ونزعتهم القبيليّة . وهم في مجموعهم ظلوا بمعزل عن سائر الشعوب كأنهم في غير هذا الكون. وقد حمتهم قفارهم الواسعة من مؤثرات تلك الشعوب . ومنع عنهم انفرادهم الجغرافي تسرّب العادات الغريبة اليهم. ويُعزى ذلك الى طبيعة بلادهم القاحلة وقلة امتزاجهم بالدول الراقية التي كانت تكتنفهم كالروم والفرس والحبش .

٤ ـ حياة العرب البدوية

اعتاد العرب شظف من العيش لانصرافهم الى الحياة البدويّة كالغزو وركوب الخيل وتربية المواشي ورمي النبال وحداء الابل ونساجة الصوف لأكسيتهم ومضاربهم . وكانوا يكتفون من الطعام بالالبان ولحم الحيوان والتمر ومن الثياب بالقميص والرداء . وقد اصاب الحكميّ في وصف مأكلهم ومشربهم بقوله .

قصارى عيشهم اكل لضبٍ وشربٌ من حفير في شنانِ

(١) مقدمة ابن خلدون : فصل ٣٥ صفحة ٥٤٣ طبع المطبعة الادبية ببيروت

وكانت معيشة العرب خالية من الترف يتساوى فيها كبيرهم وصغيرهم اميرهم وصعلوكهم. ومن عاداتهم انتجاع منابت الكلاء وارتياد مواقع الغيث فيخيمون هنالك ما ساعدهم الخصب وامكنهم الرعي. ثم يتوجهون الى طلب العشب وابتغاء المياه فلا يزالون في حل وترحال كما قال المثقب عن ناقته :

تقول اذا درأت لها وضيني ... اهذا دأبه ابداً وديني
أكلّ الدهر حِلّ وارتحالٌ ... اما يُبقي عليّ ولا يَقيني

٥ ـ مزايا العرب ومجالسهم واسواقهم

على ان للعرب ابناء الصحراء صفات سامية قلما عرف بها غيرهم من الشعوب قديماً وحديثاً. وقد فُطروا على هذه المزايا التي حافظوا عليها في جميع الاجيال محافظتهم على استقلالهم كالشجاعة والضيافة والكرم والحلم والوفاء والانفة.

وقد برز ابناء الصحراء هولاء التبريز كله بامرين فاقوا فيهما كل الامم وهما الانساب والشعر. فكانت لهم عناية عظمى في حفظ انسابهم للتناصر على الاعداء او للتفاخر بالجدود والآباء. وكانوا يعقدون المجالس ويقيمون الاسواق (١) حيث تجري المفاخرة بينهم في التناشد وتقوم المنافسة بكل شيء حتى في المصائب،

---

(١) اشهر اسواق العرب ايام الجاهلية هي: (دَوْمة الجندل) و (سوق هَجَر) و (سوق عمان) و (سوق المشقَّر) و (سوق صُحار) و (سوق الشُحْر) و (سوق عَدَن أبين) و (سوق صنعاء) و (سوق حضرموت) و (سوق ذي المجاز) وسوق مَجنَّة) و (سوق حُباشة) وسوق عُكاظ) و (سوق حَجر) واهمها (سوق عكاظ) وهو موسم معروف للعرب بل هو من اعظم مواسمهم واسواقهم. وهو نخل في واد بين نخلة والطائف. وكان المكان الذي يجتمعون فيه منه يقال له (الأثيداء). وكانت هناك صخور يطوفون حولها وكانوا يتبايعون فيها ويتعاكظون ويتفاخرون ويتحاجون. وكان شعراؤهم ينشدون ما تجدد لهم وقد كثر ذلك في اشعارهم. قال حسان :

سأنشرُ ان حَيِيت لهم كلاماً ... يُنشَّرُ في المجامع من عكاظِ

واصبحوا شديدي الحرص على حفظ هذين الامرين اي الاشعار والانساب لان فيها شرفهم واحسابهم وبطونهم وحروبهم ومدحهم وهجاءهم وغير ذلك مما لا يعنون الا به . ومع كثرة انشادهم للاشعار فانهم لم يهتموا بتدوينها لجهلهم الكتابة التي ما كانوا يعرفون لها اسماً ولا رسماً (١). فاكتفوا بحفظها لانهم مرنوا منذ نشأتهم على الحفظ دون الكتابة كما قلنا لاضطرارهم اليه . فصار الحفظ عندهم شيئاً مألوفاً . وقد ساعدهم على ذلك صفاء اذهانهم وقلة مشاغلهم الدنيوية والاجتماعية .

٦ ـ استفحال ملك العرب وتضعضع الشعوب المغلوبة

ظلت الحال على هذا المنوال حتى جاء الاسلام . فدوّخ العرب في مدة ثمانين سنة تلك الممالك الواسعة الارجاء في قلب آسيا وشمال افريقيا وغرب اوروبا . فاستفحل ملكهم بعد غفلتهم قروناً كثيرة واوغلوا في العمران بملابستهم الامم المتمدنة التي غلبوها على امرها واقتبسوا منها العلوم والفنون والصنائع .

هكذا تلاشت او كادت تتلاشى بتعاقب الايام تلك الشعوب العريقة في التاريخ كالروم والسريان والفرس والانباط والصابئة والاقباط والارمن واليهود وغيرهم. فاختلطت بالعرب الفاتحين ودانت الا النزر اليسير بدينهم. وتألف من هذا المجموع شعب جديد واحد لغةً وسياسةً ودِيناً. وبتأثير هـذا الاختلاط انتقل العرب الاصليون من الظلمة الى النور ومن الخشونة الى الظرف ومن الجهل الى المعرفة ومن العيشة البدوية الى ترف المدن. فبلغوا من ضخامة السلطان ورجحان الكلمة واتساع دائرة النفوذ ما لم تبلغه قبلهم اكبر الدول القديمة واشهرها.

---

(١) جاء الاسلام وليس احد يكتب بالعربية غير بضعة عشر من الرجال نذكر منهم : سعيد بن زرارة. والمنذر بن عمرو. وأبي بن وهب . وزيد بن ثابت . ورافع بن مالك. واوس بن خولي . (نقلا عن تاريخ القرآن لابي عبدالله الزنجاني : الباب الاول . صفحة ٥ـ٦)

الفصل الثاني

القرآن

١ ـ ما هو القرآن

القرآن عَلَم للكتاب الذي يقدّسه المسلمون في مشارق الارض ومغاربها. ويتبركون به ويتبعون سننه وفرائضه. ويعتقدون اعتقاداً راسخاً انه انزل على النبي العربي محمد بن عبدالله وأنه آخر الكتب السماوية نزولا (١) و «انه لقرآن كريم. في كتاب مكنون. لا يمسه إلا المطهرون. تنزيل من رب العالمين (٢).

سُمي القرآن من القراءة. وسمي «كتاباً» و «فرقاناً» على ما ورد في سورة آل عمران: «نزل عليك الكتاب بالحق مصدّقاً لما بين يديه وانزل التوراة والانجيل. من قبلُ هدًى للناس وأنزل الفرقان» (٣).

ولما بويع عثمان بن عفان (٢٣-٣٥ هـ) ثالث الخلفاء الراشدين بلغه ان المسلمين اختلفوا في قراءة القرآن قدْر اختلافهم في لهجاتهم. فلم يرَ الا ان يجمع آياته ويضبطها بلغة قريش التي نزل بها القرآن. ثم كتب اربع نسخ منه بعث الى كل مصرٍ من الأمصار الاسلامية بنسخة. وامر الناس ان ينقلوا عنها مصاحفهم واوعز باحراق كل من خالفها من المصاحف.

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين: لمحمد فريد وجدي. مجلد ٧ صفحة ٦٦٦ (٢) القرآن: سورة الواقعة ٧٧-٨٠ (٣) القرآن: سورة آل عمران ٣-٤

ولم يتسمح المسلمون في نقل القرآن الى لغات البلاد التي دوّخوها او الى غيرها من اللغات بل تمسكوا تمسكاً متيناً بعقيدتهم المستندة الى ما ورد غير مرة في الكتاب كقوله : « إنا انزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون » (١). وكقوله : « قرآناً عربياً غير ذي عِوَج » (٢) .

٢ ـ توحيد القرآن لشتات الامة العربية

جاء القرآن والعرب فِرَق متنابذة وشِيعٌ متحاقدة تكفر كل منها سائر الفرق وتناهضها وتُضمر لها السوء والشر. وناهيك ان العرب ظلوا مئات الأعوام على حال واحدة من الخشونة والبداوة لا يتحولون عنها ولا يسأمون منها. فكانوا ممزّقين طرائق ومفرّقين حزائق في اجدب المفاوز بل في ابعدها عن النظام والعمران والثقافة . وكانوا مختلفين في مواطنهم ولهجاتهم وعاداتهم لا تضمهم رابطة سياسية ولا جامعة دينية او قومية.

ما كاد يظهر الاسلام حتى احدث القرآن في انصاره واتباعه انقلاباً غريباً عجيباً لم يكونوا يتوقعونه على الاطلاق. فبعد ما كانوا متسكعين في دياجير الجهل منقسمين الى قبائل وبطون لا يعرفون من الشؤون الاجتماعية شيئاً دأبهم الغزو والنهب والقتل واخذ الثأر اصبحوا بقوة القرآن أمة متوحدة في لغتها ودينها وشريعتها وسياستها .

ومن المدهش ان الأمة العربية التي كانت قبل الاسلام ذليلةً ضئيلة تحوّلت بعدَه من الضعف والخمول الى العز والبسطة والسلطان. فنهضت نهضة الرئبال واستجمعت قواها حتى تألفت منها دولة منيعة بطشت بدول ذلك العصر كدولة الفرس والرومان واليونان. ولم تلبث ان احاطت بشعوب تلك الدول تدعوهم

---

(١) القرآن : سورة يوسف ٢ (٢) القرآن : سورة الزمر ٢٨

الى واحدةٍ من ثلاث : الأسلام او الجزية او الحرب (١). ولا غرو فان هـذه النهضة السريعة حيرت العالم طرّاً وعدّها القوم حادثاً من اعجب حوادث التاريخ.

من المقرّر الثابت ان للقرآن فضلاً كبيراً في تأليف شتات العرب وتوحيدهم مع الأمم المغلوبة المتباينة في لغتها ودينها وجنسها ووطنها. فكوّن من مجموعها عنصراً جديداً مستقلاً هو العنصر العربي. ومن المقرر الثابت ايضاً انه لولا القرآن لما انتشرت اللغة العربية الفصحى في الخافقين. ولولا القرآن لما اقبل الوف الألوف من البشر على قراءة تلك اللغة وعلى كتابتها ودرسها والتعامل بها. ولولا القرآن – نعم لولا القرآن – لظل اهل كل بلد من البلدان التي دوّخها العرب ينطقون بلهجة يستعجمها اهل البلد الآخر.

فالقرآن عزّز الجامعة العربية وصان عنصرها وضمن سلامتها على توالي الازمان. ذلك لان الدين الاسلامي فرض على كل مسلم ان يدرسه ويحفظه ويجوّد قراءته قبل اي علم من العلوم البشرية. هكذا حُفظ التفاهم بالعربية بين الشعوب الاسلامية وغيرها من الشعوب في الحجاز واليمن والعراق وحضرموت ومصر وفلسطين وسوريا ولبنان وما بين النهرين. وفي طرابلس الغرب وتونس والجزائر والمغرب الأقصى وزنجبار والسودان وهلم جرا.

وما ان تقهقرت الدول العربية وتقهقرت معها الحضارة الاسلامية القديمة حتى خُشي ان تندثر لغة تلك الدول وتندمج في لغة الشعوب المغلوبة على امرها. غير ان اللغة العربية استعصت على نكبات الدهر ورسخت رسوخ الجبال الرواسي خلافاً لما انتاب لغات الاقوام الذين اندمجوا في العرب بعد الاسلام كالروم والسريان والاقباط والانباط والصابئة واليهود وغيرهم.

٣ – تأثير القرآن في المسلمين العرب وغير العرب

من روائع تأثير القرآن ان ائمة المسلمين من غير العرب يرتلونه بلغته العربية

(١) دائرة معارف القرن العشرين مجلد ٧ صفحة ٦٨١

ويحافظون على تجويده ويشرحونه لأبنـاء لغـاتهم في انأى الامصار. واذا انعمنا الفكرة في اولئك المسلمين غير العرب الفينا عددهم يناهز مائتي مليون نسمة وهم منتشرون في اغلب الاقطار شرقاً وغرباً. اعـني تركيـا وايران وكردستان وكرجستان وافغانستان وبلوخستان. وفي روسيا والبلقان والهند وجاوة والصين واليابان والحبشة وقلب افريقيا وبعض انحاء اوروبا واميركا واستراليا .

تلك مزية تفرّد بها القرآن دون سواه من الكتب المنزلة. فالتوراة مثلاً لا يقرأها بلغتها العبرية الا احبار اليهود ونفر ممن تفرغوا لدرسها . واما سائر اليهود فان كلا منهم لا يقرأ التوراة الا بلغة سكان البلاد الـتي يعيش فيهـا. وقس عليهم كل المسيحيين في انحـاء العالم باسره . فانهم يقرأون الكتـاب المقدس مترجماً الى اللغة الجارية بالاستعمال لدى كل شعب او كل ملة منهم. فـلا يقرأه بلغاته الاصلية اعني العبرية والسريانية واليونانيـة الا العلماء فقط وفئـة من نصارى الشرق الادنى وفريق من نصارى الملبار في الهند الانكليزية.

يتضح مما بسطناه ان القرآن هو المصحف الذي جمع كلمة المسلمين على اختلاف مذاهبهم ولغاتهم واوطانهم. واحدث انتشاره تأثيراً كبيراً في اخلاق الشعوب التي دانت بالاسلام وفي عقولهم وآرائهم وميولهم. فادمجوه في كل شأن من شؤونهم دينية ودنيوية. واتخذوه مصدراً لقضائهم ودعامة لمنازعهم السياسية وسائر امورهم حتى طعامهم وشرابهم وكسوتهم وعيشتهم المنزلية واعمالهم التجارية .

وتتجلى الصبغة الدينية القرآنية في مؤلفي الاسلام ومؤلفاتهم ولئن كتبوا في مواضيع لا صلة لها بالدين. تشهد على ذلك مصنفاتهم في الفلاحة والفلك والهندسة والجبر والكيمياء والطب والفلسفة والتاريخ حتى الصرف والنحو.

وخلاصة القول ان للقرآن في لغته العربيـة البحتة تأثيراً عميقاً جداً، وقـد حرص المسلمون بقوة القرآن وما برحوا يحرصون على سُننه وفرائضه ونوافله في كلياتها وجزئياتها . واعتنوا غاية الاعتناء بضبط سوره وآياته واجزائه والفاظه

وحروفه ونقاطه وحركاته وسكناته . وتوافروا على استقصاء حقائقه ومجازاته وتصاريحه وكناياته ودقائقه ونكاته.

٤ ـ اجماع الخلفاء والملوك والمسلمين كافة على تعظيم القرآن

اجمع المسلمون قاطبة منذ فجر الاسلام على إجلال القرآن. وبالغوا في تكريمه وعنوا بصيانته عناية ليس بعدها عناية . فدوّنوه على صفائح من ذهب وفضة وعاج وآبنس. وطرّزوه باسلاك من قصب على حرير او قطيفة او ديباج او ارجوان. ونقشوا آياته على اعمدة المعابد والقصور وعلى جدران المكتبات والدواوين. وعلى الأمتعة والآنية والأسلحة والرايات. وتفننوا في كتابته باشكال الاقلام والخطوط وانواع المداد والكاغد والوان النقوش والزخارف. وعلقوه على صدورهم تيمناً يتقون به كوارث الدهر ويتعوّذون بـه من هجمات العدو. واتخذوا له قماطر فاخرة واصونة نفيسة. واستصنعوا لحفظه من التلف والدثور خزائن بديعة. ووضعوه في محاريب الجوامع ورفعوه على كراسي رُصعت بحجارة كريمة وجواهر يتيمة .

وتنافس المسلمون في إجادة كتابة القرآن تنافس غيرهم من الشعوب في فن التصوير. ومرّ بنا ان امير المؤمنين عثمان بن عفان كتب اربعة مصاحف بعث بها الى الآفاق . واقتفى اثره الحجاج بن يوسف الثقفي فكتب نسخاً من المصحف اهداها الى عواصم المملكة (١) . وتعهد الرحالة ابن بطوطة المقصوره العظمى التي يؤمهـا إمام الشافعية في قِبلة المسجد الأموي . فشاهد في ركنها الشرقي ازاء المحراب خزانة كبيرة يزينها المصحف الذي وجهه امير المؤمنين عثمان بن عفان الى الشام . ولم تكن تُفتح تلك الخزانة الا كل يوم جمعة بعد الصلاة فيزدحم الناس على لثمه اي ازدحام (٢).

---

(١) الروزنامة التونسية: سنة ١٣٢١هـ صفحة ١٤٠ (٢) رحلة ابن بطوطة: جزء ١ صفحة ٥٢

وحوى منبر جامع قرطبة بالأندلس مصحفاً من مصاحف الخليفة عثمان . وقد وُشح بحلة ذهبية رُصعت بالدر والياقوت وغُشي بالديباج . ورُكز هذا المصحف على كرسي من العود الرطب مطعم بمسامير من الذهب (١) . وفي السنة ٥٥٢ للهجرة نُقل المصحف من قرطبة الى مراكش بمجالي التكريم والتعظيم . وظل في حوزة السلاطين الموحدين حتى قُتل السعيد عليّ بن ادريس عام ٦٤٥ للهجرة . وكان هذا السلطان قد نقله معه الى تلمسان فنهب المصحف هناك . ثم عثر عليه ملوك بني عبد الواد وظلوا محتفظين به ريثما افتتح افريقية السلطان ابو الحسن المريني . فاستولى على المصحف وحمله معه في رحلاته وفتوحاته تيمناً . واتفق انه لما قفل بحراً عام ٧٥٠ للهجرة من تونس الى المغرب هاجت عاصفة شديدة أغرقت المراكب بمن فيها من نفوس وما فيها من نفائس . وأخصها وانفسها مصحف الخليفة عثمان فكان ذلك آخر العهد به (٢) .

واشتملت خزائن كتب المسجد الاقصى بالقدس الشريف على نصف مصحف اثري كتبه بالخط الكوفي محمد بن الحسن بن الحسين ابن بنت رسول الله .

وضمت خزانة كتب النجف الأشرف عند ضريح الامام علي بن ابي طالب نسخة من القرآن خطها ابنه الحسين (٣) . وفي السنة ١٩٤٠ سعى السردار طاهر زين الدين احد اغنياء المسلمين في الهند لتجديد هذا الضريح ، فاستصنع له خشباً من الآبنس رُصع بخمسين رطلاً من الذهب الابريز وخمسة عشر رطلاً من الفضة الخالصة . وجعل ارتفاعه احدى عشرة قدماً وقطره عشرين قدماً . وبلغ ما انفقه عليه هذا السردار السخي اثنين واربعين مليوناً من الجنيهات الاسترلينية (٤)

واعتاد ابراهيم بن يمين الدولة سلطان بخارا ان يبعث كل عام الى مكة المكرمة بنسخة من القرآن يكتبها بخط يده . وذكر المقري ان ابا الحسن المريني سلطان

---

(١) نفح الطيب : للمقري : مجلد ١ صفحة ٢٥٦ (٢) الاستقصاء لاخبار دول المغرب الاقصى : تأليف احمد بن خالد الناصري : جزء ١ صفحة ١٥٠ (٣) مجلة المقتبس في دمشق : مجلد ٧ صفحة ٩٢٤ (٤) جريدة البشير . مجلد ٧٠ عدد ٦٠٥٩ سنة ١٩٤٠

افريقية نسخ بيده ثلاثة مصاحف اتحف بها المساجد الثلاثة التي تُشد الرحال اليها في مكة المكرمة والمدينة المنوّرة والقدس الشريف. وسطر المريني نفسه الختمات الشريفة بقلمه المُجيد المُجدي (١) . ثم اشترى عقارات بالشام قيمتها عشرة آلاف دينار حبسها على الفقراء وعلى خزَنة المصاحف (٢).

وقرأنا وصفاً لقرآنٍ مستبدعٍ خطه بيده السلطان ابو الحسن المريني المشار اليه وحبسه على الحرم الشريف . وفيه ان هذا السلطان كلف القراء ليضبطوه وأمر الورّاقين ان ينمقوه ويذهبوه . واستصنع له صواناً ظريفاً من الآبنس والعاج والصندل دبجه بصفائح ذهبية مرصعة بالجواهر والياقوت . وجعل ذلك المصحف في قمطر من جلدٍ فاخر وشي بخطوط ذهبية وغُلف بوشاح ارجواني (٣)

وشاهدنا نحن في دار الكتب المصرية مصحفاً قديم العهد قرأنا في آخره انه «بخط الامام جعفر الصادق بن محمد الباقر بن زين العابدين بن الحسين ابن الخليفة علي رضي الله عنهم » واطلعنا في تلك الدار عينها على مصحف كتب برسم « الجايتو » سلطان المغول (٧٠٣ – ٧١٦ هـ) (٤) في مطلع القرن الثامن للهجرة .

ومن نفائس دار الكتب المصرية ايضاً مصحف محمد بك ابي الذهب والي مصر واحد زعماء المماليك في اواخر القرن الثاني عشر للهجرة . كان هذا المصحف محفوظاً في جامع ابي الذهب ازاء الجامع الازهر بالقاهرة ثم ضاع واحتجب عن الابصار . وفي السنة سبع وستين وثمانمائة بعد الالف ارتحل الخديوي اسمعيل (١٨٦٣ – ١٨٧٩) الى باريس فعثر على هذا المصحف النفيس في متحف اللوفر . واتفق مع أولي الامر الفرنسيين على إعادته الى مركزه في مصر. وقد نُسخ المصحف المشار اليه بخط مغربي ويعد آية من الآيات بجمال فنه ودقة صنعه وجودة حبره وقرطاسه .

---

(١) نفح الطيب : مجلد ٢ صفحة ٥٤٧ (٢) تاريخ ابي الفداء : جزء ٤ صفحة ١٤٩
٣ الاستقصاء لاخبار المغرب الاقصى : جزء ١ صفحة ٦٢-٦٣ (٤) نبذة عن دار الكتب المصرية لسنة ١٩٣٩ صفحة ٢٦ .

وامتاز غياث الدين ملك الغورية بخطه الظريف فنسخ مصاحف جمة حبسها على المدارس التي شيدها (١). وكان السلطان علاء الدين يكتب المصاحف بخطه الحسن ويقفها على المساجد (٢).

وهناك مصاحف اثرية عديدة محفوظة بكل تعظيم واجلال في صروح السلاطين والأمراء واقطاب المسلمين لا يتسع الوقت لوصفها. وحسبنا الاشارة الى ما احتوته من تلك المصاحف النادرة قصور خلفاء بني عثمان وملوك ايران وافغانستان وخزائن نظام حيدر آباد في الهند. نضيف اليها مكتبات الأيمة وهواة الكتب وغلاة الآثار في مختلف الأصقاع والأمصار.

٥ـ نسّاخ القرآن ومنمقوه

روى التاريخ اسماء رهط عظيم من الخطاطين اشتهروا بنسخ المصاحف في العصور الخالية. بينهم سلاطين وخلفاء وامراء ووزراء وأئمة طبق الآفاق صيتهم. فما عدا من ألمعنا باسمائهم يطيب لنا ان نذكر سلطان المغرب ابن عبد الحق الذي نسخ ثلاثة مصاحف على رقّ غزال. ولم يزل احدها محفوظاً في خزائن المسجد الأقصى بالقدس الشريف. وهو مجلد طبقاً للفن المراكشي ومكنوز في صندوقة مرصعة بالميناء على الطراز الأندلسي.

واشتهر عن السلطان ناصر الدين ملك الهند والسند المعروف بصلاحه وتقواه انه كان ينسخ المصاحف ويبيعها ويقتات باثمانها (٣). واثبت ابن بطوطة انه وقف على مصحف محكم الكتابة نسخه السلطان المشار اليه بخطه المتقن (٤).

وتفرد بنسخ المصاحف علي بن محمد بن مقلة (٣٢٨ هـ) وزير الخليفة العباسي المقتدر

---

(١) تاريخ ابي الفداء جزء ٣ صفحة ١٠٤ (٢) اخبار الدول لابي العباس القرماني : صفحة ٢٨٣ (٣) يذكرنا هذا الخبر بما رواه التاريخ عن تئوديوس الكبير ملك الروم (٣٧٩ـ٣٩٥م) انه كان في اثناء الفراغ من شؤون المملكة يكب في غرفته على نساخة الكتب ثم يبيعها وينفق اثمانها على معيشته الخاصة. (٤) رحلة ابن بطوطة : جزء ٢ صفحة ٢١

بالله. فقد وجدوا له بخطه الرائع مائة مصحف في مكتبة ابي نصر شابور (٣٢٦ – ٤١٠ هـ) ابن اردشير في الكرخ ببغداد (١). وفاق ابن مقلة في نسخ المصاحف ابو عبدالله الناسخ. وقد طالعنا عنه في « تاج العروس» انه كتب بخطه الف مصحف. ونسج على منوالهما كثير من قدماء الخطاطين كأبي عمر بن قدامة (٥٢٨ ٦٠٨ هـ) الذي نسخ الكتب الوافرة ولا سيما المصاحف.

وامتاز بنسخ المصاحف وزخرفتها الشيخ محمد نعسان الوردي الحموي في القرن الثالث عشر للهجرة. واثبت لنا ابن حفيده ان عدد ما نسخه منها أربى على مائة مصحف. وجاراه في ذلك ابنه الشيخ مصطفى نعسان وقد احرز شهرةً واسعةً في تنميق المصاحف ونساخة المصنفات القديمة.

ولم يكُ حظ النساء الخطاطات باقل من حظ الرجال الخطاطين في تحبير المصاحف. فقد طالعنا في كتاب « مرآة الأدوار » أن الخطاطة « بادشاه خاتون » نسخت من المصاحف الشريفة ما لا نظير له.

وذكر ابن فياض في تاريخه : « انه كان بالربض الشرقي في قرطبة بالأندلس مائة وسبعون امرأة يكتبن كلهن المصاحف بالخط الكوفي». فاذا كان ذلك كذلك في ربض واحد فكم كان من النساء الكاتبات في جميع ارباض قرطبة التي بلغ عددها ثمانية وعشرين رَبَضاً (٢).

ويشاهد زائر مكتبة القيروان الشهيرة في زماننا مصاحف قرآنية مزدانة بالزخارف مطعمةً بالذهب نقها انامل فتياتٍ مسلمات في العصور الغابرة. وكانت تلك الفتيات يتنافسن في تجويد الكتابة وتزويقها ويختمن كل مصحف بهذه العبارة: « هذا من صُنع وقلم فلانة بنت فلان قدمته هدية لخطيبها فلان بمناسبة الاحتفال بزواجهما» (٣). الى غير ذلك من نوادر منمقي المصاحف ومحبريها رجالا ونساء.

---

(١) معجم البلدان لياقوت الرومي : جزء ٢ صفحة ٣٤٢ والتاريخ الكامل لابن الاثير: جزء ١٠ صفحة ٣ (٢) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق مجلد ٢ سنة ١٩٢٢ صفحة ٢٦٥ (٣) المكتبات العربية في المملكة التونسية . مخطوطة بقلم البشير الفورتي : صفحة ١١ وهي في خزانة كتبنا

٦ ـ القرآن وعلماء النصارى

اقبل فريق كبير من أئمة النصارى وعلمائهم ومفكريهم في بلاد المشرق منذ العصور الغابرة على دراسة القرآن . فدققوا النظر في سُوَره وآياته . وامعنوا وتعمقوا في نواميسه وشرائعه ، ثم كتبوا عنه الشيء الكثير او القليل في تصانيفهم وفتاويهم الشرعية ، واتخذوه دستوراً في بعض القضايا والفرائض المدنية .

فاذا سرّحنا النظر في الملة النسطورية رأيناها قد ازهرت في عهد بني العباس وامتزجت بالخلفاء والامراء والمشترعين قبل سائر الملل النصرانية . ومن مشاهير النساطرة الذين درسوا القرآن وضوابطه وفرائضه في تلك الحقبة نذكر : آل بختيشوع الذين تولوا الطبّ في بلاط العباسيين ثلاثة قرون كاملة أعني منذ القرن الثامن حتى القرن الحادي عشر للميلاد (١) . ويوحنا بن ماسويه (+ ٨٥٧ م) رئيس اعظم مدرسة ازدحم الطلاب على ابوابها في دار الخلافة (٢) . ويعقوب الكندي (+ ٨٦١ م) فيلسوف العرب وسليل ملوك آل كندة (٣) . وحُنين بن اسحق (+ ٨٧٦ م) شيخ تراجمة الاسلام ورئيس الفلاسفة والاطباء في عهد المتوكل الخليفة العباسي (٤) . وأبا عيسى يحيي بن جزلة (+ ١٠٨٠ م) الطبيب البغدادي صاحب كتاب « المنهاج » وقد أسلم في آخر ايامه ووقف كتبه لمشهد الامام ابي حنيفة (٥). وموفق الملك بن التلميذ (١٠٨١ ـ ١١٦٤ م) الملقب بسلطان الحكماء (٦) خلف مؤلفات كثيرة منها كتاب اشتمل على احاديث نبوية (٧).

---

(١) طبقات الاطباء : لابن ابي اصيبعة ، جزء ١ صفحة ١٣٦ (٢) الآداب السريانية: تأليف روبنس دوفال : صفحة ٢٧٢ و ٣٨٦ (٣) زبدة الصحائف في اصول المعارف: تأليف نوفل نوفل : صفحة ٤٥ (٤) مجلة المنارة : سنة ١٩٣٥ صفحة ٨٥٢ (٥) تاريخ مختصر الدول : لابن العبري صفحة ٣٣٩ (٦) اعلام العلماء باخبار الحكماء لابن القفطي ـ وخريدة القصر للخزرجي (٧) طبقات الاطباء : لابن ابي اصيبعة : جزء ١ صفحة ٢٥٥

وتفرّغ بعض جثالقة (١) النساطرة واساقفتهم لانشاء قوانين مدنية لملتهم استمدوها من احكام القرآن وسُننه . ومن اقدمهم الجاثليق حنينيشوع الاعرج (٦٨٦ - ٧٠١ م) والجاثليق طيمتاوس الاول (٧٨٠ - ٨٢٣ م) والجاثليق ايليا الاول (١٠٢٨ - ١٠٤٩) والجاثليق ايليا الثالث المعروف بابي الحليم (١١٧٦ - ١١٩٠) صاحب الخطب العربية المشهورة . ثم عبد يشوع مطران الموصل مؤلف كتاب « تقسيم المواريث » في القرن الحادي عشر للميلاد . وعبد يشوع الصوباويّ (+ ١٣١٨ م) مطران نصيبين وهو مؤلف كتاب الشرع البيعيّ والمدنيّ المستعمل عند النساطرة لعهدنا هذا .

وتصدّى غير واحد من قدماء مؤرخي النساطرة لذكر القرآن وتأثيره في القبائل العربية وفي الشعوب المجاورة لها . اشهرهم برحدبشابا العربيّ اسقف حلوان بالعراق في القرن السابع للميلاد . ثم معاصره بَرْ فَنكايا المؤرخ (٢).

ولميخائيل الكبير بطريرك السريان (١١٦٧ - ١٢٠٠ م) عدّة احكام مدنية استخلصها من القرآن وجرى بموجبها ابناء ملته . وجاء بعده المفريان (٣) ابو الفرج ابن العبري (+ ١٢٨٦ م) فخلف فصولا ممتعة في الشرائع والفرائض اقتبسها من القرآن . وقد اثبت زبدتها في تاريخيه المدنيين ولا سيما في مؤلفه المشهور بكتاب « الهدى » وهو دستور تمشى عليه ابناء ملته في العصور الغابرة وما برحوا يسيرون باحكامه حتى اليوم . وخصص المؤرخ الرهاوي السرياني فصولا جمة في مؤلفه « تواريخ الأزمنة » بذكر القرآن ونواميسه واحكامه (٤) . وهذا المصنف الفريد قد نشره سنة ١٩٠٠ البطريرك العلاّمة افرام رحماني في مطبعة دير الشرفة .

وقام عند الموارنة في القرن الحادي عشر داود المطران فنقل عام ١٠٥٩ م عن السريانية الى العربية كتاب « الهدى » او « الهادي » وهو يتضمن نواميس شتى مستمدة من القرآن .

---

(١) الجثالقة جمع جاثليق: اعلى مرتبة دينية عند النساطرة والارمن (٢) نشر الفونس منكنا تاريخ برفنكايا عام ١٩٠٨ في الموصل (٣) المفريان رتبة دينية عند السريان وهي دون البطريرك وفوق المطروبوليت (٤) تواريخ الازمنة : للرهاوي : صفحة ١٤٢ - ١٤٣

ونبغ في الملتين الملكية والقبطية طائفة معتبرة من الكتّاب الأعلام تصدّوا لدرس القرآن. فمن الملة الملكية نذكر يعقوب بن صقلان ونفيس الدولة الدمشقي طبيب هولاكو. ولا سيما موفق الدين ابن المطران (٥٨٧ هـ) وقد اسلم في عهد صلاح الدين الأيوبي. فعلتْ منزلته عند هذا السلطان الى ما يشبه منزلة الوزارة والادلال حتى على الملوك. اما الأقباط فقد اشتهر بينهم في القرن الثالث عشر للميلاد ثلاثة اخوة من آل العسال وهم: الرئيس المؤتمن وابو الفرج هبة الله والصفي ابو الفضائل ماجد وغيرهم.

وقد اطلعنا على كتاب ثمين وضعه احد اجلاء الكهنة الشرقيين المعاصرين في « لغة القرآن » وعلاقتها باللغات السامية. فسرد كل ما في ذلك المصحف من اسماء وافعال وعبارات وتراكيب واصطلاحات وقابلها بتلك اللغات. ثم شرحها كلها شرحاً دقيقاً وحللها تحليلاً لغوياً محضاً. واعتمد في بحثه مشاهير كتبة الاسلام كالغزالي والجلالين والزمخشريّ والبيضاوي وغيرهم. ولم يفته في هذا الصدد ما كتبه اهلُ المعرفة والنقد من علماء الاستشراق في ديار اوروبا. ولسنا نعرف احداً قبل هذا البحاثة طرق موضوعاً مثل هذا الموضوع من علماء الشرق والغرب.

ونضم الى من ذكرنا اديباً نصرانياً يقال له نعوم البخّاش الحلبي عاش في القرن التاسع عشر وامتاز بخطه العربي الرائع. ومن بديع ما نمقته يراعته فاتحة القرآن فانه كتبها على حبة ارزّ (١).

واذا انتقلنا من الشرق الى الغرب رأينا رهطاً من نوابغ المستشرقين ينافسون المسلمين في درس القرآن وشرحه وتحليله. ويعتنون بتدوين تواريخه واكتناز مخطوطاته ويُبكرون الى ترجمته وطبعه. من ذلك ان المستعرب باباغانيني طبع القرآن في مدينة البندقية منذ القرن السادس عشر. وعُدّت طبعته هذه العربية باكورة طبعات القرآن برمتها.

---

(١) يومية نعوم البخاش : بقلم الاب فرديناند توتل: صفحة ٤

ونشرت مطبعة ليدن بهولندا سنة ١٦١٧ قصة يوسف اعني السورة الثانية عشرة من سور القرآن. وهي اول طبعة عربية أبرزتها مطابع اوروبا بالشكل الكامل(١)

ولم يقتصر علماء الاستشراق على طبع نصوص القرآن فقط بل وضعوا تآليف ضافية وافية في تفسيره وتعداد مزاياه. وتوسع قوم منهم في البحث عن «تاريخ القرآن» كالاستاذ بركتشريسر احد علماء المانيا (٢). ومن طرق الموضوع ذاته المستشرق اماري الايطالي (١٨٠٦ – ١٨٨٩). فانه صنف تاريخاً للقرآن شاركه فيه العلامة نولدكه وطبعه سنة ١٨٥٨ فأحرز جائزة المجمع العلمي بباريس (٣). وعاصرهما كاتب سياسي شهير يقال له برتلمي سنت هيلار (١٨٠٥ – ١٨٩٥) فصنف كتاباً عن القرآن وعن الدين المحمدي طبعه سنة ١٨٦٥ (٤).

وطبع المستعرب لويس ماراجي سنة ١٦٩٨ في بادوا بايطاليا تفاسير القرآن تأليف البيضاوي والزمخشري والسيوطي (٥). وحذا حذوه المستشرق فليشر (١٨٠١ – ١٨٨٨) فطبع تفسير القرآن للبيضاوي ١٨٤٦ في ليبسيك (٦)

وخصص المستشرق بوتيه (١٨٠٠ – ١٨٧٣) بالقرآن حقبةً طويلة من حياته فكتب فيه بحوثاً مستفيضة لم يُباره فيها كاتبٌ شرقاً وغرباً. وسرد عقائد سائر الاديان الموافقة او المخالفة له. والمع الى تأثير القرآن في الاجتماع والحضارة والى الأشهر والجمعات التي يقدسها والى غير ذلك (٧).

وطبع الدكتور لويس سبرنغر (١٨١٣ – ١٨٩٣) المستشرق النمسوي كتاب «الاتقان في علوم القرآن» تأليف جلال الدين السيوطي.(٨).

ووضع المستشرق رودلف دفوراك (+ ١٩٢٠) المتوفي في براغ عاصمة بوهيميا تأليفاً جديراً بالاعتبار بحث فيه الفاظ القرآن المعربة (٩).

---

(١) المشرق : مجلد ٣ سنة ١٩٠٠ صفحة ٨٣ (٢) المشرق مجلد ٣٣ سنة ١٩٣٥ صفحة ١٢١ (٣) المستشرقون : بقلم نجيب العقيقي صفحة ١٢٦ (٤) الآداب العربية في القرن التاسع عشر : للاب لويس شيخو : جزء ٢ صفحة ١٧٠ (٥) المشرق مجلد ٣ سنة ١٩٠٠ صفحة ٨٤ (٦) المستشرقون: صفحة ١٣٥ (٧) المستشرقون : صفحة ٩٣ - ٩٤ (٨) المستشرقون : صفحة ١٤٤ (٩) الآداب العربية في القرن العشرين : للاب لويس شيخو: صفحة ١٣٠

وتفرغ المستشرق المدقق اوتوبرتزل لدرس «علم قراآت القرآن» وتجويده وفهارس مخطوطاته ، وواصل تلك البحوث بجهود مستمرة حتى توفق الى العثور على ستة وخمسين مخطوطاً حفظت في احدى وثلاثين خزانة اكثرها في عواصم اوروبا . فوصف كل مخطوط على حدة وذكر منه اوله واشار الى لائحة فصوله . ثم رتب فهارس تلك المخطوطات ترتيباً علمياً وصدّرها بدرس متين في علم قراآت القرآن» ونشأته ومصادره. ونشر بحوثه الدقيقة في المانيا بين السنتين ١٩٣٣ و ١٩٣٤

ونشر العلامة نلينو (١٨٧٢ - ١٩٣٨) اشهر سور القرآن فرتبها ترتيباً تاريخياً محكماً . وعلق عليها الحواشي واردفها بمعجم يستعين به طلاب اللغة العربية الاوربيون . وقد سرد في كتابه هذا خلاصة البحوث الحديثة عن فقه اللغة العربية وعن أصل القرآن دون ان تفوته مقابلته بسائر اللغات السامية (١)

ونقل العلامة مرغليوث (١٨٥٨ - ١٩٤٠) الى لغته الانكليزية قسماً من تفسير القرآن للبيضاوي . وقد برهن في حله بعض المعاني العويصة على تضلع من اللغة العربية وعلى براعة غريبة فيها .

وممن خاض في درس الأبحاث الشرقية وتعمق فيها الأب هنري لامنس اليسوعي (١٨٦٢ - ١٩٣٧) . كتب في العرب والاسلام والخلفاء والسيرة النبوية معتمداً على القرآن (٢).

اننا اجتزأنا بذكر اليسير من بحوث اعلام النصارى وعلماء الاستشراق عن القرآن . ولو تحرّينا احصاء كل ما دوّنوه عنه في موسوعاتهم او نشروه في مجلاتهم او اثبتوه في تصانيفهم قديماً وحديثاً لتألف من ذلك خزانة من اهم خزائن الدنيا .

---

(١) المشرق : مجلد ٣٨ سنة ١٩٤٠ صفحة ٢١٣ (٢) المشرق : مجلد ٣٥ سنة ١٩٣٧ صفحة ١٦٩ - ١٧٠

٧ ـ طرائف عن مصاحف القرآن

لو شئنا ان نسرد كل ما ورد من الطرائف والنوادر عن مصاحف القرآن لانقضى العمر دون البلوغ الى الغاية. غير اننا نسترعي القراء لما ازمعنا ان نطرفهم به من بعض تلك النوادر فنقول :

ذكر ابن النديم في القرن الرابع للهجرة انه ارتحل الى الحديثة وهي مدينة بجوار الموصل. فرأى فيها عند رجل يقال له محمد بن الحسين مصحفاً بخط خالد ابن ابي الهياج صاحب علي بن ابي طالب . ورأى هناك ايضاً خطوط الامامين الحسن والحسين (١)

وروى سبط ابن الجوزي انه كان في جامع اصبهان قبل احتراقه سنة ٥١٥ للهجرة خمسمائة مصحف مكتوبة بخطوط بديعة مدبجة بصفائح الذهب والفضة : بينها مصحف خطه بيده أبي بن كعب بن قيس بن عبيد الخزرجي (٢) وهو الذي امره الخليفة عثمان ان يجمع القرآن فشاركه في جمعه (٣) . وكان أبي بن كعب حبراً من احبار اليهود ثم اسلم .

وكتب المقريزي ان خزائن قصر الفاطميين بالقاهرة اشتملت على الفين واربعمائة ختمة قرآن في ربعات بخطوط منسوبة جميلة مطعمة بذهب وفضة وغير ذلك (٤).

ومن اثمن ما وقع عليه نظرنا في القدس الشريف عام ١٨٩٣ مصحف بديع موشّى بالعسجد واللجين كتبه عبدالله ابن امير المسلمين ابي سعيد عثمان سلطان الجزائر. وهذا المصحف الذي يزين خزائن المسجد الاقصى مكتوبٌ بحبر احمر وازرق واخضر وقرمزي مُزج بالمسك والزعفران. يرتقي تاريخه الى سلخ ذي الحجة

---

(١) فجر الاسلام : لاحمد امين جزء ١ صفحة ١٩٧ ودائرة معارف القرن العشرين : مجلد ٢ صفحة ٧٠ ـ ٧١ (٢) مرآة الزمان للجوزي (٣) الاعلام : لخير الدين الزركلي. صفحة ٢٨
(٤) خطط المقريزي جزء ٢ صفحة ٢٥٤

سنة ٥٤٧ للهجرة (٢٨ آذار ١١٥٣ م). ولما سُرق هذا المصحف منذ بضعة اعوام قامت الحكومة الفلسطينية وقعدت للامر. وبثت العيون على اللصوص في جميع الامصار حتى عثرت سنة ١٩٣٦ على المسروق في حانوت احد تجار العاديات بالقاهرة. فاستولت عليه واعادته الى مركزه في خزائن المسجد الاقصى. ونضرب صفحاً عن ذكر مصاحف ثمينة مصونة في هذا المسجد اطلعنا عليها بذاتنا يتقادم عهدها الى ايام مماليك مصر وسلاطين آل عثمان (١).

وكان سنان باشا (١٠٠٤ هـ و ١٥٩٥ م) المهندس التركي الشهير من كبار المولعين بجمع نفائس المصاحف والمخطوطات. فقد خلف مائة وستين مصحفاً مرصعة بالدرر والجواهر. وكانت تلك المصاحف مع غيرها من الكتب الثمينة مصونة في خمس وثلاثين صندوقة مطعمة بالياقوت والمعدن (٢).

ومن طرائف ما يُروى عن عبد الرحمن الخولاني الحيرازي المتوفى سنة ١٠٠٣ للهجرة انه كان يقدس القرآن ويعظمه في امور ما خطرت ببال انسان قبله. فانه صنف تفسيراً للقرآن جمع فيه صناعات المصاحف باسرها وجعل ذلك القرآن اماماً يُقتدى به ويعوّل عليه. ثم استقصى ما في مصحف عثمان بن عفان وضم اليه ما لا اثر له في غيره. وبلغ به حرصه الشديد على اجلال القرآن ان اصطنع له بيده كاغداً وحبراً ممتازين ليكون طاهراً بالاجماع (٣).

ويرى المطالع نموذجات شتى من المصاحف النفيسة في دار الكتب المصرية وفي دار الكتب الأزهرية بالقاهرة. ويشاهد مثل ذلك ايضاً في دار الكتب الظاهرية بدمشق وفي دار الكتب اللبنانية في بيروت وفي غيرها من دور الكتب وخزائن المساجد. ويتجلى ذلك خصوصاً في مكة والمدينة واليمن وبغداد والنجف والموصل وحضرموت وطهران واصبهان وتبريز وتونس والقيروان والجزائر

---

(١) خطط الشام لمحمد كرد علي: مجلد ٦ صفحة ٢٠٠ ـ ٢٠١

(٢) خطط الشام، مجلد ٦ صفحة ١٩٤ (٣) خلاصة الاثر: جزء ٢ صفحة ٣٦٠

وفاس ومراكش ومكناس والاسكندرية واسطنبول وبروسة وادرنة وهلمّ جرّاً. وهذه المصاحف منمقة بصنوف الاقلام العربية بدءاً من القلم الكوفي الاصلي الى القلم البغدادي فالقلم الافريقي فالاندلسي فالريحاني فاليماني فالمزركشي حتى القلم الديواني والقلم القاعدي في عهدنا.

وبلغ تفنن المسلمين في كتابة القرآن وزخرفته ان نسخوه على اصغر حجوم الورق واوسطها واكبرها. فكتبه بعضهم بحجم البندقة او بيضة الدجاجة. وكتب غيرهم بعض سُوره على حبة ارزّ او حبة قمح. ونرى اليوم مصاحف لا يتجاوز حجمها سنتيمترين طولا وسمكاً وعرضاً مطبوعة وموضوعةً ضمن قماطر من عسجد او لجين او معدن آخر. زد عليه ان الاقدمين وشحوا فاتحة القرآن ورؤوس سوره واجزاءه واحزابه ببناء دقيقة الصنع مختلفة الالوان.

وكان في مكتبة مدرسة الامير جمال الدين الاستادار بالقاهرة عشرة مصاحف بديعة طول كل منها اربعة او خمسة اشبار في مثلها عرضاً. وكان احدُها بخط ابن البواب (٤١٣ هـ) والآخر بخط ياقوت المستعصمي (٦٩٨ هـ) وباقيها بخطوط منسوبة (١).

وفي خزانة كتبنا الخاصة مصاحف قرآنية نفيسة تفتن الابصار بفواتحها المذهبة واشكال خطوطها المستبدعة والوان زخارفها الرائعة بينها مصحف نادر مكتوب بحبر اسود تتخلل سطوره ترجمة القرآن باللغة الفارسية مكتوبة باللون الاحمر. وفي خزانتنا مصحف ثان دُبجت عناوين سُوره واجزاؤه كلها بحروف ذهبية والوان شتى واكتنفت صفحاته المستبدعة من اوله الى آخره باطار مطعم بالذهب. وفُصلت آياته جمعاء بنقاط ذهبية لماعة. ومما يزيد قيمة هذا المصحف الجميل الرائع انه رابع مصحف حبره ونمقه حافظ الخطاط الشهير. والى القارىء ما كتبه في آخر المصحف ضمن هالة بديعة يحيط بها غصنان مذهبان: «كتبه حافظ القرآن شهيد الدين الامام سرّ اقبال من تلاميذ سليمان الكاشفي اللهم اغفر

---

(١) خطط المقريزي جزء ٤ صفحة ٢٥٤

لي ولهم آمين سنة ثمان وثمانين ومائتين والف – المصحف الرابع » . وفي مكتبتنا كذلك مصحف ثالث طوله زهاء ثلاثة اشبار لا يقل عمره عن اربعمائة سنة . وُشي جلده بنقوش هندسية عربية مذهبة دقيقة الصنعة . وتعلو فاتحة هذا المصحف الثمين رسوم مدبجة بالوان لازوردية وخضراء . وهناك مصاحف شتى نادرة تؤلف اليوم متحفاً مستظرفاً في خزائن ابنتنا جان دي طرازي بباريس .

وروى عبد الرحمن الجبرتي عن الشيخ ابراهيم بن محمد سعيد الادريسي المتوفى سنة ١١٨٧ للهجرة (١) قوله : « كان قلمه كلسانه سيالاً . وربما شرع في كتابة سورة من القرآن وهو يتلو سورةً أخرى بقدْرها فلا يغلط في كتابته ولا في قراءته حتى يتمهما معاً » .

وكتب بعض المسلمين تفسير القرآن كله بالفاظ مهملة اعني خالية من النقاط (٢) واشهر من عُني بمثل هذا التفسير السيد محمود حمزة الحسيني (١٢٣٦ – ١٣٠٥ هـ) فانه انشأ للقرآن تفسيراً مطوّلا في مجلدين عنوانه « درر الاسرار » والتزم ان تكون كلمات التفسير كلها بحروف مهملة من اولها الى آخرها . ثم الف معجما مهملاً سماه « الكمل الى الكلام المهمل » للاستعانة به على التفسير المشار اليه (٣) .

واشتهر في عصرنا محمد علي بن بهاء الله زعيم الفرقة البهائية . فانه كتب بظفره كتابات ناتئة لا تقل جمالا وروعة عن كتابته بالقلم . وبرّز خصوصاً بما خطه بظفره على القرطاس من الآيات القرآنية والأمثال الحكمية . وتوفي شيخاً جليلاً سنة ١٣٥٥ للهجرة في « البهجة » بجوار عكا .

وفي مكتبتنا من الخطوط الناتئة قديمة وحديثة انواع واشكال نُقشت باظفار ناسخيها وعلى بعضها تواريخ نساختها ترتقي الى نحو مائتي سنة لعصرنا هذا .

٨ – ترجمات القرآن وطبعاتها

لسنا نعرف كتاباً عربياً أثار همم العلماء والباحثين في اربعة اقطار المسكونة

(١) عجائب الآثار في التراجم والاخبار جزء ١ صفحة ٣٧٩
(٢) رسالة السلام . مجلة الخورى انطون عقل في بيروت . سنة ١٥ صفحة ٧٧
(٣) تراجم مشاهير الشرق : لجرجي زيدان جزء ٢ صفحة ١٧٨

كما أثارها مصحف القرآن منذ صدر الاسلام حتى اليوم . تلك حقيقة صادقة لا تفتقر الى برهان يسندها او حجة تدعمها. وهذه الهمم شملت المسلمين وغيرهم على السواء فأكبوا على تلاوته وبالغوا في دراسته. ولم يَذَروا آية من آياته او لفظة من الفاظه او معنى من معانيه الا شرحوها وتبحروا في تأويلها ودققوا في تحليلها .

وكان السباقون في نقل القرآن الى مختلف اللغات منذ العصور الغابرة احبارُ النصارى ورهبانهم وقسانهم . وقد عثر بعضهم منذ القرن الثالث عشر للميلاد في جامعة مونبليه بفرنسا على ترجمة القرآن باللغة اللاتينية . والغريب ان ناقل هذه الترجمة راهب من رهبان النصارى مولود في جزيرة صقلية يقال له دومينيك جرمان. وقد تولى المستشرق دافيك نشر تلك الترجمة في المجلة الآسيوية بباريس (١).

والاغرب من ذلك ان ابن الصليبي مطران ديار بكر (+ ١١٧٢ م) في القرن الثاني عشر للميلاد سبق الراهب دومينيك المشار اليه فنقل الى اللسان السرياني آيات جمة من القرآن ضمها في مؤلف خاص انطوى على ثلاثين فصلاً في مائة واربع واربعين صفحة كبيرة (٢) . وقد نشر عام ١٩٢٥ احد تلك الفصول الفونس منكنا (+ ١٩٣٧) نقلاً عن مخطوطة المتحف البريطاني بلندن واردفها بترجمة انكليزية. ويتقادم عهد تلك المخطوطة السريانية الى سنة ١٧٦١ يونانية الموافقة للسنة ١٤٥٠ للميلاد .

واطلعنا نحن على ترجمة سريانية للقرآن كاملة لا تقل قدماً عن الترجمتين المذكورتين . وهي مخطوطة نادرة افلتت من نكبة هائلة اجتاحت مدينة الرّها واهلها عام ١١٤٥ للميلاد يوم احتلها زنكي ملك الموصل (٥٤٢ – ٥٩١ هـ). ويتبادر الى الظن ان مترجم تلك النسخة القرآنية العريقة هو باسيل مطران الرها الذي كان من ابرع كتاب تلك الحقبة وابلغهم .

وممن تطرق من رجال الدين المسيحي في عهدنا الى ترجمة القرآن القس دَيل

---

(١) المستشرقون: صفحة ٣١ (٢) كتاب الجدل : مخطوطة مكتبة البطريركية السريانية ببيروت

راعي الكنيسة في زنجبار. فانه نقل القرآن الى اللغة السواحلية المستعملة في تلك الأرجاء ثم طبع تلك الترجمة عام ١٩٢٣ في لندن عاصمة الانكليز.

ونرجح ان كثيرين من احبار النصارى وقسانهم سوى مَن ذكرنا نقلوا القرآن الى لغاتهم للوقوف على سنن الدين المحمدي ومعارضتها بسنن الدين المسيحي. ونعتقد ان تلك الترجمات محفوظة كلها او بعضها في خزائن الاديار او في دور الكتب شرقاً وغرباً.

وتفرد علماء الاستشراق خصوصاً بتعمقهم في درس القرآن وترجمتهِ وشرحهِ وطبعهِ. فنقلوه الى لغاتهم نقلاً محكماً حتى اصبح في استطاعة الأدباء غير العرب ان يقتنوه ويتصفحوه ويتفهموه. واقدم ما عرفناه من تلك الترجمات الأوروبية المختلفة ترجمة ايطالية وضعها عام ١٥٤٧ المستشرق اندريا اريفابين (١). وتلتها ترجمات وطبعات غيرها احصينا منها مائة وعشرين ترجمة في خمس وثلاثين لغة شرقية وغربية. وقد طبعت تلك الترجمات بتوالي الأزمان وتكرر طبع بعضها مراراً لرواج سوقها بين العلماء وارباب البحث.

واوفر الترجمات والطبعات عدّا هي الترجمات الانكليزية فالفرنسية فالالمانية فالايطالية. فترجمات القرآن الانكليزية مثلاً وهي احدى عشرة ترجمة بلغت طبعاتها اجمالا ستين طبعة، منها اربع وثلاثون طبعة لترجمة جورج سيل وحدها، تليها ترجمات القرآن الفرنسية وعددها ثماني ترجمات بلغت طبعاتها اجمالا سبعاً واربعين طبعة، منها اثنتان وعشرون طبعة لترجمة كزيميرسكي وحدها. تليها ترجمات القرآن الالمانية وعددها ثلاث عشر ترجمة بلغت طبعاتها اجمالا ثلاثاً وعشرين طبعة. منها تسع طبعات لترجمة المستعرب اولمان فقط. تليها ترجمات القران الايطالية وعددها اثنتا عشرة ترجمة طبع منها اجمالا احدى وعشرون طبعة لا غير.

وهناك خمس ترجمات للقرآن في كلٍ من اللغات: الفارسية والتركية

---

(١) غرائب الغرب: لمحمد كرد علي جزء ١ صفحة ٢٤٤ - ٢٤٥

والاسبانية والهولندية والارمنية والبنغالية .

تليها اربع ترجمات للقرآن في كل من اللغات الصينية والبنجابية والغوجدانية ثم تليها ثلاث ترجمات للقرآن في كل من اللغات : اللاتينية والروسية والاسوجية .

تليها ترجمتان في كل من اللغات : الافغانية والبولونية والمجرية والدنمركية والسريانية والقشتلانية والسندية .

اخيراً ترجمة واحدة للقرآن في كل من اللغات : اليونانية والبلغارية والسربية والروتانية والالبانية والبرتوغالية والهندوكية واليابانيـــة والجاوية والاردوية والسواحلية .

تلك خلاصة اثبتناها هنا بعدما تقصينا البحث عن ترجمات القرآن وطبعاته في الموسوعات والتآليف والفهارس والمجلات العلمية الموثوق بها .

٩ ـ متاحف القرآن

لم يكتف علماء الاستشراق بترجمات القرآن وطبعاته على ما فصلنا بل هبوا منذ القرن المنصرم الى احياء العلوم القرآنية وتعزيزها من جميع مناحيها . فاخذوا يستنهضون هِمم اهل المعرفة والنقد ليدرسوا ويستجلوا غوامضهـــا ويعمموا نشرها في الآفاق . وقد نشطتهم الدول الاوروبية الى ذلك وساعدتهم مساعدة ادبية ومادية . فأسست الجوامع الفخمة في اشهر العواصم وكبريات الحواضر . وأدرّت الارزاق لأئمة الدين وخدام العلم، ومهدت امامهم السبل للبلوغ الى الهدف المنشود .

ولنا أصرح مثال على ذلك ما سعى اليه وحققه المجمع العلمي في بافاريا . فانه اخـــذ على عاتقه النهوض بجمع المخطوطات والنوادر المنطوية على نص القرآن وعلى تاريخه وعلومـه وشروحه وعلى كل ما يتعلق به . فحشد ارباب ذلك المجمع مصنفات وافرة احتوى بعضها على نسخ خطية اصلية وانطوى البعض الآخر على

لوحات او صفائح فوتوغرافية نقلوها عن مصادرها . وانشأوا من تلك المجموعات الثمينة متحفاً قرآنياً وحيداً في بابه كبير القيمة يُدهش العقول ويلفت الابصار . واستأنفوا بعد هذا ينتقون من تلك الذخائر الخطية والشمسية أجودها وأفضلها وأفيدها وينشرونه على نفقة المجمع اعلاءً لشأن المعارف (١).

الى هنا خلاصة البحث عن « القرآن » ولا بد لي من الاقرار والتقرير بانه ليس الا قطرةً من بحر . لكنه فيما اعتقد بحث جديد جدير بالاعتبار فاستقيته من مناهل صافية ونقلته عن مصادر وثيقة صادقة . ولم اقصد في عملي الا تنبيه من تحدثه النفس ليطرق هذا الباب ويتبسط في درس اصوله وفروعه . و « ان الفضل بيـــد الله يؤتيه من يشاءُ والله ذو الفضل العظيم » (٢).

---

(١) مجلة « الرسالة » في القاهرة : لاحمد حسن الزيات : سنة ٥ صفحة ٤٣٧

(٢) القرآن : سورة الحديد ٢٩

الفصل الثالث

الحالة الفكرية في بلاد المشرق قبل الفتح العربي

١ - دواعي انتشار الروح العلمية في المشرق

لما افتتح العرب الاقطار الممتدّة من وادي النيل الى شواطىء دجلة كانت هذه الديار زاهرة بالعلوم وحافلة بالمكتبات وآهلة بالمدارس التي ذاع صيتها في الخافقين. وكان لسكانها نصيب وافر من الرقي بدليل من برّز بينهم من العلماء الاعلام والمؤلفين العظام الذين لا يُحصى لهم عدد. فكان جو هذه الامصار الشاسعة ولا سيما سوريا ومصر وما بين النهرين معبّقاً بالروح العلمية التي انتشر عرفها بين اكثر طبقات الشعب لا في المدن فحسبُ بل في الدساكر ايضاً.

وممّا ساعد على هذه النهضة الفكرية تفشّي البدع الدينية في المِلّة النصرانية وثوران المجادلات المذهبية بين فرقها. فاستمرت تلك المنازعات قروناً وكلّ منها مستند الى نظريات منطقية وتعليلات فلسفية الف فيها علماء كل فرقة ورؤساؤها ومفكروها كتباً شتى في الاثبات والانكار والدفاع والدحض.

٢ - النزاع الديني بين نصارى الشرق وتشعبهم

بدأ هذا النزاع الديني اولا على شرح الكتاب المقدس بين مدرستي الاسكندرية وانطاكية الشهيرتين. وتفاقم الاختلاف على قضايا اخرى حتى امتد الى كثير من المدارس والكنائس في مصر وفلسطين وسوريا وفونيقيّ وما بين النهرين والعراق وبلاد فارس وغيرها. ثم شمل النصرانية كلها في الاقطار المشرقية. فانقسم بسبب

ذلك رؤساء المسيحيين وملوكهم بعضهم على بعض. وتبع كلا منهم فريق من الانصار يؤيده في رأيه ويناضل عن مذهبه. هكذا تعدّدت الفرق الدينية في الشرق لكن اكثرها تلاشى بتعاقب الازمنة كالبرديصانية والمانوية والمرقيونية والشميشاطية والبيلاجية والابوليناربة والآريوسية الخ. ولم يبق منها الا الاسم. ثم تبعتها فرق اخرى لم تزل بالرغم مما اصابها من النكبات والمناهضات حية حتى الزمان الحاضر. ولكل من هذه الفرق اتباع يتميزون بشرائعهم ودساتيرهم ولغاتهم الطقسية ورئاساتهم الدينية كالنساطرة واليعاقبة والموارنة والملكيين ومن ينتمي اليهم او يتشعب من بعضهم.

٣ـ تحزب النصارى السريان للعرب الفاتحين ضد قياصرة الروم

وكان التطاحن الديني الذي اشرنا اليه الأن اقوى ذريعة لتسهيل الفتوحات العربية في الامصار المذكورة. ذلك لان الفرق المخالفة في اللغة والجنس والمعتقد لقياصرة الروم اصحاب السيادة على القسم الاكبر من هذه البلاد كانت تعمل على النكاية باولئك القياصرة وتنتصر للعرب اعدائهم وتحالفهم وتتودد اليهم. ولنا على صحة هذا القول ادلة راهنة نثبت منها رواية سعيد بن بطريق المتطبب بطريرك الاسكندرية الملكي (+ ٩٤٠) عند كلامه عن فتح العرب لمدينة دمشق سنة ٦٣٥ قال: «نزل خالد بن الوليد باب الشرقي... وعمر بن العاص باب توما... واقاموا الحصار على دمشق ستة اشهر الآيوم... فلما اجهد اهل دمشق الحصار صعد منصور (١) عامل دمشق على الباب الشرقي فكلم خالد ابن الوليد ان يعطي الامان له ولأهله ولمن معه ولأهل دمشق سوى الروم حتى يفتح ابواب دمشق (٢)

---

(١) هو منصور بن سرجون وجد القديس يوحنا الدمشقي. وكان منصور من السريان المنوثليتيين. وقال الاب لامنس: (المشرق ٢٩: ٤٨١-٤٨٥) اما اصل منصور بن سرجون فهو عربي النصف سرياني النصف الآخر (٢) تاريخ سعيد بن بطريق جزء ٢ صفحة ١٤

ونضيف الى شهادة البطريرك سعيد بن بطريق شهادة اخرى لا تقل عنها شأناً دوّنها ميخائيل الاول الكبير (+ ١٢٠٠ م) البطريرك الانطاكي على السريان . فانه لمّا اتى على وصف مظالم قياصرة الروم في عهد هرقل الملك قال ما ترجمته :

« ولهذا فان الله اله النقمات... لما رأى عتوّ الروم ودهاءهم... بعث من ارض الجنوب ابناء اسماعيل كي يحصّل لنا النجاة بواسطتهم من ايدي الروم... فاستفدنا من ذلك فائدة كبرى. لاننا تحررنا من ظلم الروم ومن مساوئهم ومن سخطهم ومن شديد بغضهم لنا وتمتعنا بالطمأنينة (١).

وكان لهذه الانقسامات تأثير شديد على السياسة لامتزاجها بالدين عند تلك الفرق المسيحية . وقد أفضى الامر احياناً الى خروج فرق باسرها من حوزة الروم الى دولة الفرس لما كان بين هاتين الدولتين من العداوة القديمة والتنازع على الاستبداد ببلاد المشرق . على ان الروم والفرس بينما كانوا منهمكين بالحروب والمشاحنات كان العرب يجمعون صفوفهم ويتهيأون لفتح بلاد هاتين الدولتين العظيمتين . فتم لهم ذلك ولم يلبث ان تبدل وجه الشرق سياسةً ولغةً وديانةً وعلماً بتضاؤل دولتي الروم والفرس اللتين خلفتهما دولة العرب .

---

(١) تاريخ ميخائيل الكبير صفحة ٤٢٠

الفصل الرابع

ثقافة شعوب البلاد التي فتحها العرب

١ لغات الشرق حين الفتح العربي

بحثنا في الفصل السابق عن مجمل الحالة الفكرية في بلاد المشرق قبل الفتح العربي . والآن هلمّ بنا نبحث بوجيز الكلام على ثقافة سكان تلك البلاد قبل ذلك الفتح وفي صدر الاسلام. وهي حقبة غنية بنوابغ العلماء الذين رفعوا منار الشرق بمصنفاتهم الكثيرة وآثارهم الخالدة . وكل من أنعم النظر في الوف المدارس والاديار (١) التي كانت تعزز العلم اتضحت له مكانة مكتباتها المشحونة بذخائر المؤلفات في شتى المواضيع العقلية والنقلية . وناهيك عدداً غفيراً من الجهابذة نبغ في تلك المعاهد حيث كانت تدرّس العلوم باللغتين اليونانية والسريانية في البلاد الخاضعة لصولجان قياصرة الروم وهي سوريا وما بين النهرين . وكانت تدرّس اللغتان الفارسية والسريانية في مدارس الاقطار الواقعة تحت سلطة اكاسرة الفرس. اما القطر المصري فكانت العلوم تُلقى في مدارسه باللغتين القبطية واليونانية. وبعد الفتح العربي أضيف الى اللغات المذكورة تدريس اللغة العربية مجاراة للفاتحين.

---

(١) لم تكن الاديار في سالف الاحقاب مختصة بالعبادة فقط بل كانت في الوقت ذاته محورا للثقافة . لان كل دير كان بمثابة مدرسة يتلقى فيها طلاب العلم عن الرهبان وغيرهم اصول العلوم الدينية والادبية . وكان في كل دير مكتبة يختلف اليها سكانه للمطالعة والتأليف ونساخة الكتب .

٢ ـ مدارس الاسكندرية وانطاكية وبيروت

في طليعة تلك المعاهد التعليمية نذكر مدرسة الاسكندرية الشهيرة التي عاصرتها مدارسُ اخرى ذائعةُ الصيت في طرسوس ورودس وبرغاموس وغيرها. وظلت الاسكندرية دار العلم والحكمة في مصر حتى تغلب عليها العرب واختط عمرو بن العاص مدينة الفسطاط فجعلها عاصمة وادي النيل. وقد امتاز عدة اعلام من اساتذة تلك المدرسة ما لبثوا ان جعلوا الاسكندرية حاضرة الآداب ومحجّ العلماء على رغم ما انتابها من التقلبات في عهد خلفاء بطليموس مؤسس مدرستها.

وكانت مدرسة الاسكندرية تعتني باللغة السريانية اعتناءها باللغتين القبطية واليونانية كلتيهما. فكان العلماء يجيدونها هناك قراءة وكتابة كاخوانهم في بلاد الشام والعراق (١).

ولم تكن تقلّ عن مدرسة الاسكندرية شأناً مدرسة انطاكية التي تثقف فيها جهابذة مشاهير كيوحنا الذهبي الفم (+ ٤٠٧ م) تلميذ ميليطس البطريرك الانطاكي. ومن نوابغ تلامذتها ايضاً تئودوريط اسقف قورش ونسطور بطريرك القسطنطينية (٤٢٨ ـ ٤٤٠ م) وتئودورس وديودرس الطرسوسي وغيرهم.

وبعد هاتين المدرستين الجامعتين نذكر مدرسة الحقوق في بيروت حيث درس رهط عظيم من الفقهاء ومهرة الكتّاب. نخص بالذكر منهم بمفيل الفيلسوف البيروتي مؤسس المكتبة الثمينة في قيسارية فلسطين (٢). والشهيد امفيان وشقيقه اوسبيوس وساويرا الذي تولى الكرسي الانطاكي (+ ٥٣٨ م) وزميله زكريا الملطي البليغ والمؤرخ الشهير (٣).

---

(١) ضحى الاسلام : لاحمد امين : جزء ٢ صفحة ٩٥

(٢) تاريخ سوريا : للمطران يوسف الدبس : مجلد ٤ صفحة ٦٥

(٣) مجلة (الشرق المسيحي) الفرنسية : مجلد ٤ صفحة ٣٤٣ ـ ٥٤٣ ومجلد ٥ صفحة ٧١ و ٢٩٣

٣ ـ مدارس المدائن ودير قنى في العراق

من أقدم المدارس وأشهرها في العراق العربي مدرسة المدائن عاصمة الدولة الفرثيّة . وكانت تُعرف قبل ذلك باسم سليق وقطسفون . وفيها نبغ ططيانس الذي شهد له ايرونيمس واوسابيوس القيصري بان له تصانيف لا تُحصى . وهو ناقل الاناجيل الاربعة بين السنة ١٥٢ و ١٧٣ للميلاد وقد جعلها انجيلًا واحداً سماه « دياطسرّون» . وشاع هذا الكتاب حتى السنة ٤٣٥ م فألقي في زوايا النسيان . واتصلت بنا ترجمته العربية التي نقلها ابو الفرج ابن الطيّب (+ ١٠٤٣ م) ونشرها المستشرق شياسكا الايطالي عام ١٨٨٨ في رومة . ثم جدد طبعها عام ١٩٣٥ ببيروت العلاّمة الاب مرمرجي احد اساتذة المدرسة الكتابية والآثارية الفرنسية في القدس .

ومن تلامذة مدرسة المدائن ارخلاوس الكشكريّ (+ ٢٦٠ م) صاحب التآليف المشهورة التي وصفها ابن العميد وغيره .

اما دير قُنّى فاسمٌ لمدينة كانت مجاورة للمدائن ، وكان موقعها على مسافة ستة عشر فرسخاً من بغداد كما ذكر ياقوت الحموي (١) . واشتهرت دير قُنى بمكتبتها القديمة ومدرستها العامرة التي انجبت فئة من الجهابذة نذكر منهم : الفطرك آحا (٤١٠ – ٤١٥ م) . ومتّى بن يونس المنطقي النسطوري الذي اشتهر في عهد خلافة الراضي (٩٣٤ – ٩٤٠ م) . وقد ذكره محمد بن اسحق النديم في كتابه وقال : اليه انتهت رئاسة المنطقيين في عصره ومصره (٢). وممن انتسب الى دير قُنى محمد بن علي القنّائي وكان من مشاهير جمّاعي الكتب المذهبة والمبطنة بالديباج والحرير (٣) وسيأتي ذكره في غير هذا المكان.

---

(١) معجم البلدان : جزء ٢ صفحة ٦٨٧

(٢) تاريخ مختصر الدول : صفحة ٢٨٥

(٣) صلة الطبري : صفحة ٩٠ – ٩٦

٤ ـ مدرسة الرها واشهر العلماء المنتسبين اليها

من اشهر المدارس مدرسة الرها التي تأسست في القرن الثاني للمسيح واقفلت عام ٤٨٩ بامر من زينون الملك. ومن نوابغ طلبتها نذكر برديصان (١٥٤-٢٠٢) صاحب كتاب «شرائع البلدان». ثم وافا الفيلسوف الذي ذكره انطون التكريتي في كتابه «الفصاحة والخطابة والشعر». واوسابيوس الحمصي (+٣٥٩) الذي درس اولا في الرها ثم ارتحل الى مدرسة انطاكية فمدرسة الاسكندرية عام ٣٣٢ وقد اثبت هيرونيميس اسمه في كتاب « مشاهير الرجال »

وتولى التدريس في مدرسة الرها افرام الكبير (+ ٣٧٣) صاحب التصانيف الرائعة الوافرة . وخلفه في منبر التعليم ربوّلا (+ ٤٣٥) ثم قيّورا (+ ٤٣٧) ثم ايبيا (+ ٤٥٧) ثم نونا. ومن مشاهير الائمة الذين ينتسبون الى هذه المدرسة او تخرجوا فيها منذ عهد تجدّدها عام ٣٦٣ الى سنة اقفالها نذكر فولونا وارواد وشمعون وآبا وابرهيم واسحق الآمدي الذي سافر الى رومة في اواخر القرن الرابع وشاهد فيها الكابيتول ووصفه وصفاً بليغاً. ومنهم اسحق الانطاكي (+ ٤٦٠) الذي انشأ تآليف جمّة معظمها بالشعر. وقد نشر منها قسماً وافراً الدكتور بيكل النمساوي ويوحنا شابو الفرنسي وبولس بيجان (١). ونذكر منهم ايضاً زينوب واقاق ومعنا وبرصوما النصيبيني وماري الفارسي. وفي المدرسة عينها درس نرساي (+ ٥٠٧) الملفان النسطوري. ويعقوب السروجي (+ ٥٢١) مؤلف الرسائل البليغة والميامر النفيسة . وفيلكسين المنبجي (+ ٥٢٣) واخوه ادّى . وكوما وفروبا واسطفان بن صديلي الرهاوي وغيرهم كثيرون.

٥ ـ مدرسة نصيبين وكبار جهابذتها

بعد مدرسة الرها اشتهرت مدرسة نصيبين التي تعززت عام ٣٢٥ بعناية العلامة

---

(١) المخطوطات العربية لشيخو صفحة ٢٩

الكبير يعقوب النصيبيني (+ ٣٣٨). فجعل استاذاً لها تلميذه افرام الملفان الذي انقطع الى التدريس فيها مدة خمس وثلاثين سنة ثم غادرها الى الرها . وقد أقفلت هذه المدرسة عام ٣٦٣ حتى جدّدها بعد مائة وستة وعشرين عاماً نرساي (+ ٥٠٧) العلامة النسطوري عندما أمر زينون (٤٧٤ - ٤٩١) قيصر الروم باقفال مدرسة الرها عام ٤٨٩ .

واستمر نرساي متولياً ادارة مدرسة نصيبين بعد عهد تجديدها الى تاريخ وفاته . فخلفه الاستاذ اليشع (+ ٥٠٩) ثم ابرهيم الربّان (+ ٥٦٩) الذي تولى التعليم فيها مدة ستين سنة . وبلغت المدرسة في عهد رئاسته أوج مجدها حتى صار عدد الدارسين فيها لا يقل عن الالف طالب . وولي بعده يشوعيهب الحديابي سنة ٥٦٩ فابرهيم سنة ٥٧١ فيوسف الاهوازيّ فحنانا الحديابي سنة ٥٧٥ وكان عدد تلامذة المدرسة في عهده زهاء الثمانمائة (١) . وخلفه في رئاسة المدرسة بولس سنة ٥٨٣ ثم ابرهيم الكشكري (+ ٥٨٨) العلاّمة الشهير . وكان قد شيّد قبل ذلك مدرسة معتبرة في جبل الازل بطور عبدين . وجاء بعده يشوع (+ ٦٠٤) ثم باباي الكبير (+ ٦٢٧)

وقد أنجبت مدرسة نصيبين أعلاماً من العلماء لا يُحصى لهم عدد نذكر منهم مَن يلي : آبا جاثليق المشرق (+ ٥٥٢) . ثم سهدونا الذي استصحبه يشوعيهب الجاثليق في رحلته الى القسطنطينية عام ٦٣٠ لزيارة هرقل الاول (٦١٠ - ٦٤١) قيصر الروم . وخلف سهدونا (+ ٦٦٠) مؤلفات جليلة طبع بعضها العلاّمة بيجان سنة ١٩٠٢ في باريس . ثم عننيشوع الذي ارتحل الى صعيد مصر حيث

---

(١) المكتبة الشرقية للسمعاني مجلد ٣ قسم ١ صفحة ٨١

عكف على الدرس والتأليف ، وقد طبع له العلاّمة بيجان سنة ١٨٩٧ بعض الكتب النفيسة . وما عدا من ذكرناهم فقد اشتهر في هذه المدرسة كتبة عديدون دوّن عبديشوع الصوباوي (+ ١٣١٨) اسماءهم في ميمره الكبير الذي نشره يوسف سمعان السمعاني في المكتبة الشرقية وعلّق عليه .

٦ - مدارس تل عدا وقنسرين وقرقميس ونوابغها

في ضواحي انطاكية قامت مدرسة « دير تل عدا » ويقال له الدير الكبير. وكان مهد المعارف في العصور النصرانية الاولى وظل على زهوه الى القرن العاشر . وفيه درس كثير من أقطاب العلم نروي منهم من يأتي : يعقوب الرهاوي (+ ٧٠٨) الذي خلّف كثيراً من المؤلفات الرائعة لاسيما فصوله في منطقة البروج وحركات الافلاك والمعادن والانهار والمظاهر الجوّية (١) . واشتهرت في ضواحي انطاكية مدرسة بنطاليمون ومدرسة دير طورلاها وغيرها في جبل الاسود . ومدرسة « دير سمعان » التي لاتزال آثاره ماثلة بين حلب وانطاكية . ومدرسة « دير الّجب الخارجي » حيث تلقّى العلوم بعض أحبار اليعاقبة ومشاهير كتّابهم كبولس الثالث (+ ٥٧٥) وبطرس الثالث خليفته وايليا (+ ٧٢٣) واثناسيوس الثالث (+ ٧٤٠) وغيرهم .

ومن المعاهد العلميّة الذائعة الصيت مدرسة قنّسرين التي ابتناها يوحنا بن افتونيا (+ ٥٣٨) بجوار حلب وتولّى التعليم فيها اعواماً عديدة . ونبغ من تلامذتها يوليان الثاني (+ ٥٩٥) واثناسيوس الاول (+ ٦٣١) . وتوما الحرقلي الذي نقّح او نقل سنة ٦١٦ كتاب الاناجيل عن اليونانية وعرفت ترجمته بالترجمة الحرقلية. ومنهم ثئودور (+ ٦٧٧) . ولا سيما الفيلسوف الكبير ساويرا سابخت الذي تولّى رئاسة هذه المدرسة نحو السنة ٦٤٠ . وامتاز بما صنّفه من التآليف العلمية

---

(١) المخطوطات العربية لشيخو صفحة ٢١٥

النادرة في الحساب والفلك والاسطرلاب والكسوف والخسوف والبروج والمنطق والفلسفة واللاهوت وغيرها . وهو الذي ادخل الارقام الهندية عند السريان وعنهم نقلها العرب واصطلحوا عليها الى اليوم (١) ومنهم اثناسيوس بلدي (+ ٦٨٨) تلميـــذ ساويرا سابخت المشار اليه . ويوليان الثالث (+ ٧٠٩) وجورجي الاول (+ ٧٩٠) والمؤرخ الرحّالة ديونوسيوس التلمحري (+ ٨٤٥)

ونضيف الى ما سلف تدوينه مدرسة قرتمين المشيدة عام ٣٩٧ في طور عبدين وسيأتي الكلام عنها وعن مكتبتها في فصل لاحق. وفيها تلقى العلوم اثناسيوس الرابع (+ ٧٥٨) وخليفته في الكرسي الانطاكي تئودسيوس (+ ٨٩٥) مؤلف كتاب الطب المعروف باسمه . وفي قرتمين عينها ذاع صيت يوحنا مطرانها الذي جـــدد عام ٩٨٨ الكتابة السطرنجيلية التي سبق العرب فبنوا عليها قاعدة خطهم الكوفي (٢).

٧ ـ سائر الكتبة في الامصار التي افتتحها العرب

قام في الشرق عدد عظيم من نوابغ المؤلفين غير من أثبتنا اسماءهم . وحسبنا

---

(١) اثبت المستشرق نو نقلا عن مخطوط باريس السرياني رقم ٣٤٦ لمؤلفه ساويرا سابخت وهو يحتوي في الصفحة ١٧٠ على ذكر الاعداد العشرية الهندية ما شرحه «ان العرب لم ينقلوا الارقام الهندية من بلادها رأساً وانما اخذوها من السريان كما توصلوا الى علوم اليونان بواسطتهم ايضاً . ولولا السريان لفات العرب معارف كثيرة». المشرق ١٤ (١٩١١) ٢٣٩

(٢) من المقرر ان القلم السطرنجيلي نشأ في القرن الاول للتاريخ المسيحي. وخصصه السريان بكتابة اسفار الاناجيل المقدسة كما يستفاد من اصل وضع لفظه ومن وفرة نسخ الاناجيل المكتوبة به والمصونة في اشهر مكتبات الدنيا . وقد اثبت السيد اقليميس يوسف داود المعروف بدقة نظره واتساع علمه هذه الحقيقة في مقدمة كتابه (اللمعة الشهية) . ثم عم استعمال القلم السطرنجيلي في اغلب المخطوطات حتى اقتبسه العرب قبل الهجرة بمائة سنة . وكان الخط السطرنجيلي من دواعي النهضة العربية وعنه تخلف الخط الكوفي . وكلا الخطين السطرنجيلي والكوفي متشابهان متقاربان . (تاريخ التمدن الاسلامي مجلد ٣ صفحة ٥٣).

ان نشير الى بعضهم كافرهاط الحكيم (+ ٣٣٧) مؤلف كتاب البراهين. واوسابيوس القيصري (+ ٣٤٠) اقدم المؤرخين الكنسيين. وشمعون برصبّاعي (+ ٣٤٠) وبابو (+ ٣٤٣) واولغاش (+ ٣٦١) وباسيليوس الكبير (+ ٣٧٣) وغريغوريوس النزينزي (+ ٣٨٩) وماروثا الميافرقيني (+ ٤٢٠) الطبيب الشهير والمؤرخ الكبير. وكيرلس الاسكندري (+ ٤٤٤) وتئودوريط القورشي (+ ٤٥٨) المؤرخ الجليل. وسرجيس الراس‌عيني (+ ٥٣٦) كان إمام عصره في الطب والمنطق والفلسفة والترجمة . واحرز شأناً معتبراً لدى اقطاب السياسة وسافر بمهمات خطيرة الى انطاكية وروما والقسطنطينية فنجحت مساعيه. وقد خلف ثروة علمية كبيرة نكتفي منها بذكر كتابه في المنطق والفلسفة الذي يملك المتحف البريطاني في لندن نسخة منه قديمة العهد جداً .

وفي السنة ٥٦٠ للمسيح اشتهر حنّان الحديابي الذي الف كتباً كثيرة . وقال عنه عبديشوع الصوباوي « انه كان يقرأ عليه زهاء ثمانمائة طالب » . ومن علماء القرن السابع يوحنا ازرق الذي صنّف كتباً شتى ومائتين وثمانين رسالة . وايسيدورس ناظر مكتبة بطريركية الاسكندرية في اوائل القرن السابع ايضاً (١) . وتئوفيل الرهاوي (+ ٧٨٥) كبير المنجّمين في الدولة العباسية ومترجم الياذة هوميروس بالشعر السرياني. وبرحدبشابا العربي. وبود البريذوط ناقل كتاب « كليلة ودمنة » من الهندية الى السريانية.

ومن مشاهير العلماء المشارقة بطرس الرقي (٢) (+ ٥٩١) وماروثا التكريتي (+ ٦٤٩) تلميذ مدرسة الشيخ متى بجوار الموصل . ويوحنا صاحب السذرات

---

(١) المشرق مجلد ١٤ (١٩١١) صفحة ٦٣٨

(٢) نسبة الى مدينة الرقة الواقعة على شاطئ الفرات

(+ ٦٤٩) وجورجي اسقف العرب (+ ٦٨٨). ويوحنا الدمشقي (+ ٧٤٩) الذي انقطع الى التآليف الفلسفية واللاهوتية والموسيقية . وقد نُقلت تصانيفه هذه الى اللغة العربية منذ عهد بعيد. ومنهم انطون التكريتي الملقب بالفصيح. وتوما المرجي مؤلف كتاب « الرؤساء » وكان من مشاهير المؤرخين في عصره. ويشوع دناح البصري في اواخر القرن الثامن. وقد نشر تآليفه المستشرقان يوحنا شابو وبولس بيجان في باريس . وموسى بن كيفا (+ ٨٣٣) صاحب التصانيف الجمة وتلميذ مدرسة بلد بين سنجار والموصل.

الفصل الخامس

احصاء بعض مدارس النصارى واديارهم في صدر الاسلام

من الادلة الراهنة على ثقافة شعوب البلاد التي افتتحها العرب ما كان منتشراً فيها من المدارس العامرة او الاديار الزاهرة . وقد ذكرنا في الفصل السابق امهات تلك المدارس ومشاهير اساتذتها وفريقاً من المتخرجين فيها. اما الان فاننا نسرد احصاءً موجزاً لتلك المعاهد العلمية في صدر الاسلام وبعده مستندين في كلامنا الى ما رواه المؤرخون الثقات عرباً وغير عرب .

١ ـ مدارس الرها وطور عبدين واسيا

اثبت المؤرخ الرهاوي الذي عاش في القرن الثاني عشر للميلاد ثمانية اديار او مدارس بمدينة الرها في القرن الرابع . ثم استتلى قائلًا : « انه كان اذ ذاك في جبل الرها تسعون الف راهب» (١). وايد القلقشندي هذه الرواية عند ذكره مدينة الرها اذ قال (٢) : « وكان بها كنيسة عظيمة وفيها اكثر من ثلاثمائة دير ».

اما مدارس سائر بلاد ما بين النهرين واديارها فمنها : واحد وثلاثون ديراً في ماردين وضواحيها (٣) . ومنها اكثر من مائة مدرسة او دير في جبل الازل

---

(١) تاريخ الازمنة : للرهاوي : فصل ٤٣ صفحة ١٠٦ و ١٠٨ طبعة دير الشرفة

(٢) صبح الاعشى : للقلقشندي : مجلد ٤ صفحة ١٣٩

(٣) لمعه تاريخية في اديار ماردين (المشرق مجلد ١٢ سنة ١٩٠٩ صفحة ٧٦٠-٧٧٠)

وطور عبدين (١) بالجزيرة . وابتنى يوحنا الافسوسي مطران اسيا المؤرخ الشهير في عهد الملك يوسطنيان (٥٢٧ - ٥٦٥ م) اثني عشر ديراً او مدرسة (٢)

٢ ـ مدارس انطاكية وافاميا ودمشق وحلب وضواحيها

اثبت مخطوط المتحف البريطاني المنسوخ في القرن السادس للميلاد اسماءَ مائة واربعة وعشرين مدرسة او ديراً ضم اليها اسماءَ رؤسائها واحداً فواحداً . وكانت هذه المعاهد منتشرة في انحاء انطاكية واطراف دمشق (٣) .

ولا يسعنا السكوت عن دير مار مارون الذائع الشهرة الذي كان مشيّداً على شاطيء العاصي بجوار افاميا . وقد وصفه المسعودي في القرن العاشر للميلادبقوله : « ان هذا الدير كان شرقي شيزر ... بقرب نهر الارنط نهر حمص وحماة » (٤) . وأيد هذه الحقيقة المستشرق « نو » الفرنسي اذ قال: «ان دير القديس مارون كان قريباً من افاميا في وادي العاصي » (٥) وكان يسكن هذا الدير يوم عزّه ثمانمائة راهب من افاضل العلماء . ونجمل الكلام عن دير مار مارون بما اثبته المسعودي اذ قال (٦): «ودير مارون بنيان عظيم حوله اكثر من ثلاثمائة صومعة فيها رهبان. وكان فيه من آلات الذهب والفضة والجوهر شيء عظيم فخرب هذا الدير وما حوله من الصوامع بتواتر الفتن». وذكر ابن العميد (+ ١٢٧٣ م) في تاريخه ان هرقل

---

(١) سياحة في طور عبدين : للخوري اسحق ارملة : من الصفحة ١ ـ ٦٨

(٢) تاريخ ميخائيل الكبير : صفحة ٢٢٤

(٣) فهرس مخطوطات المتحف البريطاني : رقم ٧٥٤ صفحة ٧٠١ - ٧١٤

(٤) التنبيه للمسعودي : صفحة ١٦٣

(٥) Opuscules Maronites : II, 22

(٦) التنبيه : للمسعودي صفحة ١٩٣

قيصر (٦١٠ – ٦٤١ م) زار عام ٦٣٨ م دير مار مارون ووقف عليه اوقافاً جمة (١) .

وهناك الى جانب افاميا اديار او مدارس عديدة اشهرها دير بسّوس وكان عدد رهبانه ستة آلاف وثلاثمائة راهب (٢). وذكر المؤرخ ثاودريط ديراً بقرب افاميا يقال له دير «نقيرتا». وقد شيّد فيه اغابيط معهدين كبيرين لتعليم «الحكمة السماوية» وجمع فيهما فوق المائتي راهب (٣) .

واشتهرت المدارس والاديار في ضواحي دمشق الشام كداريا وصيدنايا ومعلولا وتل الاكراد وكفرسوسة وحلبون وكفرحور وراشيا وبيتيما ودير عطية وقارا وبيرود والنبك والقريتين وغيرها. ومن اشهر تلك الاديار دير مار ايوني ودير مار توما ودير باعنتل ودير ماران وكان المسلمون ينزلونها ويسكنون في بعضها (٤)

وقس على دمشق مدينة حلب الشهباء وكان بينها وبين انطاكية عدد وافر من المدارس والاديار كمدارس مار سمعان وترعيل وتل عدا الخ الخ .

٣ـ مدارس النصارى واديارهم في بلاد العرب

أحصى ياقوت الرومي في معجمه ويشوعيهب الحديابي في تاريخه وغيرهما من المؤرخين المسلمين والنساطرة اسماء اديار كثيرة في انحاء البلاد العربية. من جملتها

---

(١) مجموعة الآباء : تأليف (مين) : جزء ٩١ صفحة ١٠٨٩ وتاريخ ابن العميد : مخطوطة دير الشرفة رقم ١٦ ـ ٤

(٢) دير مار بسوس : تأليف شابو صفحة ٦١

(٣) مجموعة الآباء : تأليف (مين) : جزء ٨٢ صفحة ١١٣٨

(٤) محاضرات المجمع العلمي العربي بدمشق : جزء ١ صفحة ٣٤٣

اثنا عشر ديراً او مدرسة في الحيرة وحدها (١) وسرد غير واحد من المؤرخين اسماء ثلاث وعشرين مدرسة في كركوك وكشكر والبصرة ومرو (٢).

وعدد المؤرخ توما المرجي في « كتاب الرؤساء » اسماء اربع وعشرين مدرسة أسسها باباي (+ ٦٢٨) الكبير. وروى المؤلف عينه ان باباي المذكور ابتنى ستين مدرسة في اطراف مرجا بجوار الموصل. وجعل لها اساتذة وعين لهم الرواتب وكان يختلف اليها مرتين في السنة (٣).

واثبت المؤرخ يشوع دناح البصري في القرن الثامن للميلاد اسماء اكثر من مائتي دير او مدرسة مع نتف من تراجم رؤسائها. وكانت تلك الاديار اوالمدارس مشيدة في قلب بلاد العرب واطرافها (٤).

٤ ـ مدارس النصارى واديارهم في القطر المصري

لم تكن الاديار والمدارس في القطر المصري مما يستهان بكثرتها ووفرة رهبانها المنصرفين الى الدرس والعبادة. فقد روى الانبا مكاريوس في تاريخه الخطّي ان عدد اديار الرهبان والراهبات بلغ الستمائة في عهد الانبا بطرس الرابع (٥٦٧ – ٥٦٩ م) بطريرك الاقباط الاسكندري (٥) .

وقال المقريزي انه كان قديماً في وادي هُبيب اي وادي النطرون غربي مصر مائة دير للرهبان . وانه لم يبقَ منها في ايامه اعني في القرن الخامس عشر للميلاد

---

(١) تاريخ كلدو وآثور : تأليف آدي شير : جزء ٢ صفحة ٢٦٨

(٢) تاريخ كلدو وآثور : جزء ٢ صفحة ٢٦٩

(٣) كتاب الرؤساء : لتوما المرجي : ميمر ٣ راس ٣ صفحة ١٤٥ - ١٤٦

(٤) كتاب العفة : تأليف يشوع دناح طبع باريس سنة ١٩٠١

(٥) وادي النطرون : للامير عمر طوسون صفحة ١٦١

سوى سبعة اديار عامرة. وصرح المقريزي عينه في خططه(١) انه «خرج الى عمرو بن العاص من هذه الديارات سبعون الف راهب بيد كل راهب منهم عكاز. فسلموا عليه وكتب لهم كتاباً هو عندهم». ثم ذكر المقريزي (٢) ايضاً ان الانبا بيشاي تلميذ الانبا شنودين او شنوده «صار من تحت يده ثلاثة آلاف راهب». وكانت اوقاف هذا الدير تقدّر بمبلغ سبعة وستين الفاً واربعمائة وسبعين جنيهاً(٣)

٥ ـ شهادة احمد امين على مدارس السريان واديارهم ومكتباتهم

قال الاستاذ البحاثة السيد احمد امين في كتابه «ضحى الاسلام» ما نصه (٤):
«وكان للسريان في ما بين النهرين نحو خمسين مدرسة تُعلم فيها العلوم السريانية واليونانية، اشهرها مدرسة الرها ونصيبين وقنّسرين. وكانت هذه المدارس يتبعها مكتبات ... وكان في الاديار السريانية كثير من الكتب المترجمة لا في الآداب النصرانية وحدها بل كان من ذلك ايضاً تراجم لمؤلفات ارسطو وجالينوس وابقراط. لان هؤلاء كانوا محور الدائرة العلمية في ذلك العصر. وكان السريان نَقَلة الثقافة اليونانية الى الامبراطورية الفارسية ايام الساسانيين واخذت هذه البذرة اليونانية في الازدهار حتى ايام العباسيين».

***

تلك نظرة قصيرة القيناها على المدارس النصرانية في الاقطار التي افتتحها العرب. وقد نقلناه عن تآليف العرب والاقباط والسريان واليونان قديماً وعن تصانيف الافرنج حديثاً. فعلى من شاء التوسع في هذا الموضوع ان يراجع تلك التآليف وامثالها فيستفيد ويفيد.

---

(١) الخطط للمقريزي: جزء ٢ صفحة ٥٠٨
(٢) الخطط للمقريزي: جزء ٢ صفحة ٥٠٧
(٣) الاقباط في القرن العشرين: تأليف رمزي ثادرس: جزء ٤
(٤) ضحى الاسلام: لاحمد امين: جزء ٢ صفحة ٥٩ ـ ٦٠

الفصل السادس

نقل العلوم الدخيلة الى اللسان العربي

١ ـ لغة الدواوين الرسمية على أثر الفتح العربي

بعد حلول العرب في الامصار الواسعة التي اشرنا اليها في فصل سابق ظلّ هؤلاء في بادىء الامر على بداوتهم واستخدموا الوطنيين من اهل الذمة في مناصب حكومتهم. فكانت اليونانية لغة دواوينهم في بلاد سوريا وما بين النهرين كما كانت في عهد مملكة الروم. وظلت الفارسية لغة دواوينهم في العراق وفارس مثلما كانت في عهد دولة الفرس. واستمرت القبطيـــة لغة دواوينهم في مصر على ما كانت عليه في ايام دولة الرومان. ولم ينقض القرن الاول للهجرة حتى استتبت سيادة العرب فجعلوا العربية لغة دواوينهم الرسمية واضطروا رعاياهم في كل الانحاء الى مكاتبتهم بها بدلا من اليونانية والفارسية والقبطية.

٢ ـ حاجة العرب الى علوم الاعاجم

شعر ابناء الصحراء بعدامتزاجهم بالاعاجم ذوي الثقافة العالية انهم لا يستطيعون توطيد ملكهم الضخم وتأييـد عزّهم الفخم الا اذا كانوا عـلى مستوى واحـد في الحضارة والادب مع الامم التي اغاروا عليها فاكتسحوها. وايقنوا انهم لا يتيسر لهم مجاراة تلك الامم الا اذا تحضروا مثلها واقتبسوا علومها ونقلوها الى لسانهم العربي. وقد رسخ في اذهانهم انهم بتعزيزهم هذا اللسان يضمنون السيادة في ممالكهم كما يضمنون سيادة لغتهم التي هي لغـة القرآن كي لا يعروهـا وهن او انحطاط. فعوّلوا على ترجمة العلوم الدخيلة وظلت هذه الفكرة تختمر في اذهانهم شيئاً فشيئاً مذ عهد بني اميّة حتى اقرّوها بالعمل في دولة بني العباس.

واثباتاً لما كانت عليه الحالة العلمية عند العرب من الخمول والتقهقر نروي ما دوّنه القاضي ابو القاسم صاعد بن احمد بن صاعد الاندلسي (١) قال : « وكانت العرب في صدر الاسلام لا تُعنى بشيء من العلم الا بلغتها ومعرفة احكام شريعتها حاشا صناعة الطب. فانها كانت موجودة عند افراد من العرب غير منكرة عند جماهيرهم لحاجة الناس طراً اليها... فهذه كانت حالة العرب في الدولة الاموية. فلما ازال الله تعالى تلك الدولة بالهاشمية وصرف الملك اليهم ثابث الهمم من غفلتها وهبت الفطن من سِنتها. فكان اول من عُني منهم بالعلوم الخليفة الثاني ابو جعفر المنصور عبدالله بن محمد بن علي بن عبدالله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم...».

٣ ـ ما اقتبسه العرب من العلوم الدخيلة

يُراد بالعلوم الدخيلة جميع العلوم الشائعة في الامصار التي فتحها العرب في القرن السابع للمسيح. وهي زبدة المعارف التي محصها الفلاسفة والعلماء والادباء على اختلاف اديانهم ونحلهم وبلدانهم ولغاتهم منذ العصور القديمة حتى الفتح الاسلامي. وفي تلك الزبدة تنحصر علوم الامم الغابرة كالاشوريين والبابليين والآراميين والمصريين والفنيقيين والحثيين والفرس واليونان والرومان والهنود الخ. ولا نعني بهذا القول ان العرب اقتبسوا علم كل امة عن ائمته توّاً. لكننا نقول انهم اخذوا تلك العلوم بعدما تمحصت ونضجت وارتكزت على قواعد ثابتة. واجتمع معظمها على كرور الازمنة عند اليونان خصوصاً فهذّبوها ورقّوها وزادوا عليها وجعلوها قريبة التناول. ثم احرز العرب تلك العلوم عن طريق الترجمة كما سنبيّنه فيما بعدُ. فاحسنوا انتقاء الافضل منها واستخرجوا من ذلك كلهِ علوم التمدّن الاسلامي. وقد نقلوا من علوم تلك الامم في قرن وبعض القرن ما لم يتوفّق الرومان الى نقل بعضه في قرون شتّى.

---

(١) كتاب طبقات الامم : الباب الرابع : ٧

٤ ـ رُسل المأمون الى بلاد الروم في جمع الكتب

اول من جمع اليه العلماء والفلاسفة لتحقيق هذه الامنية كان الخليفة العربي ابو جعفر المنصور (١٣٦ – ١٥٨ هـ) الذي بنى مدينة بغداد واتخذها سريراً للدولة العباسية . واشتهر بعده بل تفوّق عليه الخليفة السابع عبد الله المأمون (١٩٨ – ٢١٨ هـ) بن هرون الرشيد . فانه وجه اهتمامه الى اعلاء شأن العلم وتكريم ذويه بما لايدخل تحت الوصف . ولأجل ذلك بعث رسله وارصاده الى البلاد الخاضعة لصولجان ملوك الروم ليجمعوا له ما دوّن القدماء في العلوم والفنون والصناعات التي كانت مجهولة عند العرب. فاختاروا منها كل مفيد في الهندسة والفلسفة والطب والفلك والرياضيّات والكيمياء والموسيقى وغيرها . وبين الذين انفذهم المأمون لجمع الكتب كان ثلاثة من جهابذة النصارى وهم يوحنا بن البطريق والحجاج بن مطر وابو زكريا يوحنا بن ماسويه .

وكان احد شروط معاهدة الصلح بين المأمون وبين ميخائيل الثالث قيصر الروم ان يتنزل الثاني للاول عن احدى المكتبات الشهيرة في القسطنطينية . وكان بين ذخائرها الثمينة كتاب بطليموس في الفلك . فأمر المأمون بنقله الى اللغة العربية وسماه «المجسطي» (١)

٥ ـ اهتمام المأمون بالعلوم الدخيلة واجلاله للعلماء

تمّ للمأمون ما اراد فاستدعى نوابغ المترجمين الاعاجم وقربهم اليه وافاض

---

(١) اسم المجسطي غريب وكان عنوانه باليونانية (مجيالي سنتاكسيس) قيل ان العرب اخذوا نصف الاسم الاول (ميجا) ثم نصف الثاني (كسيس) فقالوا : ميجاكسيس ثم حولوه فقالوا : المجسطي. (نقلا عن محاضرات المستشرق اغناطيوس غويدى في الجامعة المصرية عام ١٩٠٨ و ١٩٠٩ : صفحة ١٠ - ١١)

عليهم المنح والعطايا، ورتب لهم الدواوين في « بيت الحكمة » واطلق لهم الحرية ليكبوا على العمل بانتظام . ثم عهد في تعريب العلوم الدخيلة الى الخبراء بلغاتها بلوغاً الى الغاية المنشودة . فترجموا له كتب افلاطون واريسطو وابقراط وجالينوس واقليدس وبطليموس وغيرهم من الفلاسفة على غاية ما امكن من الدقة والامانة . ثم حض الادباء على مطالعتها ورغّبهم في تعلمها واذاعتها. هكذا نفقت سوق الآداب وتعززت دولة الفلسفة والطبابة في ايامه . وتنافس ألو النباهة في اقتباس المعارف على اختلاف انواعها (١)

وجرى على خطة المأمون اكثر خلفائه فرفعوا شأن اللغة العربية بين سائر اللغات . ولولا المأمون لغاب عن ابناء الضاد كثير من العلوم المدّونة باللغات اليونانية والسريانية واللاتينية والعبرية والفارسية والهندية وغيرها . وبالتالي فان علماء اوروبا انفسهم مديونون للمأمون بالفضل لانه حفظ لهم كتباً جمّة صُنّفت في لغاتهم ثم فقدوها بتوالي الايام . ولو لم تُنقل تلك المصنفات الى العربية بعناية هذا الخليفة لطمسها الزمان كما طمس غيرها من كتب الاوائل مما سمعنا به ولم نرَه .

ومن اشهر تلك الكتب وانفسها واقدمها كتاب « الفلاحة النبطية » الذي انشأه ابن وحشيّة الكلداني ثم ترجم الى اللسان العربي في صدر الدولة العباسية .

ومما يؤثر عن المأمون انه لشدّة ولعه بالعلم والصناعة كان يتعاطاهما بنفسه وينشط المفكرين في رعيته الى الاستفادة منها . وكان مجلسه لايخلو من الحكماء والعلماء والشعراء على اختلاف مللهم وتشعّب نحلهم . فكان يحببهم اليه ويشملهم برعايته ويكرّمهم في بلاطه . وكان اذا صرفهم من مجلسه او من خدمته استوحش مؤانستهم . وكانوا هم بدورهم يغتبطون كل الاغتباط بقربه ويستأنسون كل الاستئناس بعشرته وملاطفته .

---

(١) مآثر العرب في العلوم الطبية : للدكتور سامي حداد : صفحة ١٥

الفصل السابع

مصادر العلوم الدخيلة ومشاهير نقلتها

تُقسم الكتب العربية التي نقلها علماء الاعاجم بعد الفتح الاسلامي الى اربعة مصادر نسردها كما يلي : الهندي والفارسي واليوناني والسرياني

١ ـ الكتب الهندية ومعربوها

فالكتب الهندية المترجمة الى اللغة العربية قد اثبت التاريخ بين مشاهير نقلتها اسماء العلماء الآتي ذكرهم : اولهم منكه الهندي وكان مع اسحق بن سليمان بن علي الهاشمي ينقل من اللغة الهندية الى العربية. ثانيهم ابن دهن الهندي وكان اليه مرستان البرامكة نقل ايضاً من الهندي الى العربي (١). ثالثهم يحي البرمكي ثم صنجهل وشاناق وغيرهم .

وفي ايام ابي جعفر المنصور قدم بغداد قوم من علماء الهند ومعهم كتاب جليل في النجوم وضعه قدماء تلك البلاد يُدعى «السندهند» وفي السنسكريتية «سيدهنتا». فتقدم المنصور الى ابي اسحق ابرهيم بن حبيب الفزاري (٢) فعرّبه له . قال ابن النديم (ص ٢٧٣): «هو اول من عمل في الاسلام اسطرلاباً وعمل مبطحاً ومسطحاً. وله من الكتب كتاب القصيدة في علم النجوم وكتاب الزيج على سني العرب وكتابان في العمل بالاسطرلاب ذات الحلق والمسطح» . وقيل ان الذي عرّب «السندهند» هو محمد بن موسى الخوارزمي عرّبه للمامون. والارجح انه صححه فقط.

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية : مجلد ٢ صفحة ٣٣

(٢) في مجلة الضياء ٢ : ٣١ « محمد بن الفراوي » وهو غلط

قال صاحب الفهرست (ص ٢٧٤): « وكان الناس قبل الرصد وبعده يعوّلون على زيجيه الاول والثاني ويُعرفان بالسندهند» (١)

٢ - الكتب الفارسية ومعربوها

اما نَقلة كتب الفرس فقد اورد التاريخ في مقدمتهم اسم عبدالله بن المقفّع (١٠٦ - ١٤٢ للهجرة) الذي ترجم كليلة ودمنة عن الفارسية (٢). وألف ابن المقفّع كتاب « سير ملوك العجم » وكتاب « الادب الكبير » وكتاب « الادب الصغير » وغيرها. ومن مشاهير النَقلة عن الفارسية ابو العباس بن درستويه، وابو معشر البلخي، وحبيش الحاسب، واحمد بن كثير الفرغاني. ومنهم ابناء موسى الخوارزميو النحلة، وعلي بن زياد التميمي، وموسى ويوسف ابنا خالد، والحسن بن سهل، واسحق بن يزيد، وجبلة بن سالم، واحمد بن يحيى البلادري، وموسى بن عيسى الكردي، ومحمد بن الجهم البرمكي.

وممن امتاز بنقل تآليف الفرس يحيى بن خالد البرمكي الفارسي الاصل الذي سعى في جمع الكتب من الهند واعتنى بترجمة بعض العلوم الفارسية والهندية الى اللسان العربي (٣). ثم آل نوبخت وقام منهم ابو الفضل سهل بن نوبخت فانه نظم كتاب « كليلة ودمنة » شعراً. وجاء بعده الفضل بن نوبخت الذي نقل كتباً شتى في النجوم وغيرها.

ولا يخفى ان فريقاً من النَقلة عن اللغة الفارسية كانوا من النصارى وكان البعض الآخر من المسلمين الاعاجم. وقد حبب اليهم هذا العمل اعجابهم

---

(١) المشرق: مجلد ٣ سنة ١٩٠٠ صفحة ٦٧٤ و ٦٧٥

(٢) وضع هذا الكتاب اول بدء بالهندية. ثم نقله برزويه المتطبب الى الفارسية وعن الفارسية نقله ابن المقفع الى العربية

(٣) دائرة معارف القرن العشرين لمحمد فريد وجدي: مجلد ٨ صفحة ٦٧

بلغتهم الفارسية ومفاخرتهم بنقل مؤلفات أجدادهم الى اللسان العربي الذى احكموا معرفتهُ وملكوا ناصيتهُ . ومُعظم الكتب التي نقلوها عن الفارسية محورها الادب والشعر والتاريخ والتنجيم والموسيقى والحساب والصناعات وغيرها .

٣ ـ الكتب اليونانية والسريانية ومترجموها

اما التصانيف اليونانية والسريانية فقد تولى ترجمتها علماءُ فطاحل من السريان النساطرة واليعاقبة والملكيّين والصابئة الذين تخرّجوا في مدارس الاسكندرية وانطاكية والرها ونصيبين والمدائن والحيرة وقنّسرين ودير تلعدا وقرقيسيا وجنديسابور وغيرها. وكانت لهم ثقافة راسخة تستند الى الادب استنادها الى العلم. فكانوا في مجالسهم يتداولون شتّى المواضيع الأدبية ويتناشدون المقاطيع الشعريّة في اللغات العربية والسريانية واليونانية .

انصرف هؤلاءِ الجهابذة الى الترجمة والتأليف اناءَ الليل وأطراف النهار لا يأخذهم كلال . لانهم احكموا ضوابط اللغات المشار اليها ووقفوا على اوابدها وشواردها . وصنّفوا وعرّبوا كتباً جديرةً بالاعتبار في كل علمٍ وفنٍ ومطلبٍ . ولم يدّعوا وسيلة الاّ استنفذوها لاعلاء شأن العلوم العربية في عهد الخلافة العباسية التي خدموها بامانتهم ومعارفهم واصالة رأيهم .

واحصى المؤرخون تلك التصانيف الرائعة ووصفوها وصفاً بليغاً. كأبي الفرج الوّراق الشهير بان النديم في «الفهرست» . وجمال الدين القفطيّ (٥٦٣ – ٦٤٦ هـ) في « اعلام العلماء باخبار الحكماء » . وابن ابي اصيبعة موّفق الدين (٦٦٨ للهجرة) الطبيب المؤرخ في كتابه «عيون الانباء في طبقات الاطباء» . وابي الفرج ابن العمريّ (١٢٨٦ م) في « تاريخ مختصر الدول» ومُلاّ كاتب المشهور بابن خليفة (١٠٠٤ – ١٠٦٧) للهجرة) في «كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون»

والاب لويس شيخو (١٨٥٩ – ١٩٢٧) في كتابية «المخطوطات العربية لكتبة النصرانية » . وجرجي زيدان (١٨٦١ – ١٩١٤) في كتابه « تاريخ التمدّن الاسلامي » و « تاريخ الآداب العربية » ويوسف ليان سركيس في كتابه «معجم المطبوعات العربية والمعرّبة » الخ الخ .

٤ – آل بختيشوع في بلاط العباسيين

تعاقب الرجالات من آل بختيشوع منذ القرن الثامن حتى القرن الحادي عشر في خدمة الخلفاء العباسيين وطبابتهم واولهم جرجيس (+ ٧٦٩ م) بن بختيشوع وكان رئيس اطباء جنديسابور ببلاد الفرس. استقدمه ابو جعفر المنصور من عيلام فعالجه جرجيس وشفاه . ونقل هذا الرئيس كثيراً من كتب اليونان والسريان والفرس الى اللغة العربية.

اما ثاني اطباء هذه الأسرة فكان بختيشوع بن جرجيس طبيب هارون الرشيد. وثالثهم جبرائيل (+ ٨٢٨ م) بن بختيشوع طبيب المأمون. وكان يقبض رواتب نقدية بعضها من بيت مال العامة والبعض الآخر من بيت مال الخاصة. وقد بلغ المجموع السنوي لتلك الرواتب ما يوازي في عهدنا اربعة ملايين وتسعمائة الف دينار كما وجدوه مدوناً بخط كاتبه (١).

ورابع آل بختيشوع طبيب طلحة بن جعفر المتوكل. وخامسهم بختيشوع بن يوحنا (+ ٩٤١ م) طبيب الخليفة المقتدر . وسادسهم جبرائيل بن عبيد الله بن بختيشوع (+ ١٠٠٥ م) صاحب الكناش الذي اسماه « الكافي » وكتبه في خمسة مجلدات. وسابعهم بختيشوع ابو سعيد عبيدالله بن جبرائيل (+ ١٠٣٢ م) وثامنهم عبيد الله بن جبرائيل بن بختيشوع (+ ١٠٥٨ م) الذي صنف في الطب وغيره كتبا وافرة. منها كتاب « تذكرة الحاضر وزاد المسافر » (٢)

---

(١) طبقات الاطباء : لابن ابي اصيبعة : جزء ١ صفحة ١٣٦

(٢) نشر هذا الكتاب القس بولس سباط في القاهرة سنة ١٩٢٧

فهؤلاء الاطباء آل بختيشوع صنفوا في اللغة العربية اسفاراً منطقية وطبية وفلسفية احصى الاب لويس شيخو طائفة منها في كتابه « المخطوطات العربية لكتبة النصرانية » فلا نرى حاجة الى تعدادها .

٥ ـ ثئودورس ابو قرة وثئوفيل الرهاوي ومعاصروهما

من مشاهير المؤلفين في اللغة العربية الفصحى ومن كبار تراجمتها نذكر ثئودورس ابا قرّة (+٨٢٠م) تلميذ يوحنا الدمشقي واسقف حرّان الملكي. وهو منشىء الميامر البليغة وصاحب المجادلات مع شيوخ المسلمين بحضور الخليفة المأمون. وله جدال ايضاً مع ابي رائطة اليعقوبي وعبديشوع النسطوري . ولابي قرّة في المتحف البريطاني خطبة دينية في مخطوط نُسخ سنة ٨٧٧ للميلاد . وذهب الاب لويس معلوف اليسوعي الى ان هذا المخطوط هو اقدم مخطوط عربي نصراني على الاطلاق (١) . لكننا بعد البحث والتنقيب ثبت لنا ان اقدم مخطوط عربي نصراني يرجع تاريخ نسخه الى السنة ١٥٥ للهجرة الموافقة للسنة ٧٧١ للميلاد، اعني مائة وخمس سنوات قبل تاريخ مخطوط لندن . وهو مصون في مكتبة دير سينا (٢) وسنتكلم عنه في بحثنا عن هذه المكتبة في الفصل السادس من الباب الخامس .

وممن اشتغل باللغة العربية بعد ابي قرّة نذكر : عيسى بن شهلاثا ، وعيسى الصيدلاني طبيب المهدي ، وثئوفيل بن توما الرهاوي (+ ٧٨٥ م) رئيس منجمي الخليفة المهدي . ويشوع بن نون (+ ٨٢٠ م) الجاثليق . وطيمتاوس الكبير (+ ٨٢٣ م) الجاثليق الذي عرض

---

(١) المشرق : مجلد ٦ سنة ١٩٠٣ صفحة ١٠١١

(٢) مكتبة دير سينا : بقلم يسىّ عبد المسيح (مجله الراعي الصالح بالاسكندرية : مجلد ١ سنة ١٩٤٠ صفحة ٤٩)

عليه الخليفة المهدي سبعة وعشرين سؤالا عن النصرانية فأجابه عليها (١) . ويوحنا بن البطريق الملقب بالترجمان . وجبرائيل الكحال طبيب العيون وكان طبيباً للمأمون . والحجّاج يوسف بن مطر الذي ازهر في القرن التاسع للميلاد وعدّد ابن النديم منقولاته (٢) . ومن تلك المنقولات العديدة كتاب « اصول اقليدس » وكتاب « المجسطي » لبطليموس.

ونضم الى هؤلاء التراجمة عبدالمسيح الحمصي في عهد الخليفة المعتصم (٨٣٣-٨٤٢م) ثم ايوب الابرش الطبيب الذي عاش في القرن التاسع للميلاد . فانه نقل كتباً من مصنفات اليونانيين الى اللغتين العربية والسريانية (٣) .

٦ - يوحنا بن ماسويه وثقة العباسيين بطبابته وامانته

من اشهر مشاهير النقلة ابو زكريا يوحنا بن ماسويه (+٨٥٧ م) طبيب اربعة من الخلفاء العبّاسيين اعني المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل الذين عالجهم وطبب مرضاهم . وكان ابو زكريا رئيس اعظم مدرسة ازدحم الطلاب على ابوابها في دار السلام (٤) . وعدّد ابن ابي اصيبعة (٥) تآليف هذا العلامة التي بلغ عددُها اكثر من اربعين مؤلفاً لم يبقَ منها الا الكتب الآتي بيانُها وهي : كتاب «نوادر الطب» وكتاب «الكامل في الطب» وكتاب « الحميّات » تُرجم الى اللاتينية والعبرانية . وكتاب «جواهر الطب » وكتاب «ماء الشعير» وكتاب «الادوية المسهلة» . وكان الخلفاء المشار اليهم لايتناولون طعاماً الا بحضرته لشدة ثقتهم بامانتهِ ومهارته . وكان مجلسُه ببغداد اعمر مجلسٍ يجمع الطبيب والفيلسوف والاديب والظريف (٦) .

---

(١) المخطوطات العربية لكتبة النصرانية : صفحة ١٤٠ للاب اويس شيخو
(٢) الفهرست : لابن النديم : صفحة ٢٤٣ - ٢٤٤
(٣) عيون الانباء في طبقات الاطباء : لابن ابي اصيبعة : جزء ١ صفحة ١٧٠
(٤) الآداب السريانية : تأليف روبنس دوفال في الفرنسية : صفحة ٢٧٢ و٣٨٦
(٥) طبقات الاطباء : مجلد ١ صفحة ١٧٥ - ١٨٣
(٦) خير الدين الزركلي : الاعلام : صفحة ١١٧٣

٧ ـ يعقوب الكندي فيلسوف العرب

لايقل عن ابن ماسويه فضلاً وعلماً معاصِرُهُ «فيلسوف العرب» يعقوب بن اسحق الكنديّ (+ ٨٦١ م) . وقد لُقّب بالكندي لتحدرهِ من سلالة ملوك آل كندة ملوك العرب الاقحاح . وكان ابوه حاكم الكوفة في عهد الخلفاء المهدي والهادي وهرون الرشيد. وعدّد ابن النديم في «الفهرست» مؤلفاتهِ فأوصلها الى مائتين وواحد وثلاثين مؤلفاً . فتأمل ! قال بعض المؤرخين : تحلّت دولة المعتصم بيعقوب الكندي وبمؤلفاته. وقال مؤلف « تذكرة الحكم » لم يشتهر بالفلسفة في الاسلام الا يعقوب الكندي (١) واحصاه المؤلف الايطالي كردن (٢) Cardan بين الاثني عشر عقلاً سامياً التي ظهرت في العالم حتى القرن السادس عشر. وقد ضاع معظم مؤلفاته والباقي منها اكثره باللغة اللاتينية ترجمها جيراردو داكرامونا الاسباني. وكان في عهده سابور بن سهل + ٨٦٩) صاحب بيمارستان جنديسابور وله تصانيف مشهورة منها « الاقرباذين » .

٨ ـ حنين بن اسحق شيخ تراجمة الاسلام وتلامذته

من معاصري الكندي حنين بن اسحق (+ ٨٧٦) شيخ تراجمة الاسلام فانه ضارعه بالشهرة العلمية وبما وضعه من الكتب الوافرة تأليفاً ونقلاً. وكان الربان حنين طبيباً للمأمون والمتوكل على الله . وقد الف تبعاً لرواية ابن العبري خمسة وعشرين كتاباً خلا ما ترجمه عن اليونانية الى العربية . وبلغ مجموع مصنفاته وترجماته مائة وخمسة عشر كتاباً . منها كتاب « المسائل في العين » ترجمه

---

(١) طبقات الامم : لصاعد الاندلسي : صفحة ٥٣ ـ وزبدة الصحائف في اصول المعارف : بقلم نوفل نوفل : صفحة ٤٥

(٢) راجع كتاب « تاريخ الفلسفة العربية » بقلم الاب نعمة الله العنداري : جزء ثان ص ٤٩

الى اللغة الفرنسية القس بولس سباط والاستاذ ميرهون. ومما يجدر ذكره ان الخليفة المتوكل اطلق على الربان حنين بن اسحق لقب « رئيس الفلاسفة والاطباء » (١) تقديراً لعلمه .

واضاف الخليفة المتوكل الى ذلك انه نصب حنين بن اسحق مديراً لمكتب الترجمة في الدار التي كان المأمون قد انشأها وسماها « دار الحكمة» فاحسن ادارته وقد ترجم الربان حنين الى اللغة السريانية من كتب ارسطو مايأتي : كتاب «العبارة» وكتاب «البرهان» وكتاب «الكون والفساد» وكتاب «النفس» وقسما من كتاب «ماوراء الطبيعة » ... وترجم الى اللغة العربية كثيراً من المصاحف الطبية والعلمية لبقراط وجالينس وارخميدس المهندس وغيرهم . ونقل كتبا فلسفية ككتب الجمهورية والشرائع وفلسفة الطبيعة لافلاطون . ومن ترجماته ايضاً المقولات والطبيعيات والخلقيات لارسطو ورسالته ووصيته للاسكندر (٢) الخ

وقد درس حنين اولاً في الاسكندرية ثم عاد الى بغداد فاستكمل دروسه على يوحنا بن ماسويه. ولم يزل امر حنين يقوى وعلمه يتزايد وعجائبه تظهر في النقل والتفاسير حتى صار ينبوعاً للعلوم ومعدناً للفضائل (٣) ومما يُحكى عنه ان الخليفة العباسي كان يعطيه من الذهب زنة ما ينقله الى اللغة العربية من الكتب مثلاً بمثلٍ فكان حنين ينتقي للنساخة من القراطيس اثخنها واسمكها لتزداد زنتها فتزداد اجرته .

واقتفى آثار الربان حنين ابنه اسحق (+ ٩١١) الذي اورد ترجمته ابن النديم (٤) وقد بقي من مؤلفاته العديدة مايأتي : تعريبه لمقولات ارسطاطاليس ولوصية افلاطون وكتاب «المعطيات » لاوقليدس . ومنها كتابه « الادوية المفردة »

---

(١) مجلة «المنارة» في جونيه : سنة ١٩٣٥ ص ٨٥٢

(٢) مجلة «النجم» في الموصل : السنة التاسعة صفحة ١٥ - ١٦

(٣) تاريخ مختصر الدول . لابن العبري : صفحة ٢٥١

(٤) الفهرست لابن النديم : صفحة ٢٧٥

الذي نقله نقولا الدمشقي الى اللاتينية . ومن تلامذة الربان حُنين ابن اخته حبيش بن حسن بن الاعسم الدمشقي الذي عرّب تآليف بقراط وجالينس . وألف كتاب « الزيادة في مسائل حنين » وكان احد كبار الناقلين من اليوناني والسرياني الى العربي (١)

٩ - ثابت بن قرة وسائر علماء الصابئة

اشتهر من الصابئة الحرّانيين نسبة الى حرّان بجوار الرها علماء كبار واطباء اجلاء تقلبوا في خدمة الخلفاء العباسيين وانشأوا تآليف معتبرة خلدت لنبوغهم ذكراً حسناً. وفي طليعة اولئك الفحول نذكر ثابت بن قرّة (+ ٩٠٢ م) الطبيب الشهير والرياضي الكبير منجم المعتضد بالله (٨٩٢ - ٩٠٢ م) فانه صنف كتباً جمة باللغة العربية ذكر بعضها ابو الفرج ابن العبري واثنى على بلاغة مؤلفها ثناءً عاطراً. وقال ان تآليفه العربية بلغت زهاء مائة وخمسين كتاباً(٢). ومما اطلعنا عليه من مؤلفات ثابت بن قرة كتاب « الذخيرة » الذي اعتنى بنشره الدكتور ج. صبحي سنة ١٩٢٨ نقلاً عن مخطوط ثمين يخص مكتبة بطريركية الاقباط في القاهرة. وعالج ابن قرة احد شعراء عصره فاصاب العافية . فانشد فيه ذلك الشاعر هذين البيتين :

هل للعليل سوى ابن قرة شافي ... بعد الاله وهل له من كافي
فكأنه عيسى ابنُ مريم ناطقاً ... يهب الحياة بايسر الاوصاف

وقام بعد ثابت ابن قرة ابنُه سنان (+ ٩٤٤ م) الذي خدم الخلفاء المقتدر بالله والقاهر بالله والراضي بالله (٩٠٨ - ٩٤٠ م) . فانه خلف صفحة مجيدة في تاريخ

---

(١) تاريخ مختصر الدول : لابن العبري :صفحة ١٥٢
(٢) تاريخ الدول السرياني : لابن العبري : صفحة ١٦٨

الطب العربي عندما كان يدير « المارستان المقتدري » ببغداد . وقد امر الخليفة حين ذاك بمنع سائر المتطببين عن تعاطي هذه الصناعة الا من امتحنه سنان واذن له في ذلك. وكان عددهم ينيف على ثمانمائة وستين طبيباً سوى من استغنى عن امتحانه لاشتهاره في تلك المهنة (١).

وقام بعد سنان ابنه ثابت (+ ٩٧٣ م) وله تاريخ ذكر فيه الحوادث والوقائع التي جرت في زمانه من ايام المقتدر بالله حتى عهد الخليفة المطيع لله (٩٠٨ – ٩٧٤م) وليس لهذا التأليف من اثر في المكتبات.

ومن مشاهير علماء الصابئة ايضاً هلال بن المحسن بن ابرهيم (٩٧٠ – ١٠٥٦م) واخص تآليفه كتاب « الوزراء » وكتاب « غرر البلاغة » وكتاب « رسوم دار الخلافة » وكتاب « الاماثل والاعيان » وكتاب « ذيل تاريخ ثابت بن سنان » خاله اخي امه .

وهناك علماء آخرون من الصابئة خدموا الطبابة والعلوم. نذكر من اشهرهم : ابا اسحق بن سنان وابن وصيف وابا اسحق ابرهيم بن زهرون وابا الحسن بن ابرهيم بن زهرون (٢).

١٠ – سائر نقلة العلوم الدخيلة

نُجمل في ما يلي اسماء فريق من نَقَلة العلوم الى اللغة العربية في عهد الخلفاء العباسيين: منهم يوسف الساهر المعروف بالقس في ايام المكتفي بالله (٩٠٢–٩٠٨م) وسمي بالساهر لانه كان لا ينام في الليل الا ربعه او ازيد قليلاً وهو ساهر في طلب العلم. ومنهم يشوع بن بهلول ويشوع بن علي الطبيب تلميذ حنين بن اسحق . وقد وضع

---

(١) طبقات الاطباء : لابن ابي اصيبعة : جزء ١ صفحة ٢٢٢

(٢) مآثر العرب في العلوم الطبية : للدكتور سامي حداد : صفحة ١٨

هذان اليشوعان معجماً في السريانية والعربية نشره المستشرق روبنس دوفال في باريس سنة ١٨٨٨ – ١٨٩٦ في ثلاثة مجلدات (١) . ومنهم عبد المسيح بن ناعمة الحمصي(٢) عاش في اوائل الدولة العباسية. ونقل عن اليونانية الى العربية والسريانية بعض الكتب. وعرب ابن ناعمة كتاب « السوفسطيقا » لأرسطو وكتاباً في « الطبيعيات ». اما تاريخ وفاته فمجهول (٣).

ونضيف الى هؤلاء فئةً اخرى من النقلة اليك اسماءَهم : قسطا بن لوقا البعلبكي الملكيّ (+٩٢٣ م) صاحب المصنفات والمعرّبات النفيسة التي عدّدها ابن النديم(٤) ونقل ابن ابي اصيبعة(٥) عن سليمان بن حسّان ان قسطا مسيحي النحلة طبيب حاذق نبيل فيلسوف منجّم عالم بالهندسة والحساب جيّد النقل فصيح باللسان السرياني واليوناني والعربي. وتآليفه ونقوله كثيرة: منها كتاب تاريخ اسمه «الفردوس» وكتاب « آداب الفلاسفة » وكتاب « اختلاف الناس في اخلاقهم » وكتاب « الاسطرلاب » وكتاب «اقليدس » وكتاب « رفع الاثقال » لهرون الاسكندري . وكتاب « آراء الفلاسفة في الطبيعيات » لفلوطرخس .

وبعد قسطا بن لوقا عرفنا العطّار عيسى بن يوسف طبيب الخليفة القاهر (٩٣٢ – ٩٣٤ م) . وابا بشر متى بن يونس المنطقي (+ ٩٤٠ م) استاذ الفارابي واحد كبار النقلة لكتب ارسطاطاليس. وقد وصفه ابو الفرج ابن العبري بقوله(٦) « اليه انتهت رئاسة المنطقيين في عصرهِ ومصرهِ » . وهو الذي نقل كتاب «سوفسطيقا » الى السرياني قبلما نقله يحيى بن عدي الى العربي (٧) وعرفنا كذلك يوحنا بن حيلان المتوفى في ايام الخليفة المقتدر بالله (٩٠٨-٩٣٢).

---

(١) غلب على هذا القاموس عنوان « معجم بر بهلول » احد المؤلفين

(٢) علم الادب : تأليف الاب شيخو : صفحة ٣٤٣

(٣) المشرق : مجلد ٣ سنة ١٩٠٠ صفحة ٦٧١

(٤) الفهرست لابن النديم : صفحة ٢٩٥

(٥) عيون الانباء في طبقات الاطباء : جزء ١ صفحة ٢٤٤

(٦) مختصر تاريخ الدول لابن العبري : صفحة ٢٨٥

(٧) كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون : لحاجي خليفة : مجلد ٢ صفحة ٢٨١

ومن العلماء او النقلة المبرّزين في تلك الحقبة نذكر يحي بن عدي بن حميد بن زكريا التكريتي (+ ٩٧٤) اليه انتهت رئاسة اهل المنطق في زمانه (١) وحسبه فخراً ما اثبته عنه المسعودي في اواسط القرن الرابع للهجرة قال :

« ولا اعلم في هذا الوقت احداً يرجع اليه في ذلك (يعني علم الاوائل) الا رجلا واحداً من النصارى بمدينة السلام يُعرف بابي زكريا بن عدى » (٢) . ومما يؤثر عنه انه اوصى تلميذه العلامة ابن زرعة البغدادي ان ينقش على ضريحه بعد وفاته هذين البيتين :

رُبّ ميتٍ قد صار بالعلم حياً ومبقّى قد مات جهلًا وعيّا
فاقتنوا العلم كي تنالوا خلوداً لا تعدوا الحياة في الجهل شيّا

ومنهم ابو علي بن عيسى بن اسحق بن زرعة البغدادي (٩٤٣–١٠٠٨ م) صاحب التآليف العديدة الفلسفية والطبية والسياسية . وكان ابن زرعة احد النقلة المجوّدين من اللغتين السريانية واليونانية الى العربية. فنقل كتاب « المقولات » وكتاب « المغالطات » وكتاب « اخبار الحيوانات » وكتاب «اجزاء الحيوانات» مع شروحها. والف مقالات في فلسفة ارسطو وفي كتاب « الايساغوجي » لفرفوريوس الصوري. وله رسائل في خزائن كتب اوروبا وغيرها (٣). ومنهم ابو الفرج جرجس بن يوحنا بن سهل بن ابرهيم البيرودي (+ ١٠١٠ م) كتب بخطه كثيراً من كتب الطب. وله رسائل منها رسالة عنوانها «الفرخ ابرد من الفروج (٤) ومنهم ابو الخير ابن الخمار الفيلسوف عاش في القرن العاشر للميلاد. وكان نصرانياً ماهراً في العلوم الحكمية. نقل كتباً كثيرة من اللغة السريانية الى العربية وخلف مصنفات جليلة في صناعة الطب وغيرها عدّدها ابن ابي اصيبعة وعلق عليها (٥)

---

(١) مختصر تاريخ الدول . صفحة ٢٩٧ (٢) كتاب التنبيه والاشراف للمسعودي . صفحة ٢٢ طبعة ليدن (٣) مجلة « النجم » في الموصل : السنة التاسعة صفحة ١٧ (٤) طبقات الاطباء: مجلد ٢ صفحة ١٤٠ - ١٤٣ (٥) طبقات الاطباء: جزء ١ صفحة ٣٢٢

ومنهم كذلك الشيخ الفاضل المعلم العامل الفيلسوف الكامل اغابيوس بن قسطنطين الرومي المنبجي الذي صنف في القرن العاشر تاريخاً شاملاً اجابة الى طلب عيسى بن الحسين سماه « العنوان المكلل بفضائل الحكمة المتوّج بانواع الفلسفة الممدوح بحقائق المعرفة » . وهذا الكتاب قد ذكره المسعودي (١) قال :

« وأحسن كتاب رأيته للملكية في تاريخ الملوك والانبياء والامم والبلدان وغير ذلك كتاب محبوب بن قسطنطين المنبجي » . ولا يخفى ان لفظ « محبوب » هو ترجمة « اغابيوس » باللغة الرومية .

ومنهم الانبا سويرس بن المقفّع اسقف مدينة الاشمونين في مصر نحو السنة ٩٨٥م . صنف ٢٦ كتاباً (٢) اكثرها في الدينيات والادبيات والتفاسير . واشهرها تاريخ كبير في بطاركة الاسكندرية .

وعاش في القرن الحادى عشر ابو نصر يحيى بن جرير التكريتي (٣) اليعقوبي المتطبب صاحب كتاب « المرشد » . صنف تاريخاً جيداً من عهد آدم الى دولة بني مروان امراء ميافرقين .

وعاصره ابو الخير بن سوار بن بابا بن بهنام ودرس عليه ونقل كتباً جمّة من السرياني الى العربي . وخصه السلطان محمود بخدمته وكان يجله ويعظمه لزهده وتواضعه . وله عدة مصنفات ذكرها ابن ابي اصيبعة (٤).

ونضم الى هذا جمهور الجهابذة : ابا سهل عيسى بن يحيى المسيحي الجرجاني (+ ١٠٠٠ م) الطبيب شيخ الرئيس ابن سينا ومعلّمه صناعة الطب (٥). خلف

---

(١) التنبيه والاشراق للمسعودي : صفحة ١٥٤
(٢) كتاب « مصباح الظلمة » تأليف ابي البركات المعروف بابن كبر
(٣) طبقات الاطباء : جزء ١ صفحة ٢٤٣
(٤) طبقات الاطباء : جزء ١ صفحة ٣٣٢
(٥) طبقات الاطباء : لابن ابي اصيبعة : جزء ١ صفحة ٣٢٧ ـ ٣٢٨

كتباً شتى نذكر منها « ديوان الطب » في مجلدين ويُدعى ايضاً كتاب « المئة في الصناعة الطبية » ومنه عدة نسخ في مكتبات اوربا (١). وكتاب «اصول علم النبض» وكتاب «حكمة الله تعالى في خلق الانسان». ثم إيليا الصوباوي ابن شينا (+ ١٠٤٩ م).

ومنهم ابو عيسى يحيى بن جزلة الطبيب البغدادي النسطوري صاحب كتاب «المنهاج» (٢) في المفردات. وكتاب «تقويم الابدان» مُجَدَول. وكان مع اشتغاله بكتابة سجلات الدولة يطبب اهل محلّته ومعارفَهُ بغير اجرة ويحمل اليهم الادوية بغير عوض. وقد اسلم ابن جزلة في اواخر ايّامه ووقف كتبه لمشهد الامام ابي حنيفة وتوفي سنة ١٠٨٠ للميلاد (٣)

ونضيف الى من ذكرناهم منجماً نصرانياً يقال له يحيى بن ابي منصور وكان من انبغ علماء زمانه في الحساب ورصد الكواكب. وقد روى عنه ابو الفرج ابن العبري : انه لما عزم الخليفة المأمون على التدقيق في حسابات الرصد تقدم الى يحيى المذكور والى جماعة من العلماء بالرصد واصلاح آلاته ففعلوا ذلك بالشماسية في بغداد وجبل قاسيون بدمشق (٤).

وادرج ابن ابي اصيبعة في كتابه « عيون الابناء في طبقات الاطباء» اسماء مشاهير الاطباء حتى ايامه في القرن السابع للهجرة. ووصف ثقافة كل منهم واحداً فواحداً. وعدد تآليفهم تأليفاً تأليفاً بما لا يوصف من الدقة والضبط. ولم يغفل عن ذكر ما اداه اولئك الاطباء للخلفاء والوزراء وعامة الناس من الخدم الجلى. فاستحق تأليفه هذا الفريد ثناء من عاصره وجاء بعده.

هكذا تفجرت ينابيع المعارف وسالت الصحف باقلام المترجمين والمصنفين في

---

(١) Brockelmann, I, 238

(٢) تاريخ ابن الوردي : جزء ٢ صفحة ١١

(٣) تاريخ مختصر الدول . صفحة ٢٣٩

(٤) تاريخ مختصر الدول : صفحة ٢٣٧

طول البلاد وعرضها . وازدانت خزائن الكتب في جميع الاقطار العربية بنفائس الاسفار التي اخرجها اولئك الجهابذة الاعلام عن اللغات اليونانية والفارسية والعبرية والهندية. فبلغت دولة العلم ايام عزّ الخلافة العباسية شأواً بعيداً قلمّا ذكر التاريخ مثله في القرون السابقة.

واقتدى الخلفاء الفاطميون في مصر والامويون في الاندلس ببني العباس خلفاء بغداد فكانت لهم قاطبةً الايادي البيضاء في تعزيز النهضة العربية سياسةً ولغةً وعلماً.

١١ - تصريح محمد كرد علي بفضل نقلة علوم الاعاجم

ونجعل مسك ختام هذا الفصل ما دونه الاستاذ محمد كردعلي رئيس المجمع العلمي العربي في دمشق قال(١):

« الا ان ما نفاخر به من علم اسلافنا وحضارتهم العظيمة انما قام باحيائهم مدنية مَن قبلهم من الامم كالروم والفرس وغيرهم. ولم يتأتَ لهم ذلك الا بترجمة علومهم والزيادة عليها وتحسينها. فكانوا بذلك احسن صلة وعائد بين أمم الحضارة السالفة والامم الاوروبية الخالفة. فحضارة الاسلام اذا انصفنا قامت بفضل التراجمة والنقلة من اليعاقبة والاسرائيليين والمسلمين لا بايدي علماء الكلام مثلاً. وقد كان على يد هؤلاء التشتيت وعلى يد اولئك الجمع . وشتان بين المفرّق والمجمّع . وليس معنى هذا انكار فضل من تمحضوا لخدمة الشريعة واللغة في القرون الاولى للاسلام. وما في الناظرين من يقول بان الخليل والجاحظ والغزالي والماوردي هم في حسن بلائهم في خدمة هذه الامة دون ابي الريحان البيروني ونصير الدين الطوسي وحنين بن اسحق وثابت بن قرّة. وما كان قط اهل الفريق الاول يحتقرون علم الفريق الثاني ولا العكس لما وقر في النفوس من ان المجتمع لا يقوم على امتن الدعائم الا اذا اتقن كل ذي علم عمله ».

---

(١) كتاب « القديم والحديث » بقلم محمد كردعلي : صفحة ٦٨ - ٦٩

الفصل الثامن

عصر النهضة العربية الذهبي

١ ـ فجر العصر العربي الذهبي

مُرادُنا بعصر العرب الذهبي حقبةٌ ميمونةٌ تبلّج فجرها الزاهر منذ عهد هرون الرشيد وابنه المأمون (١٧٠ ــ ٢١٨ هـ و ٧٨٦ ــ ٨٣٣ م). وانبعثت اشعتُها من سماء بغداد حتى انبسطت في الاقطار العربية جمعاء: من وادي دجلة والفرات في القارة الاسيوية الى وادي النيل والمغرب الاقصى في القــارة الافريقية الى ديار الاندلس وصقلّية في القارة الاوروبية. فاصبحت الخلافة العبّاسية في تلك الحقبة تحاكي دولة الرومان ايام اكتمال عزّها واجتماع شملها (١).

ومن مظاهر عظمة العبّاسيين وعزّهم البــاذخ انهم كانوا في حفلاتهم الرسمية يستوون على عرشٍ يعلو الارض نحو سبع اذرع. وكانوا يتعممون بعمامة سوداء ويتوشحون برداء اسود ويقبضون بيَمينهم على صولجان ذهبيّ (٢).

وما ان استتبّ السؤدَدُ للعرب في ما دوّخوهُ من الامصار حتى جعلوا لغتهم العربية لغة الدواوين الرسمية. وفرضوا على رعاياهم في مختلف الانحاء ان يتخاطبوا بها بدلاً من اللغات الشائعة حين ذاك كالفارسية في بلاد فارس والسريانية في العراق وسوريا وما بين النهرين والقبطية في مصر واليونانية في بعض دواوين الدولة وفي المعاهد العلميّة والبيوتات الخاصّة.

---

(١) طبقات الامم: لصاعد الاندلسي: صفحة ٤٩

(٢) تاريخ الدول السرياني: لابن العبري: صفحة ٢٣٧

هكذا انتقل العرب من البداوة الى الحضارة بملابستهم الأعاجم وادركوا في الثقافة شأواً بعيداً خطوا فيه الخُطى الطِوال . وراحوا يسترشدون الامم التي تغلبوا عليها ولا سيّما أمتي الفرس والروم ليتلقّنوا علومها ويُتقنوا آدابها . فدرسوا الغِناءَ والبناءَ والنقش وحب التأنّق والسياسة على الفرس . ودرسوا العلوم الرياضية والمنطقية والمعارف الطبيعية والالهية والشؤون المنزلية على اليونان (١) . ثم درسوا الفِلاحة والطِبّ والفلك على السريان (٢) من نساطرة ويعاقبة ومَلكيّين وعلى علماء الصابئة .

سادت اللغة العربية بفضل الخلفاء العباسيين وانتشرت في طول البلاد وعرضها. واحرزت قصبة السبق على سائر اللغات حتى عجز الروم غرباً والفرس شرقاً عن مصادمة تيارها. ومما لا سبيل الى انكاره ان الفرس اصبحوا اثناء النهضة العربية يستصعبون ايراد كلمة فارسية او بيتٍ من الشعر الفارسي في كتاباتهم إلا على سبيل الاستطراد او الاستشهاد (٣) .

٢ ـ انشاء المدارس والمكتبات في العصر العربي الذهبي

تذوق العرب لذة الحضارة فارتقتْ احوالهم ورقّت طباعهم وانسجمت عباراتهم. وما لبثوا ان اهملوا استعمال الغريب في محادثاتهم. ونبذوا وحشي الالفاظ في كتاباتهم. واستأثروا بالفصيح البليغ في مخاطباتهم وتصانيفهم. وشرعوا يؤسسون في كل صقع من اصقاعهم مدارس عالية ومكتبات غنية فاخرة. فابتنوا « بيت الحكمة » ببغداد و « مدرسة طُليطلة » بالاندلس. ثم شادوا « دار العلم » بالقاهرة على اسلوب اشار اليه الفيلسوف باكون (٤).

---

(١) تاريخ مختصر الدول :لابي الفرج ابن العبري : صفحة ٩٦ طبعة بيروت

(٢) تاريخ مختصر الدول : صفحة ٦٢ و ١٣٥ ودائرة معارف القرن العشرين : لاحمد فريد وجدي مجلد ٨ صفحة ٦٦ ـ ٦٧

(٣) البيان والتبيين : للجاحظ : القاهرة ١٣١٣ جزء واحد صفحة ٦١

(٤) دائرة معارف القرن العشرين : مجلد ٨ صفحة ٦٧

ومما يجدر بالذكر ان احد وزراء الدولة العبّاسية تبّرع اذ ذاك بمائتي الف دينار لعمارة «كلية» علمية في بغداد. وخصّص بنفقاتها حولا بعد حول خمسة عشر الف دينار. وقد احتشد فيها ستة آلاف طالب لا فرق بين غنيهم وفقيرهم وقريبهم وبعيدهم.

على هذا النمط انتشرت المدارس والمكتبات في المدن والدساكر وأضيفت اليها كتاتيب لا تحصى بجوار التُرَب والجوامع فتيسرت دواعي التثقيف والتهذيب للخاصة والعامة معاً.

٣ ـ تنشيط الكتاب الى الترجمة والتأليف في العصر العربي الذهبي

تجلى للخلفاء ايام عزّهم ان النهضة العربية لن تقوم ولن تبلغ ذروة الكمال الا بانعاش الثقافة وتعميمها بين طبقات الامة جمعاء. فأخذوا يبحثون عن جهابذة مشاهير وتراجمة ماهرين يُركنُ الى خبرتهم وأمانتهم في تحقيق تلك الامنية. ثم اصطفوا وفوداً متضلعين من العلوم واللغات وبعثوهم الى بلاد الروم واقاصي الهند وغيرها للتنقيب عن الكتب النفيسة واستحضارها الى العاصمة (١).

قال ابو الفرج الملطي المعروف بابن العبري: «لما افضت الخلافة العباسية الى الخليفة السابع عبدالله المأمون بن هارون الرشيد تمم ما بدأ به جَدّه المنصور. فأقبل على طلب العلم في مواضعه وداخلَ ملوك الروم وسألهم صِلتَه بما لديهم من كتب الفلسفة. فبعثوا اليه منها ما حضَرَهم. فاستجاد لها مَهرَةَ التراجمة وكلفهم احكام ترجمتها فتُرجمت له على غاية ما امكن» (٢).

وما ان عاد رجال تلك البعثات العلمية الى دار السلام حتى بادر الخلفاء الى تأسيس دواوين يعكف فيها العلماء على الترجمة والتأليف. فاجتمع حول اولئك

---

(١) الفتوح الاسلامية واثرها في تقدم المدنية: للدكتور حسن ابرهيم حسن: (مجلة الرسالة بالقاهرة: سنة ٤ صفحة ٦٤٢)

(٢) تاريخ مختصر الدول: صفحة ٢٣٥ ـ ٢٣٦

الخلفاء رهطٌ من اساطين العلم كآل بختيشوع وتئوفيل الرهاوي وابن ماسويه ويوحنا بن البطريق ويعقوب الكندي وابناء موسى بن شاكر والربان حُنين بن اسحق العبادي وثابت بن سنان بن قرة الصابىء وغيرهم كثيرين.

شرع اولئك العلماء يتبارون في الترجمة والتصنيف والتبييض والتسويد. وسالت اقلامهم في انشاء نفائس التآليف حتى انهم لم يتركوا باباً من ابواب المعارف الا طرقوه. فلم يدعوا كتاباً ذا فائدة كبرى في اللغات اليونانية والفارسية والسريانية والعبرية والهندية الا درسوه ومحصوه واحكموا نقله الى اللغة العربية.

وعلى اثر تلك الفورة العلمية هبّ فتيان العرب واقبلوا زرافاتٍ ووحداناً الى « بيت الحكمة » والى غيره من معاهد العلم يحرّضهم الخلفاء على القراءة ويرغبونهم في التعليم (١). فدرسوا وطالعوا وصنّفوا وتساجلوا حتى اصبحوا خير قدوةٍ لمن عاصرهم او جاء بعدهم من طلاب العلم ورّواد الادب.

وحسبُ الخلفاءِ فخراً انهم لم يقتصروا على ترغيب الجهابذة في التأليف وفي نقل الكتب الاعجمية الى اللغة العربية. بل حرصوا الحرص الشديد على ترجمات عربية لنصوصِ مؤلفات يونانية ولاتينية لو لم تنقل بهمتهم الى اللسان العربي لافنتها نوائب الدهر افناءَها مؤلفات ثمينة كثيرة سمعنا باسمها ولم نحظَ برؤيتها.

٤ ـ مبالغة الخلفاء في تعزيز العلم وتكريم العلماء

مثلما استرسل العلماء في جمع المخطوطات وترجمة الكتب وتأليفها استرسل الخلفاء في تعزيز الحالتين العلمية والعمرانية كلتيهما وروّجوا سوقيهما في جميع انحاء الملك العربي الواسعِ الارجاء. ولقد بلغتِ النهضة العلمية اوْجَها في صدر الدولة العباسية بفضل المنصور والرشيد والمأمون لانّهم جعلوا بغداد في عهدهم امّ المدائن

---

(١) تاريخ مختصر الدول : صفحة ٢٣٦

الاسلاميّة وقطبَ دائرةِ الثقافة ومجتمعِ العلماء والشعراء . ثم شاركتها في ذلك سائرُ العواصم العربية كدمشق والقاهرة والقيروان وقُرطبُة وغيرها .

على ان هذا العصر الذهبي امتاز بخلفاءَ علماء تولّوا عرش الاسلام في تلك العواصم وعرفوا حق المعرفة انّ العلم لن ينمو ولن يزهو الا في كنَف ملوكٍ نظيرهم يتعهدونه ويعزّزونه ويعطفون على اربابهِ . وقد حملهم على المبالغة في تكريم اهل الأدب تيقُنهم ان اهل العلم هم صُفوةُ الله من خلقهِ ونُخبتُه من عباده . لانهم صرفوا عنايتهم الى نيل فضائل النفس الناطقة وزهِدوا في ما يُرغَب فيه ... (١) بناءً عليه ادّروا لهم اخلاف الرزق وقرّبوهم وجالسوهم وآكلوهم وشاربوهم وسامروهم وساجلوهم واعتمدوا في المشاكل على آرائهم (٢) .

يُحكى عن الخليفةِ الرشيد ان مآدبه لم تخلُ قط من عالم او اديب او شاعر فكان يستدعيهم اليه ويحاورهم في مسائل الدين (٣) ويبكي (٤) من مواعظهم ويقوم بواجب الاحترام لعلمهم . وكان اذا جلس معاويةُ المحدّث الضرير الى طعامهِ قام الرشيد من موضعه وصبّ الماء على يده تعظيما لقدر العلماء . فقال له معاوية: « يا امير المؤمنين ان تواضعك في شرفك لأشرفُ من شرفك ! » (٥) .

ازاءَ تلك الاريحية وهذا العطف اندفع يقصِدُ الخلفاء كلّ ذي قريحة من الكتّاب والائمة والشعراء والاطباء والمهندسين والمنجمين والمترجمين على اختلاف الملل والنحل . فشخصوا الى دار السلام طمعاً باحراز جائزةٍ او منحةٍ او الحصول على منصبٍ . وناهيك بكرم الخلفاء وثروة عاصمتهم وانتشار الرخاء بين سكانها وازدحام الغرباء على ابوابها واختلاف التجار اليها للبيع والشراء . زد على ذلك

---

(١) تاريخ مختصر الدول : صفحة ٢٣٦

(٢) تاريخ مختصر الدول : صفحة ٢٢٨

(٣) سراج الملوك : للطرطوشي : صفحة ٣٠ طبعة بولاق

(٤) ابن الاثير : جزء ٦ صفحة ٧٨ طبعة بولاق — وسراج الملوك : صفحة ٣٨

(٥) الفخري : صفحة ٢٣١

تدفق الذهب من بيت المال على اركان المملكة ومن لف حولهم من الانصار وارباب الصناعات والفنون والآداب الرفيعة .

ذلك كله كان من اقوى الذرائع التي اهابت بالخلفاء الى المبالغة في تعزيز العلم واجلال العلماء وتكريمهم .

وقد اثبت المؤرخون اخباراً شتى برهنت عن مكارم الخلفاء وعطفهم على العلماء . من ذلك ان الخليفة المأمون كان يتبرع على طبيبه جبرائيل بن بختيشوع (+ ٨٢٨ م) برواتب نقدية سخية . وقد بلغ مجموعها السنوي كما وجدوه مدوناً بخط جبرائيل نفسه الوفاً من الدنانير (١) . اما الخليفة المتوكل فلم يكتف بما تبرع به من الاموال الطائلة على طبيبه حُنين بن إسحق (+ ٨٧٦ م) شيخ تراجمة الاسلام . بل خصص به قصراً فخماً تجاه بلاطه زينه برياش فاخر . وكان الخليفة يزن لحنين من الذهب زنة ما يترجمه من الكتب مثلاً بمثل (٢) .

وعلى مثال الخلفاء انفجر البرامكة بالكرم حتى صار يُضرَب بهم المثل الاكبر في سعة العطاء . فيقال فلان من الملوك يتبرمك (٣) . وكان البرامكة يجودون بالاموال لاهل الادب ويشترون الدور ويهبونها لمن هو طامع فيهم من العلماء (٤) . وقد أنشد ابن الخياط المكي في الفضل بن يحيى البرمكي قوله (٥) :

لمستُ بكفي كفه أبتغي الغنى ولم أدرِ ان الجود من كفه يعدي

ذلك ان الفضل أمر لابن الخياط ذات يوم بخمسة آلاف درهم . فاستأذنه في تقبيل يده فاذن له . فما انتهى ابن الخياط الى الباب حتى فرّق المال باسره فعوتب على ذلك فانشد البيت المذكور . فبلغ الفضل ذلك فأسنى له عشرين الف درهم .

---

(١) طبقات الاطباء : لابن ابي اصيبعة : جزء ١ صفحة ١٣٦

(٢) عقود الجوهر : لجميل بك العظم : صفحة ٩٤

(٣) حضارة الاسلام في دار السلام : لجميل مدور : صفحة ١٦٤

(٤) الاغاني : مجلد ٥ صفحة ٧٢

(٥) غرر النصائح الواضحة . لابي اسحق الوطواط . صفحة ٢٥٠ – والاغاني : مجلد ١٨ صفحة ٩٤ طبعة مصر

٥ ـ احتذاء الفاطميين والامويين مثال العباسيين في العصر الذهبي

انتهج الخلفاء الفاطميون بمصر والخلفاء الامويون بالاندلس نهج الخلفاء العباسيين ببغداد. فلم يقتصروا على تعليم اللغة وترويج آدابها في اصقاعهم بل باروهم في جمع المخطوطات فطلبوها من مصادرها. وانفقوا الصفر والبيض في سبيل البحث عنها والتقاطها. وانشأوا لها في حواضرهم ومدنهم خزائن فاخرة وحبسوا عليها اوقافاً وافرة. وعينوا لها خزنة وقوّاماً لمنـاء وحشدوا فيها نساخاً ومترجمين ومجلدين ومذهبين. ثم استنهضوا رعاياهم لتحصيل المعارف والآداب. فاندفعوا الى العمل بجد واجتهاد. فافلحوا ونجحوا ونبغ منهم علماء اعلام وفلاسفة عظام (١).

وتواترت بين بغداد والقاهرة مسابقات في مضمار الثقافة ومنافسات في تشييد المدارس ومضاربات في اقتناء الكتب المفيدة (٢). وكاد يكون انشاء المكتبات الخاصة والعامة مستلزماً قصور الملوك وصروح الامراء وبيوتات المشايخ والاغنياء. فكل قصر او بيت خلا من مكتبة كبرى او صغرى عُدّ خالياً فارغاً من أهم رياشه واثمن محتوياته. والخليق بالذكر ان الدول الاسلامية ابرمت في سُننها ان يضم كل مسجد من مساجدها خزانة كتب يؤمها الادباء من كل حدب وصوب للمطالعة والاستفادة.

ومن اشهر تلك المساجد او الجوامع: البيت الحرام بمكة والجامع الاموي بدمشق والمسجد الاقصى بالقدس الشريف والجامع الازهر بالقاهرة والجامع الاعظم بالقيروان وجامع الزيتونة بتونس وجامع القرويين بفاس والجامع الاعظم العلوي بالنجف الاشرف الخ.

فلا غرابة اذا رأينا الكتبة والمؤرخين يطلقون على ذلك العصر لقب «عصر

---

(١) محاضرات المجمع العلمي العربي بدمشق: مجلد ١ صفحة ٢٦٤

(٢) محاضرات المجمع العلمي العربي بدمشق. مجلد ١ صفحة ٢٦٥

النهضة العربية الذهبي » إقراراً بجميل الخلفاء وتنويهاً بفضلهم على الحضارة العربية.

٦ ـ تعزيز الفلاحة في العصر الذهبي

ادرك العرب ان الفِلاحة من اقوى الدواعي الى عمران البلاد وسعادتها ومن انجع الذرائع لانقاذها من ضروب الاسواء البشرية كالمجاعات والقحط والغلاء. فراحوا يبحثون بحثاً دقيقاً مستمراً عن كتب تتناول ذلك الموضوع الخطير كي يقرنوا علمهم بعملهم. واول مؤلف سمعوا باسمه من هذا القبيل هو كتاب « الفلاحة النبطية » لابن وحشية الكلداني وقد تُرجم الى اللسان العربي في صدر الخلافة العباسية. وروى ابن خلدون في مقدمة تاريخه : ان ابن العوّام اختصر كتاب « الفلاحة النبطية » وان مَسْلمة بن احمد المجريطي نقل عنه امهات من مسائله (١). وغير خاف ان هذا الكتاب الثمين قد ضاع نصه السرياني الاصلي وحُفظت ترجمته العربية. ولولا هذه الترجمة لتناولته ايدي الضياع وخسر العالم فوائده (٢)

ومما تذرّع به العرب لتعزيز شؤون الفِلاحة او الزراعة في ما افتتحوه من البلدان انهم ابتنوا على الانهار اسداداً ليحصروا المياه ويوفروا من كمياتها مايلزم لرَيِّ الاراضي. ومن مآثرهم الجلية انهم شيّدوا مقاييس عديدة على نهر النيل ليسبروا غور مياهه ويعرفوا كميّتها وكيفية توزيعها على الحقول والمزارع. واشهر تلك المقاييس واقدمُها « مقياس الروضة » امَرَ ببنائه عام ٧٦ للهجرة أسامةُ بنُ زيد التّنوخي. ثم رممه الخليفةُ المأمون يوم ارتحلَ الى مصر سنة ٢١٧ للهجرة وعمّر جامعاً الى جانبه. وفي السنة ٢٤٦ للهجرة تولى ادارة المقياس عبدالله بنُ عبد السلام البصري في عهد المتوكل على الله (٢٣٢ – ٢٤٧ هـ). وبعد وفاة ابن عبد السلام عام ٢٧٩ للهجرة استمرت الولاية على المقياس في وُلدِه.

---

(١) مقدمة ابن خلدون : طبع المطبعة الادبية ببيروت : صفحه ٤٩٤ و ٤٩٧

(٢) كتاب « عصر المأمون » صفحه ٣٩٢

وقد نُقشت حول المقياس على رخام اربع آيات قرآنية بكتابة لازوردية (١) ففي جانبه الشرقي نقشت هذه الآية : « ونزّلنا من السماء ماء مباركاً فأنبتنا به جنّات وحبّ الحصيد » (٢). ونقشت في الجانب الشمالي آيتان هما : «ترى الارض خاشعة فاذا انزلنا عليها الماء اهتزّت وربَتْ » (٣) . «وانبتنا فيها من كلّ زوج بهيج » (٤) . ونُقشت في الجانب الغربي : « ألمَ تَرَ ان الله انزل من السماء ماء فتُصبحُ الارض مخضرة ان الله لطيفٌ خبير » (٥) . امّا الجانب الجنوبي فقد نُقشت فيه هذه الآية : « وهو الذي ينزّل الغيث من بعدما قنطوا وينشُر رحمته وهو الوليُّ الحميد » (٦)

٧ ـ انتشار علم الفلك في العصر الذهبي

كان لعلم الفلك شأن عظيم عند الخلفاء يرجعون في جلائل الامور الى اربابه والمتخصصين به . وقد وضع اولئك الارباب بدورهم كتباً لا يُحصى لها عدد دلّت على ذكائهم ونبوغهم . ومن تلك الكتب مخطوطات جمّة حرص عليها السلف وزينوا بها خزائن الكتب شرقاً وغرباً.

ويؤخذ من تلك المخطوطات ان « الكلدان » سبقوا جميع الامم في علم الفلك كما يدل عليهم اسمهم السامي اي « رصد النجوم » وكما قررته اقدم التواريخ واصدقها (٧) . وعن الكلدان أخذ الفرس فاليونان فالرومان فالعرب .

ومما اضطر العرب الى الاعتناء اعتناء خاصاً بعلم الفلك ارتباطه بالعبادات الاسلامية وعاداتها كتنظيم اوقات الصلوات الخمس والاتجاه حين تلاوتها نحو الكعبة

---

(١) وفيات الاعيان : لابن خلكان : جزء ١ صفحة ٣٤٠ (٢) القرآن: سورة ق : ٩
(٣) القرآن :سورة فصلت : ٣٩ (٤) القرآن . سورة ق : ٧ (٥) القرآن : سورة الحج ٦٣
(٦) القرآن: سورة الشورى : ٢٨ (٧) الكتاب المقدس : نبوءة دانيال: الاصحاح الثاني

او القبلة وفرض الصوم والفطر في غرة هلال رمضان ومُحاقه وسلخه (١) . ذلك كله حمل الخلفاء وفي مقدمتهم ابو جعفر المنصور على تقريب الفلكيين واستشارتهم والتعويل على آرائهم (٢) . ثم انشأوا المراصد الفلكية تسهيلًا لمهمتهم في انحاء الملك الاسلامي .

واشهر المراصد الفلكية التي انشأها العرب في العصر الذهبي : مرصد سمرقند ومرصد « شماسية » قرب بغداد . ومرصد جبل قاسيون بجوار دمشق وقد تحول بتوالي الزمان الى منارة للتخاطب بالنار (٣).

ولسنا ننسى مرصد جنديسابور الذي رصد فيه احمد النهاوندي في ايام الخليفة هارون الرشيد . وقد الف هناك كتاباً مصوراً سماه « المستمال » اودعه من تحقيق النظر وتعميق الفكر فيما عرض له من امور الفلك بما رصد ما لم يسبق اليه احد من المنجمين (٤) .

وابتنى الخلفاء مرصداً في الرقة على ساحل الفرات رصد فيه الكواكب ابو عبدالله محمد بن جابر بن سنان الحرّاني البتاني (٥) مدة اربعين سنة (٢٦٤–٣٠٦هـ). وتوفي عام ٣١٧ للهجرة. قال ابو الفرج ابن العبري : « لا يُعلم احد من الاسلام بلغ مبلغ ابن جابر في تصحيح ارصاد الكواكب وامتحان حركاتها » (٦) . واثبت لالند Lalande (١٧٣٢ – ١٨٠٧) الفلكي الفرنسي : « ان ابا عبدالله البتاني هو احد الائمة الفلكيين العشرين الذين اشتهروا في العالم » (٧).

---

(١) تاريخ علم الفلك : صفحة ٢٢٩

(٢) تاريخ علم الفلك : صفحة ١٤٣

(٣) محاضرات المجمع العلمي العربي بدمشق : مجلد ١ صفحة ١٦٥

(٤) حضارة الاسلام في دار السلام : لجميل مدور : صفحة ٢٠٩

(٥) البتاني نسبة الى (بيت باتين) وهي بلدة واقعة بين الرها وحران

(٦) تاريخ مختصر الدول : صفحة ٢٧٤

(٧) علم النجوم على عهد الخلفاء : بقلم موريس كولنجت (المشرق : مجلد ٣ سنة ١٩٠٠ صفحة ٦٧٨)

وشيد شرف الدولة بن عضد الدولة سنة ٣٧٧ للهجرة مرصداً بطرف بستان دار المملكة . وتقدّم الى اعلام الفلكيين برصد الكواكب السبعة . واعتمد في ذلك على ويجن بن وشم ابي سهل الكوهي وعلى احمد بن محمد المنطقي الصاغاني المتوفى في بغداد سنة ٣٧٩ للهجرة . وكان الصاغاني فاضلاً في الهندسة وعلم الهيئة يُحكم الآلات الرصدية ببغداد غاية الاحكام (١) .

واسّس الفاطميون مرصداً في الفسطاط بمصر ازاء الروضة ليس بعيداً عن مسجد عمرو بن العاص (٢) . واقام الافضل امير الجيوش في عهد الخليفة الفاطمي الآمر باحكام الله (٤٩٥ – ٥٢٤ هـ) مرصداً عظيما كلفه مشقة وافرة وجعل مركز ذلك المرصد على ارتفاع بجوار المقطّم عُرف قديماً بالجرف . ولما اقيم فيه المرصد صار يُعرَف بالرصد (٣) .

ومن الثابت ان اول المراصد في اوروبا انما شيده العرب في اشبيلية بالاندلس (٤) يضاف اليه مرصد آخر في الاندلس يقال له «مرصد جيراك»

ومن المراصد الشهيرة مرصد مراغا باذربيجان . كان ناظره نصير الدين الطوسي المتوفى سنة ٦٧٥ للهجرة وكان حكيما عظيم الشأن في جميع فنون الحكمة . واجتمع اليه في الرصد جماعة من الفضلاء المهندسين وانشأ تصانيف كثيرة منطقيّات وطبيعيات والاهيات (٥) .

٨ – الطب والاطباء في العصر الذهبي

وجّه الخلفاء العباسيون عناية خاصة الى درس الطبابة واتقانها وتعميمها .

---

(١) تاريخ مختصر الدول : صفحة ٣٠٧

(٢) علم النجوم على عهد الخلفاء (المشرق : مجلد ٣ سنة ١٩٠٠ صفحة ٦٧٨)

(٣) تاريخ مصر الحديث : لجرجي زيدان : مجلد ١ صفحة ٢٩٠

(٤) المقتطف : مجلد ٧ سنة ١٨٨٣ صفحة ٢٤١

(٥) تاريخ مختصر الدول : صفحة ٥٠٠ – ٥٠١

فتقدموا باحضار رهط من نوابغ الاطباء الى دار السلام وفوّضوا اليهم تجهيز الادوية والعقاقير ومعالجة المرضى في قصورهم وغيرها . وكلفوهم كذلك ان يلقوا دروساً طبّية في مدارسهم وينقلوا مؤلفات يونانية الى اللغة العربية تعميماً لفوائدها . فنهض اولئك الاطباء يخدمون الخلفاء واركان الدولة خدمة أمينة أكسبتهم ثقة الخاصة واحترام العامة .

كان اولئك الاطباء ومعظمهم من النصارى يلازمون الخلفاء في بلاطهم ويجلسون معهم الى مائدة طعامهم (١) . ويداعبونهم ويحادثونهم طويلا ويضاحكونهم (٢) . ويعالجون حظاياهم وسراياهم (٣) ويرافقونهم في حروبهم واسفارهم (٤) . ولهذا غلب عليهم اعني على الاطباء لقب « حكماء » دلالة على حسن تدبيرهم وصائب فكرهم .

وكان الخلفاء بدورهم يُجلون اطباءهم ويرحبون بهم ويُسنون لهم اعطيات وافرة . ويعودونهم في بيوتهم حين مرضهم ويراسلونهم . وكانوا يتسمحون معهم في قضايا دينهم ويحضرون احياناً الصلاة عليهم بالشمع والبخور في جنازاتهم (٥) .

ومما يؤيد جزيل اعتبار الخلفاء لاطبائهم ان العزيز خليفة مصر كتب بخط يده رسالة الى طبيبه منصورِ بن مقشر النصرانيّ يهنئه بنقاهته من مرضه هذا نصها : « بسم الله الرحمن الرحيم . طبيبنا سلّمه الله سلامَ الله الطيّب وأتم النعمة عليه . وصلت الينا البشارة بما وهبه الله من عافية الطبيب وبرئهِ والله العظيم لقد عَدَل عندنا ما رُزِقناه نحن من الصحّة في جسمنا . اقالك الله العثرة وأعادك الى افضل ما عوّدك من صحة الجسم وطيبة النفس وخفض العيش بحوله وقوّته » (٦) .

---

(١) تاريخ مختصر الدول : صفحة ٢٢٨ (٢) تاريخ مختصر الدول : صفحة ٢٣٩ و ٢٦٥
(٣) تاريخ مختصر الدول : صفحة ٢٢٦ (٤) تاريخ مختصر الدول : صفحة ٢٤٦
(٥) تاريخ مختصر الدول : صفحة ٢٤٣ (٦) تاريخ مختصر الدول : صفحة ٣١٦

هكذا ارتفع شأن الاطباء وعظُمَ قدرُهم حتى اصبحت لهم المنزلة العليا في جميع انحاء الدولة. وقد خلفوا في صناعتهم هذه الشريفة آثاراً مجيدة تشهد لهم بالبراعة وطول الباع.

ولا ريب في ان تلك المزايا السامية حملت فريقاً من المؤرخين على ان يعنوا بتأليف كتب وافرة دونوا فيها تراجم اولئك الاطباء النطاسيين ووصفوا مناقبهم وعددوا مؤلفاتهم ونوادرهم. وعلى سبيل المثال نذكر من تلك المؤلفات ما يلي: كتاب «اخبار الاطباء والمنجمين» ليوسف بن ابرهيم الحاسب المعروف بابن داية في ايام المأمون. وكتاب «تاريخ الاطباء» (١) لاسحق بن حنين (+ ٩١٠ م) وكتاب «اخبار الاطباء» تأليف فثيون الترجمان النسطوري في القرن الثالث للهجرة. وقد ذكره ابن ابي اصيبعة اكثر من ثلاثين مرة في تاريخه. وكتاب «مناقب الاطباء» تأليف عُبيدالله بن جبرائيل (+ ١٠٥٨ م) بن بختيشوع. وكتاب «دعوة الاطباء» للمختار بن الحسن بن عبدون البغدادي المعروف بابونيس بن بطلان.

وقد تفرّغ الوزير جمال الدين القفطي (٥٦٨ – ٦٤٦ هـ) لسرد اخبار الاطباء في كتابه «اعلام العلماء باخبار الحكماء». ثم توسّع في ذكر اخبار الاطباء وتعداد مؤلفاتهم مُوفقُ الدين بن ابي اصيبعة المتوفى سنة ٦٦٨ للهجرة في كتابه المشهور «عيون الانباء في طبقات الاطباء». فسرد اخبارهم واحداً فواحداً وعدّد تآليفهم الوافرة تأليفاً فتأليفاً بعبارة جزلة دقيقة استحق لاجلها اجمل الثناء.

ولسنا نرى ان نغمض عن ذكر ابي الفرج ابن العبري الذي شَحن كتابه «تاريخ مختصر الدول» بذكر مشاهير الاطباء وطرائفهم منذ صدر الخلافة العباسية حتى اواخر القرن الثالث عشر للميلاد.

---

(١) اخبار الحكماء: لجمال الدين القفطي: طبعة ليبرت: صفحة ٨٠

ومن اجلى الادلة على رواج سوق الطبابة في العصر العربي الذهبي الوفُ التآليف الطبيّة الباقية الى هذا اليوم في المكتبات العامة والخاصة شرقاً وغرباً. وادمغ برهان على ذلك ان كلية الطب بباريس حوت عام ١٣٩٥ فهارس لمخطوطاتها الطبية العربية في اثني عشر مجلداً كلها مؤلفات لأطباء العرب. وكان لويس الحادي عشر ملك فرنسا (١٤٦١ – ١٤٨٣) شديد القلق على صحّته فرغب ان تكون في خزانة قصره كتب محمد بن زكريا الرازيّ (٣٢٠ هـ) الطبية. ولم يكن منها اذ ذاك في مكتبة كليّة الطب الباريسية الا نسخة واحدة فاستعارها الملك بشرط ان يردّها وقد فعل.

وحسبُ العرب فخراً ان الدول الأوروبية اتخذت كتبهم الطبية دستوراً للتدريس في جامعاتها التي سيطر عليها الفكر العربي منذ القرون الوسطى. فنقلت المؤلفات العربية الى اللغات الاوروبية وظلت الجامعات تدرّسها حتى السنة ١٦٥٠ للميلاد. واقدم تلك الجامعات جامعة مدينة «سالرنو» بايطاليا في القرن الحادي عشر للميلاد. وتأسست بعدها جامعات غيرها في بالرمو وبادوا ومونبليه وباريس وبولونيا الخ الخ.

٩ ـ المارستانات في العصر العربي الذهبي

لم يكتف العرب بالانتاج النظري في العلوم الطبية بل استخدموا علمهم ايضاً في معالجة المرضى وتخفيف آلامهم وتأمين راحتهم (١). فأنشأوا لذلك مستشفيات او مصحّات اطلقوا عليها لفظة «مارستان» من «بيمارستان» الفارسية. وشيدوها في عواصمهم وكبريات مدنهم كمكة المكرمة والمدينة المنورة ودمشق عاصمة الامويين وبغداد عاصمة العباسيين والقاهرة عاصمة الفاطميين والقدس الشريف وانطاكية والري وسمرقند وغيرها. ثم عينوا لكلّ مارستان اوقافاً غنية يُنفق ريعُها في

---

(١) ماثر العرب في العلوم الطبية: للدكتور سامي حداد: صفحة ٣٢ - ٣٧

سبيل المرضى والاطباء ومشترى الادوية والممرضين . وفوضوا امرها الى مدراء اكفاءَ انتقوهم من امراء البلاد او من قوّاد الجيش او من سراة القوم .

واقدم مارستان اسلامي ورد ذكره في التاريخ هو مارستان الفسطاط بالقاهرة ابتنـــاه الخلفاء الامويّن ازاء دار عمرو بن العاص بجوار الجامع المشهور باسمه (١) وكان مركزه في زقاق القناديل شرقي الجامع المشار اليه . واشتمل هذا الزقاق ايضاً على سوق للكتب والدفاتر والظرائف وغيرها (٢) . وفي القاهرة كذلك مارستان قديم عُرِف بالمارستان الكبير المنصوري او مارستان السلطان قلاوون (٦٧٨ – ٦٨٩ هـ) (٣)

وافتخرت دمشق بالمارستان النوري نسبة الى نور الدين (٥٤٢ – ٥٧١ هـ) بن زنكي . وهو يحوي الى يومنا كثيراً من النقوش والكتابات الاثرية (٤) .

وابتنى الخلفاء العباسيون مرستاناً كبيراً في بغداد عاصمتهم واقاموا له مدراء واطباء مشاهير نذكر منهم الحكيم النطاسي محمد بن زكريا الرازي المتوفى سنة ٣٢٠ للهجرة. وكان الرازي في اول امره متوليـــاً ادارة المارستان في الري ثم انتقل الى دار السلام وتولى ادارة « المارستان المقتدري » المنسوب الى الخليفـــة المقتدر بالله (٢٩٥ – ٣٢٠ هـ) . ومما يُذكر بالشكر والثناء لهذا الطبيب النبيل انه جمع الى الطب معرفة علوم القدماء « وكان كريمـــاً متفضلاً باراً بالناس حسن الرأفة بالفقراء والاعلاء حتى كان يجري عليهم الجرايات الواسعة ويمرضهم » (٥).

وابتنى العرب مارستانات خاصّة بذوي الامراض العقليـة اشهرها مارستان بلنسية بالاندلس. وقد قرر المؤرّخون ان للعرب فخراً في معاملة اولئك المرضى

---

(١) الانتصار لواسطة عقد الامصار : لابن دقماق الحنفي: مطبعة بولاق سنة ١٣٠٩ للهجرة

(٢) معجم البلدان : لياقوت الحموي : جزء ٤ صفحة ٣٩٦

(٣) تاريخ البيمارستانات في الاسلام : تأليف الدكتور احمد عيسى بك

(٤) مجلة المجمع العلمي العربي في دمشق : مجلد ١٦ سنة ١٩٤١ صفحة ٥٦٢

(٥) تاريخ مختصر الدول : صفحة ٢٧٤ و ٢٧٥

بالرفق والشفقة بينما كان «المجانين» في اوروبا يُعذّبون ويضطهدون ويعامَلون معاملة المجرمين . وما عدا المارستانات الخاصّة فقد اسّس العرب مارستانات عامّة في معظم المدن الاندلسية كقرطبة واشبيلية وغرناطة وطليطلة ومرسية والمرية ومالقة وغيرها من المدن العامرة . وكان نظام تلك المارستانات وافياً محكماً على نسقٍ لم تألفهُ اوروبا قبل ذلك العهد (١) .

١٠ ـ المتاحف في العصر العربي الذهبي

عُرفت المتاحف عند العرب منذ القرن الثاني للهجرة . واوّل مَن عُني بها الخليفة هرونُ الرشيد الذي جمع في قصرهِ آثار الملوك السالفين من ثياب واسلحة وصوالجة وآنية ورياش وغير ذلك . فانه اقتنى من ظرائفها القدرَ العظيم الثمين وحرص عليه وتفاخر به . وكانت تلك الآثار حافلة بفوائد جمّة صناعية وادبية وفنية (٢) .

ومما اشتمل عليه متحف الرشيد صندوق اودعه خواتم الخلفاء قاطبة بدءاً من الراشدين فالأمويين فالعبّاسيين فمن قام بدعوة الخوارج . فحوى ذلك الصندوق كل خواتمهم (٣) الاّ خاتم النبيّ الكريم . ولو لم يقع هذا الخاتم من عثمان بن عفان في بئر اريس كما تواتر في الانباء (٤) لمَا كفّ الرشيد عن طلبه .

ولم تقلّ قصورُ الفاطميين في القاهرة عن قصر هرون الرشيد في بغداد بما احتوته من الكنوز الثمينة والطُرَف الفاخرة . فكانت بمثابة متاحف يؤمها كبراءُ القوم وروّاد الادب ومشاهير السيّاح (٥) . وقد أتى على وصفها ارباب الرحلات ومؤرخو العصور الغابرة فأفاضوا في ذكر محاسنها ونوادرها الفنية

---

(١) نهضة العلوم الطبية في اسبانيا العربية وتأثيرها في اوروبا : بقلم زكي علي (مجلة الرسالة : سنة ٥ صفحة ٥٥٨ ـ ٥٦٠ في القاهرة) (٢) حضارة الاسلام في دار السلام : لجميل مدور : صفحة ١٦ (٣) العقد الفريد : لابن عبد ربه ـ ومروج الذهب : للمسعودي ـ والخطط والآثار : للمقريزي (٤) تقويم البلدان : لابي الفداء : صفحة ٨٧ طبعة باريس (٥) حياة الاسلام : بقلم مصطفى نجيب : صفحة ١٠٦

وسبق العرب سائر الامم بانشائهم متحفةً للحشرات منذ القرن الرابع للهجرة والعاشر للميلاد. ومما لا شبهة فيه ان الفرنج لم يعرفوا متاحف الحيوانات والحشرات ولم ينشئوا لها معاهد او حدائق خصوصية الا في نواحي القرن السابع عشر للميلاد. بناء عليه قلنا ونقول القول الفصل ان العرب سبقوا الفرنج في هـذا المضمار كما سبقوهم في امور اخرى يطول شرحها.

فالى العرب اذاً يعود الفضل في انشاء اول متحفة للحشرات والدويبات ونحوها. وقد انشأها ابو الفضل جعفر (٣٠٨ - ٣٩١ هـ) المشهور بابن حنزابة الوزير المحدّث البغدادي نزيلُ مصر (١). وتقلد ابو الفضل وزارة مصر في عهد كافور الاخشيدي المتوفى سنة ٣٥٧ للهجرة (٩٦٨ م) ودفن في القرافة الصغرى (٢).

١١ - رواج سوق العلماء وتعدد مصنفاتهم في العصر الذهبي

ما فرغ العرب من الحروب التي وقعت لهم في صدر الاسلام حتى وجهوا انظارهم الى تعزيز فنون الادب واحياء معالم العلم. فكتبوا في جميع المواضيع ما شاء ان يكتبوه بحيث إنه لو جُمعت كتب امة من الامم العريقة في العمران لمَا حوَت ما حوَته مؤلفات العرب من صنوف العلم.

بناءً عليه يطول بنا المجال لو تحرّينا ان نحصي اسماءَ جميع الكتاب الذين لمعوا في العصر الذهبي العربي ونستقصي اخبارهم ونعدد مؤلفاتهم. لان ذلك يستلزم بحثاً طويلاً لا شأن لنا فيه الآن. انما نكتفي بالاشارة الى فريق منهم تفردوا بتعدد مصنفاتهم استكمالا لموضوعنا.

فاذا القينا نظرة عامة على ذلك العصر المجيد رأينا مئات من حملة الاقلام لم يتركوا باباً من ابواب المعارف الا طرقوه وصنفوا فيه كتباً جمة تفوق حد الكثرة. ومن شاء الوقوف على تراجمهم ومؤلفاتهم ونوادرهم فعليه ان يطالعها في

---

(١) المشرق : مجلد ١٠ سنة ١٩٠٧ صفحة ٣٤٤

(٢) تاريخ مصر الحديث : لجرجي زيدان : جزء ١ صفحة ٢٤٥

الموسوعات والتواريخ القديمة . هكذا راجت سوق الآداب في عواصم الدول العربية وسالت قرائح العلماء في سائر اطرافها .

وحسبُنا ان نذكر من اولئك الاعلام على سبيل المثال : الجاحظ والصاحب بن عباد . وابن النديم وابن رشد والخليل بن احمد وحنين بن اسحق . والفارابي والغزالي وابا الريحان البيروني وغيرهم . ونخص بالذكر منهم الاصمعي (٧٣٩-٨٢٩م) الذي استظهر اثني عشر الف ارجوزة وأربى عدد مؤلفاته على الاربعين . وخلف ثابت بن قرة (٧٤٠ - ٨٢٠ م) الحرّاني مائة وعشرين كتاباً . وكان ابو تمام يحفظ اربعة آلاف ارجوزة غير القصائد والمقاطيع . وبلغت مؤلفات يعقوب الكندي (+ ٨٦١ م) فيلسوف العرب مائتين واربعين مؤلفاً . وكان ابو الفرج الاصبهاني (٨٩٨ - ٩٦٦ م) يستصحب في اسفاره وتنقلاته حِملَ ثلاثين جملًا من كتب الادب ليطالعها . على ان نقل الكتب في الاسفار كان مألوفاً عند ادباء العرب في الازمنة الغابرة . فهارون الرشيد ذاته لما ركب الى الرقة في بعض اسفاره نقل معه ثمانية عشر صندوقاً من كتب مؤلفي العرب (١) ليصرف بمطالعتها برهة من اوقاته . واعتنى العلماء بديوان ابي الطيب المتنبي (٩١٦ - ٩٦٦ م) فشرحوه اكثر من اربعين شرحاً ما بين مطولات ومختصرات . وكان ابو بكر الخوارزمي (٩٢٩ - ٩٩٢) يحفظ اكثر من عشرين الف بيت من شعر العرب . اما الشيخ الرئيس ابن سينا المتوفى سنة ١٠٣٦ للميلاد فقد بلغت مصنفاته اثنين وتسعين كتاباً (٢) . والف ابو علي بن الحسين بن الهيثم المهندس البصري نحو سبعين كتاباً في الهندسة (٣) . وكان يكتب كل سنة ثلاثة كتب يبيعها بمائة وخمسين ديناراً وتوفي سنة ١٠٢٩ م . وكان ابو العلاء المعري (٩٧٤ - ١٠٥٨ م) يملي على بضع عشرة محبرة في فنون شتى العلوم . وقد نظم الشعر وهو في الحادية عشرة من سنه . ولما توفي قُرىء على قبره سبعون مرثية (٤) . ونسخ ابن الجوزي

---

(١) الاغاني : جزء ٥ صفحة ٦٧ طبعة بولاق (٢) تاريخ الدول السرياني : لابي الفرج ابن العبري : صفحة ٢٢٠ (٣) تاريخ الدول السرياني : صفحة ٢١٠ - ٢١١ (٤) مجاني الادب : جزء ٦ صفحة ٣١١

(١١١٧ - ١٢٠٢ م) كتباً جمة ذهب المغالون في عدّها فقالوا : « لو جُمعت الكراريس على المدة التي عاشها وحُسبت مدة عمره وقُسمت الكراريس على المدة التي عاشها كان ما خص كل يوم من حياته تسع كراريس». وانافت مصنفات موفق الدين عبد اللطيف (١١٦١ - ١٢٣١ م) على المائة والستين . وكان في النهار يُقرىء الناس بالجامع الازهر وكان في الليل يشتغل على نفسه . وبلغت مصنفات تقي الدين ابن تيمية الحرّاني (١٢٦٣ - ١٣٢٨ م) خمسمائة مؤلف. وناهزت مصنفات جلال الدين السيوطي (١٤٤٦ - ١٥٠٥ م) نحواً من اربعمائة مصنف !!

ذلك كله يدل دلالة واضحة على ما بلغت اليه النهضة العربية في عصرها الذهبي من المقام الرفيع لا ما بين الامة العربية فحسب بل ما بين امم العالم طراً . تلك حقيقة جَلية ناصعة أيدها كل من له إلمام بتاريخ العرب وآثار خلفائهم واخبار اعلامهم وادبائهم في القرون الغابرة . فعسى يكون مثلهم دافعاً لأحفادهم في هذا العصر كي ينسجوا على منوالهم فيجددوا ذلك المجد اللامع في افق العروبة . وليس ذلك على اجتهادهم بالعسير اذا ما استعانوا بالله الرزاق الكريم « والله خيرُ الرازقين » (١)

---

(١) القرآن : سورة الجمعة : ١١

الباب الثاني

المكتبات العربية

الفصل الاول

تكوين خزائن الكتب العربية

١ ـ حرص الاقدمين على تدوين آثارهم واخبارهم

لايخفى ان الكتابة هي دعامة الحضارات القديمة والحديثة على اختلاف عصورها وشعوبها وبلدانها . فهي التي حفظت علوم القرون السابقة ومهدت للمتأخرين سبيل التبسط في ما اتصل اليهم من معارف الاولين . وما كاد يتعلم الانسان فن الكتابة حتى اولع بتدوين اعماله وآثاره ومعلوماته فتولدت فيه فكرة صيانتها . وبازدياد تلك المعلومات وازدياد الحرص عليها نشأت المكتبات وانتشرت الرغبة بين الناس في جمع المؤلفات . وقد اثبت البحث في اخربة نينوى وبابل وتل العمارنة ان الميل الى جمع الوثائق والصكوك واساطير الاقدمين ليس حديثاً في الدنيا لكنه يرتقي الى ابعد ازمنة التاريخ .

من البديهي ان الانسان مفطور على الافتخار باعماله والتباهي بآثار اجداده والاشادة بمآثر ابطال وطنه يتغنى بها حقبة بعد حقبة . ولاجل ذلك نراه لا يألو جهداً في نقشها على الاضرحة او حفرها في الهياكل والابنية التاريخية او تدوينها في الخواتيم والنقود وبطون القراطيس كما جرى لجميع الامم الراقية التي وصلت الينا

بقاياها . وكل من له المام بعلم التاريخ يشهد بما خلفه الاثوريون والبابليون والمصريون والحثيون والفينيقيون والصينيون والهنود والفرس والسريان واليونان والرومان وغيرهم من الآثار الباهرة التي تنطق بعبقريتهم واتساع دائرة معارفهم .

٢ ـ اشهر المكتبات في العصور الخالية

لا نخال احداً يجهل اسماء المكتبات الشهيرة التي اخنى عليها الزمان ودخلت في خبر كان . نخص بالذكر منها : مكتبة الرها (١) ومكتبة اورشليم (٢) ومكتبتي المتحف والسيرابيوم في الاسكندرية (٣) . والمكتبة الاوكتافية ومكتبة ابولون في رومة (٤) . والمكتبتين الملكيتين في القسطنطينية ـ ومكاتب الصين التي امر الامبراطور (هي ـ هونك ـ تي) باحراقها عام ٢١٣ قبل المسيح (٥) ومكتبة جزيرة ساموس التي انشأها بوليكرات . ومكتبة ارسطو التي استولى عليها ثيوفراست ثم اشتراها بطليموس فيلادلفوس (٦) . وقس على ذلك مكتبات عديدة نضرب صفحاً عن سرد اسمائها حباً للاختصار .

٣ ـ شهادة محمد فريد وجدي على صيانة المؤلفات في الكنائس والاديار

لرؤساء الكنيسة المسيحية منذ الاجيال الخالية يد بيضاء في جمع الآثار الكتابية والاحتفاظ بها في الاديار والكنائس . ولولاهم لفقدنا كثيراً من الذخائر العلمية التي خلفها الاولون وقد اصبحت بعدهم نبراساً يستضيء به اهل البحث في القرون اللاحقة .

---

(١) اوسابيوس القيصري : كتاب ١ خبر ١٣ صفحة ٦٨ — ٦٩ طبعة بيجان

(٢) اوسابيوس القيصري : كتاب ١ خبر ٧ صفحة ٤٦ ـ ٤٧ (٣) الاسلام في عصر العلم : بقلم محمد فريد وجدي : صفحة ١١٥ والمشرق : مجلد ١٤ سنة ١٩١١ صفحة ٣٩١ (٤) دائرة معارف القرن العشرين : مجلد ٨ صفحة ٦٠ ـ ٦١ (٥) مجلة الآثار : مجلد ١ سنة ١٩١٢ صفحة ٣٣١ ـ ٣٣٣ (٦) الكتب والمطالعة : بقلم انيس سلوم (محاضرات المجمع العلمي العربي في دمشق) : صفحة ٢٦٣

ولما كان قد شهد بهذه الحقيقة جميع المؤرخين على اختلاف اديانهم وبلدانهم وازمانهم رأينا ان نقتصر على ما رواه العلاّمة المصري محمد فريد وجدي قال : «فلماجاءت القرون الوسطى كانت المكتبات القديمة بين يونانية ورومانية قد ادركها العطب . فلم يبق منها الا عدد نزر من المؤلفات القديمة . فكان للكنيسة المسيحية الفضل في الاستيلاء عليها وحفظها بين جدرانها بعيدة عن الضياع... وما بقي من آثار الاقدمين لم يوجد الا في الكنائس المسيحية (١) »

٤ ـ المعلقات في البيت الحرام

للعرب اساليب خاصة تفردوا بها في احياء مآثرهم وتخليد مفاخرهم . فقد بلغ بهم كلفهم بالشعر وتعظيمهم اياه انهم عمدوا الى خيرة القصائد من الشعر القديم فكتبوها بماء الذهب في القباطي . ثم علقوها في مدينة مكة على اركان البيت الحرام موضع حجهم . ذلك ما حملهم على تسميتها « المعلقات » او «المذهبات» وهي سبع معلقات طبقاً لرواية الزوزني . اما ابو زيد القريشي صاحب «جمهرة العرب» فقد جعلها ثماني معلقات . واوصلها ابو زكريا التبريزي وغيره الى عشر معلقات .

٥ ـ النقوش والكتابات في ابنية العرب

امتاز العرب ايضاً بما خلفوه من النقوش او الكتابات في قصورهم القديمة وابنيتهم الخالدة . نذكر منها طبقاً لرواية الجاحظ والهمذاني ما زينوا به قبة قصر غمدان وكعبة نجران وباب القيروان وباب سمرقند وباب الرها وعمود مأرب وركن المشقر والابلق الفرد . فكانوا يعمدون الى الاماكن البارزة فينقشون الكتابة في اقصى المواضع صيانة لها من الدثور لكي يشاهدها مَن مرّ بها ويحفظ ذكرها على كر الدهور .

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين : مجلد ٨ صفحة ٦١

ومن آثار العرب المشهورة ما بناه آل غسان النصارى اليعاقبة من القصور الشاهقة التي ما برحت اطلالها ظاهرة حتى الآن . وتلك الآثار كثيرة نذكر منها القصر الابيض وقصر المشتى الذي كُشِف سنة ١٩٠٨ وصرح الغدير . وقد اجاد في وصفها الاستاذ العالم رينه دوسو (René Dussaud) احد حفاظ متحف اللوفر في باريس. فانه عني بالتنقيب عن قصور الغساسنة عندما ارتاد جبال حوران واطلع على الشيء الكثير من بقاياهم في تلك النواحي الوعرة .

٦ ـ مصادر ابحاثنا عن المكتبات العربية

لما كان موضوع بحثنا عن المكتبات العربية صعب المسالك كثير الغموض لجأنا الى الوسائل الامينة التي تمهد لنا سبيـــل الوصول الى الضالة المنشودة . وكان اعتمادنا في تدوين هذه الابحاث على المؤلفات الاساسية التي خلفها مؤرخو العرب. وعلى مطبوعات بعض مشاهير الرحالين والمستشرقين الذين يركن الى صحة رواياتهم وسداد آرائهم. ولم نغفل عن مراجعة الموسوعات العربية والافرنجية التي تميط اللثام عن امور شتى تتعلق بهذا الموضوع .

وقد طالعنا ايضاً بتدقيق وافر أهم المجلات التي صدرت في الاقطار الشرقية وهي : المقتطف والهلال والضياء ورعمسيس واللطائف المصورة والرابطة العربية والرسالة والمجلة السورية ومجلة « جمعية محبي الفن القبطي » و « صحيفة الكلية الاميركية » ومجلة « الثقافة » و « المصور » و « الصخرة » و « منبر الشرق » في القاهرة . ومجلة « الجامعة » و « الراعي الصالح » في الاسكندرية . ثم الجنان والنحلة والمشرق والآثار الشرقية والمورد الصافي والكلية والنشرة الاسبوعية والجمهور والمعرض وتقويم البشير ومجلة « الكنيسة الكاثوليكية » ومجلة « البصائر » و « رسالة السلام » والكشاف والايمان والاديب في بيروت. والآثار في زحلة. والمسرة في حريصا. والمنارة في جونية بلبنان. والعرفان في صيدا. والمقتبس والنعمة ومجلة المجمع العلمي العربي في دمشق . ومجلة « الحب والسلام » في حمص . ومجلة

الحديث ومجلة الضاد ورسالة العمال في حلب. ومجلة « لغة العرب » والمؤرخ ونشرة الاحد في بغداد . ومجلة النجم في الموصل. والمجلة الزيتونيـة ومجلة الافكار ومجلة الجامعة ونشرة الجمعية الخلدونية في تونس . وغيرها وغيرها وغيرها .

٧ ـ تغاضي المؤرخين عن تدوين اخبار المكتبات

مما يؤسف له انه على خطورة خزائن الكتب العربية ووفرة عددها في سالف الازمنة لم يقم بين جميع المؤرخين مَن دوّن لها تاريخاً وافياً ومستقلاً براسه . بل دوّنوا كل ما جاء عنها عرضاً في سياق كلامهم عن غيرها (١) من الحوادث والاخبار. فاضطررنا لادراك الهدف الذي توخينـاه من وضع هذا التأليف ان ندرس اول بدءٍ مطولات الأسفار ونطالع شتى المصادر. ثم اخذنا نقابل مختلف روايات المؤرخين تمحيصاً لما دوّنوه واثباتاً للحقيقة . وقد صادفنا في طريقنا عقبات كؤوداً لم تثبط عزمنا عن مضاعفة الجهود في التنقيب والدرس حتى تحققت امانينا بعونه تعالى وحوله .

---

(١) محمد فريد وجدي : دائرة معارف القرن العشرين : مجلد ٨ صفحة ٧٥

الفصل الثاني

انتشار المكتبات وآثارها في الأقطار العربية

١ ـ انتقال العرب من البداوة الى الحضارة

وصف المؤرخون ما كانت عليه حالة العلم من الخمول عند العرب في ايام جاهليتهم وصدر الاسلام . واوردنا على ذلك نصوصاً صريحة لمشاهير كتاب العرب انفسهم تؤيد هذه الحقيقة الراهنة . ولم يطل الزمان حتى تبدلت تلك الحال رأساً على عقب بسرعة عجيبة . فانتقل العرب من البداوة الى الحضارة ومن اقصى دركات الجهل الى اسمى درجات الثقافة . ويعزى هذا الانقلاب العظيم الى امرين جوهريين : اولهما الى اختلاطهم بالشعوب الراقية التي تغلبوا عليها . وثانيهما الى ما نقلوه الى لغتهم من علوم تلك الشعوب كاليونان والسريان والفرس والعبرانيين والهنود وغيرهم . ثم أخذوا يصنفون الكتب في شتى المواضيع العلمية حتى فاقوا على جميع الامم التي سبقتهم في هذه الحلبة الشريفة .

٢ ـ اقدم الآثار الكتابية بعد الاسلام

من اقدم الآثار الكتابية العربية التي ذكرها المؤرخون انه وجد في خزانة الانبار عدة كتب بخطوط بعض الصحابة والتابعين (١) . واثبت ايضاً ابن النديم صاحب «الفهرست» قال (٢) : « رأيت في مكتبة عند بعضهم قمطراً كبيراً فيه نحو ثلاثمائة رطل من جلود وقراطيس مصرية وورق صيني وخراساني وتهامي فيها

---

(١) مجلة المجمع العلمي العربي : مجلد ١٠ سنة ١٩٣٠ صفحة ٤٠٨

(٢) « فصحاء الاعراب » للشيخ عبد القادر المغربي (مجلة المجمع العلمي العربي : مجلد ٩ سنة ١٩٢٩ صفحة ١٤٦)

خطوط بعض الصحابة . قال : وبينها اربعة اوراق احسبها من ورق الصين وعليها عنوان هكذا : هذه فيها كلام في الفاعل والمفعول من ابي الاسود رحمة الله عليه بخط يحيى بن يعمر . ويحيى بن يعمر هذا من اشهر اصحاب ابي الاسود الدوءلي الذي عاش في القرن الاول للاسلام . ولعلّ اول تأليف علمي ظهر بعد ظهور الاسلام هو صحيفة ابي الاسود المعروفة لدى النحاة بعنوان « تعليقة ابي الاسود » وهي التي ضمنها القواعد الاولى في علم النحو وتقسيم الكلمة الى اسم وفعل وحرف .

٣ ـ مغالاة العرب في اقتناء الكتب وتجميعها

لما توفرت للعرب الوسائل المادية والادبية اكبوا على التأليف فابدعوا فيه ولم يتركوا باباً من ابواب المعارف الا ولجوه . وبتوالي الازمنة اولعوا بجمع الكتب فسعوا لاقتنائها بشتى الطرق وتتطلبوها من كل حدب وصوب. فآثرها اهل الذكاء والفضل على كل قنية فاخرة وحلية ثمينة. وقد تساوى في ذلك كبيرهم وصغيرهم أغنياؤهم وعلماؤهم. ولم يتخلف عن ذلك نساؤهم ايضاً كبنت الملك العادل ضيفة خاتون وغيرها ممن ذكرهنّ المؤرخون. فانهم ادركوا قيمة المكتبات وفوائدها وشدة الاحتياج اليها . ولأجل ذلك اعتبروها اساساً ترتكز عليه قواعد الثقافة وركناً تتوثق به دعائم الحضارة وسبيلاً مؤدياً الى الخير والفلاح ومرقاةً موصلة الى ذروة الآداب والفنون.

وكانت المكتبات في عرف من ألمعنا اليهم نبراساً تنجلي به الرموز ومفتاحاً تنكشف به الاسرار والكنوز. بل محنطاتِ عقول العلماء ومرايا تخيلات الشعراء. وخزائن آراء الفلاسفة وسجلات اقوال الخطباء . وخلاصة القول ان المكتبات هي مرجع احكام الدنيا والدين ومستودع علوم الاولين والآخرين .

يذكرنا ذلك بما سطره قديماً كيكرون او شيشرون الخطيب الروماني. وقد جرى

قوله مجرى الامثال مدى الاجيال. فنظم احد الادباء قول كيكرون في الشعر العربي فأبدع وأجاد :

كيكرونُ قال قولا حبّذا القولُ النصوحْ
كل بيتٍ دون كتبٍ جَسدٌ من غير روح

٤ ـ تنافس العلماء والخطاطين والمجلدين في تعزيز المكتبات

من تتبّع تاريخ الحركة الفكريّة في الدول العربية الاولى رأى ان قدماء مؤلفي العرب واساتذتهم النَقَلة الاعاجم شحنوا المكتبات بمؤلفاتهم النفيسة التي لا تجارى في مضمار . وقد شهد لهم بوفرة عددها وجزيل فوائدها علماء كلّ الامم في العصور الغابرة والحاضرة . وتجلّى ذلك بأبهى مظاهره في عصر النهضة العربية اذ برز اكبر عدد ذكره التاريخ من مشاهير المؤلفين في الفلسفة والطب والفلك والهندسة واللغة والشعر والدين والتاريخ والجغرافيا وسائر العلوم العقليّة والنقليّة.

وكان الخطاطون يتبارون في تنميق تلك الكتب وتجويدها وتوفير عدد نسخها ترغيباً للادباء والاغنياء والحكام في احرازها وتزيين مجالسهم بها .

وكان المجلدون بدورهم يتفنّنون لدرجة الابداع في تجليد المخطوطات وتزويقها ورقش قماطرها بالديباج والفضة وسائر انواع الزخارف . وكان كلّ من ذكرناهم من مؤلفين ومترجمين وخطاطين ومجلّدين فضلاً عن التجار والورّاقين واهل الضبط والاتقان يتنافسون افراداً وجماعاتٍ في تعزيز المكتبات وتنشيط القائمين بها .

٥ ـ تكاثر المكتبات في البلدان العربية تكاثراً مدهشاً

هكذا نشأت خزائن الكتب بين المتكلّمين بالعربية فانتشرت انتشاراً غريبا لم تألفه بقيّة الامم قبل ذلك التاريخ وبعده . وكانت تلك الخزائن عامّة وخاصّة . فالعامة اسسها الخلفاء والملوك في الحواضر وكبريات المدن مثل « بيت الحكمة » في بغداد و « دار العلم » في القاهرة وامثالها في الشام وفلسطين وما بين النهرين

واليمن واقطار المغرب وفارس وافغانستان والاندلس وغيرها .

اما المكتبات الخاصّة فقد تكاثرت في جميع الامصار تكاثراً مدهشاً بعناية نصراء الادب وطلاّب الشهرة . واصبحت هذه الخزائن الخاصّة التي تحتوي على عشرات الآلاف من المخطوطات تُعَدّ بالعشرات بل بالمئات في قصور الامراء ودور العلماء والعظماء من المسلمين وغير المسلمين . وصارت الكتب في ذلك العصر من دواعي الابّهة وادّلة الحضارة يتنافس في اقتنائها كبار التجّار واهل الوجاهة وارباب الثروات وإن كانوا من غير طبقة العلماء .

٦ ـ تشييد المكتبات ومعاهد العلم بجوار قبور العظماء

انصرف الانسان منذ العصور الخاوية الى تشييد الابنية الفخمة فوق اجداث الملوك والعظماء . فقبر ابرهم الخليل وسلالته في « المغارة المضاعفة » التي اشتراها من عفرون باربعمائة مثقال من الفضة (١) . وأهرام الفراعنة واضرحة ملوك يهوذا واسرائيل والمقابيين . ومدافن الآراميين والآثوريين والبابليين والحثيين والفرس . وقبور اليونان والرومان والانباط واباجرة الرها وملوك تدمر . ولا سيما مدافن ملوك الفنيقيين في صور وصيدا وجبيل وضريح الاسكندر ذي القرنين وهلم جرا . فهذه المزارات التاريخية باجمعها اعظم شاهد على صحة قولنا .

اما الاسلام ففي بداية امره لم يكترث للقبور ولاقامة البناء عليها . فكان رأيه فيها « خير القبور دوارسها » . غير انه بتوالي الازمان امتزج المسلمون بسائر الشعوب وأخذوا عنهم بعض تقاليدهم وعاداتهم . هكذا اصبح على اضرحة عظماء المسلمين من خلفاء وسلاطين وامراء وعلماء ابنية شاهقة تعلوها قباب أطلق عليها اسم « تُرَب » جمع تربة .

ومما لا جدال فيه ان قبة ضريح الامام علي في النجف هي أقدم قبة من نوعها

---

(١) سفر التكوين : ٢٣ : ٩ ـ ١٥

عرفها الاسلام . ثم شاع استعمال القبب وذاع في جميع الاقطار الاسلامية فورد ذكرها باسم « تربة » في التواريخ والخُطط والتراجم وكتب الطبقات وغيرها . وقد عقد المقريزي في خططه بحثاً خاصاً بترب مصر (١) كما فعل عبد القادر النعيمي واحمد البقاعي وعبد الباسط العلموي في ترب دمشق . وكما فعل محمد بن طولون في ترب صالحية دمشق والشيخ وفا في ترب الانبياء والاولياء خارج مدينة حلب وداخلها (٢)

ومنذ منتصف القرن الخامس للهجرة أخذت الترب ترتدي ثوباً علمياً وتنطبع بطابع ثقافي . فكان يضاف الى التربة « مدرسة علم » او « مكتبة مطالعة » او « مكتب لتعليم الايتام والاطفال » او « مسجد للصلاة » يكون فيه درس علمٍ او قراءة قرآن . ففي سنة ٤٥٩ هجرية بنى شرف الملك محمد بن منصور الخوارزمي قبّةً (٣) على قبر الامام ابي حنيفة والى جانبها مدرسة كبيرة للحنفية . ولما تم بناؤها دعا اليها الفقهاء والعلماء والاعيان فانشد الشريف البيّاضي الشاعر هذين البيتين :

ألم ترَ أن العلم كان مبدداً ... فجَمّعهُ هذا الموسّدُ في اللحدِ
كذلك كانت هذه الارضُ ميْتة ... فأنعشها فعلُ العميدِ ابي سعدِ

والظاهر انّ هذه المدرسة هي الاولى من نوعها حيث يقوم معهد علميّ بجوار قبرِ رجل عظيم تسمّى المدرسة باسمهِ .

ومنذ ذلك الحين بدأت المعاهد العلميّة والخزائن الكتابية تشاد الى جانب قبور العظماء. وهذا ما دعا اصحابَ كتب الخطط ومؤرخي مدارس العلم ليفرزوا في مؤلفاتهم فصلاً خاصّاً بالترَب لِما لها من ناحية ثقافية (٤) .

---

(١) المقريزي : جزء ٤ صفحة ٣٤٨ ـ ٣٤٩ طبعة المليجي (٢) منظومة الشيخ وفا في اولياء حلب: للاب فردينند توتل: طبع بيروت سنة ١٩٤٠.

(٣) وفيات الاعيان : لابن خلكان : جزء ٢ صفحة ٢١٨ — ٢١٩ — والنجوم الزاهرة : جزء ٢ صفحة ١٥ (٤) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق : مجلد ١٦ سنة ١٩٤١ صفحة ١١٣

٧ ـ استطراد في رزايا المكتبات

لا ريب ان الحروب العديدة والفتن الاهلية والخصومات الدينية والمؤثرات السياسية وغارات البرابرة فتكت بقسم وافر من المكتبات العربية . فذهب بعضها فريسة النار والماء. ونهب بعضها واتلف بطرق مختلفة كما سنبين ذلك في فصول تابعة. هكذا قلّت مخطوطات ما ألف او ترجم بين القرنَين الثاني والسابع للهجرة . ولم يسلم منها الا ما لا يحفَل به . اما الباقي من المخطوطات الجليلة فأغلبه قد صنّف او نسخ منذ اواسط القرن السابع حتى اواخر القرن الحادي عشر للهجرة . ومما لا ريب فيه ان المنشور من مؤلفات السلف والمتداول منها بين ايدي الناس هو قل من كثر ولجّة من بحر . بل ان القليل الواصل الينا من مؤلفات الاوائل لا يُؤبَهُ له ولا يُعدّ شيئاً مذكورا بالمقابلة مع تصانيفهم التي طمس عليها الدهر.

ذلك لان اغلب الفاتحين او الغزاة لم يشفقوا على ما صادفوه في البلاد التي دوخوها من التحف والكتب والذخائر الثمينة . فكانوا يستولون عليها او ينقلونها الى بلاد اخرى او يتلفونها بطرق شائنة دلت على جهلهم او جورهم او قلة اكتراثهم للعلم . واثباتا لذلك نستشهد بما رواه جرجي زيدان في كتابه « تاريخ التمدن الاسلامي (١) » قال :

« لما ظهر الاسلام ونهض المسلمون للفتح احرقوا ما عثروا عليه من الكتب ... لكنهم ما لبثوا ان تحضروا وذاقوا طعم العلم حتى اصبحوا احرص الناس على الكتب واكثرهم بذلا في الحصول عليها واشدهم عناية في صيانتها » .

وكتب جرجي زيدان ايضاً في « تاريخ آداب اللغة العربية (٢) » ما نصه قال:

« لكن المصائب كانت تتوالى على الكتب العربية من جهة اخرى بما كان يقوم بين الفرق الاسلامية من المنازعات . او بمناوأة رجال الفلسفة واتهامهم بالزندقة واحراق كتبهم في انحاء المملكة الاسلامية . وناهيك بما فعله غير المسلمين من

---

(١) الجزء الثالث : صفحة ٢٠٥ (٢) جزء رابع : صفحة ١٠٦ و١٠٧

الفاتحين منذ تغلبهم على المسلمين او النقمة عليهم كما فعل الصليبيون في الشام والاسبان في الاندلس وغير ما بَلِيَ من الكتب بطول مكثه وفناء جلده او ورقه او بفعل النار او الفأر او نحو ذلك »

٨ـ اقتصار البحث في هذا التأليف على المكتبات العربية

ليس غرضنا في هذا التأليف تدوين اخبار جميع المكتبات قديمها وحديثها في في مشارق الارض ومغاربها. فان هذا الموضوع خارج عن دائرة بحثنا الذي حصرناه بالمكتبات العربية دون سواها . بناء عليه ضربنا صفحاً عن وصف المكتبات العظمى التي تزين عواصم الدول وشهيرات المدن في اوروبا واميركا . ولم نتعرض الا لذكر ما حوته من الكتب العربية من مخطوطة او مطبوعة . وقد اقتصرنا في هذا التأليف على تدوين اخبار خزائن الكتب العربية الشهيرة في الامصار المشرقية وجعلناها فئتين كبيرتين متميزتين: خصصنا احداهما بالمكتبات الاسلامية والثانية بالمكتبات النصرانية . ثم الحقنا بهما كلتيهما بحثاً عن المكتبات الاسرائيلية قديماً وحديثاً .

ولم نغفل عن ذكر مكتبات علماء الاستشراق ومكتبات ادباء سوريا ولبنان المنتشرة في الاقطار الغربية. فوصفناها وصفاً موجزاً والمعنا بفضل منشئيها في نقلهم ثقافة العرب الى اهل اوروبا واميركا.

الفصل الثالث

احصاء المكتبات العربية في الخافقين

١ ـ وصف اجمالي للمكتبات العربية في هذا الكتاب

يتعذر على الكاتب اياً كان مهما بالغ في التدقيق ان يقوم باحصاء كافٍ وافٍ للمكتبات العربية قديمها وحديثها . فنحن على ما بذلناه من الجهد وما تجشمناه من العناء استيفاء لهذا البحث الواسع الاطراف لم نتمكن من الحصول الا على اليسير من الكثير. وقد جمعنا كل ما توفقنا الى التقاطه من اخبار تلك المكتبات المتفرقة وتراجم منشئيها ومعززيها وحوادث خزنتها وسائر ما يتعلق بها. ثم سردناه شيئاً فشيئاً وبوبناه تبويباً علمياً تاريخياً جغرافياً. ونعتقد ان ذلك يروق اهل البحث على اختلاف درجاتهم واهدافهم ويفي بالحاجة .

ويستخلص من مطالعة ابواب هذا الكتاب وفصوله وفروعه ان عدد المكتبات التي اتينا على وصفها او نوّهنا بذكرها بلغ زهاء الف ومائتين وخمسين مكتبة عامة وخاصة قديمة وحديثة .

٢ ـ المكتبات العربية وما يقابلها من سائر المكتبات

لو تيسر لنا ان نتعهد المكتبات في الامصار التي ينطق سكانها بالضاد لألفينا عددها ضئيلاً لا يناسب مساحة بلدانها الفسيحة الارجاء. فاذا استثنينا منها بعض ما هو جدير بالذكر وجدنا باقيها لا يشتمل الا على مكتبات صغيرة ضيقة الجدران . وهي لا تكاد تنطوي من الكتب الا على ما احتاج اليه طلبة المدارس. وقد انشىء اغلبها في فجر النهضة العلمية الحديثة بهمة الحكومات او المجالس البلدية او بمساعي

اصحاب النفوذ والمروءة.

تلك حال اكثر المكتبات العربية العامّة في الزمان الحاضر ومَن وقف على مجمل ما فيها من المجلدات قضى ان مجموعها كله لايضاهي مجموع مجلدات مكتبة كبرى واحدة من مكتبات عواصم اوروبا واميركا. وقد يؤلمنا ان نصرّح بهذه الحقيقة التي يجب ان تدوّن خدمة للتاريخ وتنويهاً بواقع الحال. لكنا نثق ثقة تامّة بان الامة العربية جمعاء تستيقظ من سباتها فتنصرف الى استعادة امجاد السلف بانشاء معاهد الثقافة ودور الكتب فيصدق فيها اذ ذاك قول الشاعر:

فاذا رأيتَ من الهلال نموه ايقنتَ انْ سيصير بدراً كاملاً

بناء على ذلك كله هلمّ نلقِ نظرة اجمالية على المكتبات العامّة في الاقطار العربية وعلى ما احتوتهُ من المجلدات عربيةً وغير عربية. ثم نردفها باحصاء موجز لدور الكتب العامّة في اشهر الممالك وما فيها من المجلدات المختلفة اللغات:

٣ - جدول دور الكتب العامة ومجلداتها في البلدان العربية

مصر	: ١٦ مكتبة عامة	تحوي مليون و ٤٥٠ الف مجلد
الجزائر	: ٨ مكتبات عامة	تحوي ٦٠٠ الف مجلد
فلسطين	: ٦ مكتبات عامة	تحوي ٤٥٠ الف مجلد
لبنان	: ٣ مكتبات عامة	تحوي ٢٥٠ الف مجلد
سوريا والعراق والحجاز واليمن	: ١٥ مكتبة عامة	تحوي ٢٩٥ الف مجلد
المغرب الاقصى	: ١٠ مكتبات عامة	تحوي ١٠٠ الف مجلد
تونس	: ٧ مكتبات عامة	تحوي ٧٥ الف مجلد

يتحصّل من هذا الجدول ان المكتبات العامّة البالغة خمساً وستين مكتبة في جميع الامصار العربية لاتشتمل على اكثر من ثلاثة ملايين ومائتين وعشرين الف كتاب باللغة العربية وغيرها.

٤ ـ جدول دور الكتب العامة ومجلداتها في اشهر الممالك

اما دور الكتب العامة ومجلداتها في اشهر الممالك فقد نقلنا خلاصتها عن اوثق المصادر واصدقها وهذا بيانها :

الولايات المتحدة الاميركية:	٢٨٥	مكتبة عامة تحوي	٧٧	مليون مجلد
المانيا والنمسا :	١٤٥	مكتبة عامة تحوي	٤٥	مليون مجلد
الاتحاد السوفياتي :	١٢٠	مكتبة عامة تحوي	٤٥	مليون مجلد
بريطانيا العظمى :	٧٦	مكتبة عامة تحوي	٢٤	مليون مجلد
فرنسا :	٦٧	مكتبة عامة تحوي	٢٢	مليون مجلد
ايطاليا :	٤٨	مكتبة عامة تحوي	٢١	مليون مجلد
سويسرا :	٢١	مكتبة عامة تحوي	٦	ملايين مجلد
هولندا :	١٥	مكتبة عامة تحوي	٦	ملايين مجلد
بلجيكا :	١٣	مكتبة عامة تحوي	٥	ملايين مجلد
اليابان :	٩	مكتبات عامة تحوي	٤	ملايين مجلد
الدانمرك :	٦	مكتبات عامة تحوي	٢	مليوني مجلد
اليونان :	٢	مكتبتان عامتان تحويان	ثلاثة ارباع	مليون مجلد
الهند :	٣	مكتبات عامة تحوي	نصف	مليون مجلد
ايران :	٢	مكتبتان عامتان تحويان	مائة	الف مجلد

يتضح من هذا الجدول ان اربع عشرة مملكة من أرقى ممالك الدنيا بلغ عدد مكتباتها قبل اعلان الحرب العالمية ١٩٣٩-١٩٤٥ ثمانمائة واثنتي عشرة مكتبة فيها مائتان وثمانية وخمسون مليونا وثلاثمائة وخمسون الف مجلد.

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARY

الباب الثالث

المكتبات الاسلامية العامة

الفصل الاول

خزائنه كتب بغداد

اولاً : مكتبات بغداد في العصور الغابرة

١ ـ اعتناء المهدي خليفة بغداد بجمع الكتب

اول من ورد ذكره في التاريخ من الخلفاء العباسيين انه عُني بجمع الكتب هو محمد المهدي (١٥٨ — ١٦٩ هـ) والد هارون الرشيد (١٧٠ — ١٩٣ هـ) فانه ورث دفاتر علم اوصى له بها ابوه الخليفة ابو جعفر المنصور (١٣٦ — ١٥٨ هـ) عند وفاته وكان شديد الحرص عليها (١) .

ويؤيد عناية المهدي بجمع الكتب ما اثبته المؤرخ ميخائيل الكبير البطريرك السرياني (١١٦٧ — ١٢٠٠ م) قال (٢) : « ذكر المؤرخ داود الشرقي انه عثر في الكتب التي جمعها الخليفة المهدي ونقلها الى بغداد على الخبر التالي وهو : لما خرج يوحنا فم الذهب الى المنفى نقش على باب كنيسة انسطاسيا في القسطنطينية قوله : اني تركت للكنيسة ثمانمائة مجلد من الشروح والميامر والتراجم والكتابات التي أنعم الله تعالى بها علي » .

---

(١) الاغاني : جزء ٦ صفحة ٦١ (٢) تاريخ الازمنة : لميخائيل الكبير : صفحة ١٦٣ من طبعة شابو في باريس

٢ ـ مكتبة بيت الحكمة

لما كثرت الكتب المترجمة والمؤلفة في عهد هارون الرشيد دعت الحاجة الى تشييد بناء يستوعبها ويزّين بها عاصمة الدولة العباسية الفتاة . ثم انشأ هذا الخليفة « بيت الحكمة » وهو يُعد اعظم المكتبات العربية شأناً واقدمها زماناً . وكان « بيت الحكمة » هذا في بدء الامر « مكتبة » يشتغل فيها بعض النصارى فينقلون المؤلفات اليونانية القديمة (١). وقد نصب الخليفة في تلك المكتبة يوحنا بن ماسويه النصراني السرياني مترجماً للكتب الطبية القديمة لِما عهده فيه من الحصافة وسعة المعارف وكان الخليفة قد نقل تلك الكتب من انقرة وعمودية ومن سائر بلاد الروم حين افتتحها المسلمون وسبوا سَبيها : ثم عينّه الخليفة امينـاً على الترجمة ورتب له كتّاباً حذاقاً يكتبون بين يديه (٢). وروى جمال الدين القفطي ان ابا سهل الفضل بن نوبخت كان ينقل للرشيد من اللغة الفارسية الى العربية ما يجده من كتب الحكمة الفارسية .

ولما تولى عبدالله المأمون (١٩٨ – ٢١٨ هـ) الخلافة بعد الرشيد ابيه زاد في عدد الكتب ما لا يفوق عليه نفاسة ولم يشاهد مثله مجتمعاً في بلد من البلدان. وهي على اختلاف لغاتها اليونانية والسريانية والفارسية والقبطية والهندية والحبشية فضلاً عن العربية كانت تنطق بغزارة معارف مؤلفيها ومترجميهـا وتشيد بعناية الخلفاء العباسيين بجمعها وصيانتها. هكذا زَخَرَ « بيت الحكمة » بما نُقل اليه من الكتب من اطراف آسيا الصغرى والقسطنطينية وبما جمعه الربان حنين بن اسحق اثنـاء رحلاته في انحاء العراق والشام والاسكندرية وبلاد الروم (٣).

ولم تقتصر همة المـأمون على ذلك بل اخذ يحث القوم على مطالعة الاسفار

---

(١) الفهرست : لابن النديم : صفحة ٢٤٨

(٢) اعلام العلماء باخبار الحكماء : لجمال الدين القفطي : صفحة ٣٨٠

(٣) ضحى الاسلام : لاحمد امين : جزء ١ صفحة ٢٨٤

والاهتمام بصناعتي النساخة والتجليد . ويقال انه انفق على ترجمة كتب اليونان وحدها ثلاثمائة الف دينار (١) . ثم عيّن قيّماً «لبيت الحكمة» يُدعى خازناً لادارة شؤونه وصيانة كنوزه . واشهر مَن تولى هذه الوظيفة سهل بن هرون الدستميساني وهو فارسي شعوبي شديد التعصب على العرب . وقد اثبت ابن نباتة عن سهل بن هرون المذكور قوله : « وجعله الخليفة كاتباً على خزائن الحكمة وهي كتب الفلاسفة التي نُقِلَت للمأمون من جزيرة قبرس . وذلك ان المأمون لما هادن صاحب هذه الجزيرة ارسل اليه يطلب خزانة كتب اليونان وكانت مجموعة عندهم في بيت لا يظهر عليها احد ... فارسلها اليه واغتبط بها المأمون وجعل سهل بن هرون خازنا لها (٢) » .

وكان هدف هذا الخليفة من انشاء « بيت الحكمة » تسهيل سبل المطالعة والتأليف والدرس لتعليم الرعية . وهي الطريقة التي عوّل عليها الملوك القدماء اذ كان يتعذّر على غير الاغنياء اقتناء الكتب العديدة نظراً لغلاء اثمانها . فمَن شاء من الملوك ترقية المعارف بين الناس انشأ لهم مكتبة وفتح ابوابها لروّام العلم . هكذا فعل البطالسة في مكتبة الاسكندرية وقياصرة الروم في القسطنطينية والعباسيون في « بيت الحكمة » ببغداد والفاطميون في « دار العلم » بالقاهرة والامويون في خزائن كتب قرطبة بالاندلس والسلاطين الاغالبة في القيروان . واقتفى آثارهم خلفاء الدولة الموحدية في « مكتبة الحكمة » بمراكش (٣)

٣ ـ مكتبة ابي نصر سابور

من دور العلم التي أنشئت في بغداد على مثال « بيت الحكمة » مكتبة وقفها ابو نصر سابور (٣٣٦ ـ ٤١٠ هـ) بن اردشير وزير بهاء الدولة بن بويه الديلمي . بناها سنة ٣٨١ للهجرة في محلة بين السورين في الكرخ وجمع فيها ما تفرق من

---

(١) الرزنامة التونسية : سنة ١٩٢١ ميلادية (٢) شرح العيون : صفحة ١٣٢
(٣) مجلة « الجامعة » في تونس : مجلد ١ سنة ١٩٣٧ صفحة ١٩٠ ـــ ١٩٢

كتب فارس والعراق . واستنسخ من الهند والصين والروم كتبهم (١) . وجعل فيها نيفا وعشرة آلاف مجلد كلها بخطوط الائمة المعتبرة نذكر منها مائة مصحف نقتها انامل ابن مقلة (٢) . ثم اخذ العلماء يحبسون عليها نسخاً من مؤلفاتهم حتى اصبحت من اغنى دور الكتب في عاصمة العباسيين . لان سابور كان من اكابر الوزراء واماثل الفضلاء جُمعت فيه الكفاية والدراية . فاصبح بابه محط الشعراء ومجلسه مجتمع الحكماء والعلماء . ذكره الثعالبي في اليتيمة وعقد بابا مخصوصاً للشعراء الذين مدحوه لم يذكر معهم غيره (٣). واحترقت « دار العلم » في ما احترق من محال الكرخ عند مجيء طغرل بك اول ملوك السلجوقية الى بغداد سنة ٤٤٧ للهجرة (٤). وروى ابن الاثير ان هذا الحريق حدث سنة ٤٥١ للهجرة. ولعل روايته اصح والله اعلم (٥). والى هذه الدار المعتبرة اشار ابو العلاء المعري بقوله :

وغنّت لنا في دار سابور قينة من الورق مطراب الاصائل مهياب

٤ ـ مكتبة المدرسة النظامية

بعد خزائن كتب سابور أنشئت عام ٤٥٧ للهجرة مكتبة « المدرسة النظامية » وهي من اقدم المدارس الاسلامية . شيدها نظام الملك حسن بن اسحق وزير السلطان ملكشاه بن الب ارسلان السلجوقي على شاطىء دجلة في بغداد . ووقف عليها اسواقاً وضياعاً وحمامات وحانات فبلغت النفقات نحو الستين الف دينار . وكان يدّرس في المدرسة النظامية الامام الغزالي (٦)

---

(١) خطط الشام لمحمد كردعلي : مجلد ٦ صفحة ١٨٥ (٢) التاريخ الكامل لابن الاثير : جزء ١٠ صفحة ٣ ومعجم البلدان : جزء ٢ صفحة ٣٤٢ (٣) دائرة المعارف للبستاني مجلد ٩ صفحة ٣٦٧ (٤) تاريخ التمدن الاسلامي لزيدان : مجلد ٣ صفحة ٢٠٧ (٥) التاريخ الكامل : جزء ١٠ صفحة ٣ (٦) تاريخ الادب العربي لاحمد الزيات : صفحة ٣٣٥

٥ ـ مكتبة المدرسة المستنصرية

من خزائن الكتب الشهيرة في بغداد مكتبة « المدرسة المستنصرية » التي بناها المستنصر بالله ابوجعفر المنصور بن الطاهر الخليفة السادس والثلاثون (٦٢٣ـ٦٤٠ هـ) من بني العباس . وكان هذا الخليفة على جانب عظيم من الفضل وحسن الخلق والمزايا الجليلة . وقد وصفه ابن النجار في تاريخه قال : « لما ولي الخلافة نشر العدل في الرعايا وبذل الانصاف في القضايا . وقرّب اهل العلم والدين... واجتمعت القلوب على محبته والالسن على مدحه .

بنيت «المدرسة المستنصرية » ومكتبتها عام ٦٣١ هـ فوصفها الشيخ محمود شكري الآلوسي في كتابه « مساجد بغداد ومدارسها » قال : « هذه المدرسة رصينة البناء محكمة القواعد والارجاء . واسعة المساحة لم يُبنَ في ايامها احسن منها ولا اكثر وقوفاً . وهي على دجلة من الجانب الشرقي من بغداد عند الجسر الموجود اليوم . ولم تزل الى عصرنا هذا قائمة الاركان مشيدة البنيان ... وفي جنبها من جهة الغرب دار للكتب التي لم يجتمع مثلها في غير هذا المحل كثرة ونفاسة . وقد انفرد كل فن بمحل منها. وكانت فهرسة الكتب عدة مجلدات ضخام. وكان المحافظون عليها عدة اشخاص من المحدّثين يذاكرون المشتغلين بعلم الحديث باوقات مخصوصة علاوة على وظائفهم...وقد زارها ابن بطوطة عند مروره على بغداد ووصفها بابدع وصف واوجزه » .

ثم اورد الآلوسي ما رواه الشيخ عبد الرحمن الاربلي في كتابه « سير الملوك » قال عند الكلام عن المستنصر بالله ما نصه : « يقول مؤلف تاريخ بني العباس الامام العالم تاج الدين علي بن الحسن المعروف بابن السباعي ان هذه منقبة لم يَسمُ اليها الاولون . ثم جعل فيها خزانة الكتب ونقل اليها من الربعات الشريفة والكتب النفيسة والاصول المضبوطة المحتوية على جميع العلوم مائتين وتسعين حملا سوى ما نقل اليها بعد ذلك . وشرط ان يكون في دار الكتب التي هي الخزانة فيها عشرة يشتغلون بعلم الحديث النبوي ... »

وقد بنى السكان ابنية ودكاكين كثيرة على قسم من بقايا المدرسة المستنصرية . وعلى انقاضها اقيمت دائرة مكوس بغداد منذ عهد الدولة العثمانية . وأجمل ما تبقى من زخارفها يراه المرء على طاق ايوان كان احد السّوقة جعله فرناً للخبز والكعك الى عهد قريب (١)

٦ ـ مكتبة فخر الدين المرورذي

من البيوت في بغداد التي اجتمع فيها للاضياف الكتب والالعاب بيت لمبارك شاه بن الحسين المرورذي الملقب فخرالدين . قال ابن الساعي : « كان له دارمضيف فيها كتب وشطرنج فالعلماء يطالعون في الكتب . ومن لم يعرف العلم يلعب بالشطرنج (٢) » وكانت وفاة مبارك شاه سنة ٦٠٢ للهجرة (٣)

٧ ـ خزانة الدار الخليفية

اسسها العباسيون في قصر الخلافة ببغداد تعظيما للعلم وتسهيلاً لابحاث العلماء . فكانوا ينفقون الاموال عن سعة لتجهيزها بالمخطوطات الوافرة والتحف الثمينة النادرة حتى اصبحت من اعظم المكتبات في الاسلام . ويروى عن الناصر لدين الله انه اعتمد على مبشر بن احمد (٥٣٠ – ٥٨٩هـ) احد كبار الادباء في اختيار الكتب لخزائن «الدارالخليفية » بعاصمة المملكة (٤) وممّن تولى التدريس في الدار الخليفية نذكر كمال الدين بن يونس الفيلسوف الموصلي. وقد درس عليه الحكيم ثاذري الانطاكي اليعقوبي مصنّفان الفارابي وابن سينا وحلّ اوقليدس والمجسطيّ (٥) . وكان كمال الدين هذا من جملةالذين اشتركوا في احراق كتب الركن عبد السلام في رحبة بغداد

---

(١) رحلة الى العراق : للامير مصطفى الشهابي (مجلة دمشق : مجلد ٧ سنة ١٩٤١ صفحة ٢١٨) (٢) الجامع المختصر في عنوان التواريخ والسير : مجلد ٩ صفحة ١٨٧ – ١٨٨ طبعة بغداد (٣) الخزانة الشرقية لحبيب زيات : مجلد ٢ صفحة ١٤٢ (٤) اخبار العلماء باخبار الحكماء : صفحة ١٧٧ (٥) تاريخ مختصر الدول صفحة ٤٧٧ طبعة بيروت

٨ـ مكتبة دار دينار

ذكر ياقوت الحموي في معجمه (١) ان ابا الحسن العلوي الزيدي وقف كتبه على مكتبة «دار دينار» في بغداد. وروى ان ابا الحسن المذكور سمع الحديث مع احمد بن احمد ابي العباس. ثم خرج عن بغداد وغاب خبره.

٩ ـ خزانة المستعصم بالله

المستعصم بالله (٦٤٠ – ٦٥٦ هـ) هو آخر من بويع بالخلافة من بني العباس في بغداد. وقد انشأ في السنة الثانية من خلافته خزانة فاخرة اودعها كتباً ثمينة ولشد ما تباهى بها امام الخاص والعام. وقد نقش على جهاتها الاربع اشعاراً طريفة نذكر منها ما نظمه صفي الدين عبدالله بن جميل متقدم شعراء الديوان قال:

أنشأ الخليفة للفنون خزانة ... سارت بسيرة فضله أخبارُها
تجلو عروساً من غرائب حسنها ... درّ الفضائل والعلوم نشارها
اهدى مناقبه لها مستعصم ... بالله من لألائه انوارها

وفوض الخليفة المستعصم الى فريق من الخطاطين لينسخوا الكتب انماء لهذه الخزانة بالمؤلفات المختلفة المواضيع. ومن ابرع الخطاطين الذين وقع عليهم اختياره عبد المؤمن صفي الدين والشيخ زكي الدين. ولم يكن في عصره اوسع شهرة منهما في اجادة الخط (٢).

١٠ ـ خزانة الحكمة في كركر بضواحي بغداد

كركر ناحية في بغداد ذكرها ياقوت الحموي (٣) كانَ يقطنها علي بن يحيى

---

(١) معجم البلدان لياقوت: جزء ١ صفحة ١٩٣ (٢) فوات الوفيات: لابن شاكر: جزء ٢ صفحة ١٨ (٣) معجم البلدان: مجلد ٧ صفحة ٢٤٤

المنجم في القرن الثالث للهجرة . وانشأ فيها علي المشار اليه خزانة كتب عظيمة في قصره الجليل سماهـــا « خزانة الحكمة » امست كعبة للقصاد من كل صقع . فكانوا يقيمون فيها ويتعلمون منها صنوف العلوم على اختلافها . وكانت الكتب مبذولة لهم والنفقة في ذلك من مال علي بن يحيى مؤسسها (١) . وحلت وفاته في آخر ايام الخليفة المعتمد سنة ٢٧٥ للهجرة ودفن في سامرا (٢)

١١ ـ تضعضع الخلافة العباسية

لما انهمك خلفاء المأمون في الملاهي ضعفت شوكتهم واسرعت عوامل التضعضع والانحلال الى دولتهم. وامست الخلافه الاسلامية مثلثة على حين ان دين الاسلام يدعو الى توحيدها فانقسمت كما يأتي . الخلافة الاولى وهي « العباسية » في العراق باسيا كانت عاصمتها بغداد . والثانية « الفاطمية » في مصر بافريقيا ومركزهـــا القاهرة. والثالثة « الاموية » بالاندلس في اوروبا ومقرها مدينة قرطبة.

ومن اهم دواعي ذلك التضعضع ان الاتراك والغلمان استفحل امرهم مذ خلافة المعتصم بالله فاستولوا شيئاً فشيئاً على مقاليد التدبير في دولة بني العباس. ثم انتهى اليهم الحل والعقد في كل امر حتى في اختيار الخليفة ومبايعته. ولم يتركوا لصاحب التاج والصولجان سوى لقب الخلافة حتى ان المعتمد على الله (٢٥٦ – ٢٧٩ هـ) بن المتوكل كان يطلب الشيء الحقير فلا يناله. وضاق به الحال يوماً فانشد متوجعاً (٣)

اليس من العجائب ان مثلي ... يرى ما هان ممتنعاً عليه
وتؤخذ باسمه الدنيا جميعاً ... وما من ذاك شيء في يديه

١٢ ـ فاجعة بغداد باستيلاء التتر عليها

لما دال الزمان بالدولة العباسية نكبت بغداد باستيلاء التتر الذين وضعوا السيف

---

(١) غرائب الغرب لمحمد كرد علي : جزء ١ صفحة ١٨٣ (٢) معجم الادباء لياقوت الرومي جزء ١٥ صفحة ١٥٧ (٣) الحضارة الاسلامية لاحمد زكي باشا : صفحة ٤ـ٥

في اهلها والخراب في ابنيتها . واثبت ابن بطوطة ان التتر قتلوا في العراق اربعة وعشرين الفاً من العلماء ولم ينجُ منهم الا اثنان (١).

وذكر ابن الغوطي البغدادي (٦٤٢ – ٧٢٣ هـ) في كتابه « الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة » فاجعة هولاكو التتري التي لم يروِ التاريخ افظع منها بقوله : ان هذا الطاغية قضى على جميع آل العباس وذراريهم ونسائهم وأنسبائهم. وخرب بغداد واحرق مساجدها ووضع السيف في سكانهـــا شيوخاً وكهولا وفتياناً. وقُدّر عدد القتلى منهم باكثر من ثمانمائة الف في مدينة بغداد فقط. عدا من القي من الاطفال في الوحول او من هلك جوعاً وخوفاً في الآبار والقنوات وسراديب الموتى. وقد وصف ابن الغوطي ذلك كله وصفاً تاماً لا افراط فيه ولا تفريط. وساعده على التبسط في سرد الحوادث التي دونها انه كان كاستاذه ابن الساعي خازن كتب المدرسة المستنصرية.

١٣ – محق مكتبات بغداد واتلاف كنوز قصورها

تمادى هولاكو حفيد جنكزخان التتري في العسف والتخريب والتدمير اثناء زحفه الى بغداد وتدويخها. فلم يُبقِ فيها اثراً للمخطوطات القديمة والذخائر الثمينة التي كانت مكنوزة منذ قرون في قصور الخلفاء وبيوتات الامراء. واقترف مثل تلك الفظائع في « دار الحكمة » وفي خزائن كتب المدرسة النظامية والمدرسة المستنصرية الواقعتين ضمن سوق الثلاثاء وفي غيرها من خزائن الكتب العـــامة والخاصة. فألقى بعضها في نهر دجلة فسد مجراه وجاز الناس على الكتب من جانب الى جانب كأنها جسر معقود. وبعضها الآخر استنفد عزم النار الآكلة مدة غـــير قصيرة من الزمن حتى قضت قضاءها فيه .

ومن الكنوز الفاخرة التي اجهز عليها البرابرة في تلك الفاجعة الاليمـة تُحف

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين. مجلد ٨ صفحة ٧٥

الملوك وهداياهم ومراسلاتهم التي وجهوها الى الخلفاء العباسيين ببغداد . وقد عثرنا على ذكر بعض الهدايا والرسائل التي تبادلها بنو العباس وقياصرة القسطنطينية في ايام عزّهم نورد منها ما رواه ابو الفرج ابن العبري (١) قال:

« في عهد الخليفة الراضي بالله (٩٣٤ – ٩٤٠ م) اعني في السنة ٩٣٧ للميلاد اوفد رومانس ملك الروم (٩١٩ – ٩٤٤ م) رسولا الى الراضي بالله ملك العرب حاملاً اليه هدايا ثمينة ذهبية وفضية مرصعة بحجارة كريمة . ثم انفذ اليه رسالة مكتوبة في اللغة اليونانية بحروف ذهبية مع ترجمتها العربية بحروف فضية . وقد افتتحها هكذا : « من رومانس وقسطنطين واسطفان وقسطنطين ملوك الروم العظام الى صاحب السمو الشريف المتولي امر المسلمين سلام ...»

ولما تسلم الراضي بالله تلك الهدايا وجّه من قبله كذلك سفيراً في هدايا مع رسالة ورد فيها . من عبدالله ابي العباس الراضي بالله رئيس الدين امير المؤمنين الى رومانس وقسطنطين واسطفان وقسطنطين رؤساء الروم سلام...»

ثم اثبت ابو الفرج ابن العبري نفسه في تاريخه ما يلي (٢) قال : « وفي السنة ٤٤٣ للهجرة (١٠٥١م) وصل رسول من قسطنطين ملك الروم (١٠٤٢-١٠٥٤) الى القائم بامر الله (١٠٣١ – ١٠٧٥ م) خليفة بغداد حاملاً رسالة مكتوبة باللغة اليونانية وما بين اسطرها ترجمتها العربية مدّونة بحروف ذهبية على قطيفة ارجوان افتتحها الملك بقوله . « قسطنطين الملك المؤمن الرفيع القادر بالمسيح الله ... الى الصديق الحبيب المبّجل ابي جعفر القائم بامر الله رأس المسلمين واامير المؤمنين...»

ومن تلك التحف النفيسة ما اهداه الملك الناصر صلاح الدين الايوبي الى الخليفة العباسي في بغداد نذكر منها ثلاثمائة مجلد من الكتب البديعة النسخ (٣) ذهبت فريسة فاجعة هولاكو البربريّة .

---

(١) التاريخ السرياني لابن العبري. صفحة ١٧٨ (٢) التاريخ السرياني لابن العبري. صفحة ٢٣١
(٣) دائرة معارف القرن العشرين : مجلد ٨ صفحة ٧٤

١٤ ـ ثقة أسلام بغداد بجاثليق النساطرة واستيداعهم اياه اموالهم

اضطرب اهالي بغداد كبارهم وصغارهم ايما اضطراب واستحوذ الذعر على قلوبهم لِمَا ارتكبه هولاكو وجيوشه واعوانه من ضروب الجرائم والمظالم. فاضاعوا رشدهم وحاروا في كيفية انقاذ نقودهم وجواهرهم من يد اولئك الطغاة البرابرة. فسارعوا الى كنيسة النساطرة واودعوا الجاثليق تلك الاموال بمثابة امانة. يؤيد ذلك ما رواه شاهد معاصر لتلك الحوادث المفجعة وهو ابو الفرج المعروف بابن العبري (+ ١٢٨٦ م). فانه بعدما سرد اخبار الجائحة المذكورة بالتفصيل الوافي قال (١) :

« استلّ المغول سيوفهم وفتكوا بجميع اهالي بغداد وكانوا يعدّون بالربوات وأبلى الكرج بلاء كبيراً اكثر من غيرهم. اما الجاثليق مكيخا الثاني (١٢٥٦ ـ ١٢٦٥ م) فقد حشد المسيحيين في كنيسة الزقاق الثالث وحفظهم فيها ولم يُصَب احد منهم بضرر او اذى. ونقل قومٌ من اغنياء المسلمين اموالهم الى الجاثليق على امل استردادها اذا ما افلتوا من تلك الكارثة. غير انهم قتلوا على بكرة ابيهم ولم يسلم منهم احد. جرى ذلك يوم الاربعاء ثامن شهر الاسلام الاول (محرّم) سنة ٦٥٦ للهجرة وهي السنة ١٥٦٩ يونانية (١٢٥٨ م). فدخل المغول بغداد يوم الجمعة ٢٥ محرم واحتلوها يومَ السبت ٢٦ منه ».

١٥ ـ انقراض الخلافة العباسية وانتقالها الى آل عثمان

بعدما دوّخ هولاكو بغداد عام ٦٥٦ للهجرة كما قلنا لم يشفق على خليفتها المستعصم بالله (٦٤٠ = ٦٥٦ م) بل قتله وبقتلهِ اياه سقطت دولة بني العبّاس وانقرضت وبلغ عدد خلفائها سبعة وثلاثين خليفة ملكوا مدّة ٥٢٤ سنة. اما سائر العباسيين فقد فرّ مَن نجا منهم الى مصر وانتقلت معهم الخلافة العباسية الى هناك.

---

(١) ابن العبري : تاريخ الدول السرياني : صفحة ٥٠٥

وظلّ هؤلاء واحفادهم تاثهين على وجوههم يحملون لقب الخلافة بلا سلطان ولا صولجان مدة مائتين وستين سنة ١٢٥٨ – ١٥١٧ م) . وكان آخرهم محمد المتوكل على الله (الثالث) . وقد انتزع الخلافة منه السلطان العثماني سليم الاول عندما افتتح مصر سنة ١٥١٧ م . هكذا آلت الخلافة الاسلامية الى سلاطين آل عثمان وبقيت محصورة فيهم مدّة اربعة قرون وسبعة اعوام (١٥١٧ = ١٩٢٤) . فكان اوّل خلفائهم سليم الاوّل وآخرهم عبد المجيد الثاني الذي خُلع سنة ١٩٢٤

ثانياً : مكتبات بغداد في الزمان الحاضر

١ ـ دار الكتب العمومية

مركز هذه الدار في مدرسة جامع الحيدرخانة حيث كان يلتئم الشعب قديماً في الحوادث السياسية الهامة(١) . أسسها الوزير العلامة داود باشا (١٧٧٤-١٨٥١) وكان من اهل المعرفة ومن دعاة الأدب ومروّجي بضاعته(٢). لكن هذه المكتبة لم تفتح ابوابها للقراء عامة الا سنة ١٣٠١ للهجرة (١٨٨٦ م) في عهد الوزير العثماني مصطفى عاصم باشا والي المدينة المذكورة . وكان ذلك بسعي السيد محمد آل الجميل مدير معارف ولاية بغداد ، فانه جمع لديه علماء الزوراء واعيانها حاثاً اياهم على معاضدة الحكومة لانشاء خزانة كتب عمومية تكون في جامع الحيدرخانة . وطلب منهم ان يتحفوها بما لديهم من مخطوطات نادرة وتآليف مفيدة (٣) تضاف الى الثروة العلمية التي أوجدها داود باشا في الجامع المشار اليه . وللحاج علي ابن السيد نعمان الآلوسي قصيدة نظمها يوم افتتاح هذه المكتبة قال في مطلعها .

---

(١) رحلة الى العراق : للامير مصطفى الشهابي (مجلة دمشق : مجلد ٢ سنة ١٩٤١ صفحة ٢١٨) (٢) تراجم مشاهير الشرق: تأليف جرجي زيدان : جزء ٢ صفحة ٢٥٠ (٣) مقالة الاب انستاس الكرملي في المشرق : مجلد ٣ سنة ١٩٠٠ صفحة ٥٩٢

يا حبّذا مكتبةٌ قد جُمعت ... للعلم فيها كتبٌ لطائف
يعمّ ارباب العلوم نفعها ... فكلّ طالبٍ عليها عاكف
كأنها للطالبين مورد ... فكلّ راوٍ من نداها غارف

ثم اختتمها مؤرخاً

تباشر الناس بها وأرّخوا ... مكتبة جددها المعارف

١٣٠١ للهجرة

وفي هذه المكتبة مخطوطات وافرة بينها بعض كتب عزيزة الوجود . وفي السنة ١٨٩٥ انتسخ شيئاً منها الاب لويس شيخو برسم المكتبة الشرقية ببيروت (١) وتحوي المكتبة كتاب « المقامات النصرانية » لابي العباس يحيى بن سعيد بن ماري (+ ١١٩٣ م) الطبيب النسطوري . وهي نسخة فريدة نادرة من عهد مؤلفها اهداها الى هذه المكتبة فتح الله عبود من اعيان النصارى في العراق . ولهذه المقامات نسخة ثانية مرسومة بالرقم ٣٨٤ في مكتبة فينا عاصمة النمسا . لكنها تختلف اختلافاً عظيما عن نسخة بغداد لا في عدد المقامات واسمائها وترتيبها فقط بل في الانشاء ايضاً (٢)

٢ ـ المكتبة العامة

تتألف هذه المكتبة العامّة من ثلاث مكتبات وهي : مكتبة «السلام» التي انشأتها «المس بل» المستشرقة الانكليزية الشهيرة بعد الاحتلال البريطاني في العراق . ومكتبة « جمعية الشبيبة المسيحية » ومكتبة « المعارف » . وقد توّحدت هذه المكتبات الثلاث عام ١٩٢٩ بأمر فيصل الاوّل ملك العراق الذي جعلها المكتبة الرسمية في عاصمة مملكته ، فاصبحت تعرَف بعد اندماجها باسم «المكتبة العامّة » وهي تحتوي الآن على نحو خمسة عشر الف مجلد مطبوع نصفها عربي ونصفها الآخر في لغات شتى . وفي هذه المكتبة ايضاً طائفة صالحة من المخطوطات لم نتوفق الى الوقوف على فهرسها .

---

(١) سياحه من بيروت الى الهند (المشرق : مجلد ١٦ سنة ١٩١٣ صفحة ١٥٠)
(٢) شعراء النصرانيه بعد الاسلام : صفحة ٣٤٨ — ٣٤٩

وتسعى وزارة المعارف العراقية لتعزيز دور الكتب في جميع انحاء المملكة فكتبت الى سفرائها وقناصلها والى البعثات العلمية العراقية في اوروبا تستحثهم للحصول على ما تيسر من المخطوطات العربية او على صورها الفوتوغرافية (١)

وللشيخ محمد رضا الشبيبي وزير المعارف في العراق فضلٌ لا ينتسى على دور الكتب في ذلك القطر العربي. فانه نهض يبحث وينقب عن مخطوطات نفيسة نادرة ولا سيما عما وضعه المؤلفون العراقيون من الكتب وهي مكنوزة في خزائن اوروبا والامصار الشرقية، وقرر وجوب استنساخها او تصويرها ليضمها الى « المكتبة العامة » والى سائر دور الكتب في بغداد وحواضر العراق. ذلك تسهيلا لمهمة الدارسين والباحثين والمؤرخين، والى هذا الوزير يرجع الفضل في تنظيم « المكتبة العامة » المشار اليها وتنسيق فهارسها تنسيقاً فنياً اسوة بدور الكتب الراقية في الشرق والغرب (٢)

٣ ـ مكتبة الاوقاف العامة

أسست هذه المكتبة عام ١٩٢٩ بسعي الشيخ احمد الشيخ داود يوم أسندت اليه وزارة الاوقاف في العراق. فبذل جهوداً صادقة ولاقى مقاومات عنيفة لمشرع بجمع الاسفار المبعثرة في مكتبات جوامع بغداد. ونهج في ذلك نهج ناظر المعارف المصرية علي باشا مبارك الذي جمع في عهد الخديو اسمعيل (١٨٦٣ ـ ١٨٧٩) كل ما كان مخزوناً من المخطوطات في مساجد مصر وجعلها دعامة لدار الكتب المصرية.

هكذا ظفر الشيخ احمد بضالته فأنشأ مكتبة الاوقاف العامة وضم اليها ماجلّ من الكتب العربية حتى بلغ اليوم عدد مجلداتها المطبوعة زهاء خمسة آلاف وخمسمائة. اما مخطوطاتها فهي ثلاثة آلاف وسبعة وسبعون مجلداً بينها ما هو فريد ونادر في عالم المخطوطات.

---

(١) جريدة « البشير » البيروتية: مجلد ٦٩ عدد ٥٦٢٠ في ٤ تشرين الاول ١٩٣٨

(٢) مجلة « المورخ » في بغداد لرزوق عيسى: مجلد ٢ سنه ١٩٣٨ صفحة ٦٨ ـ ٦٩

الفصل الثاني

خزائن كتب النجف الاشرف

١ - جامع النجف وقبته الثمينة وكنوزه

يُعتبر هذا الجامع من اقدم الجوامع الاسلامية وافخمها واثمنها وفيه قبر امير المؤمنين علي بن ابي طالب . وقبّته هي اقدم القبب في الاسلام على الاطلاق (١). وقد وصفها ضياء الدين الدخيلي قال (٢) :

« ولنعد الى بناية القبر الفخمة فانها تضعضعت وحصلت صدوع في القبة المنورة بمرور العصور وتعاقب الاعوام ، واراد الشاه صفي حفيد الشاه عباس الاول توسعة ساحة الصحن الضيقة فامر بهدم بعض جوانبه وشيدت هذه العمارة الضخمة الباقية الى اليوم . وفي هذه العمارة كانت القبة الكريمة والايوان والمئذنتان مبنية بالحجر القاشاني الى عهد ملك ايران نادر شاه . امّا هذا فقد نذر اذا فتح الهند ان يذهّب قبر الامام (ع) . وكذلك لقد امر عام ١١٥٥ هـ بقلع الحجر القاشاني عن القبة المقدسة والمأذنتين والايوان وتذهيبها ، وبذل اموالا عظيمة فقام بالتذهيب اكثر من مائتي صائغ ونحّاس قد جمعهم من سائر اقطار الارض . وفيهم الصيني والهندي والتركي والفارسي والعربي . وقد طُليت كل آجرّة بمثقالين من الذهب الخالص على ما ذكر بعض الصاغة الذين تولوا اصلاح القبة اخيرا .

---

(١) الترب والمدافن الخاصة في الاسلام : لمحمد احمد دهمان (مجلة المجمع العلمي العربي : مجلد ١٦ سنة ١٩٤١ صفحة ١١١) (٢) مجلة « الرسالة » لاحمد حسن الزيات في القاهرة : سنة ٦ صفحة ١٥٤٩ ـ ١٥٥٠

« وقد وضع في خزانة القبر الشريف تحفاً جسيمة مما استلبه من ذخائر ملوك الهند ، هذا فضلاً عما اهدى اليها غيره من الملوك والامراء المسلمين ، ففيها من المجوهرات والنفائس ما لا يثمنّ ، وان الاحجار الكريمة لا تعد ولا تحصى . اما القناديل الذهبية المرصعة والسجاد الفاخر الموشى بالذهب والستائر المنتظمة فيها الجواهر ، الامور التي تعز على الملوك فهي اعلاق ونفائس تبهر العقول ولا يُصدّق اجتماعها في اعظم الكنوز .

« وان بداعة الفن في البناية تبهر الانظار وتخلب الافكار بزخرفها وطلائها . وقد قال رحالة مصري : وقبة القبر ومئذنتاه تُكسى بالذهب الخالص في بريق خاطف . جزتُ الباب الى الفناء السماوي المربع تطل عليه الحجرات المتجاورة ثم دخلتُ باب الضريح وأنّى لقلمي الكليل ان يصف ابداعه من نقوش وتطعيم بالذهب والفضة وزخرف بالبلور والزجاج والقيشاني ما فاق فيه جميع المساجد الاخرى .»

٢ ـ مكتبة جامع النجف

في الصحن الشريف من جامع النجف المشار اليه انشئت مكتبة عظيمة بعناية سلاطين الشيعة ووزرائهم واهل الثروة والعلماء انفسهم. واشهرهم ملك فارس عضد الدولة بن بويه المتوفى سنة ٣٧٢ للهجرة . وهو اول من خُطِب له على المنابر بعد الخليفة واول من أطلق عليه لقب « شاهنشاه » في الاسلام . فانه برّز في العلوم العربية وله فيها ابحاث حسنة. ثم تعهد بخيراته المدارس والمكتبات لانه كان محباً للعلم وذويه. وفي سنة ٧٥٥ هـ احترقت مكتبة جامع النجف فجددها جماعة من العلماء نذكر منهم ابن الآوى الذي كان صدرا للحكومة الايلخانية وفخر المحققين ابن العلامة الحلي .

وبتوالي الايام مُنيت مكتبة هذا الجامع بالاهمال وتبعثر جانب مهم من ذخائرها النفيسة . ولا تزال بقاياها حتى الآن تحوي نوادر المخطوطات ومن ضمنها

كتب علمية وادبية قديمة الخطوط جداً نذكر منها شرح الدريدية لابن خالويه بخطه. ولما كان السيد كاظم الدجيلي قد وضع مقالة ممتعة في وصف خزانة مخطوطات جامع النجف ونشرها على صفحات مجلة « لغة العرب » البغدادية رأينا ان نقتطف منها ما يهم موضوعنا قال (١) :

« حدّثنا جماعة من الفضلاء انه كان في خزانة كتب الامام علي (عم) نحو اربعين الف كتاب . وبالغ بعضهم فقال زهاء ٤٠٠ الف كتاب . وقد جمعت هذه الخزانة نفائس الكتب وامّهاتها التي عزّ وجود مثلها في الدنيا . كيف لا وهي مما يجب ان يُهدى لحضرة الامام ولكن قد تلف جلّ هذه الكتب بل قل كلها اذ لم يبق منها الا عدد يسير لطلاب العلم والمطالعين من الناس على اختلاف طبقاتهم بدون شاذ . ولما كان ذلك بهذه الصورة صار الداخل اليها اذا خرج اخبأ تحت عباءته الكتب التي يريد سرقتها ويخرج بها بدون ان يفتشه احد . ولكثرة السرّاق ظهر النقص فيها ظهوراً لا يمكن اخفاؤه على ذي عينين اذ لم يبق منها الا ما يناهز المئة . وحينئذ أغلقت ابواب الخزانة ومُنع الطلاب والمطالعون ...

« وكنا نشتاق الى رؤية البقية الباقية من تلك الخزانة التي ضاع اكثر كتبها. وفي زيارتنا النجف الاخيرة وكانت في ١٢ ربيع الاول سنة ١٣٣٢ هـ (٨ شباط ١٩١٤) طلبنا الى السيد محمد جواد افندي الرفيعي ... ان يطلعنا على خزانة كتب الامير. فاجاب طلبنا وامر نائبه السيد داود افندي بفتحها ففتحها... ولم نكتفِ منها بزيارة واحدة بل بقينا نتردد اليها نحو اربعة ايام...»

وقد وصف كاتب المقالة ما شاهده من المخطوطات النادرة والمصاحف النفيسة في الخزانة المشار اليها. وذكر انه اطلع فيها على « اكثر من ٤٠٠ مصحف من أحسن ما كتبه الكاتبون وأجود ما جلده المجلدون وذهبه المذهّبون وزخرفه المزخرفون الخ الخ ».

---

(١) لغة العرب : مجلد ٣ صفحة ٥٩٣ - ٦٠٠ سنة ١٩١٣-١٩١٤

وذكر مؤلف كتاب « ماضي النجف » تلك المكتبة وخصها بما تستحقه من الاعتبار . واثبت انها تحوي اشهر الخطوط العربية ولا سيما الكوفي والاندلسي واليماني . في جملتها قطعة من مصحف بقطع سفينة مكتوبة على رق بخط كوفي. وفي آخرها ما نصه . « ثم سنة ٤٠ من الهجرة كتبه علي بن ابي طالب (١).

وروى السيد محمد كردعلي (٢) عن خزانة كتب النجف ما نصه : « وفي عداد التحف الموجودة عند ضريح الامام عليّ في النجف مكتبة حوت نفائس المخطوطات العديمة النظير . منها نسخة من القرآن الكريم بخط الحسين بن عليّ بن ابي طالب . الى غير ذلك من نوادر الكتب وثمين المخطوطات .

٣ ـ المكتبة الحسينية

ليس في النجف مكتبة عامّة بعد مكتبة الصحن الشريف المنوّه بها سوى المكتبة الحسينية . وهي التي اسسها الحاج عليّ محمد النجف آبادي في مطلع القرن الرابع عشر للهجرة . فجهزها بكثير من كتب الادب واللغة والتاريخ مطبوعة باللغتين العربية والفارسية . ولبث مدة حياته دون ان يتزوج كي لا يشغله شاغل عن البحث والمطالعة ونسخ الكتب .

وقبل وفاته عام ١٣٣٢ للهجرة وقف مكتبته الحسينية على طلبة العلم . وفي الوقت نفسه حبس عليها داره كي يظلّ ريعها كافياً لاصلاحها ولسدّ نفقات خازنها في مستأنف الزمان . ويشاهد الزائر اغلب مخطوطات المكتبة منسوخة بخط الحاج علي مؤسسها . أضيف اليها بتعاقب الايام اسفار وافرة العدد وقفها ارباب الفضل والاحسان (٣)

---

(١) ماضي النجف : تأليف جعفر ابن الشيخ باقر آل محبوبة النجفي : صفحة ١٠٠ ـ ١٠٢

(٢) مجلة المقتبس : مجلد ٧ صفحة ٩٢٤

(٣) ماضي النجف : صفحة ١٦

الفصل الثالث

خزائنه كتب الموصل

اولا : مكتبات الموصل في العصور الغابرة

لم تكن الموصل اقل حظاً من سائر حواضر المشرق في مكتباتها وفي معاهدها العلمية . فقد روى ابن النديم ان جعفر بن محمد المتوفى سنة ٣٢٨ للهجرة انشأ فيها « دار العلم » اسوة ببيت الحكمة الذي أسسه الخلفاء في بغداد . وما كانت « دار العلم » هذه الا مكتبة يُعطى المشتغل فيها الورق مجاناً (١)

وبتوالي الايام اصبحت مدينة الموصل محوراً للمعارف كما يتضح ذلك من المدارس الكثيرة التي بُنيت فيها من ايام الوزير نظام الملك المقتول سنة ٤٨٥ للهجرة . واقتدى بهذا الوزير الملوك الاتابكيون (٥٢١ – ٦٣١ هـ) (١١٢٧ – ١٢٣٣ م) الذين شيدوا معاهد العلم حتى اصبحت الموصل في عهدهم من العواصم الاسلامية الكبيرة . فزارها الكبراء والعلماء والشعراء (٢) الذين نالوا قسطاً وافراً من اهتمام الاتابكيين واحسانهم (٣). وكانت تلك المعاهد العلمية حافلة بخزائن الكتب يشتغل فيها المؤلفون والمترجمون والنساخ والمجلدون على مثال دور الحكمة في دولتي العباسيين والفاطميين .

غير ان الرزايا التي نُكبت بها بلاد الشرق على يد الفاتحين الطغاة كهولاكو وجنكزخان وتيمورلنغ لم تسلم منها مدينة الموصل وضواحيها. فحل بها وبمدارسها ومكتباتها من التدمير والاتلاف ما حل بكبريات المدن كبغداد وتكريت ودارا

---

(١) الفهرست : لابن النديم : صفحة ٢٢٨ (٢) تاريخ الموصل للقس سليمان صائغ : مجلد ٢ صفحة ٨٥ (٣) تاريخ الموصل للقس سليمان صائغ : مجلد ٢ صفحة ٨٦

وخوارزم والرها وماردين وحلب ودمشق وحماة وغيرها وغيرها . وقد اثبتنا كل ذلك بتفصيل واف وبما لا يوصف من دقة البحث في مطاوي هذا الكتاب. وكل ما سلم في الموصل من الكنوز العلمية التي خلّفها الدهر لا يتجاوز بضعة آلاف من المخطوطات اتى على بيانها الدكتور داود جلبي في تأليفه « مخطوطات الموصل » . وهي محفوظة في المساجد والكنائس والمدارس وبعض البيوت القديمة كما المعنا في الفصل الرابع من الباب الرابع وفي الفصل الخامس من الباب الخامس .

ثانياً : مكاتب الموصل في العصر الحاضر

١ ـ مكتبة غازي

ليس في الموصل سوى خزانة واحدة عامّة حديثة العهد أنشئت في ايام فيصل الاول ملك العراق . وسُمّيت « مكتبة غازي » تيمناً باسم نجله البكر وولي عهده الذي خلفه في العرش العراقي باسم غازي الاول .

كانت هذه الخزانة في بداية امرها لاتشتمل الاّ على بضع مئات من الكتب محفوظة في احدى غرف مديريّة المعارف بالموصل . ثم اخذت وزارة معارف الدولة العراقية تهتم بشؤنها وتُنفق عليها منذ عام ١٩٣٠ وقد جعلت لها مركزاً في حديقة البلدية بالقرب من جسر دجلة . وهي لاتزال في مهد عمرها اذ ان عدد محتوياتها لا يتجاوز اربعة آلاف مجلد في اللغات العربية والانكليزية والتركية والفرنسية . وليس فيها من المخطوطات ما يستحق الذكر (١)

---

(١) استندنا في اخبار هذه الخزانة الى ماكتبه لنا بتاريخ ١٩ ايار ١٩٣٦ الدكتور داود الجلبي الموصلي مؤلف كتاب « مخطوطات الموصل » .

الفصل الرابع

خزائن كتب ماردين وميافوقين وآمد

١ ـ المكتبة الحسامية في ماردين

ادركت اللغة العربية شأواً بعيداً في عهد الملوك الارتقيين (٤٨٨ – ٨٢٤ للهجرة) اصحاب ماردين وضواحيها. فانهم على قلة اتساع ملكهم حاولوا التشبه بالخلفاء في اعلاء شأن العلم وتكريم العلماء واشتهر بعضهم بالادب والحكمة وانشاء المدارس وجمع خزائن المخطوطات لرفع مستوى رعيتهم بين سائر الامم.

واول من تنبه منهم الى ذلك كان سليلهم الفيلسوف الحكيم حسام الدين تيمرطاش (٥١٦ – ٥٤٨ للهجرة) بن ارتق مؤسس الدولة الارتقية في ماردين. وكان رجلاً كريم الطبع حليماً (١). فانه شاد في عاصمة ملكه عدة مساجد ومدارس اشهرها المشهد الحسامي والمدرسة الحسامية المنسوبان اليه. وقد ضم الى هذه المدرسة مكتبةً تستحق الاعتبار كان يؤمها طلاب المعارف من جميع انحاء المملكة.

ونبغ من الارتقيين الملك المنصور ابو الفتح (٦٨٤ – ٧١١ للهجرة) الذي عزز بدوره المكتبة الحسامية حتى اصبحت في ايامه نجعة الرائد وشرعة الوارد. وكان كثير العطف على الشعراء وحملة الاقلام يجالسهم ويواكلهم ويحسن اليهم بالعطايا والخلع والجوائز والارزاق. وقد نظم فيه صفي الدين الحلي ديوان شعر سماه « درر النحور في مدائح الملك المنصور » وهو يشتمل على « القصائد الارتقيات » البالغ عددها تسعاً وعشرين قصيدة على عدد أحرف الهجاء. التزم الناظم في كل قصيدة حرفاً في اول البيت وفي آخره.

---

(١) دائرة المعارف للبستاني : مجلد ٦ صفحة ٢١٥

وقد عرف اهل الفضل فوائد المكتبة الحسامية فعززوها بهباتهم وحبسوا عليها خزائن كتبهم. نذكر منهم فخر الدين المارديني الذي كان من فلاسفة القرن السادس للهجرة ومن جلة علمائه . فانه جمع في حياته خزائن كتب جليلة وقفها سنة ٥٩٤ للهجرة على مكتبة المدرسة الحسامية. وكانت تحتوي على اسفار شتى الفها فخر الدين ذاته او حررها بخط يده او قرأها على اساتذته. ومن مزاياها ان واقفها بالغ في تنميقها واتقانها وحسن تجليدها (١)

وظلت المكتبة الحسامية عامرة حتى ذهبت فريسة الطاغية تيمورلنك عندما اغار على ماردين سنة ٨٠٣ للهجرة . فانه قوّض اسوار هذه المدينة وهدم جوامعها ومدارسها واتلف كل ما كانت تحتويه مكتبتها من التحف والمخطوطات . وقبل التاريخ المذكور بسبعة اعوام كان تيمورلنك قد خرّب اديار النصارى ومكاتبهم كما سنثبت ذلك في الفصل الذي نخصصه بعنوان « مكاتب طور عبدين » .

٢ ـ مكتبة جامعي ميافرقين وآمد

لم تخلُ مدينتا ميافرقين وآمد (دياربكر) من خزائن الكتب ايضاً . فقد ذكر ابو الفدا (٦٧٢ – ٧٣٢ هـ) في حوادث السنة ٤٣٧ للهجرة خبر وفاة احمد بن يوسف المنازي الذي كان وزيراً لابي نصر احمد بن مروان الكردي صاحب دياربكر. وكان المنازي من اعيان الفضلاء والشعراء وجمع كتباً كثيرةً اوقفها على جامعي ميافرقين وآمد (٢) . ثم اردف ابو الفدا قائلًا : ان الكتب المذكورة كانت الى قريبٍ موجودة بخزائن الجامعين (٣) .

---

(١) طالع ترجمة فخر الدين بن عبد السلام المارديني في كتاب طبقات الاطباء : مجلد ١ صفحة ٢٩٩ ـ ٣٠١ (٢) شرح مجاني الادب : جزء ٥ صفحة ٧٥١ (٣) المختصر في اخبار البشر لابي الفداء : جزء ٢ صفحة ١٦٨

الفصل الخامس

خزائنه كتب حلب

اولا : خزائن كتب حلب في القرون السابقة

١ ـ الخزانة الصوفية

وُجدت بحلب من قديم الزمان خزائن كتب شتى أشهرها خزانة الصوفية . ونُهبت هذه الخزانة اثناء فتنة ثارت في بعض ايام عاشوراء بين اهل السُنّة والشيعة ولم يبق فيها الا القليل . وقد حدث ذلك في ايام ابي العلاء المعري (٣٦٣ – ٤٤٩ هـ) . وروى ابن النديم ان خزانة الصوفية تجددت كتبها بعد ذلك بعناية ابي النجم هبة الله بن بديع وزير الملك رضوان . ثم وقف عليها غيره كتباً أخرى . وظلت هذه الخزانة عامرة الى القرن السابع للهجرة وهي مسبلة على المطالعة .

٢ ـ خزانة كتب سيف الدولة

وانشأ سيف الدولة بن حمدان (٣٠٣ – ٣٥٦ هـ) خزانة كتب جمع فيها الامهات الجيدة . لانه كان ولعاً بالكتب الى الغاية وذا إفضال على العلم والادب. فكان يقصده اهل هذا الشأن فينزلهم في بلاده على الرحب والسعة ويبّرهم بصلاته. ويقال انه لم يجتمع بباب احد من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر ونجوم الدهر (١). وقد أصابت دائرة المعارف الاسلامية الفرنسية بقولها :

---

(١) دائرة المعارف للبستاني : صفحة ٣٢٦ مجلد ١٠

« ان الفضل الذي احرزه سيف الدولة بن حمدان في نشر العلوم والآداب العربية هو عنوان مجد لا يقل عن اعماله الحربية ».

ومما يؤيد كرم سيف الدولة وبذله العطاء لشعرائه انه امر بضرب دنانير يجيزهم بها . فجعل في كل دينار عشرة مثاقيل ذهبية ونقش عليه اسمه وصورته . فلما أمر بعشرة من تلك الدنانير لابي الفرج ارتجل يمدحه بالابيات التالية :

نحن بجودِ الامير في جَرَمْ ... نرتَعُ بين السعود والنِعَمْ
أبدَعُ من هذه الدنانير لَمْ ... يجرِ قديماً في خاطر الكرَمْ
فقد غدت باسمهِ وصورتهِ ... في دهرنا عُوذةً من العدَمْ

فسرّ سيف الدولة من براعة هذا الشاعر وللحال زاده عشرة دنانير اخرى فوق الاولى (١).

ومن أشهر الائمة الذين تولوا ادارة مكتبة سيف الدولة الخالديان الشاعران المشهوران . ومنهم ايضاً ابو الحسن ثابت بن اسلم بن عبد الوهاب النحوي المتوفى مصلوباً بيد الاسماعيلية سنة ٤٦٠ للهجرة . والسبب في ذلك ان ثابت بن اسلم وضع كتاباً تعرّض فيه لابتداء دعوه الاسمعيلية وكشف عوارهم . فاستاؤا واحرقوا خزانة الكتب انتقاماً منه . وربما ذهبت هذه الخزانة في هجمة الروم على حلب وتخريبهم قصر سيف الدولة (٢). ذلك عندما استولى عليها قائدهم نقفور فوقاس في شهر كانون الاول ٩٦٢ م (٣٥١ هـ) بعد حصار شاق (٣)

٣ ـ خزانة كتب المدرسة النورية

ووقف نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي سنة ٥٤٣ للهجرة خزانة كتب على مدرسته النورية في حلب. وجعل لها خازناً محمد بن علي بن ياسر الجياني الاندلسي واجرى عليها جراية. وحبس جملة كثيرة من الكتب الطبية على البيمارستان الذي

---

(١) مجلة « الحديث » الحلبية : مجلد ١٤ عدد كانون الثاني سنة ١٩٤٠ صفحة ٦١ ـ ٦٢
(٢) خطط الشام : مجلد ٦ صفحة ١٩١ (٣) يحيى بن سعيد : صفحة ١١٨

انشأه بدمشق كما حبس غيرها على اهل العلم في ارجاء مملكته (١). وحلت وفاة نور الدين عام ٥٦٩ للهجرة .

٤ ـ سائر المكتبات الاسلامية القديمة في حلب

لما استولى الملك الناصر صلاح الدين الايوبي على حلب سنة ٥٧١ للهجرة اباح لمؤدب ولده الافضل ابي سعيد البندهي ان يأخذ من خزانة كتب حلب ما شاء من الكتب الكثيرة (٢).

ولعل هذه المكاتب بقيت الى ايام تيمور الذي اغار على سوريا وخرّب بلدانها واحرق حلب مرتين كما روى مؤرخ (٣) هذا الطاغية قال : « وكانت اكثر المدن الصغرى في اواسط سوريا قد خضعت لتيمور بحكم الطبيعة. ومنها طرابلس وقد أحضر له منها مال . واجتاح بعلبك ونهبها. ولما وصل الى حلب احرقها مرةً ثانية وهدم ابراج القلعة واسوار المدينة والمساجد والجوامع والمدارس. وقتل امراء كل من وجدهم في طريقه . وأخذ من كان في قلعة حلب من المعتقلين وترك بعضهم. والواقع ان تخريبات تيمور في البلاد السورية لا يتأتى وقوع مثلها في مئات الاعوام. عملها بجيشه الجرّار في عشرات الايام ».

ومن المكاتب القديمة التي انشئت او جُددت في حلب بعد تلك النكبـــات الفادحة نذكر ما يأتي : المكتبة الاحمدية لا يقل عدد مخطوطاتها عن الف واربعمائة وسبعين مجلداً. والمكتبة المولوية وهي حافلة بالمخطوطات النادرة . ومثلها المكتبة الاسماعيلية والمكتبة السكاكينية ومكتبة الجامع الاموي الكبير. ومنها مكتبة جامع الناصرية نسبة الى الملك الناصر يوسف صاحب حلب. وقد وقف عليها الوزير جمال الدين

---

(١) خطط الشام : مجلد ٦ صفحة ١٩٢ (٢) خطط الشام : مجلد ٦ صفحة ١٩٢

(٣) كتاب تيمور لنغ بقلم هارولد لامب عربه عمر ابو النصر عن الانكليزية : صفحة ١٢٨

القفطي المتوفى سنة ٦٤٦ للهجرة خزائن كتبه وكانت تساوي خمسين الف دينار (١)

ثانياً : خزائن كتب حلب في الزمان الحاضر

١ ـ دار الكتب الوطنية

من مآثر المجمع العلمي العربي بدمشق انشاؤه فرعاً في حلب للمكتبتين الظاهرية والعادلية . وكان مركز هذا الفرع اولا في غرفتين صغيرتين يؤمها الطلاب للمطالعة والدرس . وظلت الحال كذلك حتى السنة ١٩٣٧ فتقلد منصب محافظ حلب الامير مصطفى الشهابي احد اعضاء المجمع العلمي المذكور . فافتتح اعماله بتشييد بناية عربية على نفقة المجلس البلدي في اهم بقعة من الشهباء اي فى ساحة « باب الفرج » واطلق عليها اسم « دار الكتب الوطنية » . فجاءَت اجمل بناية في تلك المدينة . وقد خصصت طبقتها السفلى بقاعة للمحاضرات تضمّ زهاء خمسمائة مستمع . وفُصلت الطبقة العليا غرفاً وقاعات تتسع لادارة المكتبة ولمائة مطالع ولاربعين الف مجلد . وبهذه الوسيلة كتب النجاح والثبات لهذه المكتبة التي تحققت بها اماني الأمة (٢) .

وأفادنا رئيس المجمع العلمي العربي الاستاذ محمد كرد علي برسالة ارخها في ٢٤ اذار ١٩٤١ انّ مجموع مجلدات هذه المكتبة بلغ خمسة آلاف وخمسمائة وواحداً وتسعين مجلداً عربية وتركية وافرنجية . وبلغنا ان عدد مجلداتها زادت الآن زيادة محسوسة فضلاً عن شرائها مكتبة الاستاذ الاديب خير الدين الاسدي.

وممن تبرع بسخاء على « دار الكتب الوطنية » وزارة خارجية فرنسا في باريس. فانها اهدت اليها عام ١٩٣٨ طائفة معتبرة من الاسفار العصرية ذات المواضيع المختلفة.

---

(١) معجم المطبوعات العربية والمعربة : ليوسف اليان سركيس : صفحة ١٥١٨

(٢) مجلة المجمع العلمي العربي : مجلد ١١ سنة ١٩٤١ صفحة ١٤٢ ـ ١٤٣

الفصل السادس

خزائن كتب حماة وكفرطاب

اولا : خزائن كتب هذه المدن في الزمان الغابر

١ ـ الخزانة النورية في حماة

حماة من اقدم مدن العالم واهمها في الديارالشامية . وكان فيها في القرن السابع للهجرة مكتبة عامرة انشأها الامير نور الدين محمد بن عمر شاهنشاه صاحب حماة وابن صاحبها. فانه جمع فيها من المخطوطات ما لا مزيد عليه (١) . وحلت وفاته عام ٦١٠ للهجرة.

ولما اغتصب هولاكو الطاغية مدينة حماة سنة ٦٥٨ للهجرة خرّب اسوارها واحرق زردخانتها. وبيعت الكتب التي كانت بدار السلطنة في قلعة حماة بابخس الاثمان (٢). ويلوح لنا ان خزانة الكتب المذكورة تجددت بعد نكبة هولاكو كما كانت سابقاً. لكنها ما لبثت ان اصيبت عام ٦٨٧ للهجرة (١٢٨٨ م) بحريق اتلف مخطوطاتها التي لا تحصى (٣)

٢ ـ خزانة كتب ابي الفداء في حماة

بعد التاريخ المذكور بزمن يسير نَصب الملك الناصر سلطاناً على حماة الملك المؤيد اسماعيل بن علي المعروف بابي الفداء . وكان ابو الفداء (٦٧٢ — ٧٣٢ هـ)

---

(١) خطط الشام : مجلد ٦ صفحة ١٩٣ (٢) المختصر في اخبار البشر : لابي الفداء : جزء ٣ صفحة ٢٠٣ (٣) خطط الشام : مجلد ٦ صفحة ١٩٨

من نوابغ اهل زمانه علماً وذكاءً فأطلق عليه بكل جدارة لقب « عالم الملوك وملك العلماء » . وقد تمكن من الفقه والطب والفلسفة والتاريخ. وكان يقرّب اليه اهل العلم ويرتب لهم الجواري والارزاق (١). وكان في خدمته نحو مائتي عالمٍ وفقيه واديب وفيلسوف وكاتب(٢).

ولشدة ولع ابي الفداء بالادب وحرصه على الكتب جمع في خزائنه طائفة من المخطوطات المختلفة النفيسة ثم وقفها كلها على جامع الدهشة . وكان عددها سبعة آلاف مجلد (٣) ليستفيد الخاصّة والعامّة من مطالعتها . وحلت وفاة ابي الفداء سنة ٧٣٢ للهجرة (٤) .

ونرجح ان مكتبة ابي الفداء تلفت عندما اغار تيمورلنك (١٣٣٦– ١٤٠٥م) على بلاد الشام عام ١٤٠١ للميلاد ونهبها واحرقها وأعمل السيف في اهلها . وصار الانسان لايطأ الا على جثة انسان لكثرة القتلى حتى قيل ان تيمورلنك بنى من رؤوس القتلى في حلب وحدها عشر مآذن ! ويقدّر عدد مَن قُتل في هذه الواقعة من الحلبيين صغاراً وكباراً ورجالا ونساءً بنحو من عشرين الف انسان . عدا مَن هلك من الناس تحت ارجل الخيل عند اقتحام ابواب المدينة وقت الهزيمة . وقد هلك من الجوع والعطش اكثر من ذلك . وفعل تيمور باهل حماة مافعله باهل حلب من القتل والنهب واحرق معظمها (٥) ويُروى انه باع كتبها بأبخس الاثمان (٦) .

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية : مجلد ٣ صفحة ٢٦٥

(٢) محاضرات المجمع العلمي العربي بدمشق : لانيس سلوم : مجلد ١ صفحة ٢٦٥

(٣) خطط الشام : مجلد ٦ صفحة ١٩٣ (٤) راجع ترجمة ابي الفداء في كتاب «فوات الوفيات» : مجلد ١ صفحة ١٦ ــ ١٧ (٥) كتاب تيمورلنغ : لمؤلفه هارولد لامب في اللغة الانكليزية : تعريب عمر ابو النصر : طبع بيروت : صفحة ١٢٠ ــ ١٢١ (٦) دائرة معارف القرن العشرين : مجلد ٨ صفحة ٧٥

٣ ـ خزائن كتب المعرة وكفرطاب

اشتملت كلّ من مدينتي المعرة وكفرطاب في عهد ابي العلاء المعري (٣٦٣ ـ ٤٤٩ هـ و ٩٧٤ ـ ١٠٥٧ م) على خزانة كتب جديرة بالذكر والاعتبار . وعلى ما روى المؤرخون ان ابا العلاء قد زارها كما زار خزانة طرابلس الشام (١) .

ثانياً ـ خزائن كتب حماة في العصر الحالي

١ ـ مكتبة دار العلم والتربية

تأسست هذه المكتبة عام ١٩١٩ وظلت فائدتها محصورة باساتذة مدرسة « دار العلم والتربية » وطلابها . وفي السنة ١٩٣١ ضمت اليها مكتبة « النادي الادبي » الذي كان يرأسه الدكتور توفيق الشيشكلي نائب حماة في المجلس النيابي السوري وقد توفاه الله سنة ١٣٥٩ للهجرة (١٩٤٠ م). وبين اشهر الذين آزروها بهداياهم نذكر: الامير شكيب ارسلان اللبناني والامير عمر طوسون والعلامة احمد زكي باشا المصريين . والجامعة السورية في دمشق . واتحفها السيد محمد هاني الكيلاني الحموي بخزانته الخاصة البالغ عدد مجلداتها ٧٩٢ كتاباً . وفي هذه الخزانة على حداثة عهدها طائفة من المخطوطات العربية.

٢ ـ المكتبة الخيرية العامة

يعود الفضل في تأسيسها الى طاهر بك حمدي الدمشقي عندما كان متصرفاً في حماة سنة ١٣٤٥ هجرية (١٩٢٦ م) . ويحصى في هذه المكتبة اكثر من الفي مجلد بينها ٩٧ كتاباً مخطوطاً وقد انيطت ادارتها وصيانة موجوداتها بالاديب السيد محمد خليل .

---

(١) خطط الشام : مجلد ٦ صفحة ١٩١

الفصل السابع

خزائن كتب دمشق

١ ـ مكتبات دمشق القديمة واندثارها في نكبة تيمور

دمشق ويقال لها ايضاً جيرون وجلق والفيحاء والشام هي قاعدة بلاد سوريا واعظم مدنها اتساعاً في الزمن الحاضر. وكانت سابقاً مقر الخلفاء الامويين (٤١ ـ ١٢٨ هـ) (٦٦١ ـ ٧٤٤ م) الذين اليهم يُنسب الجامع الاموي. ويُعدّ هذا الجامع ثالث الجوامع الكبرى لدى الامّة الاسلامية بعد جامع اجيا صوفيا في القسطنطينية والجامع الاقصى في القدس الشريف.

كانت مدينة دمشق في القرون الغابرة من كبريات حواضر العلم في الاقطار الشرقية. يؤيد ذلك ما كان يلقاه فيها الطالب من الصروح العلمية وخزائن الكتب التي غصت بوفود الادباء وحلقات المدّرسين في كل عصر. غير ان تلك الصروح وتلك الخزائن اصيبت بنكبات شتى فذهبت بتوالي الايام فريسة للنيران او نهبها ذوو المطامع او دمرتها جيوش الفاتحين. وحباً للاختصار نكتفي بذكر النكبة العظمى التي انزلها الطاغية تيمور بدمشق يوم تغلب عليها سنة ٨٠٣ للهجرة (١٤٠٠ للميلاد). واليك ملخص ذلك :

« ثم امر تيمور رجاله بالدخول وسيوفهم مشهورة. فنهبوا ما قدروا عليه وسبوا نساء دمشق باجمعهن وساقوا الاولاد والرجال وتركوا من الصغار مَن عمره خمس سنين فما دونها. وساقوا الجميع مربوطين بالحبال. ثم طرحوا النار في المنازل والدور والمساجد. وكان يوماً عاصف الريح فعمّ الحريق البلد حتى صار لهيب النار يناطح السحاب.

« وعملت النار في البلد ثلاثة ايام بلياليها. ثم رحل تيمور عنها بعد ان اقام

ثمانين يوماً. وقد احترقت كلهـــا وسقطت سقوف جامع بني امية من الحريق. وزالت ابوابه وتفطر رخامه ولم يبق غير جدره قـــائمة . وذهبت مساجد دمشق ودورها وقياصرها وحماماتها وصارت اطلالا بالية ورسوماً خالية ولم يبق فيها غير الاطفال .

« وفوق ذلك كله ومع ما منيت به دمشق من قتل سكانهـــا وسبي نسائها واولادها واحراق مصانعها وبيوتها واستخراج اموالها وطرائفها اصابتها من تيمورلنك مصيبة لا تقل عن تلك. اصابت منها الصميم فلم تُبق عليها ولم تَذر.

قال ابن عربشاه في تفصيل هذا الهول : « وبينما كان رجال تيمور يحاصرون قلعة دمشق اخذ هو يتطلب الافاضل واصحاب الحرف والصنائع وارباب الفضل. واستمر نهب عسكر تيمور لدمشق ثلاثة ايام وارتحل وجيشه وقد اخذ من نفائس الاموال فوق الطاقة والامكان. وحملوا عـدا ذلك ما عجزت عنه قوة استطاعتهم. فجعلوا يطرحون ذلك في الدروب والمنازل ويلقونه شيئاً فشيئاً في اوعار المراحل. وذلك لكثرة الحمل وقلة الحوامل . واصبحت القفار والبراري والجبال والصحارى من الامتعة والاقمشة كأنها سوق او معرض . وكأن الارض فتحت خزائنهـا واظهرت من المعادن وغيرها كامنها . واخذ تيمور من دمشق ارباب الفضل واهل الصنائع وكل ماهر في فن من الفنون او بارع من النساجين والخياطين والحجارين والنجارين والاقباعيـة والبياطرة والنقاشين والقواسين . وبالجملة اهل كل فن وصناعة . ولم يترك الفقهاء والعلماء والافاضل وحفّاظ القرآن والعبيـد والنساء والصبيان بما لا يسعه الضبط والوصف (١).

وبعد تلك النكبة الكبرى لم ينجُ من الخزائن الكتابية الكثيرة بدمشق الا ما انحصر لعهـدنا الحاضر في الخزانة الظاهرية التي انشأها الملك الظاهر بيبرس

---

(١) كتاب « تيمورلنغ » بقلم هارولد لامب عربه عن الانكليزية عمر ابو النصر : صفحة ١٢٥ - ١٢٦

العلائي البندقداري صاحب الفتوحات والاخبار والآثار . وعندما حضرته المنية سنة ٦٧٦ للهجرة دُفن في القبة الظاهرية هو فابنه الملك السعيد من بعده .

٢ ـ الكتب الموقوفة على مدارس دمشق ومساجدها

تبسط السيد حبيب زيات في درس هذا الموضوع الذي نبحثه واوعاه من جميع اطرافه فاستندنا هنا الى معلوماته التاريخية الوثيقة التي تنم عن تدقيق وافر واطلاع واسع . وله في ذلك كتاب سماه « خزائن الكتب في دمشق وضواحيها » نقتطف منه ما يأتي (١) .

« وقد كان في مكاتبها الوقفية من نفائس المؤلفات ونوادر الذخائر العلمية ما لعلّ مثله لم يجتمع في مدينة اخرى من الديار السورية والمصرية بدليل قول جمال الدين بن نباتة المصري في مقدمة كتابه « سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون»: كنت اعرف ببعض خزائن دمشق الوقفية اسفاراً فيها للمطالع منجع . وللافهام الناسية ذكرى تنفع. فلم يتهيأ ان اعار منها كتابا ولا اراجع من السنة حروفها خطاباً » . ولكن اكثر ما كانت تكون هذه الموقوفات في المدارس والمساجد خاصة . وقد بقيت منها بقية الى هذه السنين الاخيرة في الجامع الاموي المشهور واهمها عند ضريح النبي يحيى . ثم نُقل قسم مما كان منها في بيت الخطابة الى قبة الملك الظاهر كما سيأتي ذكره وتلف سائرها في الحريق الذي اصاب الجامع المذكور في ١٤ من تشرين الاول سنة ١٨٩٣ ولم يسلم منها الا ما كان محفوظاً في قبة المال وهي التي تشاهد فيه عن يسار الداخل من باب البريد .

٣ ـ ذخائر مخطوطات الجامع الاموي

استتلى حبيب زيّات قال : « كان عامة الناس يرون ان هذه القبة مستودع

---

(١) خزائن الكتب في دمشق وضواحيها : صفحة ٢-١٤

الصكوك والاوراق المختصة باوقاف الجامع واملاكه. ولم يكن يعلم حقيقة ما فيها الا بعض الخاصّة فقط. ويظهر ان اول من دخلها في النصف الثاني من هذا القرن روجرس قنصل انكلترا. زارها ليلاً مع بعض السياح منذ ٣٥ سنة وانتقى اشياء منها فيما بلغني. ثم دخلها من بعده المرحوم محمود حمزة مفتي دمشق على ما اخبرني بذلك احد اصدقائه بسماعه منه. ولا يبعد ايضاً ان تكون قد فتحت في غير هاتَين المرتين على ما يُرى من حال هذه الاجزاء والمقطعات الباقية فيها مما لا تكاد تتألف منه اسفار كاملة. وعلى كلٍ فلم يبرح سر ما هنالك مكتوماً غير شائع الى ان مر بدمشق منذ خمس سنوات البارون هرمن فون سودن مدرس اللاهوت في كلية برلين. فلما رأى القبة وعلم بما فيها زيّن لدولته بعد رجوعه السعي لدى الحكومة السنيّة في فتحها والترخيص لبعض علمائهم في زيارتها وفحص مضمونها. وكان يرجي ان يجد فيها خاصة بعض ما يُعينه على ادراك خدمة لا يزال دائباً وراء انجازها. وهي تهيئة نسخة من الانجيل في اليوناني تُراجعَ لها كل النسخ المعروفة في اوروبا وآسيا وافريقيا وتُنشر بعد مقابلتها عليها باسرها فيما ذُكر لي. وهو المشروع الخطير الذي انتدبته للقيام به احدى مشريات الالمان بعد ان ارصدت لاتمامه مقداراً كافياً من المال. ولكن طلبه بقي مغفلاً كل هذه المدة ولم يُحتفل بتحقيقه الا في شهر نيسان من العام الحاضر اذ صدرت الارادة الشاهانية مؤذنة بفتح القبة واستطلاع ما فيها بحضرة صاحب الدولة ناظم باشا والي سورية ولجنة من اعيان المسلمين وعلمائهم. فلما درى البارون فون سودن بصدورها اوفد سريعاً من قِبله بمعرفة جمعية العلوم الملكية في برلين الدكتور برونو فيولت احد تلامذة العلامة نولدكي. فورد دمشق في ٣٠ ايار ولم يتسنّ له دخول القبة الا في ١٦ من شهر حزيران الذي يليه (١).

« وكانت اللجنة قبل قدومه قد بحثت في اضبارة من الصحف فعثرت بينها على

---

(١) من جملة ما عثر عليه الاستاذ فيولت (B. Violet) من الاوراق والرقوق في قبة ساحة الجامع الاموي قسم من كتاب المزامير بالعربية مكتوبة بحرف يوناني. وهذه القطع الاثرية يرتقي عهدها الى ايام الخلافة الاموية (المشرق : مجلد ٥ سنة ١٩٠٢ صفحة ٤٧)

قطعة من التوراة في الاسطرنجيلي تبلغ ٣٦ صفحة ، تتضمن فصولا من سفر الاعداد وسفر الخروج . ثم ظفر الدكتور برونو فيولت بملحق لها وجد قبله ايضاً صحائف كثيرة من الرق في اليونانية واللاتينية والأرمنية والعبرانية والأرامية والفلسطينية والسامرية بعضها قديم العهد يقدّر كتابته من القرن الخامس للميلاد . وسيضم ما يجتمع لديه من هذه اللقط في كتاب خاص سينشره في الالمانية بعد ان يرفع تقريراً عنها الى الحضرة السلطانية . غير ان كثيراً مما وقف عليه من هذا القبيل لا يكاد يتعدى الدينيات. كما هو شأن سائر هذه الاضابير المتراكمة من المخطوطات والرقوق العربية المبعثرة ضمن القبة مما يبلغ بضعة آلاف من الاسفار. معظمها بالخطوط الكوفية مزينة احياناً بضروب الاشكال والرسوم على ما وصفها لي بعض من شاهد شيئاً منها. ولهذا كانت اجلّ فائدة تُغتنم منها لا تعدو في الغالب تأريخ الخط العربي وبيان قسم مما تقلب فيه من الاطوار .

وهذه القبة وحدَها كافية في الدلالة على ما كانت عليه المكاتب والمخطوطات قبلاً في دمشق. غير ان ما ألم بهذه المدينة من الغُيَر والآفات وانتابها حيناً بعد حين من النهب والحريق وما توالى على ناحيتها من اختلاف الدول وتقلب الاحكام اودى بالجانب الاعظم من بيوت العلم فيها. وشتت شمل اكثر الاسفار المصونة في خزائنها بحيث لم يبق مَنها في منتصف القرن الحاضر الا بقية عبثت بها ايدى المطامع والاهمال. فانتقل عدد منها ليس باليسير الى المكاتب الاوروبية او دخلت في حوزة بعض الخاصة ولا سيما المؤلفات التاريخية . فانه لم يحفظ منها الا الناقص والمبتذل او ما لا كبير غناءٍ فيه »

وممن استدعاهم ناظم باشا رسمياً الى دمشق للاطلاع على ذخائر « قبة المال » في الجامع الاموي البطريرك اغناطيوس افرام رحماني لانه كان خبيراً بعدة لغات شرقية ومتضلعاً من قراءة الاقلام القديمة .

ولما عاد البطريرك الى بيروت جعل يقص علينا مراراً تفاصيل محتويات تلك الرقوق والمخطوطات الغالية. ووصف لنا رقوقاً جمّة تشتمل من اسفار التوراة الخمسة على

سفرَي الخروج والعدد مكتوبة بالقلم السطرنجيلي اعني السرياني القديم . ثم اسهب خصوصاً في وصف الرقوق المدوّنة بالسريانية الفسلطينية وهي من الآثار العزيزة النادرة التي لم يبقَ منها فيما نعهد الا اربعة مخطوطات قديمة نقلهـــا الانكليز من مكتبة طورسينا الى المتحف البريطاني مع مائتين وستة وسبعين مخطوطاً من انفس المخطوطات واقدمها (١) ومن الكتب السريانية الفلسطينية مخطوط فريد يحوي الاناجيل الاربعة محفوظ في الخزانة الواتكانية . وهو منسوخ في السنة ١٠٣٠ للميلاد. وقـــد نشره بالطبع المستشرق بول ده لاغرد عام ١٨٩٢ ورد في اوله ما نصه بحروف كرشونية : « قراآت اناجيل من يوحنيس وهي من الفصح الى العنصرة وهي مكتوبة شيء ورا شيء وعددها خمسون انجيلًا (٢).

٤ ـ حصر مخطوطات المساجد والمدارس في القبة الظاهرية

اردف حبيب زيّات كلامه بقوله : « لما قدم مدحت باشا (١٨٢٢ – ١٨٨٣) والياً على سوريا سنه ١٨٧٨ كان اوّل همهِ تأليف جمعية من جلة علماء الحاضرة واكابر فضلائها دعاها «الجمعية الخيرية» ناط بها امر النظر في انشاء المدارس وخدمة المعارف. ووكل اليها البحث عن الكتب والمكاتب وضمّ شتات ماتفرق منها . فأقبلت الجمعية على العمل بجد ونشاط . وجمعت ما امكنها ادراكه من الموقوفات في خزانة خاصة اقامها لها في الظـاهرية فوق ضريحي الملك الظاهر وابنهِ الملك السعيد ازاءَ التربة العادلية في حُجرةٍ رُصِعت جدرانها بانواع الرخام وزُينت بمشجرات من الفسيفساء على اجمل تمثيل . وتم بناؤها سنة ٦٧٦ للهجرة .

« وما كادت تفتح المكتبة ابوابها للطلاب حتى اقبل احمد حمدي باشا والياً على سوريا . فذكر الفهرست المطبوع بعد سنة من افتتاحها ان امر المكتبة تمّ على يده

---

(١) لائحة مخطوطات مكتبة طورسينا : طبع لندن ١٨٩٤

(٢) لائحة مخطوطات المكتبة الواتكانية : رقم ١٩

طبقاً للتقرير الذي رفعته اليه الجمعية الخيرية في ١٥ شباط سنة ١٢٩٥ (على حساب السنة المالية المعروفة بالسنة المارتية وفقاً لاصطلاح الدولة العثمانية) . وقد احصيت المكاتب التي ضُمت الى هذه الخزانة وأخذ منها مجموع كتبها الموقوفة . فكانت عشراً كما يأتي نقلاً عن الفهرست بنصهِ الحرفي »

٥ ـ تعداد المكتبات الملحقة بالمكتبة الظاهرية

واستتلى حبيب زيات يعدّد اسماء المكتبات الملحقة بالمكتبة الظاهرية فأثبتها كما يلي :

١ مكتبة العمريّة . وهي مكتبة عظيمة قديمة اكثر كتبها مصحح على ايدي العلماء المشاهير وبعضها بخطوط مؤلفيها . وهي وقف اناس متفرّقين من اهل الفضل وكان مقرّها بمدرسة شيخ الاسلام ابي عمر بالصالحية .

٢ مكتبة عبدالله باشا (العظم) . وهي مركبة من كتب وقفها المشار اليه سنة ١٢١١ وكتب وقفها والده محمد باشا قبله سنة ١١٩٠ وكان مقرها في مدرسته . الا انها اشتهرت نسبتها الى ابنه عبدالله باشا .

٣ مكتبة سليمان باشا (العظم) وهي مكتبة وقفها المشار اليه سنة ١١٩٦ وكان مقرها في مدرسته في باب البريد.

٤ مكتبة الملا عثمان الكردي. وهي مكتبة وقفها الموما اليه وكان مقرّها في المدرسة السليمانية المذكورة.

٥ مكتبة الخياطين. وهي مكتبة وقف كتبها الوزير الحاج اسعدٌ باشا (العظم) بعد سنة ١١٦٥ وكان مقرّها في مدرسة والده الحاج اسماعيل باشا في محلة الخياطين قرب المدرسة النورية.

٦ مكتبة المرادية. وهي مكتبة موضوعة في مدرسة الفاضل الزاهد الشيخ مراد النقشبندي.

٧ مكتبة الشميصاتية ، وهي مكتبة حديثة العهد وقف كتبها بعض اصحاب الخير وكانت موضوعة في المدرسة الشميصاتية لصيق جامع بني اميّة شمالا. وممن وقف كتبه على الشميصاتية ابو عبد الله المسعودي البنجديهي (٥٢١-٥٨٤ هـ) نسبة الى « بنج ديه » معناها القرى الخمس باللغة الفارسية

٨ مكتبة الياغوشية ، وهي مكتبة موضوعة في مدرسة سياوش باشا في محلة الشاغور .

٩ مكتبة الاوقاف . وهي مكتبة من مكتبات متفرقة تشتت امرها فوضعت في ديوان الاوقاف حفظاً لها .

١٠ مكتبة بيت الخطابة . وهي مكتبة كانت موضوعة في حجرة الخطابة في الجامع الاموي .

« وقد رأيت فيما عدا ذلك بضعة اسفار مخطوطة ذُكر في الهامش عنها انها من المكتبة الاحمدية او مكتبة جامع يلبغا او مكتبة الكزبري. وهذه كلها لم ينبّه عليها في مقدمة البرنامج ولعلها اغفلت عمداً لقلة المحفوظ منها اذ كان لايتجاوز خمسة او ستة مصنّفات . وفي هذه البقية اليسيرة دليل على ان المكاتب الموقوفة لم تكن عشراً فقط كما يؤخذ من الفهرست بل كانت تربي على هذا العدد بما يقرب من ضعفه. كما يؤيد ذلك ما ذكر عن مكتبة الاوقاف من انها كانت مجموع مكاتب متفرقة تشتت امرها فجُمعت في الديوان .

« ومع ذلك فلو كان قد تيسر للجنة التي تولت تحصيل هذه المكاتب ان تجمع كل ما كان في هذه العشر المذكورة وحدها لتألفت دون ريب من جملتها مكتبة ثمينة لا تخلو في كثير من اصناف العلوم من مصنفات حسنة ومؤلفات نادرة فيما سوى هذه الفضلات التي اعجل بعض متولي هذه المكاتب عن مواراتها كما سبق شرح ذلك قريباً . وهكذا ضاع كثير من خيار المخطوطات خلا ما كان عارية منها بين ايدي الناس ولم يُرَدّ . كما لاتزال تقع امثاله في تركات بعض المتوفين من طلبة العلم. وحسبما قرأته بنفسي في فاتحة بعض الكتب في احدى المكاتب الخاصة».

٦ ـ دار الكتب الاهلية الظاهرية

أجمع الكتبة على ان مدينة دمشق حوت في سالف الايام ثروة عظيمة من الكتب المخطوطة حُفظت في خزائن كثيرة . وظل الخزنة يعبثون بها تشريداً حتى تضاءلت وكادت تنطمس معالمها . غير ان الشيخ طاهر الجزائري (١٢٦٨ ـ ١٣٣٨ م) العلامة الكبير تنبه لتلك المصيبة الادبية وعوّل على تلافيها . وللحال فاوض علماء دمشق فأقرته طائفة منهم على السعي لجمع ما تبقى من الكتب في تلك الخزائن . وكان عدد تلك الخزائن ايام عزها بنيف على الخمسين فهبط الى العشرة . وقد عاضد الشيخ الجزائري في مشروعه مدحت باشا والي دمشق الذي اشتهر بنهضة الاصلاح في السلطنة العثمانية . هكذا تيسر للشيخ طاهر ومعاونيه العلماء ان يجمعوا تلك الذخائر الخطية بخزائنها وقماطرها ويصونوها في مكتبة القبة الظاهرية .

وبعد اربعين سنة مرّت على هذا الحادث قرّر الامير فيصل ان تناط ادارة تلك المكتبة بالمجمع العلمي العربي الذي أنشيء في عهد امارته على سوريا . ونُصب الاستاذ العلامة محمد كرد علي رئيساً عليه . فأخذ هذا الرئيس على عاتقه النهوض بانجاح المكتبة نهوضه بشؤون المجمع المشار اليه . وجهزها على طراز دور الكتب في العصر الحاضر . واستهدى اليها الكتب من جميع انحاء البلاد العربية ومن بعض المعاهد العلمية الاوروبية . فسارع الامراء والاعيان والمؤلفون ورؤساء الدين وارباب الادب الى اتحافها بمصنفات وافرة .

وكانت المدرسة الظاهرية يومئذ في حاجة الى ترميم ابنيتها وتوسيعها فجد الاستاذ كرد علي في ذلك حتى اصبحت بنايتها لائقة كافية . ولحسن حظ المكتبة ان فريقاً من اهل الفضل والوجاهة كرفيق بك العظم والشيخ عبد الله الكزبري وغيرهما سجلوا لها خزائن كتبهم . وقد بلغ مجموع كتب الخزانة الظاهرية في اوائل عام ١٩٤٧ اثنان واربعين الفاً وستمائة وخمسة وستين مجلداً بين عربي وافرنجي هذا تفصيلها :

٦٧٨٣	مجلداً مخطوطاً
٢٤٤٧٦	مجلداً مطبوعاً
١١٤٠٦	مجلات
٤٢٦٦٥	

وتُعد دار الكتب الظاهرية في طليعة جميع مكتبات بلاد الشام بما احتوته من مؤلفات نادرة قديمة العهد . اجلّها كتاب « مسائل الامام احمد بن حنبل » منسوخ عام ٢٦٦ للهجرة (٨٨٨ م) وهو فيما يغلب على الظن أعتق مخطوط عربي في العالم منسوخ على الورق .

ومن اهم مخطوطات هذه المكتبة : تاريخ دمشق لابن عساكر نُقل اليها من مكتبة اسعد باشا العظم . ومجمع الآداب لابن الغوطي . شرح ابن فارس على الايضاح للجرجاني . الكواكب الدراري لابن عروة الحنبلي . سر الصناعة لابن جني . الجراثيم لابن قتيبة . سيرة احمد بن طولون للبلوى وغيرها . زد على ذلك ان في دار الكتب الاهلية الظاهرية مجاميع شتى تحوي طائفة كبيرة من خطوط العلماء (١).

٧ ـ مكتبة المجمع العلمي العربي

تأسست هذه المكتبة مع تأسيس المجمع العلمي العربي سنة ١٩١٩ في دمشق وجُعل مركزها في المدرسة العادلية . ويعود الفضل في ذلك الى السيد محمد كرد علي رئيس هذا المجمع والى معاونيه في ذاك الحين وهم : الشيخ عبد القادر المغربي والاستاذ عيسى المعلوف والاستاذ انيس سلوم .

تتألف المكتبة من اربعة الاف وثلثماية وثلاثة وسبعين مجلداً بين عربي وافرنجي ومصور (٢)

---

(١) دار الكتب الاهلية الظاهرية : بقلم يوسف العش : مجلة دمشق : مجلد ١ صفحة ٤٧

(٢) رسالة امين السر العام للمجمع العلمي العربي بتاريخ ٢٧ نيسان ١٩٤٧ الى مؤلف هذا الكتاب

اكثرها باللغة والتاريخ والادب والنقد والرحلات. وهي غنية خصوصاً بمنشورات علماء الاستشراق . وتحوي كذلك اهمّ ما اصدرته المطابع المصرية في الاعوام الاخيرة من مصنفات العرب قديمها وحديثها . وفيها ايضاً سبعة وثمانين مجلداً منقولة بالفوتغراف عن مخطوطات نادرة مخزونة في مكتبات الشرق والغرب . نذكر منها كتاب « تراجم الاعيان من ابناء الزمان » تأليف الشيخ حسن البوريني النابلسي نسخ بخط جميل في ٣٧٨ صفحة . ومن ذخائر هذه المكتبة: «مذكرات الشيخ طاهر الجزائري» بخط يده في مجلدات شتى.

الفصل الثامن

خزانة كتب طرابلس الشام

١ ـ اختلاف الآراء في تاريخ نشأة الخزانة الطرابلسية

استولى الصليبيون على مدينة طرابلس الفيحاء في عيد الأضحى سنة ٥٠٣ هـ (١١١٠ م) وكان حاكمها ابو علي بن عمار سليل القضاة آل عمار الذين تألفت في هذه المدينة تحت عنايتهم جمعية علمية اشتهرت باسم « دار العلم » . وضموا اليها خزانة فيها من الكتب ما لا يُحدّ ولا يُحصى (١) .

وذهب بعض المؤرخين الى ان « دار العلم » كانت قبل بني عمار بمدة خلافاً لما توهم فريق من كتبة عصرنا الحاضر . لان القضاة بني عمار لم يحكموا في طرابلس الا بعد السنة الاربعين والاربعمائة . وكان ابو العلاء المعري (٣٦٣ ـ ٤٤٩ هـ) قد زار هذه المدينة في اواخر القرن الرابع للهجرة وانتفع بخزانتها وكتبها . واول من حكم من القضاة بني عمار ابو طالب عبد الله في خلافة المستنصر الفاطمي في حدود سنة اربعين واربعمائة (٢)

٢ ـ فضل بني عمار على خزانة كتب طرابلس

ينتج مما تقدم ان « دار العلم » في طرابلس وجدت نحو نصف قرن قبل حكم بني عمار فيها . انما ذلك لا يقلل من فضلهم وتنافسهم في تعزيز تلك الخزائن الكتابية باجماع المؤرخين . وقد روى ابن الفرات ان الامير علي بن محمد ابن عمار

---

(١) ابن الاثير : مجلد ١٠ صفحة ٢٠١ (٢) خطط الشام : مجلد ٦ صفحة ١٩١

جدّد « دار العلم » سنة ٤٧٢ للهجرة . ثم جاء بعده فخر الملك بن عمار فنهج نهج من سلفه من أسرته حتى اصبحت طرابلس كلها « دار علم »

٣ ـ وصف خزانة كتب طرابلس وعدد مجلداتها

وصف العالم الفرنسي الكبير اسطفان كاترمير مكتبة طرابلس في نبذة له عنوانها «محبة الشرقين للكتب» طُبعت عام ١٨٦٢ في باريس نكتفي بالاشارة اليها . غير اننا لا نرى بدّاً من اثبات ما نشره الشيخ البحاثة جرجي يني في دائرة المعارف (١) البستانية قال :

« وكانت المدينة يومئذٍ (اي عند استيلاء الصليبيين عليها) على ما أثر المؤرخون عامرة بالزراعة والصناعة حتى انهم رووا انه كان فيها نحو من اربعة آلاف نول للنسيج . ناهيك بما كانت تحوي من نتاج العقول اذ كان فيها مكتبة شهيرة اختلف الرواة في عدد كتبها بين مقل ومكثر . فالذي اقل لم ينقص عن مائة الف مجلد والمكثر تجاوز الملايين الثلاثة عداً . قيل وكانت من كتب اليونان والرومان والفرس والعرب . وان مئة من الكتبة كانوا يدأبون على النساخه . وان جامعها هو القاضي ابو طالب حسن وانه هو كان قد الف كثيراً من اطايب الكتب . فذهب كل ذلك ضياعاً على اثر الحرب والفتوح » .

وكان يُراد من انشاء دار العلم في طرابلس نشر التشيّع على ما يقال . وساعد على كثرة الكتب في هذه المدينة ما كان فيها من معمل الورق الجيد (٢) . امّا مصير المكتبة الطرابلسية فقد استوعبنا وصفه في الفصل السابع عشر من الباب السادس عشر الذي كتبناه عن « رزايا الكتب والمكتبات » فنحيل القارىء الى مطالعته في المحل المذكور .

---

(١) مجلد ١١ صفحة ٢٤١ و ٢٤٢

(٢) خطط الشام : مجلد ٦ صفحة ١٩٢

الفصل التاسع

خزائن كتب فلسطين وشرق الاردن

اولا ـ مكتبة المسجد الاقصى

١ ـ نفائس هذه المكتبة

المسجد الاقصى هو أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين بناه عبد الملك بن مروان سنة ٧٢ للهجرة على انقاض هيكل سليمان. وحوى هذا المسجد منذ قرون عديدة خزانة كتب اهداها اليه الملوك والعلماء والاشراف من جميع الاقطار. لكنها اصبحت كسائر المكاتب عرضة لذوي المطامع فضاع كثير من كنوزها التي لا تقدّر بثمن. وما عتم ان تنبه المجلس الشرعي الاسلامي الاعلى في القدس الشريف لهذا الامر وتولى بنفسه السهر والمحافظة على بقية تلك الكنوز الكتابية. فانشأ سنة ١٣٤١ هجرية داراً للكتب في المسجد الاقصى ضم اليها كل نادر ونفيس من الاسفار المخطوطة والمطبوعة.

وبين محتويات تلك المكتبة نصف مصحف قديم بخط كوفي كتب عليه: «كتبه محمد بن الحسن بن الحسين بن بنت رسول الله». وفيها احدى ثلاث نسخ من مصحف مجزء ثلاثين جزءاً كتبها بيده احد ملوك المغرب ابن عبد الحق على رق غزال. وهي مجلدة على الطريقة المراكشية وموضوعة في صندوق مزخرف بالميناء على الطريقة الاندلسية. وفيها مصاحف كبيرة جداً وصغيرة كُتبت في عهد المماليك وملوك بني عثمان وغير ذلك من المخطوطات الثمينة (١)

---

(١) خطط الشام: مجلد ٦ صفحة ٢٠٠ ـ ٢٠١

ثانياً ـ المكتبة الخالدية

١ ـ بنو الخالدي

سميّت كذلك تبركاً بذكرى خالد بن الوليـــد وهو الجد الاعلى للاسرة الخالدية التي قطنت القدس الشريف على اثر الفتح العمري . ثم نزحت اثناء الحروب الصليبية الى قرية « دير مردا » في جبل نابلس ، ولاجل ذلك اطلق على كل من انتسب اليها لقب « الخالدي الديري » في القرن السابع والثامن والتاسع للهجرة .

٢ ـ مؤسس المكتبة الخالدية والمشتركون في تعزيزها

وعلى مدى الاجيال اقتنى الخالديون آلاف الكتب المخطوطة وحفظوها في ديوان اسرتهم الواقع في « باب السلسلة » وهو الحي المعروف بهم في القـدس . وقد خطر ببال الحاج راغب الخالدي ان ينشىء مكتبة عامة تظل وقفاً ينتفع به طلاب العلم . وكانت والدته خديجـــة بنت السيد موسى الخالدي قد اوصت بمبلغ من المال لاعمال البر . فاقنعها ابنها الحاج راغب ان تؤسس بهذا المال معهداً يستوعب المكتبة المشار اليها (١). وبعد المفاوضة في الامر اتفق اركان الاسرة الخالدية على ان يكون « باب السلسلة » مركزاً لتلك الخزانة العلمية التي فتحت ابوابها رسمياً عام ١٩٠٠ لجمهور المطالعين .

وجرى الاتفاق على انه متى توفي احد افراد هذه الاسرة تنقل كتبه الى المكتبة الخالدية . هكذا ضمت اليها كتب يوسف ضياء الدين باشا الخالدي نائب القدس في

---

(١) كتاب مجمع الآثار العربية ـ تأليف الرحالة ابرهيم السيد عيسى المصري : جزء ١ صفحة ١١٨

مجلس المبعوثان العثماني سنة ١٨٧٨ (١) ومكتبة روحي بك الخالدي الرئيس الثاني لمجلس المبعوثان العثماني سنة ١٩٠٨ بالاستانة . ونظيف بك الخالدي احد مهندسي السكة الحديدية الحجازية واحمد بدوي بك الخالدي وغيرهم .

٣ - تبويب المكتبة وتنظيمها وعدد مجلداتها

ما كادت تظهر المكتبة للوجود حتى اقبل الى القدس الشيخ العلامة طاهر الجزائري منفياً من دمشق بامر من السلطنة العثمانية صاحبة البلاد. وكان الشيخ طاهر من اكبر غلاة الكتب وصديقاً حميماً للحاج راغب مؤسس هذه المكتبة . فكلفه هذا ان يساعده في تبويبها وترتيبها وسعى في انشاء اوقاف خاصة بها تضمن نجاح مستقبلها .

وكتب لنا العالم القبطي جرجس فيلوثاوس عوض من القدس الشريف بتاريخ ١٤ نيسان ١٩٣٦ انه زار المكتبة الخالدية وتعهد محتوياتها . فقيل له انها تشتمل على سبعة آلاف مجلد ثلثها مخطوط . وبين مخطوطاتها سبعة وخمسون مجموعة يضم اعظمها ستين رسالة مختلفة . ومن تلك المخطوطات ما يبلغ عمره السبعة قرون . ولهذه المكتبة مدير خاص يشرف عليها ويحافظ على ذخائرها ، وهو الآن الشيخ امين الانصاري الدنف . وقد انحصر في اسرته منذ عهد بعيد طواف الجامع الاقصى .

ثالثاً ـ خزائن كتب شرق الاردن

كانت بلاد شرق الاردن قبل الحرب العظمى (١٩١٤ - ١٩١٨) اقرب الى البداوة منها الى الحضارة . وظلت قروناً كثيرة على تلك الحال لاتعرف من بواعث

---

(١) كان يوسف ضياء الدين من ادباء عصره وقد الف معجما في اللغتين الكردية والعربية يعد الاول من نوعه .

التمدن الحديث شيئاً . لأنها كانت خالية من المدارس والمكتبات والمطابع وسائر ما تتميز به البلدان الراقية من المحسنات العصرية .

فما كادت تضع تلك الحرب الضروس اوزارها حتى نشط الانكليز الى انشاء امارة مستقلة في تلك البقعة العربية لأنهم انتدبوا عليها باسم عصبة الامم في جنيف . وجعلوا اميراً عليها منذ السنة ١٩٢٢ الشريف عبدالله ثاني ابناء الملك الحجاز حسين بن علي . فأخذ الامير على عاتقه النهوض باعباء امارته طبقاً لاحتياجات هذا العصر . وعلى رغم قلة الموارد المالية فكان اول ما وجه اليه عنايته تعميم المعارف بين جميع طبقات الأمة . ولم يدخر جهداً في انشاء المكتبات التي لم يكن لها هناك عين ولا اثر واليك ما عرفناه منها (١) :

١ ــ مكتبة قصر رغدان

شيد هذا القصر الملك عبد الله في عمان عاصمة شرق الاردن واتخذه مقراً له ولمن يتولى عرش المملكة من بعده . ولهذا الملك شغف عظيم باللغة العربية يجيد الكتابة فيها نظماً ونثراً ويحفظ اخبار اعلامها راويا طرفهم ومتغنياً باشعارهم . واطيب اوقات الفراغ لديه الركون الى خزانة كتبه الحافلة بالمعاجم والموسوعات ودواوين الشعر وكتب التاريخ والشرع والادب وغيرها . وعلى حداثة عهد هذه الخزانة فان عدد مجلداتها اربى الى الآن على ستة آلاف بينها مخطوطات نادرة . وهي سائرة في نمو مطرد يوماً بعد يوم .

٢ ــ دار الكتب الاردنية

هي المكتبة الرسمية لمملكة شرق الاردن ومركزها في عمان العاصمة . تأسست عام ١٩٣٨ وفيها من الكتب خمسة الاف مجلد . وبلغنا من ثقة ان هذا العدد سيصبح

---

(١) استندنا في تدوين اخبار مكاتب شرق الاردن الى رسالة كتبها لنا الاستاذ الفاضل السيد خليل جمعة الطوال مدير مدرسة المعارف الاميرية في جرش .

مضاعفاً بعد وقت قريب في هذا المعهد الكتابي لشدة عناية الحكومة الاردنية بترقية المعارف في انحاء المملكة .

٣ ــ سائر مكتبات شرق الاردن

وما عدا المكتبتين المشار اليهما فقد اشتملت المملكة الاردنية على مكتبات صغرى افرغ الجهود في تأسيسها منذ سنة ١٩٢٣ سمير بك الرفاعي مدير المعارف في تلك المملكة الحديثة العهد . وقد نجح بعض النجاح في مهمته فأنشأ بموجب قرار رسمي ثلاث مكتبات نورد اسماءها ما يلي :

١ : مكتبة المدرسة الثانوية في السلط وعدد مجلداتها ٣٠٠٠

٢ : مكتبة المدرسة الثانوية في اربد وعدد مجلداتها ١٢٠٠

٣ : مكتبة المدرسة الثانوية في الكرك وعدد مجلداتها ١٣٥٠

فيكون مجموع المكتبات خمسة آلاف وخمسماية وخمسين مجلداً .

الفصل العاشر

خزائن كتب مكة المكرمة

اولا ـ مكتبات مكة في العصور الخالية

١ ـ مكتبة المسجد الشريف النبوي

لا جدال في ان هذا المسجد الشريف كان وما برح قبلة جميع المسلمين في مشارق الارض ومغاربها ، وكان خاصّتهم وعامتهم وفي مقدمتهم الخلفاء والملوك والامراء والحجاج يتيمنون باهدائهم اليه افخر ما لديهم من الجواهر الثمينة والتحف البديعة تقرباً لله تعالى . وراح الخطاطون والعلماء يكتبون المصاحف الرائعة والمؤلفات المختلفة الابحاث ليزينوا بها خزائن هذا المسجد ويفيدوا طلبة العلم . وقد اثبت المؤرخون اسماء ملوك وسلاطين توّلوا نسخ مصاحف القرآن بيدهم وبعثوا بها الى مكة تيمناً وتعبداً كما سلف الكلام في فصل سابق .هكذا تكونت بتوالي الاعوام مكتبة المسجد النبوي التي كانت بلا ريبٍ من اغنى المكتبات الاسلامية في غابر الزمان .

غير انه بين ليلة وضحاها ذهبت تلك المكتبة فريسة النار بتاريخ ١٣ رمضان سنة ٨٨٦ للهجرة . وسبب ذلك ان صاعقة انقضت على مئذنة المسجد فانهارت على سقفه وعلقت به النار فاحرقت المسجد بكامله والتهمت جميع ما فيه من الكنوز والمصاحف والربعات وخزائن الكتب . وكانت تضم تلك الخزائن كتباً نفيسة ومصاحف عظيمة (١) هيهات ان يأتي الزمان بمثلها !

---

(١) الاعلام باعلام بيت الله الحرام : تأليف قطب الدين الحنفي : صفحة ١٠٥

٢ - مكتبة الملك الاشرف قايت باي

على اثر النكبة الهائلة التي حلت بالمسجد النبوي كما ورد في مطلع هـذا الفصل حملت الغيرة الدينية الملك الاشرف قايت باي سلطان مصر (٨٧٢ – ٩٠١ هـ) على انشاء معاهد خيرية وعلمية بجانب المسجد الحرام. فأصدر الاوامر الى وكيله شمس الدين محمد بن عمر الشهير بابن الزمن ان يشتري له دورا بجوار الحرم الشريف تحقيقاً لأمنيته. فقام الوكيل بأوامر سيده واشترى ثلاث دور منها دار للشريفة شمسية من شرائف بني حسن. فهدم الملك تلك الدور وشيد مكانها اثنتين وسبعين خلوةً ومجمعاً كبيراً مشرفاً على المسجد الحرام وصيّر المجمع المذكور مدرسة بناها بالرخام الملوّن ووشّى سقفها بالذهب وقرّر لها اربعة مدّرسين على المذاهب الاربعة .

واتحف الملك الاشرف تلك المدرسة بخزانة كتب وقفها على طلبة العلم . وأقام عليها خازناً من افاضل العلماء وعيّن له مبلغاً من المال. غير ان ايدي المستعيري عبثت بجانب كبير من تلك الكتب وضاع منها جانب آخر . فلم يبق من تلك المكتبة الا ثلاثمائة مجلد تسلمّها الشيخ قطب الدين الحنفيّ فصانها وكمل بعض ما نقص منها. ثم جلّد من الكتب ما كان في حاجة الى التجليد واستطاع بدرايته ان يسترد طائفة من الكتب المفقودة ويعيدها الى اماكنها (١).

ثانياً : مكتبات مكة في العصر الحالي

١ - خزانة كتب الحرم

في جانب الحرم الشرقي بمدينة مكة مكتبة قديمة انطوت على مخطوطات عربية في علوم كثيرة بينها طائفة من الكتب وقفها الشريف عبد المطّلب وغيره (٢)

---

(١) الاعلام باعلام بيت الله الحرام : تأليف قطب الدين الحنفي : صفحة ١٠٤

(٢) مجمع الآثار العربية : جزء ١ صفحة ١٣١

وقد وصفهـــا صديقنا الفاضل الحاج احمد عارف الزين في رحلة له سماها « بين صيدا ومكة » ونشرها سنة ١٩٢٢ و ١٩٢٣ في مجلته « العرفان » . واوضح عدد المخطوطات بحسب مواضيعها فبلغت الفين وسبعمائة واثنين وثلاثين مجلداً في علوم الدين والحكمة والهيئة والهندسة والفلسفة والطب والادب والمعاني والبيان الخ. واليك ما كتبه الحاج احمد المشار اليه في وصفها قال :

« لا توازي هذه المكتبة عظمة مكة وشهرتها . ولا غرو فالمكيون لا يحفلون كثيراً بالكتب النفيسة ولا يتسابقون الى اقتنائها . حتى انك لا تجد عنـد الملك نفسه مكتبة قيّمة مع ما ورثه عن آبائه واجداده من مئات السنين . وهـــذه المكتبة في الجانب الشرقي من الحرم تصعد اليها بسلم . ولها قيّمان يحسنان استقبال الزائرين . ولها قائمة كتب مخطوطة مرتبة على العلوم (١)

٢ ـ مكتبة ماجد كردي

للاستاذ الاديب ماجد كردي كلفٌ شديدٌ بالكتب يلتقطها من كل صوب وقطر ويجمعها ويرتبها في خزائنه . وقد استطاع بجهوده المتواصلة ان ينشىء مكتبة عامرة حبسها لفائدة الادباء وطلبة العلم في مكة المكرمة . ثم جعل لها قواماً يتعهدونها وينهضون بخدمة زوارها والمطالعين فيها. وروى الدكتور مدحت شيخ الارض طبيب جلالة الملك عبد العزيز بن سعود ان هذه المكتبة تشتمل على زهاء اربعة آلاف مجلد بينها ثلاثمائة مخطوط.

---

(١) مجلة (العرفان) في صيدا : مجلد ٨ صفحة ٤٩٠ و ٤٩١

الفصل الحادى عشر

مكتبة عارف حكمت بك فى المدينة المنورة

١ ـ ادب مؤسس المكتبة وفضله

لعارف حكمت بك شيخ الاسلام منزلة رفيعة في عالم الفضل والادب . فانه اشتهر بمساجلته فريقاً من علماء عصره في الاقطار العربية . وجرت له ابحاث علمية خطيرة مع محمود شهاب الدين الآلوسي البغدادي (١٢١٧ـ١٢٧٠ هـ). وقد دُوّنت تلك الابحاث في كتاب « نزهة الالباب » ويُسمى ايضاً كتاب « غرائب الاغتراب في الذهاب والاقامة والاياب » (١) .

٢ تسبيل مكتبة عارف حكمت على المدينة المنورة

شغف عارف حكمت بك شغفاً عظيما بالمطالعة وجمع مخطوطات نادرة وافرة. فتكونت لديه بتوالي الايام مكتبة جديرة بالاعتبار نشر عنها ابرهيم حمدي خربوطلي مقالة ضافية في مجلة «المقتبس» الدمشقية (٢) .

ولما كان عارف بك لا يبغي من وراء ذلك منفعة شخصية فقد حبس مكتبته على المدينة المنوّرة عام ١٢٦٠ للهجرة (١٨٤٤ م) ليستفيد سكانها والحجاج النازلون بها من مطالعة ما حوته من الاسفار القيمة . وهي تعد الآن المكتبة الوحيدة العامّة في المدينة المومأ اليها . وقد اتى العلاّمة محمد كردعلي رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق على وصف هذه المكتبة في مقتبسه فقال ما نصه :

---

(١) الآداب العربية في القرن التاسع عشر : للاب لويس شيخو : جزء ١ صفحة ٩٠

(٢) المقتبس : مجلد ٧ سنة ١٩١٢ صفحة ٣٧٩ و٧٧٤

« لعلّ خزانة شيخ الاسلام عارف حكمت بك التي سبّلها على النـــاس في مدينة الرسول تشبه الخزانة التيمورية كما تقرب منها بعدد المجلدات » . ولا يخفى ان الخزانة التيمورية انشأها احمد تيمور باشا ثم حبسها على دار الكتب المصرية عام ١٩٣٢ للميلاد. وكان عدد مجلداتها يومئذ واحـــداً وعشرين الفاً وثلاثمائة وخمسة واربعين مجلداً . وسنأتي على وصفها في كلامنا عن مكتبات مصر .

٣ ـ وصف رحالة لمكتبة عارف حكمت بك

اطلعنا في اخبار « رحلة الى المدينة المنورة » على مقالة تصدّى فيها كاتبهـــا لوصف مكتبات المدينة المشار اليها قال : «... واهم خزائن الكتب في المدينـــة خزانتان : مكتبة السلطان محمود العثماني ومخطوطاتها ومطبوعاتها تافهة لا شأن لها. واكثرها من المشهور ونظامها وسط. واحسنها وربما كانت خير مكتبة في البلاد العثمانية كلها بنظامها وانتقاء امهاتها هي مكتبة شيخ الاسلام عارف حكمت افندي. ففيها نحو عشرة آلاف مجلد كُتبت بخطوط المشهورين من الخطاطين . كأنّ تجد الكتابَ ذا العشرين مجلداً مكتوباً بخط مشرق بديع في مجلد او مجلدين . وفي هذه المكتبة من التسهيل للمطالعين والعناية براحتهم ما لا تـــكاد تجد مثله في دار الكتب الخديوية بمصر لعهدنا. وما ذلك الا لكثرة ريعها وانفاقهِ في سبله واختيار القيّمين عليها وإدرار المشاهرات الكافية عليهم » (١).

٤ ـ بدائع هذه المكتبة وروائعها

وفي مكتبة عارف حكمت بك طُرَف بديعة يتيمة لا قرين لها في سائر المكاتب. وقد رأينا ان نثبت وصف بعضها بياناً لخطورتهـــا نقلاً عن تاريخ آداب اللغة العربية » (٢) لمؤلفه جرجي زيدان قال :

---

(١) المقتبس : مجلد ٧ سنة ١٩١٢ صفحة ٧٦٣ (٢) مجلد ٤ صفحة ١٤٥ ـ ١٤٦

« ذكر الامير شكيب ارسلان في مقالة نُشرت في « البرهان » الطرابلسية انه شاهد في هذه المكتبة نسخة من المصحف مكتوبة على رقّ نعام بخط اندلسي مذهبة في آخرها . وقد جاء فيها انها كتبت في المرية بالاندلس بقلم عبد الرحمن بن علي بن محمد بن مرزوق بن حمد مكانس البطليوسي سنة ٤٨٨ هـ فهي من التحف المخطوطة النادرة . وانه شاهد نسخة غير تامة من تفسير القرآن لعبدالله بن عباس على رقّ غزال كتبت سنة ٣١٠ هـ . وكتاب المحاضرات للسيوطيّ بخطّ المؤلف . وافعال ابن القوطية كتبت بالاسكندرية سنة ٤٧٩ هـ . وكتاب التشبيهات لأبي اسحق بن ابي عون البغدادي مكتوبة بخط مشرقي سنة ٤٦٦ هـ . وطبقات الشعراء لابن سلام ومنها نُقلت نسخة الشنقيطي في المكتبة الخديوية .

«وذكر محمد بتانوني صاحب « الرحلة الحجازية » انه شاهد في هذه المكتبة كتاب اشعار فارسية مكتوباً بخط ابيض جميل قال : « وبينا نحن نعجب من جودة الخط واتقان الصناعة ونظافتها وحسن تنسيق حروفها على صغرها ودقّتها لفت نظرنا حضرة مدير الكتبخانة الى ان حروف الكتابة انما هي ملصقة على الورق. فتأملناها فوجدنا شيئاً يبهت الطرف لرؤيته ويعجز اللسان عن نعته . خصوصاً عندما اخبرنا انهم كانوا يكتبون هذه الكتابة ثم يفصلونها عن ورقتها بظفرهم . ثم يلصقونها على ورقة اخرى » . وذكر عبدالله مخلص في المقتبس (سنة ٨ ج ٢) ان هذا الكتاب يُسمى غزليات شاهي كتب نحو سنة ٦٥٥ هـ بحروف من ورق . وانه رأى في تلك المكتبة كتاب « تقويم الابدان » في الطب لابن جزلة البغدادي كُتب سنة ٢٩٧ هـ (١) » .

---

(١) ان مؤلف كتاب تقويم الابدان في الطب اعني يحيى بن عيسى بن جزلة البغدادي قد توفي سنة ٤٧٣ هـ طالع ذلك في الصفحة ٣٣٩ من تاريخ مختصر الدول لابي الفرج ابن العبري . فيكون نسخ هذا المخطوط في السنة ٢٩٧ هـ مغلوطاً فيه فوجب التنبيه .

الفصل الثاني عشر

خزائن كتب اليمن

اولا : مكتبات اليمن في الازمنة السابقة

١ ـ خزانة كتب الملك المؤيد

تمتد بلاد اليمن على ساحل البحر الاحمر في الجهة الجنوبية الغربية من شبه جزيرة العرب . وآثارها القديمة تنبىء بما كانت عليه من الحضارة في زمن الجاهلية وصدر الاسلام . ثم دارت عليها الدوائر فتقهقرت احوالها ولم تنهض الا بعناية الملك نور الدين علي مؤسس الدولة الرسولية التي ملكت اليمن مدة مائتين وعشرين سنة (٦٢٦ – ٨٤٥ هـ) وكان آخر ملوك هذه الدولة مظفر يوسف الرسولي فخلفهم بنو طاهر (١). وذهب بعض المؤرخين الى تشبيه الدولة الرسولية في اليمن بدولة العباسيين في العراق (٢). وحسبك بعض ملوك بني الرسول مؤلفي الكتب العديدة في التاريخ والادب والطب (٣)

وبعد وفاة الاشرف ابن الملك المظفر سنة ٦٩٥ للهجرة خلفه في اليمن اخوه الملك المؤيد هزبر الدين داود (٦٩٥ – ٧٢١ للهجرة) الذائع الشهرة في الجود والادب . وكانت ايامه عصراً ذهبياً للمملكة اليمنية اذ لم يقم بعد عصر الارتقاء العربي ملك مثله قرّب العلماء واستجلبهم اليه من حيثما كانوا . ومن آثاره القلمية

---

(١) المشرق : مجلد ١٤ (١٩١١) صفحة ٦٣٤ (٢) الاعلام ، لخير الدين الزركلي : صفحة ٧١٩ (٣) المقتطف : مجلد ٩٠ صفحة ٣٢١

اختصاره كتاب « الجمهرة في التبررة » وقد زاد على الاصل مباحث (١)

ولهذا الملك المؤيد مآثر جمة منها « المدرسة المؤيدية » نسبة اليه ابتناها في معزية تعز . اما ابرز مآثر هذا العاهل الفاضل فهي « خزانة الكتب » التي انشأها في عاصمة ملكه وجمع فيها من التحف النادرة ومن مصنفات اهل العلم على اختلافها ما ينيف على مائة الف مجلد (٢). وقد تواردت عليه طرف المخطوطات من كل صوب يرغب الناس في مطالعتها والاستقاء من مناهلها . وكان عنده اكثر من عشرة نساخ ينسخون الكتب ويضمونها الى خزائنه بعد التدقيق فيها ومقابلتها على الاصل . ولا ريب في ان المحن والحروب التي توالت على اليمن في القرون اللاحقة قضت على هذه المكتبة فعفت آثارها ودخلت في خبر كان.

وحلت وفاة الملك المؤيد في قصر الشحرة في معزية تعز سنة ٧٢١ للهجرة . وقد قرظه الشعراء بقصائد رنانة نكتفي منها بابيات انشده اياها الشيخ تاج الدين عبد الباقي اليماني وقد ركب الملك المؤيد فيلًا قال (٣) :

الله اولاك يا داود مكرمةً ... ورتبةً ما اتاها قبل سلطانُ
ركبت فيلًا وكان الفيل ذا رهج ... مستبشراً وهو بالسلطان فرحانُ
لك الاله أذلّ الوحش اجمعهُ ... هل انت داود فيه ام سليمانُ

٢ ـ خزانة كتب الامام محمد بن الحسين

واشتهر بالعلم في القرن الحادي عشر للهجرة ابن امام اليمن محمد بن الحسين ابن الامام القسم . وصفه ابن ابي الرجال بقوله : « عالم ابن عالم كان من اهل العلم ورعاته مطلعاً على مقاصد الادباء ومناهجهم » وقد اجتمع عنده من الكتب ما لم

---

(١) العقود اللؤلؤية لعلي بن الحسن الخزرجي : مجلد ١ صفحة ٤٤٠ — وفوات الوفيات
(٢) صبح الاعشى للقلقشندي : جزء ٥ صفحة ٣١ (٣) فوات الوفيات : مجلد ١ صفحة ١٥٨

يجتمع الا عند السلاطين . وحلت وفاته بعد عصر الجمعة ثامن شوال سنة سبع وستين والف . ودفن بالتربة المشهورة بالبستان في باب صنعاء الغربي (١)

ثانياً : مكتبات اليمن في الزمن الحالي

١ ـ المكتبة العمومية

اثبت الرحالة المدقق نزيه بك مؤيد العظم ان في صنعاء عاصمة اليمن مكتبةً عمومية تابعة لجامعها الكبير قال : « هي قيّمة جدا تحتوي على انواع الكتب الخطية القديمة والحديثة وخاصة المصاحف القديمة المشهورة » (٢). ويرجع الفضل في تأسيس المكتبة وصيانة كنوزها منذ قرون عديدة الى الائمة الزيود أسلاف الامام يحيى ملك اليمن الحالي. وهو الامام السابع والثمانون (٣) ارتقى الى عرش الامامة في عشرين ربيع الاول سنة ١٣٢٢ للهجره (٤). وقد جرى على خطة اجداده في تعزيز هذه المكتبة العمومية التي ضم اليها سنة ١٣٤٤ للهجرة كل ماعثر عليه من مخطوطات نفيسة في كل فن . وكانت تلك المخطوطات مبعثرة في خزائن كتب الوقف بصنعاء وقد عبثت الايدي بكثير منها في سالف الايام (٥) .

واحتذى الامام يحيى في لمّ مخطوطات اليمن حذو الخديو اسمعيل بمصر والباي محمد الصادق بتونس ومدحت باشا والي سوريا بدمشق . فان هؤلاء الرجال العظام تنبهوا الى ما حل من النهب والتلف والاهمال بخزائن الكتب التي وقفها الملوك والعلماء وأهل الاحسان على المساجد والاضرحة وعلى معاهد العلم. فتنبه الامام

---

(١) خلاصة الاثر في اعيان القرن الثاني عشر : جزء ٣ صفحة ٤٥٥ ـ ٤٥٦

(٢) رحلة في بلاد العربية السعيدة : بقلم نزيه بك موءيد العظم : جزء ١ صفحة ٢٥٨

(٣) ملوك المسلمين المعاصرون ودولهم : صفحة ١٦٩ (٤) ملوك المسلمين المعاصرون ودولهم : صفحة ١٧٢ (٥) فرجة الهموم والحزن في حوادث اليمن : تأليف عبد الواسع بن يحيى الواسعي اليمني : صفحة ٢٧٤

يحيى الى استنقاذ مخطوطات مملكته كما تنبه اولئك الرجالات العظام الى استنقاذ ما تبقى من مخطوطات بلادهم. والف من مجموعها مكتبة عامرة في عاصمته كما الف اولئك الدهاقنة الثلاثة ثلاث مكتبات في العواصم الثلاث المشار اليها.

واليك ما روته جريدة «البشير» البيروتية (١) عن اهتمام حكومة اليمن بتلك المكتبة العمومية قالت: «وبدأ العمل في توسيع المكتبة العمومية في جامع صنعاء. وهي التي أمر سيوف الاسلام انجال الامام بان تُنقل اليها جميع الكتب المطبوعة والخطية التي في مكاتبهم الخاصة وهي كتب نفيسة جداً. وقد قوبل هذا القرار بالشكر والثناء. وستباشر ادارة المكتبة العمومية طبعَ فهرس عام لمحتوياتها».

على ان الرحالة نزيه بك العظم قد اثبت ما اختبره بنفسه عن ثقافة «سيوف الاسلام» المشار اليهم قال: «عدتُ من زيارة اولاد الامام وانا مدهوش من منظرهم وجلوسهم على الارض وانكبابهم على الكتب الخطية يطالعون ما في بطونها من علوم وفنون» (٢)

---

(١) البشير: مجلد ٦٧ عدد ٥١٥٩ تاريخ ٢١ و٢٢ شباط سنة ١٩٣٧

(٢) رحلة في بلاد العربية السعيدة: الجزء الاول: صفحة ٢٢٩

الفصل الثالث عشر

خزائن كتب الحويزة

١ ـ خزانة دار الامارة

تقع الحويزة في امارة عربستان لعصرنا هذا . وكانت منذ القرن التاسع للهجرة خاضعة لحكم الموالي امراء الحويزة والاهواز الى ان انقرضت امارتهم اخيراً على ايدي الامراء من كعب.

وقد عظمت شوكة الموالي في القرن الحادي عشر على عهد سليلهم السيد علي خان الحويزي ممدوح شهاب الدين بن معتوق . وكان هذا الامير نصيراً للعلم محباً للعلماء يجالسهم ويحسن اليهم . وقد جمع في دار امارته بالحويزة خزانة كتب عظيمة جداً انطوت على نوادر الكتب وامهات المخطوطات القديمة . فشاع ذكرها في الآفاق وقصدها اهل البحث من الجهات .

٢ ـ خزانة نعمة الله الجزائري التستري

لما توفي السيد نعمة الله الجزائري التستري خلف خزانة مخطوطات يبلغ عدد مجلداتها اثني عشر الفاً بينها كثير من المخطوطات المحلاة بمحلول الذهب . لكنها تفرقت ايدي سبا بعد ضعف امر الموالي . وربما بقي شيء من آثارها في بر الاهواز الى الآن (١) .

---

(١) مجلة العرفان في صيدا : مجلد ٧ صفحة ٤٧٠ و ٤٧١

الفصل الرابع عشر

خزائن كتب مرو

١ ـ الخزانة العزيزية ٢ ـ الخزانة الكمالية

مرو هي اشهر مدن خراسان وعاصمتها اخرجت عدداً وافراً من العلماء والحكماء. واستوطنها ياقوت الحموي ودخل دور كتبها واستفاد منها باخذ معلومات كثيرة لمؤلفه « معجم البلدان » الذي اشتهر به . وانتهت حياته عام ٦٢٦ للهجرة (١٢٢٩ م) بمدينة حلب حيث أتمّ هذا الكتاب بمساعدة الوزير جمال الدين القفطي. واليك ما اورده ياقوت (١) عن خزائن كتب مرو قال :

« وبمرو جامعان للحنفية والشافعية يجمعهما السور . واقمتُ بها ثلاثة اعوام فلم اجد بها عيباً الا ما يعتري اهلها من العرَق المديني. فانهم منه في شدة عظيمة قلّ من ينجو منه في كل عام . ولولا ورود التتر الى تلك البلاد وخرابها لما فارقتها الى الممات . لِما في اهلها من الرفد ولين الجانب وحسن العشرة وكثرة كتب الاصول المتقنة بها .

« فاني فارقتها وفيها عشر خزائن للوقف لم ارَ في الدنيا مثلها كثرة وجودة . منها خزانتان في الجامع احداهما يقال لها العزيزية وقفها رجل يقال له عزيز الدين ابو بكر عتيق الزنجاني او عتيق بن ابي بكر. وكان فقاعياً للسلطان سنجر وكان في اول امره يبيع الفاكهة والريحان بسوق مرو . ثم شرابياً له وكان ذا مكانة منه. وكان فيها اثنا عشر الف مجلد او ما يقاربها . والاخرى يقال لها الكمالية لا ادري الى من تنتسب ».

---

(١) معجم البلدان : مجلد ٨ صفحة ٣٥ و٣٦

٣ ـ خزانة شرف الملك المستوفي وسائر خزائن مرو

ثم اردف ياقوت فقال : « وبها خزانة شرف الملك المستوفي ابي سعد محمد بن منصور في مدرسته . ومات المستوفي هذا في سنة ٤٩٤ وكان حنفيّ المذهب . وخزانة نظام الملك حسن بن اسحق في مدرسته . وخزانتان للسمعانيين . وخزانة اخرى في المدرسة العميدية وخزانة لمجد الملك احد الوزراء المتأخرين بها. والخزائن الخاتونية في مدرستها والضميرية في خانكاه ... وكانت سهلة التناول لا يفارق منزلي منها مائتا مجلد . واكثره بغير رهن تكون قيمتها مائتي دينار . فكنت ارتع فيها واقتبس من فوائدها . وانساني حبها كل بلد والهاني عن الاهل والولد . واكثر فوائد هذا الكتاب وغيره مما جمعته فهو من تلك الخزائن . وكثيراً ما كنت اترنم عند كوني بمرو بقول بعض الاعراب .

اقمرية الوادي التي خان إلفها ... من الدهر احداث اتت رخطوب
تعالي اطارحك البكاء فاننا ... كلانا بمرو الشاهجان غريب

« ثم اضفت اليها قول ابي الحسين مسعود بن الحسن الدمشقي الحافظ وكان قدم مرو فمات بها في سنة ٥٤٣

اخلايَ ان اصبحتمُ في ديار كم ... فاني بمرو الشاهجان غريبُ
اموت اشتياقاً ثم احيا تذكراً ... وبين التراقي والضلوع لهيبُ
فما عجبٌ موت الغريب صبابة ... ولكن بقاه في الحياة عجيبُ

الفصل الخامس عشر

خزانة كتب مراغا

١ ـ فظائع هولاكو ومقتل آخر خلفاء بغداد

بعدما فرغ هولاكو حفيد جنكزخان من فتوحاتهِ في بغداد والجزيرة وسوريا فكرّ في ترتيب شؤون مملكته كي يستتب له الامر. غير انه اراد ان يمحو وصمة العار التي التصقت به لما ارتكبه من المظالم واقترفه من الجرائم. كيف لا وقد سجل له التاريخ اقبح ذكرى بما اتاه وقتئذ من الاعمال التي تقشعر لها الابدان. اذ ان الوزير مؤيد الدين بن العلقمي جمع له سادات بغداد ومدرّسيها وعلماءها فقتلهم عن آخرهم وكان بينهم محي الدين الجوزي واولاده. ولم يشأ حينئذ ان يمس الخليفة المستعصم بالله (٦٤٠ – ٦٥٦ هـ) بسوء بل ابقاه حياً الى ان دُلّ على مواضع الاموال والدفائن فقتله (١). وكان عدد القتلى اربعة وعشرين الفاً.

ثم احرق هولاكو اكثر المكتبات في عاصمة العباسيين والقى بعضها الآخر في نهر دجلة كما سلف القول. وقد افتعل مثل ذلك في دمشق اذ أحرق مدارسها ومعابدها وامهات الكتب فضلاً عما نهَبهُ جنودهُ المغول وحملوه الى بلادهم.

٢ ـ انشاء هولاكو مكتبة مراغا من بقايا المكتبات التي دمرها

لم يلبث هولاكو ان قرّعه ضميره على المذابح البشرية والفظائع البربرية التي افتضح امرها في كل مكان. فقام يفتش عن وسيلة تزيل عنه تلك الوصمة وحاول ان يجعل له مأثرة يتخلد بها اسمه في القرون اللاحقة. ولكن هيهات ثم هيهات! اما

---

(١) الاعلام: لخير الدين الزركلي: صفحة ٨٨٠

المأثرة التي راح يسجلها لنفسه فهي انه جمع ما نهبَهُ المغول ابناء قومهِ من الكتب في البلدان التي احتلها ثم نقلها الى مراغا باذربيجان. وانشأ بتلك المخطوطات مكتبة عظيمة جمعت اربعمائة الف مجلد (١) كما روى الثقات من مؤرخي العرب وغيرهم. وابتنى فيها المراصد على يد نصير الدين الطوسي (٢) احد كبار علماء دولته.

٣ ـ اعجاب ابن العبري بمكتبة مراغا

مما يؤيد تصريحنا بخطورة مكتبة مراغا ما اثبته ابو الفرج ابن العبري (+ ١٢٨٦ م) في مقدمة تاريخه المدني اذ قال ما تعريبه: «اتفق لي اني دخلت مكتبة مراغا باذربيجان. فشاهدت فيها كتباً وقراطيس سريانية وعربية وفارسية تشتمل على اخبار تستحق الاعتبار. فاثبتها في تاريخي هذا» (٣).

---

(١) ابن شاكر: جزء ٢ صفحة ١٤٩ (٢) تاريخ الموصل للقس سليمان صائغ: مجلد ٢ صفحة ١١٨ (٣) تاريخ ابن العبري المدني: طبع الاب بولس بيجان في باريس سنة ١٨٩٠ المقدمة: صفحة ٢

الفصل السادس عشر

خزائن كتب شيراز وجنزة

١ ـ خزانة عضد الدولة بن بويه في شيراز

روى البشاري ان عضد الدولة بن بويه المتوفى سنة ٣٧٢ للهجرة انشأ في شيراز داراً للكتب عُدت من اكبر المكتبات. فأفسح لها جانباً من قصره ولم يكن لها مثيل في ممالك الاسلام. وقد عين لها خازناً ابا منصور الشيرازي قاضي بلاد فارس واحد فقهائها. وكان عضد الدولة من اعاظم نصراء المعارف لا يخلو مجلسه من العلماء والادباء يباحثهم ويناظرهم ويطارحهم الاسئلة العلمية. ولشدة شغفه بالشعر تمنى ان يكون هو المصلوب بدلا من ابن بقية الوزير كيما تقال فيه قصيدة محمد بن عمران الانباري ومطلعها :

علوٌّ في الحيـــاة وفي الممات ... لَعَمرُكَ تلك احدى المعجزات

وممن أنيطت به ادارة خزانة الكتب بعد القاضي ابي منصور الشيرازي ابو الحسن عليّ بن هلال المشهور بابن البوّاب . وكان ذلك في عهد بهاء الدولة بن عضد الدولة بن بويه (١)

٢ ـ خزانة كتب جنزة

من المكتبات التي اشتهرت في القرون الوسطى دار الكتب بجنزة وهي مدينة كبيرة واقعة بين شروان واذربيجان. وكان خازن هذه المكتبة اذ ذاك ابو الفضل حداد بن عاصم بن بكران النشوي . ذكره ياقوت الحموي في المعجم عند ذكره نشوي. ولا يُعلم شيء عن اخبار هذه المكتبة اكثر من ذلك (٢)

---

(١) معجم الادباء : لياقوت الحموي : جزء ١٥ صفحة ١٢٢

(٢) مجلة « البصائر » في بيروت : لجميل بك العظم : مجلد ١ سنة ١٩١٢ صفحة ٢٢٠

الفصل السابع عشر

الخزانة الرضوية في خراسان

من اقدم مدن بلاد فارس مدينة خراسان التي دُفن فيها هارون الرشيد (١٧٠ – ١٩٣ هـ) الخليفة العباسي. وفيها ايضاً ضريح الامام علي بن موسى الرضا الذي اليه تُنسب «الخزانة الرضوية» وهي مدار بحثنا الآن. وقد انتابت النكبات مدينة خراسان واجهزت على ابنيتها وآثارها. فخربتها ثلاث مرّات وتجدّد بنيانها ثلاث مرات. ففي المرة الاولى هدمها الامير سبكتكين. وفي المرة الثانية قوّضها الغزنويون. وفي المرة الثالثة اتلفتها عاصفة الفتنة المغولية عام ٦١٧ للهجرة في عهد الطاغية جنكزخان (١). ولا يخالجنا ادنى ريب في ان هذه المدينة التي كانت مركزاً للعلم والثقافة قد حل بمعاهدها العلمية وخزائنها الكتابية من التلف والتخريب ماحلّ بابنيتها الجليلة وآثارها الجميلة.

يتضح من بعض التآليف الاثرية الباقية ليومنا هذا ان الخزانة الرضويّة كانت عامرة في سنة ٨٦١ للهجرة (١٤٥٦ م) وحاوية انفس الاسفار في اغلب العلوم. فاشتهر امرها بين القريب والبعيد حتى اصبحت مقتبس نور المعارف للطالبين والباحثين الذين يمموها من جميع الانحاء.

وفي السنة ٩٩٧ للهجرة (١٥٨٨ م) حاصر عبد المؤمن خان مدينة خراسان مدة سبعة اشهر. ولمّا فتحها نهب خزانة كتبها فعدّ القوم هذه السيئة جناية عظمى على العلم وذويه. ومن جملة ما نهب حجر الماس حجمه كبيضة الدجاج كان وقفه قطب شاه الدكني على قبر الامام عليّ. وبعد مدة طويلة أعيد بعض المخطوطات

---

(١) المختصر في اخبار البشر لابي الفداء : جزء ٣ صفحة ١٢٧

المنهوبة الى الخزانة الرضوية من الامكنة البعيدة كالهند وغيرها . يدل على ذلك فهرس كتبها الذي وضعه سنة ١٢٩٦ للهجرة ميرزا سعيد خان مؤتمن الملك.

وعام ١٠٠٩ للهجرة (١٦٠٠ م) وقف الشاه عباس الصفوي على الخزانة الرضوية اجزاء مصحف بخط بعض ائمة الشيعة. وعلى ظهرها شهادة الشيخ بهاء الدين العاملي على كون ذلك الخط هو لبعض ائمة اهل البيت النبويّ. ووقف عليها الشيخ بهاء الدين نفسه كتباً شتى في التاريخ المذكور. وعلى رغم ما اصاب هذه الخزانة من النوائب الفادحة فان عدد مخطوطاتها يبلغ الان ٣٣٤٤ مجلداً عدا المصاحف. وقد امر الشاه الحالي (بهلويّ) بوضع فهرس عام لها يشتمل على عناوين الكتب واوصافها واسماء مؤلفيها وذكر واقفيها وغير ذلك (١)

---

(١) اقتطفنا هذه المعلومات من مقالة للبحاثة عبدالله الزنجاني نشرتها مجلة « لغة العرب» ببغداد : مجلد ٦ صفحة ٦٦٢ ـ ٦٦٤ سنة ١٩٢٨

الفصل الثامن عشر

خزائن كتب فيروز آباد والري ونيسابور وطوس وساوه

١ ـ دار الكتب في فيروز آباد

فيروزآباد مدينة شهيرة في العراق الفارسي بناها اردشير بن بابك (٢٢٦–٢٤٠م) في القرن الثالث للميلاد . واليها ينتسب ابو اسحق ابرهيم الفيروز آبادي المتوفى سنة ٤٣٣ للهجرة مؤلف كتاب « طبقات الفقهاء » ثم ابو طاهر مجد الدين الفيروز آبادي (٧٢٩ – ٨١٧) صاحب « القاموس المحيط » المشهور باسمه .

وفي القرن الخامس للهجرة بُنيت في فيروز آباد دار للكتب حدّثنا عنها المؤرخ الحموي ابو الفداء (١) قال : « سنة ٤٣٣ للهجرة (١٠٤١ م) توفي ابو منصور بهرام الملقب بالعادل وزير الملك ابي كاليجار وكان حسن السيرة . وبنى داراً للكتب بفيروز آباد وجعل فيها سبعة آلاف مجلد » .

٢ ـ بيت الكتب في الري

في القرن السادس للهجرة كان في الريّ مكتبة عامرة تسمى « بيت الكتب » لم نهتدِ الى اسم منشئها . وهي التي امَر السلطان محمود الغزنوي سنة ٥٤٨ للهجرة باحراق كل ما كانت تحويهِ من كتب الروافض واهل البدع في علم الكلام . وقد ورد ذكرها في « معجم الادباء » لياقوت الرومي (٢) نثبت نصه ههنا قال :

---

(١) تاريخ ابي الفداء : جزء ٢ صفحة ١٦٦

(٢) معجم الادباء : لياقوت الرومي : مجلد ٢ صفحة ٣١٥

« قال الحسن البيهقي وانا اقـول « بيت الكتب » الذي بالري على ذلك دليل بعدما احرقه السلطان محمود بن سبكتكين . فاني طـالعتُ هذا البيت فوَجدتُ فهرست تلك الكتب عشرة مجلدات. فان السلطان محموداً لما ورد الى الري قيل له: ان هذه الكتب كتب الروافض واهل البدع . فاستخرج منها كل ما كان فى علم الكلام وأمر بحرقهِ » .

٣ ـ مكتبة مشهد عبد العظيم في الري

في الري ليومنا هذا مكتبة «مشهد عبد العظيم » التي تنطوي على طائفـة من اثمن المخطوطات وابدعها . وقد اشار اليه البحّـاثة « عبد العزيز جواهر الكلام » فوصفها وصفاً مدققاً (١) باللغة الفارسية .

٤ ـ مكتبة مسجد عقيل في نيسابور

في السنة ٥٥٥ للهجرة تقدم المؤيد (أي بَه) بامساك اعيان نيسابور لانهم كانوا رؤساء للحرامية والمفسدين . فأخذ يقتـل المفسدين فخربت نيسابور . وكان من جملة ما تخرب مسجد عقيل الذي كان مجمعاً لاهل العلم واحتوى على خزائن كتب موقوفة . ثم قوّض من مدارس الحنفية سبع عشرة مدرسة واحرق ونهب عدة من خزائن الكتب (٢). وضمت تلك الخزائن كتباً وقفها في حياته ابو علي الجذامي المالقي النحوي (٣) . فأتلف المؤيـد (أي بَه) كل ذلك وأجهز عليه .

---

(١) كتابخـانهاي ايران : لعبد العزيز جواهر الكلام : صفحة ٥٨ ـ ٥٩ (٢) المختصر في اخبار البشر : لابي الفداء : جزء ٣ صفحة ٣٨ وتاريخ ابن الوردي : مجلد ٢ صفحة ٨٣

(٣) بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة : لجلال الدين السيوطي : صفحه ٢١٥

٥ ـ مكتبة المشهد الرضوي في طوس

لما كانت السنة ٩٩٦ للهجرة (١٥٨٧ م) زحف عبد المؤمن خان ابن عبدالله خان ملك الاوزبكية في جيوش جرارة الى مدينة طوس وحاصرها مدة اربعة اشهر. ففتحها ووضع السيف في سكانها ونكل بهم تنكيلاً. ثم تحول الى المشهد الرضوي فنهب كل ما فيه من الجواهر والامتعة الثمينة والكتب. وفي جملة ما انتهبه قطعة من الماس حجمها حجم بيضة الدجاجة كان قد وقفها قطب شاه الدكني لذاك الحرم الشريف. وفي السنة ١٠١٦هـ (١٦٠٧م) حبس الشاه عباس الاول الصفوي (١٥٥٧ – ١٦٢٨ م) نفائس وكتباً وعقارات على الشهد المشار اليه تقرباً لله جل وعزّ وتعويضاً عما لحق بالمشهد الرضوي من الخسائر (١)

٦ ـ دار كتب ساوه

روى ياقوت الحموي في معجم البلدان عن مكتبة ساوه ما يلي : « ساوه مدينة بين الري وهمذان جاءها التتر فخرّبوها وقتلوا كل من فيها ولم يتركوا احداً البتة. وكان بها دار كتب لم يكن في الدنيا اعظم منها. بلغني انهم احرقوها (٢) »

---

(١) تاريخ طوس : بقلم محمد مهدي العلوي : صفحة ١٤ — ١٥ (٢) معجم البلدان : جزء ٥ صفحة ٢١ .

الفصل التاسع عشر

خزائن كتب اردشير وسمرقند واصبهان وخوارزم وهمذان وهراة وبست وغيرها

اردشير مدينة ببلاد فارس شادها اردشير بن بابك (٢٢٦ – ٢٤٠ م) مؤسس الدولة الساسانية. وهي قائمة ازاء المدائن التي كانت في ذلك العهد تحت صولة الفرس. ولما صارت تلك البلاد الى خلفاء بني العباس أنشئت في اردشير مكتبة عامة لفائدة الجمهور اصيبت بالنكبات مراراً شتى. فكان ذلك مدعاة الى تبعثرها وفقدان القسم الاوفر من محتوياتها الثمينة. وآخر نكبة لحقت بها انها احترقت عام ٤٥١ للهجرة في ايام خلافة المستنصر بن الظاهر. وكانت تحوي يوم احتراقها عشرة آلاف واربعمائة مخطوط.

وكان في مدينة سمرقند مكتبة شهيرة ابتناها فيما قيل الاسكندر ذو القرنين. وقد افتتح الوليد بن عبد الملك تلك المدينة صلحاً في اوائل الاسلام. وللبستي بيتان انشدهما في سمرقند وهما :

للناس في أخراهم جنةٌ وجنّةُ الدنيا سمرقندُ
يا من يسوي ارض بلخ بها هل يستوي الحنظل والقند

اما بقية المدن الشهيرة في بلاد فارس كاصبهان وخوارزم وهمذان وهراة وبَستْ وغيرها فقد كانت حافلة بخزائن الكتب في العصر الذهبي العربي. يؤيد ذلك ما عرفناه من اسماء مشاهير العلماء المنتسبين الى تلك الحواضر كالراغب الاصبهاني وابي بكر الخوارزمي وبديع الزمان الهمذاني والشاعر البستي الخ. وهو برهان صريح يحملنا على الاعتقاد بانها كانت عامرة بالمكتبات ايضا. نخص بالذكر منها الخزانة الفريدة بمدينة هراة وقد تعرض لوصفها ياقوت الرومي. فروى انه اقتبس

منها اغلب فوائد كتابه « معجم البلدان » (١) وحسبك ان ابا تمام الطائي (١٩٠ — ٢٢٨ هـ) عوّقه البرد في همذان فوجد في احدى خزائنها ما يسر له اختيار ديوان الحماسة (٢)

ولا تقل مكتبة خوارزم شهرة عن مكتبات بلاد فارس السابق ذكرها. فانها كانت من اشهر الخزائن في ايام عز العرب. غير ان التتر دكوها واتلفوا ما فيها من الذخائر العلمية سنة ٦١٨ للهجرة . ذلك عندما دوخ ملكهم جنكزخان (٥٤٩ — ٦٢٦ هـ) المدينة المذكورة . فقتلوا اهلها وسبوا ذراريهم وفتكوا بالعلماء والصلحاء والزهاد والعبّاد. وقوّضوا المساجد واحرقوا المصاحف وافتعلوا من المنكرات ما لم يُسمع بمثله في التاريخ قبل الاسلام وبعده (٣)

واثبت ابن الوردي في تاريخه (٤) ان بختنصر (اي نبوخذنصر ملك بابل (٦٠٥ — ٥٦٢ ق. م.) ما فعل ببني اسرائيل بعض ما فعله التتر باهل خوارزم من القتل والسبي والتفظيع وحرق الكتب .

واثبت مفضل بن سعد بن الحسين المافروخي الاصفهاني من علماء القرن الخامس للهجرة في كتابه « محاسن اصفهان » وصفاً مسهباً لجوامع هذه المدينة . ومن جملتها جامع الخصيب بن مسلم كانت بجانبه مكتبة معتبرة اتى على ذكرها الاستاذ العلامة محمد كردعلي (٥) قال :

« وبحذاء جامع الخصيب بن مسلم دار الكتب وحجرها وخزائنها اللواتي قد بناهن الاستاذ الرئيس ابوالعباس احمد الضبي ونضد فيها من الكتب عيوناً وخلّدها من العلوم فنوناً . ويشتمل فهرستها على ثلاثة مجلدات كبيرة من المصنفات في

---

(١) مجلة « لغة العرب » للاب انستاس الكرملي في بغداد: مجلد ٥ صفحة ٢١٠ (٢) خزائن الكتب في القاهرة : للدكتور عبدالوهاب عزام (مجلة الرسالة : سنة ٣ صفحة ١٦٤١ — ١٦٤٢)
(٣) المختصر في اخبار البشر : لابي الفداء : جزء ٣ صفحة ١٢٧ — ١٢٨ (٤) تاريخ ابن الوردي : مجلد ٢ صفحة ١٤١ (٥) عن مقالة لمحمد كردعلي في مجلة « الرسالة » بالقاهرة العدد ١١٨ سنة ٣ صفحة ١٦٤٠

اسرار التفاسير وغرائب الاحاديث . ومن المؤلفات في النحو واللغة والتصريف والابنية . ومن المدونات من غرر الاشعار وعيون الاخبار . ومن الملتقطات من سنن الانبياء والخلفاء وسير الملوك والامراء . ومن المجموعات من علوم الاوائل من المنطقيات والرياضيات والطبيعيات والالهيات . وبذلك ادركنا ان الجامع الاعظم ودار الكتب في اصفهان هما من انشاء العرب ايضاً . »

وفي القرن الرابع للهجرة وُجدت خزانة حافلة بالكتب في مدينة « بَست » الواقعة بين سجستان وغزنين وهداة . انشأها ابو حاتم محمد بن حبان البستي ووقفها وشيد لها داراً . وعلى تعاقب الايام وضعف السلطان استولى ذوو العيث والفساد على البلاد ففتكوا باهاليها وخربوا معالم الحضارة وفي جملتها تلك المكتبة الزاهرة . قال الخطيب البغدادي : « مثل هذه الكتب الجليلة كان يجب ان يكثر منها النسخ فيتنافس بها اهل العلم ويكتبوها ويجلدوها احرازاً لها » . وكانت دار ابي حاتم البستي مدرسة لاصحابه وسكناً للغرباء المقيمين فيهـــا من الفقهاء واهل الحديث . وقد جعل لهم الجرايات وسبّل خزانة كتبه لفائدتهم . وحلت وفاته عام ٣٥٤ للهجرة ودُفن في بَست (١)

---

(١) معجم البلدان : لياقوت الحموي : جزء ٢ صفحة ١٧٥ - ١٧٦

الفصل العشرون

خزائن كتب بخارا

١ـ تقهقر الخلافة العباسية واستفحال امر ملوك الطوائف

لما ضعف شأن الخلفاء العباسيين وقويت شوكة ملوك الطوائف تعددت الدول التي اقتسمت الحكم في الدولة العباسية مع بقاء هؤلاء الخلفاء في العراق. فاستقل آل سامان (٢٦١ – ٣٨٩ هـ) في بخارا كما استقل آل بويه (٣٢٠ – ٤٤٧ هـ) في شيراز. واستقل بنو حمدان (٣١٧ – ٣٩٤ هـ) في حلب وبعض ما بين النهرين. وبنو مروان (٣٨٠ – ٤٨٨ هـ) في طور عبدين. واستقل الزباريون (٣١٦–٤٣٤هـ) في جرجان والغزنويون (٣٥١ – ٥٨٢ هـ) في افغانستان والهند. وانتهج نهجهم الفاطميون (٣٥٧ – ٥٦٧ هـ) فاستقلوا بوادي النيل ثم الارتقيون (٤٨٨–٨٢٥هـ) فتغلبوا على ماردين وغيرها.

٢ـ مكتبة الامير نوح الساماني واختلاف ابن سينا اليها

كانت دول الطوائف الآنفة الذكر تتنافس تنافس دولة العباسيين في تكريم العلماء ورفع لواء المعارف. من ذلك ان الامير نوح بن منصور الساماني سلطان بخارا جعل عاصمته قبلة المجد وكعبة الملك ومجتمعاً لأعلام الحكماء والأدباء والشعراء وانشأ فيها مكتبة عظيمة اشتهر خبرها في الامصار. وقد تردد اليها الشيخ ابن سينا الرئيس (٣٧٠ – ٤٢٨ هـ) بعدما رُخص له في دخولها ومطالعة كتبها الطبية. واتفق ان نوحاً الامير مرض اذ ذاك فعالجه ابن سينا وابرأهُ. ثم واصل ابن سينا درس تلك الكتب ووعى زبدتها فوصفها بما يلي:

« دخلتُ داراً ذات بيوتٍ كثيرة في كل بيت صناديق كتب منضدة بعضها على بعض . في بيت منها كتب العربية والشعر . وفي بيت اخر كتب الفقه . وكذلك في كل بيت كتب علم مفرد . فطالعت فهرست كتب الاوائل وطلبت ما احتجتُ اليه منها . ورأيتُ من الكتب ما لم يقع اسمه الى كثير من الناس قط . وما كنتُ رأيته من قبل ولا رأيته ايضاً من بعد »

٣ ـ نكبة مكتبة الامير نوح

ما كادت تظهر للوجود مكتبة الامير نوح الساماني النادرة المثال حتى نُكبت نكبة ابدية في صميمها . فالتهمتها النيران واخلت منها الزمان والمكان (١). وقيل ان ابن سينا احتال على احراقها لينفرد بمعرفة ما درسه من كتبها . والله اعلم بصحة ذلك ! (٢)

٤ ـ نظم الشاهنامة

من مآثر الامير نوح الساماني انه اول من اقترح نظم «الشاهنامه» في اللغة الفارسية . وعهد في ذلك الى شاعره « الدقيقي » الذي ما كاد ينظم بعضها حتى قُتل... فأشار محمود الغزنوي سلطان بخارا (٣٨٨ — ٤٢١ هـ) الى الفردوسي شاعر الفرس الكبير ان يتمم نظم « الشاهنامه » ففعل . فنُسبت اليه .

٥ ـ مكتبة مسعود بك وغيرها من مكتبات بخارا

ولما استولى المغول على بخارا سنة ٦١٧ هـ (١٢٢٠ م) احرقوا مدرسة مسعود بك. وكانت من اوسع دور العلم في ذلك العصر. فالتهمت النار كتبها الكثيرة(٣)

---

(١) تاريخ اداب اللغة العربية : تأليف جرجي زيدان : جزء ٢ صفحة ٣٣٦ (٢) تاريخ الادب العربي : لاحمد حسن الزيات : صفحة ٣٣٣ — ٣٣٤ ومجلة «البصائر» لجميل العظم : مجلد ١ سنة ١٩١٢ صفحة ٢١٩ (٣) دائرة معارف القرن العشرين : صفحة ٧٥

واحرق جنكزخان من المكاتب في المدينة المذكورة وغيرها ما لا يُدرك احصاؤه ولم يرد ذكره مفصلاً. لانه جاء تابعاً لما اتاه ذلك الطاغية من الهدم والتخريب (١)

٦ ـ انتزاع جنكزخان مخطوطات بخارا وتحويل صناديقها معالف لخيله

يؤيد هذه الحقيقة ما اثبته ابو الفرج ابن العبري الذي عاصر جنكزخان ودوّن اخباره (٢) قال : « وفي سنة سبع عشرة وستمائة في اوائل المحرّم نزل جنكزخان في عساكره على مدينة بخارا واحاط بها العساكر من جميع جوانبها ... فخرج الائمة والاعيان الى خدمة جنكزخان يتضرعون اليه ويطلبون حقن دمائهم حسبُ. فتقدم باخراج كل مَن بالمدينة الى ظاهرها فخرجوا . ودخل هو وولده تولي الى المدينة. فوقف على باب مسجد الجامع وقال : هذا دار السلطان . فقالوا لا بل خانة يزدان اي بيت الله . فنزل ودخل الجامع وصعد الى المنبر وقال لاكابر بخارا ان الصحراء خالية عن العلف فانتم اشبعوا الخيل مما عندكم في الانبار . ففتحوها وصاروا ينقلون ما فيها من الغلات. ورموا ما في الصناديق من الكتب وجعلوها اوارى (٣) للخيل. واحضروا الطعام والشراب هناك واكلوا وشربوا وطربوا .

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية : مجلد ٣ صفحة ١١٣ (٢) تاريخ مختصر الدول : صفحة ٤٠٧ — ٤٠٨ (٣) اوارى لفظ سرياني معناه : « المعلف »

الفصل الحادى والعشرون

خزائنه كتب الهند

١ - لمحة عن المكتبات في الهند الانكليزية

اذا انتقلنا في البحث الى البلدان الهندية رأينا في مكاتبها الكبرى طائفة لا يستهان بها من الكتب العربية بين مخطوطة ومطبوعة . وقد عُرفت لغة الضاد في تلك الاصقاع النائية منذ شيوع الدين الاسلامي بين سكانها فحفلت خزائنهم بالمصاحف وكتب الادب والتاريخ وسائر العلوم والفنون . لكنها كانت على الدوام عرضة للناهبين وفريسة لغارات الفاتحين . وقد اطلعنا على وصف وجيز لمكاتب الهند بقلم محمد فريد وجدي اليك نصه قال (١) :

« ولا بد لي من ان أشير الى حال الهند فاقول: ان المغول عادوا الى تعضيد العلم بعد ان تمهدت لهم الامصار ولو لم يبلغوا في ذلك شأو العرب في بغداد والقاهرة وقرطبة . فابناء جنكزخان وتيمورلنك اعتنقوا الاسلام ورفعوا منزلة علمائهم . وتحت لوائهم نشأ نصير الدين الطوسي وقطب الدين الشيرازي وسعد الدولة التفتازي وغيرهم من المشاهير . وكان لدولة المغول في الهند اليد البيضاء في تعضيد العلوم والفنون . وكان السلطان شاه جهان كثير المطالعة مغرماً بالكتب. واقتفى عادل شاه وقطب شاه صاحبا (دكان) خطة سلاطين المغول من حيث الاهتمام بالعلم وتقريب العلماء . فنشأت مكاتب كثيرة في بلاد الهند ولكن لم يبق منها اثر بعد الفتنة لانها حُرقت او أخذت كتبها منها . والقليل الذي بقي من كتب الهند بيع بثمن بخس ».

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين : مجلد ٨ صفحة ٧٥

٢ ـ دار الكتب الآصفية في حيدر آباد

لدار الكتب الآصفية شهرة واسعة في اقطار الهند لما اشتملت عليه من النفائس الخطية التي لا اثر لنظيرها في سائر المكتبات. وصاحبها « نظام حيدر آباد » هو اشهر ملوك الهند في هذا العصر. ويقال انه اغنى ملك على وجه الارض بما يكتنزه في قصره من الجواهر اليتيمة واللالىء الفاخرة. وللخزانة الآصفية فهرس نُشر بالطبع سنة ١٩٠٠ انطوى على اسماء كتبها المخطوطة والمطبوعة معاً.

٣ ـ خزانة الديوان الهندي

عُنيت الدولة البريطانية بانشاء ديوان خاص في لندن عاصمتها دعتْه « الديوان الهندي ». ثم عززته بمكتبة ضمت اليها طائفة كبيرة من الاسفار المختلفة اللغات يرجع اليها الحكام والعلماء في ابحاثهم عن الشؤون الهندية. وللقسم العربي من تلك المكتبة فهرس مفصل حوى وصف المخطوطات المحفوظة فيها. ومن هذا الفهرس نسخةٌ في دار الكتب في بيروت.

٤ ـ مكتبة امير هندي حوت سبعمائة مخطوط عليها خطوط مؤلفيها

اشتهر في الهند امير من امرائها جمع في خزانته سبعمائة مجلد عليها خطوط المؤلفين (١) تلك مزية تفردت بها خزانة هذا الامير دون سواها من جميع المكتبات التي اطلعنا على اخبارها. ويا ليت العلماء وذوي الشأن في الهند يهتمون بنشر تلك الذخائر الدفينة فيؤدون للعلم وارباب البحث خدماً جلى.

٥ ـ سائر مكتبات الهند الانكليزية

في الهند الانكليزية خزائن كتب عامة وخاصة تزين بعض المساجد القديمة

---

(١) مجلة « لغة العرب » البغدادية : مجلد ٢ صفحة ٣٧٢ سنة ١٩١٣

والمدارس الشهيرة وبيوتات الامراء ودور هواة الكتب. وقد انبعثت الهمم في الازمنة الاخيرة لانشاء مكتبات في عواصم تلك البلدان كدلهي وبمباي وبهوبال ورميسور وسنغافورا وبطنا واطراف الملبار الخ. وهي تنطوي على عدد وافر من نفائس المخطوطات والموسوعات في اللغة العربية وغيرها. بيد ان بعضها مكدّس في زوايا الخزائن قل من يُشرف عليه او يستفيد من مطالعته.

٦- مجمع علمي في حيدر آباد لاحياء الكتب العربية القديمة

وفي حيدر آباد (دكن) مجمع علمي اسسه منذ اكثر من نصف قرن النواب عماد الدين ورفقاؤه ، وغايته الاساسية احياء الكتب العربية القديمة تعميما لنشرها وتداولها بين طبقات العلماء . وهذا المجمع يمتاز عن غيره بروحه العلمية وبمطبوعاته الثمينة المتداولة بين اوساط العلم المعتمد عليها من رجال البحث والتحقيق الآن . ومن هذه المطبوعات ما يتعلق بالحديث والقديم ، وما يتعلق بالفلسفة والتاريخ ، وما يتعلق بالطبيعيات والطب وغيرها من العلوم والفنون — ويقول العلامة السيد سليمان الندوي : نحن ، اهل الهند نفتخر ، مع افلاسنا العلمي في هذه الايام ، بهذه الدرر الثمينة النادرة التي اخرجها مجمع المعارف في (حيدر آباد) الى طبقات العلماء ونرجو ان يعود الينا مجدنا العلمي تحت ظل الدولة الآصفية .

ولقد فكّر القائمون بامره في عقد اجتماع سنوي عام يُدعى اليه العلماء الممتازون في العالم العربية بانحاء الهند تنشيطاً للحركة العلمية وتمهيداً لتوسيع اعمال المجمع بالاستفادة من مواهب العلماء لاجلاء غير اعضاء المجمع في البحث والتحقيق، فانعقد الاجتماع الاول الذي دام اربعة ايام من ٩ الى ١٢ يوليه سنة ١٩٣٨ م في خمس جلسات اولها في ايوان البلدية الفخم حضرها اركان الدولة الآصفية واساتذة العربية في جامعات الهند المختلفة وارباب العلم وجماعة من الطلبة النابهين، وعلى كرسي الصدارة السر اكبر حيدري الوزير الاعظم. ثم القى خطبته الافتتاحية وذكر فيها خدمات المجمع في السنين الماضية بعد ان تلا على الحاضرين رسالة ملكية آصفية مفعمة بالعبارات الرقيقة والعواطف السامية.

وجرى اختتام هذا الاجتماع الذي دام اربعة ايام في حيدر آباد وتناول البحث فيه اهم موضوعات العلوم العربية وفنونها، بالسلام لصاحب الجلالة آصف السابع ملك دكن والدعاء لذاته الكريمة.

٧ ـ المكتبات العربية في الهند النيرلندية

كل ما ائبتناه عن خزائن كتب الهند حتى الآن لا يصح الا على الاقطار الهندية الخاضعة للحكم الانكليزي. اما الهند النيرلندية او الهولندية التي يدور البحث هنا عن مكتباتها العربية فهي سلسلة جزر واقعة بين المحيطين الهادىء والهندي في الجنوب الشرقي من آسيا. تبلغ مساحتها مليوني كيلومتر مربع وعدد سكانها زهاء اربعين مليون نسمة (١)

وتحوي هذه المستعمرة جالية عربية مهمة انتزح اجدادها عن حضرموت واليمن واستقروا فيها وانصرفوا الى الزراعة والصناعة والتجارة. فعاشوا في وطنهم الجديد غير حافلين بتحصيل العلوم، لكنهم ظلوا محتفظين بلغتهم وعاداتهم ودينهم الاسلامي على رغم عزلتهم عن سائر الامصار العربية.

وفي الازمنة المتأخرة استفاق عرب الهند النيرلندية من سباتهم فاخذوا يردون مناهل العلم ويتنافسون في ارتشافها بجميع الوسائل. وقد اوجدوا في محيطهم مطابع ومدارس وجرائد وجمعيات واندية ادب اسوة بالشعوب الراقية. ولم يغفلوا ايضاً عن انشاء بعض مكتبات في بتافيا عاصمة تلك الاقطار وفي اهم مدنها كسربايا وفكلوغن وفلمبغ وغيرها. ثم جهزوها بموسوعات ومعاجم كتب ومجلات مختلفة اللغات والمواضيع. فاستحضروا اغلبها من مصر وسوريا ولبنان والعراق وتونس وراحوا يرّغبون الناس في مطالعتها والاستفادة منها. هكذا خطا عرب تلك الجزر النائية خطوات واسعة في مضمار الثقافة الحديثة.

---

(١) معجم لاروس: صفحة ١٣٨٢

الفصل الثاني والعشرون

خزائن كتب القاهرة في العصور الغابرة

١ - تفوق مكتبة العزيز بالله على جميع المكتبات الاسلامية

كل ما اوردناه عن الخلفاء العباسيين في بغداد ينطبق انطباقاً تاماً على الخلفاء الفاطميين وعلى سلاطين المماليك الذين انشأوا مكتبات شتى في قصور القاهرة وفي مدارسها وجوامعها . واول مَن بدأ بذلك منهم العزيز بالله (٣٦٥ - ٣٨٦ هـ) فاتخذ يعقوب بن كلس وزيراً له وفوّض اليه النظر في جميع شؤون الدولة . وكان يعقوب من الكتّاب الحسّاب فرتب الدواوين وقرّب العلماء الى الخليفة وأجرى لهم الارزاق . ثم رغّب الخليفة في جمع المخطوطات فاقتنى منها طائفة عظيمة افرز لها جانباً من قصره ودعاها « خزانة الكتب » . ولم تلبث هذه المكتبة ان فاقت كل المكتبات الاسلامية في العالم في ذلك الحين (١).

٢ - ثروة مكتبة العزيز بالله ومكتبات الامراء

انفق الخليفة العزيز بالله اموالا طائلة في مشترى مؤلفات نفيسة وفي الاستكثار منها . وكان كلما ازداد في مكتبته عدد النسخ من الكتاب الواحد ازداد سروره به وتضاعف ارتياحه الى احراز غيره وغيره ولئن اجتمع لديه مائة نسخة او اكثر من ذلك الكتاب . واقوى برهان على صحة ذلك انه وُجد في خزانة كتبه ثلاثون نسخة من « كتاب العين » للخليل احداها بخط الخليل نفسه . وكان فيها عشرون نسخة من « تاريخ الطبري » ومائة نسخة من « كتاب الجمهرة » لابن دريد. واستمر

---

(١) الفاطميون في مصر : لحسن ابرهيم حسن : صفحة ٢٦١

عدد النسخ المكررة يزيد بتتابع الايام حتى بلغت نُسخ « تاريخ الطبري » وحده الفاً ومائتين عند انقراض خلافة الفـــاطميين وقيام الدولة الايوبية سنة ٥٦٧ للهجرة (١١٧١ م). هذا عدا المصاحف التي احتوتها المكتبة المشار اليها . وعدا مجموعة القوائم المكتوبة بخط ابن مقلة وابن البوّاب وغيرهما من مشاهير الخطاطين .

ومن غرائب مكتبة العزيز بالله ما رواه صاحب كتاب « حماة الاسلام » قال: « دخل هذه المكتبة احد السياح فرأى فيها مقطعاً من الحرير الازرق غريب الصنعة فيه صورة اقاليم الارض وجبالها وبحارها ومدنها وانهارها ومساكنها وجميع المواطن المقدسة مبيّنة للناظر. ومكتوبة اسماء طرائقها ومدنها وجبالها وانهارها وبحارها بالذهب وغيرها بالفضة والحرير. فقال السائح : يكفيني من عجائبك هذا ! » (١)

واليك ما اثبته جرجي زيدان (٢) عن مكتبة العزيز في كتابه « تاريخ التمدن الاسلامي » قال : « فلا عجب اذا قالوا انها كانت تحوي مليوناً وستمائة الف كتاب (٣) في الفقه والنحو واللغة والحديث والتاريخ والنجامة والروحانيات والكيمياء . ومنها ثمانية عشر الف كتاب في العلوم القديمة فيهـــا ستة الاف وخمسمائة جزء من كتب النجوم والهندسة والفلسفة خاصة (٤) غير ادوات الهندسة والفلك .

« على اننا نرى في تقدير تلك الكتب مبالغة . وقد قدرها آخرون مائتي الف كتاب ... ونظن في تقديرهم التباساً من حيث المراد بخزانة الكتب او خزائن الكتب. لان العزيز بعد ان انشأ خزانته بقصره اقتدى به جماعة من اهله فأنشأوا مثلها في قصورهم. فالظاهر ان المراد بالتقدير القليل عدد الكتب في خزانة العزيز خاصة وبالكثير عدد ما في خزائن القصور كلها. وبهذا الاعتبار لا يقل عدد الكتب في خزائن القصور عن مليون مجلد او كتاب.

---

(١) حماة الاسلام : تأليف مصطفى نجيب : صفحة ١٠٦ (٢) تاريخ التمدن الاسلامي : تأليف جرجي زيدان : مجلد ٣ صفحة ٢٠٨ — ٢٠٩ (٣) خطط المقريزي : جزء ١ صفحة ٤٠٨ — ٤٠٩ (٤) تراجم الحكماء

« وكان للعزيز عناية كبيرة في خزانته يتعهدها بنفسه حيناً بعد حين وقد رتّب لها قيماً يتولى شؤونها ويجالسه ويقرأ له الكتب وينادمه. وممن تولّى ذلك ابو الحسن الشابشتي الكاتب المتوفى سنة ٣٩٠ هـ (١)

« وقد اصاب هذه الخزائن من المحن بتوالي الفتن مثلما اصاب مكتبة الاسكندرية في عهد الرومان. فألقي بعض كتبها في النار والبعض الآخر في النيل. وتُرك بعضها في الصحراء فسَفت عليه الرياح حتى صار تلالا عرفت بتلال الكتب. واتخذ العبيد من جلودها نعالا مما يطول شرحه. وبالاجمال فقد طُرح ما بقي منها عند وصول الاكراد للمبيع في اواسط القرن السادس.

٣ ـ مائة الف مخطوط بديعة الكتابة والتجليد في مكتبة الحاكم بامر الله

لا يخفى ان مكتبة الحاكم بامر الله التي اشتهرت باسم « دار العلم » ودُعيت ايضاً « دار الحكمة » هي غير خزانة الكتب المنسوبة الى الخليفة العزيز بالله ... وغير خزائن القصور كما توهم كثيرون. وقد انشأ « دار العلم » الحاكم بامر الله ثالث الخلفاء الفاطميين وكانت تُعد من اعاجيب الدنيا وغرائبها. فجعلها بجوار القصر الغربي وحبس لها اوقافاً يُنفق عليها من ريعها

ولوفرة شغف هذا الخليفة « بدار العلم » جمع اليها اعظم علماء العصر في كل فن وقطع لهم الاموال الوافرة لاجل نفقاتهم السنوية. وضم اليها من الاسفار النفيسة ما لم يسبقه الى مثله ملك على الاطلاق. ونقل اليها من كتب قصره ومن خزائن القصور المعمورة ما يقدر بستمائة الف مجلد. ومن اصل تلك الكتب كانوا يعدون مائة الف مجلد بديعة الخط والتجليد. ثم عين لها قوّاماً وخداماً. ووقف عليها في الفسطاط اوقافاً مهمة دلت على كرمه وعظمته وحرصه على نشر المعارف.

---

(١) ابن خلكان: ٣٣٨ ج ١

٤ ـ فتك الخليفة الحاكم بالعلماء واغلاق دار العلم واعادة فتحها

قال ابن قاضي شبهة : « وبقي الحاكم كذلك ثلاث سنين ثم اخذ بقتل اهل العلم واغلق دار العلم (١). ولم تلبث بعد ذلك ان فتحت ابوابها وعاد اهل البحث يترددون اليها للدرس والمفاوضة والتأليف .

وحدث في ايام الخليفة الآمر باحكام الله (٤٩٥ – ٥٢٤ هـ) ان شخصاً من الذين كانوا يحضرون مجالس العلماء في « دار العلم » يُسمى حامد القصار ادعى الالوهية وتبعه في مذهبه كثير من العامة . فطرأت بسببه فتن بين العلماء حتى صار يُخشى على قصر الخليفة من غوغائهم . فاغلق الافضل امير الجيوش (٤٨٧ – ٥١٥ هـ) « دار العلم » لان وجودها اصبح لا يتفق مع الغرض الذي انشئت لاجله . وهو بث عقائد المذهب الشيعي لا غير (٢)

ثم قبض امير الجيوش على ابن القصار وقتله وقتل نفراً من اتباعه . فلما سكنت الفتنة توسل خدّام هذه الدار الى الخليفة ان يعيد فتحها . ففاوض الخليفة الآمر باحكام الله وزيره المأمون البطائحي في ذلك فاجاب الوزير مشترطاً اذا أعيدت « دار العلم » ان تسير على الاوضاع الشرعية وان يُبنى لها معهد بعيد عن البلاط . لان وجودها بجواره قد لا يخلو من خطر . فقال الثقة زمام القصر ان بجوار بيته بقعة يصلح موقعها لتلك الدار . فشيدوا « دار العلم » في البقعة المذكورة ونقلوا الكتب اليها سنة ٥١٧ للهجرة وعاد الانتفاع بها كسابق عهدها . ثم جُعل خازناً لها ابو محمد حسن بن آدم وكان من اقطاب العلم والفضل .

٥ ـ تحف دار العلم وطرائفها

كانت تشتمل هذه المكتبة على تحف نادرة وغالية الثمن لم يعهد مثلها في

---

(١) خطط الشام : مجلد ٦ صفحة ١٩٠ (٢) خطط المقريزي : جزء ١ صفحة ٤٦٠

مكتبة سواها . نذكر من ذلك كرتين ارضيتين احداهما قديمة العهد من الفضة الخالصة والاخرى احدث عهداً وهي من النحاس . قيل ان الاولى صنعها بطليموس الفلكي نفسه وبلغت نفقاتها ثلاثة آلاف كورون (نقد يوناني) من الذهب . وقد كتبت عليها هذه العبارة « حُملت هذه الكرة من الامير خالد بن يزيد بن معاوية (١) . اما الثانية فقد صنعها ابو الحسن لأسد الدولة صالح بن مرداس الكلابي اول الامراء المرداسيين بحلب .

٦ – تمرد رجال المستنصر واقتسامهم كنوزه ومخطوطاته

عمّت الفوضى جميع الانحاء المصرية في ايام الخليفة المستنصر بن الظاهر (٤٢٧–٤٨٧ هـ) لسبب ضعفه وسوء تصرفه ومعاقرته الخمرة . وكان زعيم هذه الحركة ناصر الدولة بن حمدان الذي ازعج الخليفة بما اثاره من الفتن في كل انحاء الدولة. فاصبح المستنصر لا ينظر اليه الا نظر احتقار وقد سقط اعتباره وقل نفوذه بين رجاله الاتراك . فتمردوا عليه وصاروا لا يكترثون لاوامره واخذ صعلوكهم يلصق بالخليفة كل سوء . وفي شهر صفر ٤٦١ للهجرة تجمهروا يطلبون زيادة مرتباتهم التي بلغت اربعمائة الف دينار في الشهر . وبالرغم من هذه الزيادة فانهم ظلوا يطالبونه بالمال حتى اعتذر اليهم بعجزه عن الدفع . فتألبوا عليه وارغموه على بيع كنوز قصره التي جمعها الفاطميون اجداده منذ تأسيس دولتهم . ثم اقتسموها بينهم غير مبالين بما كان منها حقاً او تعدياً .

وكانت هذه « دار العلم » تشتمل على كل نادر من الكتب الجليلة المقدار بل المنقطعة المثال بجودة الخط وتأنق التجليد وغرابة الزينة . وكان فيها ما يقرب من الفين واربعمائة « ختمة » مكتوبة بخط محلى بالذهب والفضة (٢). فاقتسمها الاتراك

---

(١) خطط الشام : مجلد ٦ صفحة ١٩٨ (٢) الفاطميون في مصر بقلم الدكتور حسن ابرهيم حسن : صفحة ١٣٨

ايضاً الا جانباً منها كان خاصاً بالوزير عماد الدولة ابي الفضل بن المحترق حاكم الاسكندرية فارسل اليه محمولا على الجمال . فلما بلغت احمال الكتب قرية ابيار سطا عليها بعض عربان قبيلة لواتة فنهبوها واحرقوا ورقها واصطنعوا احذية من جلودها (١) . وكان في « دار العلم » ايضاً صناديق مملوءة اقلاماً من براية ابن مقلة وابن البوّاب وغيرهما (٢) .

٧- تطرف الفاطميين في الجور والفجور وانحلال دولتهم

في ذلك العهد تولى الضعف دولة الفاطميين واسرع اليها الانحلال بعد ما كانت غرّة في جبين الامصار . لانها تطرفت في الترف والفجور على مثال دولة الروم في القسطنطينية . وقد اصاب في وصفها المؤرخ العلامة احمد زكي باشا المصري في كتابه « الحضارة الاسلامية » قال : (٣):

« بله ما امتازت (الخلافة الفاطمية) به في أخريات حياتها من اساليب الختل والخداع وتهالكها اكثر من غيرها على استباحة الحرمات . فقد كانت تصادر الرعية وارباب الدولة بغير حق ولأوهى سبب حتى اصبح الخليفة (النهاب الوهاب) . هذا عدا افحاشهم في سفك الدماء فقد بلغ القتل درجة لا يتصورها العقل . ومن ذلك ان ولي العهد حسن بن الحافظ لدين الله ذبح في ليلة واحدة اربعين رجلا من امراء مصر . الى غير ذلك مما ارتكبه من الموبقات التي اشار اليها المعتمد بن الانصاري صاحب الترسل بقوله :

لم تأتِ يا حسن بين الورى حسناً ... ولم ترَ الحق في دنيا وفي دينِ
قتلُ النفوس بلا جرمٍ ولاسببٍ ... والجور في سلب اموال المساكين
لقد جمعت بلا علم ولا ادبٍ ... تيه الملوك واخلاق المجانين »

---

(١) تاريخ مصر الحديث لجرجي زيدان : مجلد ١ صفحة ٢٧٤ (٢) خطط المقريزي : جزء ٢ صفحة ٢٥٤ (٣) الحضارة الاسلامية : صفحة ٨

٨ ـ مكتبة المدرسة الفاضلية

لما خلف الايوبيون سنة ٥٦٧ هجرية (١١٧١ م) دولة الفاطميين وُشي الى السلطان صلاح الدين بان في « دار العلم » اسفاراً تشتمل على مذاهب الفاطميين وآرائهم وأوهموه ان في بقائها ضرراً على الاسلام والمسلمين. فامر من فوره باتلافها وتفرّق الجانب الاكبر من هذه الكتب ايدي سبا. لكن القاضي الفاضل عبدالرحيم البيساني استأذنه في ان يختار مائة الف مجلد من تلك الكتب ويضعها في خزائن « المدرسة الفاضلية » التي انشأها هو سنة ثمانين وخمسمائة بدرب ملوخيا بالقاهرة. فما عتم ان اذن له السلطان صلاح الدين بذلك. ثم امر بهدم « دار العلم » وبناها مدرسة للشافعية (١)

قال ابن ابي طي في تاريخه : « ولما فرغ السلطان صلاح الدين من امر الخطبة امر بالقبض على القصور وجميع ما فيها من مال وذخائر وفرش وسلاح وغير ذلك... واطلق البيع بعد ذلك في كل جديد وعتيق فاقام البيع بالقصر مدة عشر سنين. ومن جملة ما باعوا خزانة الكتب وكانت من عجائب الدنيا لانه لم يكن في جميع بلاد الاسلام دار كتب اعظم من الدار التي بالقاهرة في القصر (٢)

قال المقريزي (٧٦٦ – ٨٤٥ هـ) في الخطط ما مؤداه : « وفي مكتبة المدرسة الفاضلية الى الآن مصحف قرآن كبير القدر جداً مكتوب بالخط الاوّل الكوفي يسميه الناس مصحف عثمان بن عفان . يُقال ان القاضي الفاضل (٥٢٩ – ٥٩٦ هـ) اشتراه بنيف وثلاثين الف دينار على انه مصحف عثمان بن عفان رضي الله عنه وهو في خزانة مفردة له بجانب المحراب من غربيه عليه مهابة وجلالة (٣) » .

---

(١) ابن خلدون : جزء ٤ صفحة ٧٩ والخطط التوفيقية : مجلد ١ صفحة ٨٧

(٢) البصائر : مجلد ١ سنة ١٩١٢ صفحة ٢٢٣ ـ وخلف لنا ابن ميسر والمقريزي بياناً عن الكنوز التي كانت في خزائن قصر الخلفاء الفاطميين من تحف وطرف واحجار كريمة وغيرها مما لا يدخل تحت حصر او وصف . فنحيل القاريء الى مطالعة اخبارها في تواريخ هذين المؤرخين الشهيرين .

(٣) خطط المقريزي : جزء ٤ صفحة ١٩٧

ولما وقع الغلاء بوادي النيل عام ٦٩٤ في زمن الملك كتبغا المنصوري مس الجوع طلبة المدرسة الفاضلية فاخذوا يبيعون كل كتاب برغيف . وكان قد بيع منها ومن مكاتب اخرى قسم كبير على يد « ابن صورة » دلال الكتب المتوفى سنة ٦٠٧ هجرية . وكان ابن صورة يجلس في دهليز داره ويجتمع عنده يومي الاحد والاربعاء كبار العلماء والفضلاء ويعرض عليهم الكتب التي تباع (١) . وكانوا يقيمون عنده الى انقضاء وقت السوق . ولا يزال قسم من تلك الكتب الى الآن في مكتبة ليدن (٢) في هولندا .

٩ ـ مكتبة المدرسة الكاملية

من المكاتب التي اشتهرت في اوائل القرن السابع للهجرة (مكتبة المدرسة الكاملية) انشأها الملك الكامل ناصر الدين محمد سنة اثنتين وعشرين وستمائة . وممن ولي هذه الخزانة على ما ذكره السيوطي في « بغية الوعاة » ابو عبد الله شرف الدين محمد بن ابرهيم بن ابي القاسم بن عنان الميدومي . ولبث متوليا عليها الى ان مات سنة ٦٨٣ للهجرة .

١٠ ـ مكتبة المدرسة البهائية

من خزائن كتب القاهرة (مكتبة المدرسة البهائية) انشأها الوزير بهاء الدين علي بن محمد بن سليم بن حنا سنة ٦٥٤ للهجرة وكانت هذه الخزانة من الخزائن الغنية . ثم نقلها من المدرسة شمس الدين محمد بن الصاحب وصارت تحت يده الى ان مات فتفرقت في ايدي الناس .

---

(١) ذكر ابو شامة (طبعة القاهرة جزء ١ صفحة ٢٦٨) نقلا عن عماد الدين الاصفهاني ان هذه الكتب كانت تباع بالوزن (راجع كتاب «الفاطميون في مصر» صفحة ١٤٩ في الحاشية)

(٢) تاريخ مصر الحديث : مجلد ١ صفحة ٣١٦

١١ ـ مكتبة المدرسة الظاهرية

انشئت عام ٦٦٢ للهجرة مكتبة المدرسة الظاهرية بهمة الملك الظاهر بيبرس البندقداري . وكان فيها امهات الكتب من جميع العلوم

١٢ ـ مكتبة المدرسة المنكوتمرية

وعام ٦٩٨ للهجرة انشئت المكتبة المنكوتمرية نسبة الى الامير سيف الدين منكوتمر الحسامي نائب السلطنة بديار مصر . وقد جعل فيها منشئها خزانة كتب وحبس عليها وقفاً ببلاد الشام (١)

١٣ ـ مكتبة القبة المنصورية

ومن المكاتب الشهيرة في القاهرة (مكتبة القبة المنصورية) تجاه المدرسة المنصورية . انشأهما كلتيهما الملك المنصور قلاوون الالفي الصالحي على يد الامير علم الدين سنجر الشجاعي. وهذه القبة من اعظم المباني الملوكية. وبها دفن بانيها الملك المنصور وابنه الملك الناصر وحفيده الملك الصالح . وكانت معظمة معدودة مما يقام به ناموس الملك فلا يمكنون من الدخول اليها الا الامراء والاعاظم . وبقيت معظمة حتى بعد ان صارت مقبرة لا يتوصل اليها الا اهلها . وفي ذلك يقول يحيى بن حكم البكري الجياني الملقب بالغزال واجاد :

ارى اهل الثراء اذا توفوا ... بنوا تلك المقابر بالصخورِ
ابوا الا مباهاة وتيهاً ... على الفقراء حتى في القبورِ

وكان في هذه القبة خزانة جليلة فيها عدة احمال من الكتب في انواع العلوم مما وقفه الملك المنصور وغيره . قال المقريزي : وقد ذهب معظم هذه الكتب وتبعثر.

---

(١) خطط المقريزي : جزء ٤ صفحة ٢٣٠

١٤ ـ مكتبة المدرسة الناصرية

ومن مكاتب القاهرة قديماً نذكر (مكتبة المدرسة الناصرية) انشأها الملك الناصر بن قلاوون الالفي سنة ٧٠٣ للهجرة وكانت خزانة جليلة.

١٥ ـ مكتبة الجامع الحاكمي

اما خزانة كتب الجامع الحاكمي فقد انشأها الامير ركن الدين بيبرس الجاشنكير على اثر ترميمه هذا الجامع الذي كان قد تهدم في زلزال سنة ٧٠٢ للهجرة (١) .

١٦ ـ مكتبة المدرسة الطيبرسية

انشأ هذه المكتبة الامير علاء الدين طيبرس سنة ٧٠٩

١٧ ـ خزانة الكتب الملكية

انشأ هذه المكتبة الامير سيف الدين آل ملك الجوكندار وكانت من الخزائن المعتبرة (٢)

١٨ ـ خزانة كتب المدرسة السابقية

انشأها الامير سابق الدين مثقال مقدم مماليك الملك الاشرف (٣) في اواسط القرن الثامن للهجرة

---

(١) خطط المقريزي جزء ٤ صفحة ٥٦-٥٧

(٢) خطط المقريزي : جزء ٤ صفحة ٢٣٧

(٣) خطط المقريزي : جزء ٤ صفحة ٢٤٠

١٩ ـ خزانة كتب المدرسة المحمودية

اسسها الامير محمود بن علي الاستادار سنة ٧٩٧ للهجرة . قال المقريزي عنها انه لا يعرف بديار مصر ولا الشام مثلها ولا يخرج لاحد منها كتاب الا ان يكون في المدرسة (١)

٢٠ ـ مكتبة المدرسة البشيرية

انشأها سنة ٧٦١ للهجرة الامير سعد الدين بشير الجامدار

٢١ ـ مكتبة مدرسة الجاي

اسس هذه الخزانة سنة ٧٦٨ الامير سيف الدين الجاي (٢) وكانت من اهم المكتبات في عصرها

٢٢ ـ مكتبة مدرسة الاستادار

نضيف الى ما روينا عن مكتبات القاهرة (مكتبة مدرسة الاستادار) انشأها سنة ٨١١ الامير جمال الدين الاستادار. وكان فيها من المصاحف والكتب في الحديث والفقه والتفسير وغير ذلك من العلوم شيء كثير. اشترى ذلك من الملك الصالح بن الاشرف. ومما كان فيها عشرة مصاحف طول كل مصحف منها اربعة الى خمسة اشبار في عرض يقرب من ذلك. احدها بخط ياقوت المستعصمي وآخر بخط ابن البوّاب وباقيها بخطوط منسوبة . ولها جلود في غاية الحسن مصونة في اكياس من الحرير الاطلس. وكان فيها من الكتب النفيسة عشرة احمال . وقد نُقل كثير من هذه الكتب بعد قتل الامير جمال الدين الى قلعة الجبل بامر الملك الناصر فرج (٣)

---

(١) خطط المقريزي : جزء ٤ صفحة ٢٤٢ (٢) خطط المقريزي : جزء ٤ صفحة ٢٤٩
(٣) خطط المقريزي : جزء ٤ صفحة ٢٥٢

٢٣ ـ فتح الاتراك مصر ونقلهم منها مخطوطات واموالا على الف جمل

ظلت مكاتب القاهرة التي سبق بيانها عامرة حتى سقوط دولة المماليك سنة ١٥١٧ ميلادية. فقامت على اثرها دولة الاتراك في عهد السلطان سليم الاول (١٥١٢-١٥١٩) الذي فتح مصر وجعلها ولاية خاضعة لعرش السلطنة العثمانية. وقد رأى هذا الفاتح ان نصره لا يؤيد الا اذا قبض على مقاليد الامامة الدينية. فانتزعها من يد محمد المتوكل على الله (الثالث) وهو آخر من تبقى من سلالة الخلفاء العباسيين الذين فرّوا من بغداد بعد سقوط دولتهم ولجأوا الى مصر.

وكان في عداد حاشية السلطان سليم الاول نخبة من ارباب العلم الذين دهشوا بما شاهدوه من الآثار الثمينة في المكاتب المصرية. فلما اخبروه بذلك امرهم بجمع خيارها وانتقاء نفائسها لنقلها الى عاصمة سلطنته. ويقال انه اقتضى في ذاك العهد الف جمل لنقل تلك الكتب مع سائر ما نقله السلطان المشار اليه من الذهب والاسلاب والهدايا. ولم يزل جانب من هذه الاسفار محفوظاً في اثنتين واربعين مكتبة من مكاتب قسطنطينية التي تُعد من اغنى مدن العالم بالمخطوطات الشرقية وهي : العربية والفارسية والتركية.

٢٤ ـ سائر المكتبات الاسلامية القديمة في القاهرة

على ان المؤرخين اوردوا اسماء كثير من مكاتب القاهرة غير التي ذكرنا مما دخل في خبر كان . فوصفوها بما تستحقه من الاعتبار. ولما كان ما لا يُدرك كله لا يُترك جله اكتفينا هنا بسرد اسماء اهمها واشهرها وهي:

(مكتبة مدرسة الامير شيخو العمريّ) و (مكتبة الامير صرغتمش) وكانا وزيرين في عهد الملك الصالح الثاني (٧٥٢ – ٧٥٥ هـ). ومنها (مكتبة مدرسة السلطان حسن) (٧٥٥ – ٧٦٢ هـ) . و (مكتبة مدرسة السلطان شعبان) (٧٦٤ – ٧٧٨ هـ) ومكتبة برقوق (٧٨٤ – ٨٠١) ومكتبة المؤيد ابي النصر .

ومكتبة مدرسة خوند بركة قايتباي المحمودي والدة السلطان شعبان المشار اليه. وقد انفردت مخطوطات هذه المكتبة عن سائر المخطوطات في مكاتب سلاطين المماليك بجودة ورقها وحسن خطوطها واتقان حلاها (١) .

ولا يسعنا ان نضرب صفحاً عن مكتبة قديمة اشتهرت في القاهرة اسمها « مكتبة مدرسة ازبك بن ططخ » وعفت آثارها في عهد اسمعيل باشا (١٨٦٣ – ١٨٧٩) خديو مصر . فقد قرأنا لها وصفاً موجزاً في مقالة ذات سبع صفحات عنوانها « تاريخ دور الكتب في الشرق » نُشرت عام ١٩٣١ بقلم السيد محمد علي البيلاوي نقيب السادة الاشراف بالديار المصرية . قال :

« ومكتبة مدرسة ازبك بن ططخ . وكانت هذه المكتبة آية في بابها . فقد اخبرني ثقة رآها انه كان فيها حجرة خاصّة بكتب الفلك والميقات وادواتها . وفي عنق مستخدمي ديوان عموم الاوقاف لعهد اسمعيل باشا وزرُ ضياع هذه المكتبة وتشتتها الى يوم القيامة . فقد اخلوا جامع ازبك هذا من كل ما فيه عند ارادة فتح شارع محمد علي . ونسوا المكتبة وتركوها وراء ظهورهم كأنهم لايعلمون . فلما هُدم الجامع تشتتت الكتب اوراقاً بين الانقاض واخذ اغلبها عمالُ الهدم . ولما انتشر هذا الخبر المحزن ووصل الى مستخدمي ديوان الاوقاف اتوا للمّ شعثها فلم يُدركوا منها غير القليل » .

ومن مكتبات القاهرة ايضاً خزانة أنشأها محمد بك ابو الذهب والي مصر . وكان مركزها في جامعه قريباً من جامع الازهر . فاوعزوا اليه ان يقتني لها معجم «تاج العروس في شرح جواهر القاموس» في اربعة عشر مجلداً بخط المؤلف . فاشتراه منه بمائة الف درهم وتوفي سنة ١١٨٨ للهجرة (٢) .

وبالرغم مما اصاب مكاتب القاهرة من النهب والسلب والحريق والتدمير على توالي العصور فقد بقي في مدارسها وجوامعها وأديارها من المخطوطات ما يحصى بعشرات الالوف . وبينها طائفة عظيمة من نوادر الاسفار نُعتبر آية الآيات بجمال

---

(١) كتاب « مطبعة المعارف واصدقاؤها ١٨٩٠ - ١٩٣١ » صفحة ٢٩

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية : جزء ٣ صفحة ٢٨٨

الخطوط وجودة الورق واتقان التجليد . الا انها كانت مهملة اذ تولاها حفّاظ من افقر الناس يجهلون قيمتها ولايدركون خطورتها فباعوا منها قسماً صالحاً بأبخس الاثمان . ويُروى عن هؤلاء حكايات كثيرة تدعو الى التأثر والأسف . لانهم بجهلهم واهمالهم وطمعهم وقلة امانتهم افقدوا الامة ثروة ادبية كبيرة قد اشتغل السلف في تأليفها وترجمتها ونساختها وجمعها وتنظيمها قروناً عديدة .

٢٥ ـ سوء ادارة مكتبات المساجد في عهد خلفاء محمد علي

في مطلع ولاية الخديو عباس الاول سنة ١٨٤٨ حصر ديوان الاوقاف المصرية مكاتب القاهرة تحت ادارته . واقام لها حفاظاً يعيرون الكتب لمن يرغب في مطالعتها . ولكنه اساء الى تلك المكاتب بتعيين اولئك الحفاظ من اجهل الناس وافقرهم . ثم تركهم وشأنهم بلا رقابة وخصّص بهم مرتّبات يسيرة هي والعدم سواء . فقد عهد مثلاً بمكتبة مدرسة السلطان حسن ومكتبة مدرسة ازبك بن ططخ ومكتبة مدرسة خُوَند بركة قايتباي المحمودي الى خازن فقير الحال ساقط الاخلاق يدعى « ابن السليماني » . وجعل له ديوان الاوقاف راتباً شهرياً قدره خمسة وعشرون غرشاً لاجل خدمة المكاتب الثلاث المذكورة والاشراف عليها . فصار هذا الخازن الجاهل الفقير المؤتمن على تلك الذخائر الغالية دون رقيب عليه يبيع قصب السكر في زاوية تحت سلم مدرسة السلطان حسن . فكان يضع بجانبه طائفة من مخطوطات تلك المكاتب الثلاث يبيعها بيع قصب السكر ويتصرف باثمانها . فتأتى له ان يجازف في زمن قصير بجانب كبير من تلك الجواهر اليتيمة ليسد بها جوعه وجشعه .

وكان خدَمة بعض المساجد يحملون الى الاسواق سلالا مملوءة من المخطوطات القديمة يبيعونها للبقّالين واللحّامين والعطّارين وباعة الفاكهة كي يلفوا سلعهم باوراقها .

وما رويناه من الاهمال والتلاعب في مكاتب القاهرة يصدق بحذافيره في مكاتب سائر الاقطار الشرقية عموماً والعربية خصوصاً . هكذا جرى في مكاتب دمشق وحماة وحلب وطرابلس وسمرقند والموصل وبغداد وديار بكر وفاس والقيروان وتونس الخ . وسترى ذلك في فصول الباب الرابع عشر الذي افردناه للبحث عن رزايا الكتب والمكتبات .

الفصل الثالث والعشرون

مكتبات القاهرة في العصر الحاضر

اولا ــ دار الكتب المصرية

١ ــ تأسيس الكتبخانة الخديوية وتجهيزها بمخطوطات المساجد

لما استفحل التلاعب الذي دبّ في اغلب خزائن كتب المساجد المصرية كما سبق الكلام علم بذلك ناظر المعارف علي باشا مبارك وكان من اكبر علماء عصره . فعرض على الخديو اسمعيل (١٨٦٣ – ١٨٧٩) ان يجمع الكتب من المساجد في مكان خاص يقيها عبث العابثين وشر الجهلة الطامعين . فلبى الخديو هذا الطلب واصدر امره في ٢٠ ذي الحجة ١٢٨٧ للهجرة (٢٣ اذار ١٨٧٠ م) بانشاء « الكتبخانة الخديوية » المشهورة الآن باسم « دار الكتب المصرية » . واليك ما رواه السيد محمد علي البيلاوي نقيب السادة الاشراف بالديار المصرية عن تأسيس «الكتبخانة الخديوية » قال (١) :

« ... فأعّد المرحوم علي باشا لها مكانا خاصّاً في سراي درب الجماميز في المكان الذي كان مُعدّاً للامتحان الآن . وجعل بجانبها مدرسة خاصة بها سماها (دار العلوم) كما سمى الحاكم دار كتب الفاطميين العامة « دار العلم » . ورتب لها المرحوم علي باشا من يقوم بشؤونها من ناظر ومغيرين وامينٍ وكتّابٍ وفرّاشين . وابتدأها بنقل المكتبة الصغيرة التي كانت للحكومة بقرب مسجد سيدنا الحسين . ثم شرع في نقل كتب المساجد (المدارس) اليها . ولكن مّما يؤسف له ان من عين لنقلها

---

(١) كتاب « مطبعة المعارف واصدقاؤها » صفحة ٣٠ . ٣١

من المساجد كان ذا دين في جمود . فنقم في نفسه لجموده في تدينه على مدير المعارف نقل هذه الكتب من اماكنها زعماً منه انه مخالف لشروط واقفيها . ولكنه حرصاً على مرتّبه كان يذهب الى المساجد ويأخذ من مكاتبها طائفة من الكتب ويترك الاكثر في مكانه . وظنّ بذلك انه حفظ مرتبه ولم يخالف شروط الواقفين مخالفة تامّة . على انه سامحه الله لو تدبّر قليلاً لرأى ان الواقفين ما شرطوا لها هذه الاماكن بعينها الا لاعتقادهم انها الحصن الحصين لها . ولو علموا انها غير صالحة لشكروا من يخرجها منها الى مكان يؤمن عليها فيه . هكذا قُدّر فكان .»

٢ ـ تهافت المستشرقين على ابتياع مخطوطات المساجد

لما علم عقلاء المستشرقين ان الحكومة المصرية فكرت في جمع كتب المساجد وان هذه المساجد لا تزال فيها الباقيات الصالحات وردوا اليها ورود الظمآن على العذب النمير. ورّغبوا الحَفظة بالاصفر الخادع واخذوا منها كل ما قدروا عليه. وما زال المستشرقون يردون على هذه المكاتب يختلسون منها ما يمكنهم اختلاسه الى سنة ١٢٩٧ للهجرة. فعلم سيد ادباء عصره المرحوم محمود باشا سامي البارودي ان مساجد الاوقاف لم تأخذ الكتبخانة الخديوية (دار الكتب المصرية) كل ما فيها وكان اذ ذاك ناظراً على ديوان الاوقاف فاصدر امره بنقل ما بقي في مساجد الاوقاف الى دار الكتب المصرية فنفذ امره. ولكن من كلف بنقل هذه الكتب كان يجد في كثير من المساجد امكنة الكتب خالية خاوية تنعي من بناها. حتى انه لما دخل مسجد الامير محمود الاستادار في قصبة رضوان من القاهرة وجد الدواليب خالية من هذه الدرر الغالية والنفائس الثمينة (١) .

٣ ـ مركز الكتبخانة الخديوية وعطف الخديو اسمعيل عليها

استمرت الكتبخانة الخديوية في مركزها الاول بسراي درب الجماميز تشتري

---

(١) مطبعة المعارف واصدقاؤها : صفحة ٣١

كل ما امكنها شراؤه من الكتب وتخصصها بالانتفاع العام حتى ضاق عنها مكانها. فأخلت لها نظارة المعارف مكان الديوان ونقلتها اليه سنة ١٨٩٠ تقريباً. وهو المكان الذي خلفتها عليه مدرسة المعلمين.

ثم رأت الحكومة بعد ذلك ان تسهّل الانتفاع بها فانتخبت لها مكانها الحالي. لانه واقع في وسط القاهرة تحديداً وبنته هذا البناء الضخم. وفتحت ابوابه للجمهور في اول سنة ١٩٠٤ ».

بهذه الوسيلة استطاع الخديو اسمعيل ان يصون من الضياع ما بقي من الكنوز الكتابية التي كانت مبعثرة في جميع مساجد بلاده. ثم اضاف اليها ما كان محفوظاً في خزانة الاوقاف الخيرية وكثيراً من الرسوم الاثرية والآلات الهندسية والوثائق التاريخية. وقد شملها بعنايته واهدى اليها طائفة من انفس المخطوطات التي ابتاعها سنة ١٨٧٦ من ورثة اخيه مصطفى فاضل باشا احد امراء الاسرة المالكة. فكان عددها ثلاثة آلاف واربعمائة وثمانية وخمسين مجلداً قد دفع هو ثمنها ثلاثة عشر الف جنيه ذهباً.

٤ ـ تبديل اسم الكتبخانة الخديوية باسم دار الكتب المصرية

اطلق على المكتبة التي نحن بصددها عند تأسيسها اسم « الكتبخانة الخديوية » وبقي هذا الاسم ملازماً لها حتى عهد الخديو عباس الثاني (١٨٩٢ ـ ١٩١٤). فاصبحت من ذاك الحين معروفة باسم « دار الكتب الخديوية » « ولما ارتقى البرنس حسين كامل عرش السلطنة المصرية عام ١٩١٤ دُعيت باسم «دار الكتب السلطانية». واخيراً قرر الملك فؤاد الاول (١٩١٧ ـ ١٩٣٦) ان يُطلق على هذه المكتبة اسم « دار الكتب المصرية » وهو عنوانها الحالي.

٥ ـ المكتبات المضافة الى دار الكتب المصرية

ضمت الى دار الكتب المصرية في آونة مختلفة مكتبات خصوصية حوت

نوادر المؤلفات وامتازت بوفرة المخطوطات في جميع العلوم والفنون. وبيان تلك المكتبات وعدد مجلدات كل منها هو كما يأتي :

اسم المكتبة	عدد المجلدات	تاريخ الاهداء وملاحظات
١ ـ مصطفى فاضل باشا	٣،٤٥٨	اشتراها الخديو اسمعيل باشا واهداها الى الدار
٢ ـ الشنقيطيّ	١،٤٠٩	منها ٧٥٤ مجلداً وقفها في حياته والباقي اشتري بعد وفاته سنة ١٩٠٤
٣ ـ محمد علوي باشا	٦٣٢	سنة ١٩٢١
٤ ـ احمد الحسيني	٣،٩٩٥	سنة ١٩٢١
٥ ـ القسم الادبي بالمطبعة الاميرية	٦٦٣	سنة ١٩٢١
٦ ـ نادي المدارس العليا	٢٠٠٠	سنة ١٩٢٦
٧ ـ احمد طلعت بك	٣٠٠٠٠	سنة ١٩٢٨
٨ ـ محمود الفلكي باشا	٦٠٠	سنة ١٩٢٩
٩ ـ قوله	٣٥٠٠	سنة ١٩٢٩
١٠ ـ خليل آغا	١٠٠٠	سنة ١٩٢٩
١١ ـ السيد عمر مكرم	٣٢٥	سنة ١٩٣٠
١٢ ـ الشيخ احمد ابو خطوة	١٠٠٠	سنة ١٩٣٠
١٣ ـ ابرهيم حليم باشا	١٦٠٧	سنة ١٩٣٠
١٤ ـ الخزانة التيمورية	١٩٥٢٧	سنة ١٩٣٢
١٥ ـ الخزانة الزكية	١٨٦٢٢	سنة ١٩٣٥
١٦ ـ مكتبة علي جلال بك الحسيني	٨٦٣٦	

وهنالك مكتبات اخرى اقل شأناً ضمت الى دار الكتب المصرية في فترات

مختلفة نذكر منها : مكتبة وجيهي العمري بك وبها كثير من الكتب النادرة التي عليها خطوط لاكابر العلماء . وهنالك ايضاً مجموعات كتب ومخطوطات ومرقعّات وقطع فنية اهداها العلماء مصريين وغير مصريين الى دار الكتب تقـــديراً للمهمة الثقافية التي أنشئت لاجلها (١) .

٦ - ثروة دار الكتب المصرية

في آخر السنة ١٩٤٦ أحصيت ثروة دار الكتب المصرية احصاءً رسمياً . فبلغ مجموع ما فيها من كتب حوالي خمسمائة وخمسة وعشرين الف مجلد بين مخطوط ومطبوع . منها ٥٧٩ و ١٤٤ مجلد من الكتب الافرنجية .

واحتوت دار الكتب المصرية على مخطوطات نادرة قديمة العهد . اشهرها «رسالة الشافعي» نسخها عام ٢٦٥ للهجرة (٨٧٨ م) تلميذه الربيع بن سليمان المرادي(٢) وكتاب « الامالي » لابي علي القالي وهو منسوخ بخط مغربي في القرن الخامس للهجرة (٣) الخ .

٧ - معارض دار الكتب المصرية

ازدانت دار الكتب المصرية باربعة معارض تلفت انظار زوّارها وتدعوهم الى الثناء لا على مَن اتحفها بمحتويات تلك المعارض فحسبُ بل على الناهضين بتنظيمها وحراستها ايضاً .

واوّل تلك المعارض معرض « الخزانة التيمورية » وفيه ما فيه من المخطوطات النادرة وصور مخطوطات نفيسة منقولة عن اثمن المخطوطات في مكتبات دمشق

---

(١) نبذة وجيزة عن دار الكتب المصرية لسنة ١٩٣٩ صفحة ٢١

(٢) مجلة النهضة النسائية (مجلة المجمع العلمي العربي مجلد ٤ سنة ١٩٢٤ صفحة ٢٣

(٣) نبذة وجيزة عن دار الكتب المصرية لسنة ١٩٣٩ صفحة ٢٦

والاستانة واوروبا. وفيه كذلك مجموعة صور شمسية تمثّل مشاهير الحكام والكتّاب والعلماء والفضلاء مصريين وشرقيين .

ثانيها : معرض « الاوراق البردية » وفيه كتابات جمة على البردي منها يُستدل تطور الكتابة عن الآرامية واليونانية القديمة الى العربية في القرون الاربعة الاولى للهجرة . ويحوي كذلك مواد الكتابة المستعملة قديماً عند العرب . وهناك كتاب « الجامع في الحديث » لعبد الله بن وهب . ولعله هو المؤلف العربي الوحيد الذي نسخ على البردي .

ثالثها « المعرض الايراني » اشتمل على مجموعة ايرانية فارسية امتازت بقدم عهدها وتناسق ألوانها . ويعود الفضل في اقتناء اغلب نفائسها الى الامير مصطفى فاضل باشا حفيد محمد علي باشا الكبير . وقد نوّهنا بذكرها فيما سبق .

رابعها « المعرض العام » انطوى على مخطوطات لمشاهير المؤلفين العرب كالحريري والفيروزابادي وابن حجر والفيومي الخ. وعلى كتابات لمشاهير الخطاطين كابن البوّاب وياقوت المستعصمي. وهناك خطوط عربية متنوعة بالقلم الكوفي والبغدادي والقيرواني والاندلسي والريحاني واليماني والمزركش والديواني والفارسي والقاعدي وغيرها . وتزدان جدران هذا المعرض بصورٍ فنية ومرقعات جميلة وتحف خطية لأشهر الرسامين والخطاطين . على ان الفضل في نماء ثروة هذا المعرض يرجع الى فؤاد الاول مليك مصر (١٩١٧ – ١٩٣٦) فقد اعتنى هذا العاهل بالمعرض العام اعتناء خصوصياً. واضاف الى ذلك اهتمامه بالخطوط العربية فأمر بانشاء مدرسة لتحسينها. واستحضر نماذج من كتابات اشهر الخطاطين فأصبحت تلك النماذج نواة صالحة لهذا « المعرض العام » في دار الكتب المصرية .

٨ ـ مطبوعات دار الكتب المصرية

الحقت بدار الكتب المصرية منذ السنة ١٩٢٠ مطبعة جُهزت باحسن الادوات وأكمل العُدد . واخذت تطبع موسوعات علمية وتاريخية وادبية وكثيراً من

مؤلفات رجال عصرنا . وقد ابرزتها على اتم ما يكون من دقة التصحيح والمراجعة وجمال الوضع والطبع . ومن اهم تلك المطبوعات كتاب « صبح الاعشى » للقلقشندي في اربعة عشر مجلداً . وكتاب « نهاية الارب في فنون الادب » تأليف شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب النويري . وكتاب « الاصنام » لابي المنذر هشام بن محمد الكلبي . وكتاب « التاج للامام الجاحظ الخ.

٩ ـ مديرو دار الكتب المصرية

مرت على دار الكتب المصرية في ادارتها حقبتان . ففي حقبتها الاولى (١٨٧٠ – ١٩١٤) تولى شؤونها مديرون المانيون بدءاً من الدكتور ستيرن فالدكتور سبينا فالدكتور فولرس (١٨٨٩ – ١٨٩٦) فالدكتور موريس (١٨٩٦ – ١٩١١) فالدكتور شاده (١٩١٣–١٩١٤) وهو آخر مدير اجنبي.

ثم القيت مقاليد دار الكتب المصرية في حقبتها الثانية الى مديرين وطنيين وهم: احمد لطفي السيد باشا (١٩١٥ – ١٩١٨) للمرة الاولى واحمد بك صادق (١٩٢٠–١٩٢٢). واحمد لطفي السيد باشا للمرة الثانية (١٩٢٢ – ١٩٢٥). والدكتور عبد الحميد بك ابو هيف (١٩٢٥ – ١٩٢٦) . ومحمد اسعد برادة بك (١٩٢٦–١٩٣٦). والدكتور منصور فهمي باشا (١٩٣٦ –١٩٤٤). واحمد عاصم بك (١٩٤٤ – ١٩٤٦) الخ.

ولكل من الحقبتين مزية خاصة استفادت منها دار الكتب المصرية فائدة محققة. ففي الحقبة الاولى ازدادت ثروتها بالكتب الاجنبية ومجموعة النقود الاسلامية . وفي الحقبة الثانية توفرت العناية خصوصاً بازدياد ثروتها الشرقية ولا سيما العربية .

ثانياً : دار الكتب الازهرية الكبرى

١ ـ قِدم دار الكتب الازهرية

الازهرية نسبة الى الازهر اكبر جامعة اسلامية في الخافقين بلا جدال. وجامع

الازهر هو اول مسجد أنشيء في القاهرة بعد جامع احمد ابن طولون (٢٥٧-٢٧١هـ) أسسه القائد جوهر مولى المعز العبيدي لما اختط القاهرة سنة ٣٥٩ للهجرة. واكتمل بناؤه في شهر رمضان سنة ٣٦١ للهجرة (٩٧٢ م) (١). وفيه من طُرَف النقوش وعجائب الهندسة ما يقصرّ عن وصفه لسان وعن تسطيره يراع. يبلغ عدد اعمدته ثلاثمائة وثمانين عموداً كلها من المرمر او الصوان محكمة النحت. وفيه كذلك من القناديل الف ومائتا قنديل (٢).

ولا ريب في ان مكتبة الازهر قديمة العهد ايضاً كسائر خزائن المساجد التي سطرنا اخبارها في هذا المؤلف. وقد اثبت المقريزي في خُططه ان تلك الخزائن زُخرتْ بالكتب المفيدة والمصاحف الثمينة.

والى تلك المكتبة العامرة يختلف تلامذة الازهر وهم يُعدون بالالوف وينتمون الى شتى المذاهب الاسلامية في جميع اطراف العالم. ويلبث اولئك الطلبة اعواماً يدرسون على مشايخ الازهر وجهابذته الذين برّزوا في آداب الدين الاسلامي. ثم يعودون الى اوطانهم فينشرون فيها ما تلقنوه من المعارف على اختلاف انواعها ودرجاتها.

٢ـ ذخائر دار الكتب الازهرية

كانت ذخائر دار الكتب الازهرية الكبرى متفرقة في الاروقة يتناولها من يشاء بلا رقابة ولا نظام. ولبثت الحال على هذا المنوال حتى اواخر ايام الخديو اسمعيل باشا (١٨٦٣ - ١٨٧٩). فامر هذا العزيز في آخر عهد ولايته بجمع ما يُستغنى عنه من كتب الاروقة وترتيبها في الخزائن وتنظيم فهارس لها تبعاً لمواضيعها.

---

(١) حسن المحاضرة في اخبار مصر القاهرة : لجلال الدين السيوطي : جزء ٢ صفحة ١٤٠ ودائرة المعارف : للبستاني : مجلد ٣ صفحه ٣١٠

(٢) الجامع الازهر: بقلم الكسيس مالون اليسوعي (المشرق : مجلد ٤ سنة ١٩٠١ صفحة ٥٤)

ولا يخفى ان مسجد الازهر هو المسجد الوحيد الذي استثني بين جميع مساجد القاهرة فلم تحوّل خزائن كتبه الى دار الكتب المصرية. وجرى ذلك عام ١٨٧٠ بايعاز الخديو اسمعيل المشار اليه. ومن ذاك الحين ظلت مكتبة الازهر مستقلة وحُفظت ذخائرها من التلف او الضياع. وفي السنة ١٨٩٧ اطلق عليها اسم « دار الكتب الازهرية الكبرى » بفضل الناهضين بها ولا سيما الشيخ حسونة النواوي شيخ الازهر والشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية.

وقد كتب الينا وكيل الجامع الازهر بتاريخ ١٠ اذار ١٩٤٠ ان ذخيرة المكتبة من المجلدات العربية المطبوعة تناهز مائة وعشرة آلاف مجلد. وتضم من المخطوطات خمسة وثمانين الف مجلد يصدق على كثير منها وصف الاهم النادر. مثال ذلك: ١ً: « غريب الحديث » لابي عبيد القاسم بن سلام نُسخ سنة ٣١١ هـ بخط ابي الخطاب الحسيني بن عمر العايدي — ٢ً: رسالة في « الحاسد والمحسود » لابي عثمان عمر بن بحر الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ. وقد نسخها علي بن هلال المشهور بابن البوّاب المتوفى سنة ٤١٣ هـ — ٣ً: « رسوم دار الخلافة » لابي الحسين هلال بن المحسن الصابىء نُسخ سنة ٤٥٥ للهجرة — ٤ً: كتاب « قوة الحجاج في عموم المغفرة للحجاج » كتبه مؤلفهُ ابن حجر العسقلاني سنة ٨٤٢ للهجرة — ٥ً: مجموعة « رسائل جلال الدين السيوطي » وهي ثماني عشرة رسالة كتبها مؤلفها سنة ٨٤٧ للهجرة — ٦ً: « طوالع الانوار » شرح الشيخ عابد السندي على شرح الدر المختار في ستة عشر مجلداً وهو نادر لا وجود لمثله.

٣ ـ اعتناء مشيخة الازهر بتنظيم مكتبته وتصوير مخطوطاتها النادرة

وفي السنة ١٩٣٦ اشترت مشيخة الازهر آلة من طراز المـاني حديث لتصوير المخطوطات. وتقرر ان يقوم بادارتها عمال تمرنوا على التصوير. ولهذا اوعزت المشيخة الى بعض موظفيها فالتقفوا استعمال تلك الآلة طبقاً للاصول الفنية. وبعد هذا شرعوا يصوّرون المخطوطات النادرة المحفوظة في مكتبة الازهر ويرسلون

نسخاً منها الى دور الآثار والمكتبات الكبرى (١) . وقد رُتبت مكتبة الازهر ترتيباً دقيقاً كأحسن ما يُتبع في تنظيم المكتبات الحديثة (٢) .

ثالثاً : مكتبة آل الشرايبي

وصف عبد الرحمن الجبرتي مكتبة آل الشرايبي بمدينة القاهرة وصفاً وافياً في تاريخه « عجائب الآثار » . فاستحسنا ان ننقله عنه بنصه قال : (٣)

«كان آل الشرايبي في غاية من الغنى والرفاهية والنظام ومكارم الاخلاق والاحسان للخاص والعام يتردد الى منزلهم العلماء والفضلاء. وكانت مجالسهم مشحونة بكتب العلم النفيسة للاعارة والتغيير وانتفاع الطلبة . لا يكتبون عليها وقفية ولا يُدخلونها في مواريثهم ويرغبون فيها ويشترونها باغلى ثمن. ويضعونها على الرفوف والخزائن والخورنقات وفي مجالسهم جميعاً. فكل من دخل الى بيتهم من اهل العلم الى اي مكان بقصد الاعارة او المراجعة وجد بغيته ومطلوبه في اي علم كان من العلوم ولو لم يكن الطالب معروفاً. ولا يمنعون من يأخذ الكتاب بتمامه. فان رده الى مكانه ردّه. وان لم يرده واختص به او باعه لا يسألون عنه . وربما بيع الكتاب عليهم واشتروه مراراً واعتذروا عن الجاني بضرورة الاحتياج . وكان الامراء في مصر يترددون اليهم كثيراً من غير سبق دعوةٍ »

رابعاً : اشهر مكتبات القاهرة في الزمان الحاضر

١ ـ مكتبات الوزارات المصرية

عندما انتظمت الوزارات المصرية أنشئت لكل منها مكتبة خاصة بها اشتملت

---

(١) مجلة « الرسالة » في القاهرة : مجلد ٦ عدد ٢٦٤ صفحة ١٢٣٧

(٢) مجلة « الاثنين والدنيا » في القاهرة : عدد ٢٦٢ سنة ١٩٣٩

(١) عجائب الاثار في التراجم والاخبار: لعبد الرحمن الجبرتي : جزء ١ صفحة ٢٠٨

على مؤلفات رسمية وغير رسمية لها علاقة بتلك الوزارة تسهيلاً لأعمال موظفيها والمترددين اليها والمتعاملين معها. واحتوت خزائن تلك الوزارات ايضاً على طائفة من الكتب الفنية والموسوعات العلمية والنشرات الدورية التي لا غنى عنها. أخصها وزارة المعارف ووزارة الاشغال العامة ووزارة الحربية الخ .

٢ ـ مكتبات المساجد المصرية

سبق الكلام عما استولت عليه دار الكتب المصرية في عهد الخديو اسمعيل من المخطوطات التي كانت متفرقة في مساجد القاهرة . واليك ما رواه جرجي زيدان عن مكتبات تلك المساجد وعما بقي فيها من الكتب (١) قال :

« لكن تلك المساجد لا يزال فيها كتب كثيرة . وقد رأيتَ ما ذكرناه عن المكتبة الازهرية وهي اهمها. اما ما بقي من الكتب العربية في المساجد وغيرها التابعة لنظارة الاوقاف فعددها تسعة وعشرون الفاً ومائتان وخمسة وعشرون كتاباً في مواضيع مختلفة . اهمها في الفقه وغيره من العلوم الاسلامية وفي العلوم اللغوية ».

٣ ـ مكتبات الجامعة المصرية او جامعة فؤاد الاول

تتألف الجامعة المصرية من معاهد وكليات شتى للعلوم العالية اليك اخصها : معهد الطب ومعهد الحقوق ومعهد الآداب ومعهد الهندسة ومعهد التجارة ومعهد الصحافة وغيرها . ولكل من هذه المعاهد او لبعضها مكتبة مستقلة انشئت لفائدة تلامذته وابحاث اساتذته.

ولملك مصر فؤاد الاول فضل خالد على الجامعة المصرية التي تأسست تحت اشرافه ودعيت باسمه . وقد رمق مكتبتها بعنايته الخاصة فاهديت اليها المؤلفات

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية : مجلد ٤ صفحة ١١٦

الثمينة في العلوم العصرية والقديمة . وهي من المكتبات المعدودة في مصر بمحتوياتها وتنظيمها وفهارسها (١) . وقد جرى افتتاح هذه الجامعة رسمياً في ٢١ كانون الاول ١٩٠٨ . وتعد مكتبة الجامعة المصرية من اعظم مكتبات القاهرة واغناها ويبلغ عدد كتبها الاجمالي ليومنا هذا ٢٧٥،٤٥٠ منها ٧١،٣٥٤ كتاباً عربياً مطبوعاً و ٢٠٤،٠٩٦ من الكتب الاجنبية على اختلاف لغاتها .

٤ ـ مكتبة دار الآثار العربية

أنشئت دار الآثار العربية عام ١٨٨١ بامر الخديو توفيق الاول . ولما نجز بنيان دار الكتب المصرية بباب الخلق سنة ١٩٠٤ خُصصت الطبقة السفلى منه بدار الآثار العربية التي تُعتبر في طليعة جميع المتاحف الاسلامية في الخافقين.

ولهذا المعهد الاثري خزانة حافلة بالمؤلفات التي يدور بحثها على التاريخ والفنون الجميلة الاسلامية والتنقيب عن الآثار القديمة وغير ذلك . وفي هذه المكتبة الوف اللوحات منقولة عن الآثار بالتصوير الشمسي ولوحات غيرها لمشاهير قدماء الرسامين . وفيها ايضاً جميع المنشورات التي تُصدرها «لجنة حفظ الآثار العربية» سنة بعد سنة .

٥ ـ مكتبة البرلمان المصري

انشئت هذه المكتبة على اثر اعلان الدستور وفتح مجلسي الشيوخ والنواب المصريين. وافرز لها في ندوة البرلمان مكان فسيح جهز بكل ما تتطلبه امثال هذا المشروع من الرياش على احدث طراز . وخصصت الحكومة مالا كافياً لشراء الكتب التي يرجع اليها اعضاء البرلمان في ابحاثهم ولا سيما كتب التشريع والحقوق

---

(١) الهلال : مجلد ٣٦ سنة ١٩٢٨ صفحة ٥٧٠

والفقه والموسوعات والمعاجم في اللغة العربية واللغات الفرنجية . وعينت لادارتها موظفاً من الرجال الفنيين في دار الكتب المصرية ومعه ثلاثة من المساعدين يؤازرونه في تنظيم المكتبة وخدمتها والمحافظة عليها . وقد شرع هذا المدير في وضع فهرس علمي للمكتبة سينشر بالطبع بعد انجازه

٦ ـ الخزانة التيمورية

اذا ذكرنا رجالات العلم المقرون بالعمل في وادي النيل وجب ان نثبت في طليعتهم اسم العلاّمة الهمام احمد تيمور باشا (١٢٨٨ ـ ١٣٤٨ هـ) مؤسس الخزانة التيمورية بالقاهرة . فان هذا السري الغني نزع الى خدمة العلم لاغراض سامية لا لمغنمٍ يغنمه او لجاه يفوز به . ولفرط ميله الى معاشرة ائمة الثقافة جعل منزله الرحب مجلساً للادب يؤمه جهابذة اللغة وروّاد الحكمة .

عرفنا احمد تيمور باشا معرفة شخصية وجمعتنا به مراراً رابطة الادب. فاكبرنا همتَه الشمّاء في طلب العلم والتاريخ ولاسيما في جمع تلك الخزانة الحافلة بالمخطوطات الفاخرة والمطبوعات النادرة التي وقفها على الامة المصرية . وعملاً بوصيته الاخيرة فقد تسلمتها دار الكتب المصرية بعد وفاته لتكون منهلا للطالبين والباحثين . وبلغ عدد مجلدات الخزانة التيمورية طبقاً للاحصاء الرسمي الذي وضعته دار الكتب المصرية ١٩٥٢٧ مجلداً.

ويُقدر عدد المخطوطات او المصوّرات بالتصوير الشمسي من مجلدات الخزانة التيمورية بنحو النصف . وقد اغناها مؤسسها خصوصاً بصور شمسية نقلها عن نفائس الكتب المخطوطة في مكتبات دمشق والاستانة واوروبا. وزيّنها بمجموعة فريدة من جاود الكتب القديمة في عصورها المختلفة (١) يضاف الى ذلك ما حوته من الصور التاريخية والآلات الفلكية ومحابر واقلام كانت لبعض المشاهير. وفيها

---

(١) نبذة عن دار الكتب المصرية لسنة ١٩٣٩ صفحة ١٨

عشرات من الكتب كُتبت بخط مؤلفيها او قرأ فيها اعلام من رجال السلف او قُرئت عليهم وعلقوا عليها واجازوها (١) وللعلامة محمد كردعلي وصف دقيق للخزانة التيمورية نقتطف منه ما يلي : (٢)

« ولقد كنا نلاحظ ان صديقنا من غلاة الكتب كما هو من الغلاة في طلب اللغة والتاريخ والادب. ولكن ما كان يدور بخلدنا ان يجمع مع الزمن خزانة كتب قل لشرقي ان جمع مثلها في هذا العصر الا ما يقال عن خزانة كتب رضا باشا في الاستانة . ولكن المزيّة التي في الخزانة التيمورية ان صاحبها عارف معرفة كافية بكل ما حوته من اسفار العلم. وقد اقتناها بمعرفته وفضل نعمته من مالٍ حلالٍ مال الزراعة المبارك...

« وقلما رأينا عملاً خاصاً او عاماً منسقاً تنسيق المكتبة التيمورية . فالمكتبة بالفهرس البديع الذي دوّنه لها جامعها فجعل كل علم مع علمه وقرن كل شكل الى مثله ليسهل احضار اي كتاب منها في دقيقة... ومن خُلق صاحبها انه لا يضن باندر كتبه على المشتغلين والمستنسخين على خلاف سنّة بعض غلاة الكتب في مصر والشام ممن لا يسمحون بالنظر الى كتبهم ولا باستنساخها والاخذ منها . ولو كانوا ينظرون فيها آونة الفراغ لهان الخطب فيهم . ولكنهم منعوها عن الناس فامست مظلومة في قماطرهم . ويا بئس ما يعملون ! »

ومن مميزات الخزانة التيمورية تدقيق منشئها في انتقاء مخطوطاتها . فان القارىء يلاحظ في اغلبها تواقيع مئات من اكابر العلماء الذين عاشوا بين القرن السادس والقرن العاشر للهجرة. وخلف احمد تيمور باشا آثاراً علمية عديدة منها مقالات خليقة بالاعتبار نشرها على صفحات عدة جرائد ومجلات كالمويد والضياء والمقتطف والمقطم والاهرام والهلال والهندسة والزهراء والهداية الاسلامية في مصر (٣) ومجلة المجمع العلمي العربي بدمشق وغيرها.

---

(١) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق : مجلد ١١ سنة ١٩٣١ ص ١٣٢-١٣٣

(٢) مجلة المقتبس: مجلد ٧ سنة ١٩١٢ ص ٤٣٨-٤٣٩

(٣) تراجم اعيان القرن الثالث عشر واوائل الرابع عشر: لاحمد تيمور باشا: صفحة ١٦٠-١٦١

٧ ـ الخزانة الزكية

صاحب هذه الخزانة هو قطب من اقطاب مصر في القرن العشرين (١) . قرن العلم بالعمل وكتب ما لم يكتبه عالِمٌ غيره من المواضيع المبتكرة عن العرب قديماً وحديثاً . وكان يجيد اللغة الفرنسية اجادته اللغة العربية فضلاً عن إلمامه باللغات الايطالية والانكليزية والاسبانية والتركية . وتقلّب في مناصب شتى حتى اصبح سكرتير مجلس الوزراء في عهد الخديو عباس الثاني. ونظراً لثقافته العالية عين عضواً في مجامع علمية شتى شرقاً وغربا . وانتدبته الحكومة المصرية مراراً ليمثلها في مؤتمرات المستشرقين التي عقدت في اوروبا وفي مؤتمر الآثار الدولي سنة ١٩٢٦ ببيروت (٢) .

وضع احمد زكي باشا (١٢٨٣ – ١٣٥٣ هـ) نواة مكتبته منذ كان تلميذاً في مدرسة الحقوق الخديوية سنة ١٨٨٣ بالقاهرة . فتولّد فيه غرام الكتب حتى اوصل هذه الخزانة الى ثروة علمية لم تصل اليها حتى الآن خزانة خاصّة في بلاد الشرق . وفيها اكبر مجموعة لما كتبه عن اللغة العربية علماء الشرق وكتّاب الافرنج . واجتمع فيها ايضاً معظم الكتب العربية التي طبعها المستشرقون في اوروبا منذ القرن الخامس عشر الى يوم الناس هذا .

وتمتاز الخزانة الزكية بانها تشتمل على كل كتاب عربي نفيس بما تقلب عليه من الادوار المختلفة . فتجد من ذلك الكتاب ما هو مخطوط باليد وما هو مطبوع ببولاق وفي سائر مطابع الشرق والغرب . وتجد فيها ايضاً للكتاب نفسه ترجمته الى اللغة الفرنسية او الانكليزية او الاسبانية او اللاتينية او الايطالية او الالمانية . وتجد فيها علاوة على ذلك كله جميع المباحث التي دوّنها جهابذة العلماء عن هذا الكتاب او عن مؤلفه بحيث يتيسر للباحث ان يستوفي موضوعه من جميع اطرافه .

---

(١) طالع ترجمة احمد زكي باشا واخبار الخزانة التركية في مجلة المقتبس الدمشقية : مجلد ٧ صفحة ٥٩٣ فما بعد (٢) كان كاتب هذه السطور امين سر مؤتمر الآثار الدولي المشار اليه

وقد وقف احمد زكي باشا هذه الخزانة على الأمة المصرية فلا يعبث بها وارث ولا شبه وارث . وبلغ عدد مجلداتها ١٨٦٢٢ مجلداً بين مخطوط ومطبوع . وهي الآن في حوزة دار الكتب المصرية ينتفع بها خاصّةُ القوم وعامّتهم .

وقد لخص احمد زكي باشا مجمل حياته في ثلاثة ابيات من الشعر نظمها وجعلها زخرف داره وصورة شعارهِ ومرجع اخباره وموضوع افتخارة نثبتها بنصها الشائق وهي :

وقفت على احياءِ قومي يراعتي ... وقلبي وهل الاّ اليراعةُ والقلبُ
ولي كلّ يوم موقفٌ ومقالة ... انادي ليوث العُرب ويحكموا هبوا
فاما حياة تبعث الشرق ناهضاً ... وإما فناءٌ وهو ما يرقبُ الغربُ

٨ ـ سائر المكتبات الاسلامية الحديثة في القاهرة

في القاهرة ايضاً مكاتب اخرى غير التي ذكرنا سبّلها اربابها لفائدة الناس . فالحقناها بخزائن الكتب العامة ولئن كانت دائرتها ضيقة بسبب مجلداتها القليلة العدد . واشهر تلك المكاتب هي : المكتبة الوفائية وهي تابعة للسجادة الوفائية ولها فهرس مطبوع سنة ١٢٦٨ للهجرة . ثم المكتبة البكرية التي أسسها السادة البكرية ومقرها في سراي الخرنفش . ومكتبة الدردير نسبة الى الشيخ الدردير العدوي المالكي المتوفى سنة ١٢٠١ للهجرة . ومركزها في المسجد الذي دفن فيه الدردير بالكحكيين بالدرب الاحمر

الفصل الرابع والعشرون

خزائن كتب الاسكندرية

١ ـ مكتبة البطالسة

المعنا في فصل آخر من هـذا الكتاب الى المكتبة الضخمة التي اشتهرت بالاسكندرية على عهد البطالسة ، ونوهنا بخبر احتراقها الذي لا يزال سراً مكنوناً من اسرار التاريخ . فنسبه بعض المؤرخين الى عمرو بن العاص وذهب فريق خلاف هذا المذهب . ودعم كل من الفريقين مذهبه بحجج وبينات لدحض من خالفه في مذهبه . فازاء تلك الآراء المتباينة رأينا من الحكمة ان نتربص ريثما يحسر اللثام عن غوامض قضية طالما اشتد النزاع حولها .

٢ ـ المكتبات الاسلامية القديمة

لا ريب ان مدينة الاسكندرية كانت في سالف الاوان عامرة بمكتبات اسلامية حذا فيها امراء العرب حذو من تقدمهم من الولاة في تلك الحاضرة . فذاع امرها في الاقطار وقصد اليها جمهور من الائمة والكتبة والادباء للدرس والمطالعة . وقد ذكر السلفي مكتبة بجامع الاسكندرية تولاها عبدالله الطائي في القرن السادس للهجرة قال : وكان الطائي مشرف البيمارستان بالثغر ومتولي الكتب المحبسة في الجامع وله فيه حلقة لاقراء الادب ذكره المقريزي في المقفى(١)

واكتظت المعاهد العلمية في الاسكندرية بخزائن المخطوطات في شتى العلوم والفنون . ومن اشهر تلك المعاهد : دار الحديث ومدرسة الحافظ السلفي وكان

---

(١) بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي : صفحة ٣٣

ينزل بها العلماء والوافدون من المغرب، ومدرسة الامام الطرطوشي مؤلف كتاب « سراج الملوك » وغيرها (١)

٣ ـ دار كتب الحكيم ارسطاليس

حدّث ابو عبد الله الشامي ان الامير الافضل (٤٨٧ – ٥١٥ هـ) تغير على امية ابي الصلت وحبسه بالاسكندرية في دار كتب الحكيم ارسطاليس قال : وكنت اختلف اليه اذ ذاك فدخلت اليه يوماً فصادفته مطرقاً فلم يرفع رأسه اليّ على العادة. فسألته فلم يرد الجواب . ثم قال بعد ساعة : اكتبْ وانشدَني :

قد كان لي سبب قد كنت احسب انْ ... احظى به فاذا دائي من السببِ
فما مقلمُ اظفاري سوى قلمي ... ولا كتائب اعدائي سوى كتبي

فكتبت وسألتهُ عن ذلك فقال : ان فلانا تلميذي قد طعن فيّ عند الامير الافضل. ثم رفع امية ابو الصلت رأسه الى السماء واغرورقت عيناه دمعاً ودعا عليه. فلم يحل الحول حتى استُجيب له ومات سنة ٥٢٨ للهجرة في المهديّة من بلاد القيروان (٢)

٤ ـ المكتبة البلديه

بلغت مدينة الاسكندرية وهي ثانية عواصم وادي النيل شأواً بعيداً من التقدم والازدهار في عهد الاسرة العلوية المالكة . واصبحت في طليعة مدن الشرق الادنى بثروة اهاليها ووفرة سكانها واتساع نطاق تجارتها في جميع انحاء العالم . وحوت فضلاً عن ذلك كلهِ كثيراً من المدارس الوطنية والاجنبية على اختلاف نزعاتها

---

(١) مجلة « الرسالة » في القاهرة : سنة ٣ صفحة ٢١٤
(٢) معجم الادباء لياقوت الرومي : جزء ٧ صفحة ٦٧ — ٦٨

ودرجاتها . لكنها على هذه المزايا ظلت حتى اواخر القرن التاسع عشر خالية من مكتبة عامّة يرجع اليها العلماء والطلاب في ابحاثهم ودروسهم .

رأى المجلس البلدي في ذلك نقصاً فعمد الى تلافيه خدمة للعلم وضناً بكرامة مدينة كمدينة الاسكندرية . فاستدرك الامر ودرس المشروع درساً دقيقاً وافياً . ثم قرر انشاء المكتبة سداً لحاجات الاهالي من الناحية العلمية . وأخذ على عاتقه النهوض بنفقاتها وسائر شؤونها . وسجل هذا القرار رسمياً في جلسة ترأسها يوسف شكور باشا رئيس المجلس المشار اليه بتاريخ ١٤ تموز ١٨٩٢

ثم ارتأى المجلس البلدي عينه تعميماً للفائدة ان يقسم ادارة المكتبة قسمين : قسما عربياً ولّى عليه الشيخ ابا علي الازهري وقسما افرنجياً اسند ادارته الى شاب سويسري الاصل اسمه فيكتور نوريس . وبلغ عدد مجلدات هذه المكتبة ٧٣،١٩٦ مجلداً طبقاً لاحصاء رسمي جرى في السنة ١٩٤٧ على هذه الصورة :

كتب عربية مطبوعة	كتب عربية مخطوطة	كتب افرنجية
٣٢،٥٩٨	٤٠٠٠	٣٦،٥٩٨

وفي السنة ١٩٤١ اقفلت المكتبة ابوابها للحاجة الى اصلاح بنايتها وتوسيع قاعاتها طبقاً لفن الهندسة العصري . وبعد انجازها ذلك استأنفت فتح ابوابها للجمهور في شهر تشرين الاول من تلك السنة .

ومما يُذكر لادارة المكتبة بالشكر والثناء انها جمعت ما عندها من مجلدات الكتب الخطية والنادرة في صناديق محكمة بقصد وقايتها من اخطار الغارات الجوية اثناء الحرب الهتلرية (١٩٣٩ - ١٩٤٥) . فاصبحت تلك المجلدات في مأمن من حوادث الغوائل والنوازل طول مدة هذه الحرب الطاحنة (١) .

---

(١) جريدة « الاهرام بالقاهرة : عدد ٢٠٥١٦ في ١٨ تشرين الاول ١٩٤١

الفصل الخامس والعشرون

خزائن كتب سائر المدن المصرية

١ ـ اهتمام الحكومة المصرية بمكتبات الاقاليم

بازدياد وسائل العلم في وادي النيل ازدادت الحركة الفكرية واقبل القوم على مطالعة الكتب واقتنائها في اهم مدن القطر المصري. واخذت مجالس البلديات على عاتقها تأسيس المكتبات في الاقاليم تعميماً للمعارف وتنويراً لاذهان الشعب المصري . وفي السنة ١٩٣٨ اصدر وزير الداخلية المصرية قراراً يتعلق بادارة تلك المكتبات يتجلى منه اهتمام الحكومة بامر الثقافة العامة في الانحاء المصرية . واليك نص هذا القرار :

« تحقيقاً لما رأته الحكومة من وجوب العناية بامر المكتبات العامة وتشجيع انشائها في الاقاليم وتوثيق الروابط بينها وبين دار الكتب المصرية للتعاون. ورغبة في وضع خطة تكفل وحدة النظام في الاعمال الفنية والادارية لهذه المكتبات .

« تقرر ان يكون لدار الكتب المصرية حق تفتيش هذه المكتبات وحق امدادها بالارشادات الفنية والادارية .

« لذلك نرجو من مكتبة الاسكندرية ومكتبات مجالس المديريات بذل كل معونة لحضرة صاحب العزة المدير العام لدار الكتب المصرية عند تفتيشه لهذه المكتبات او لمن ينتدبه من موظفي الدار لهذا الغرض». وزير الداخلية

٢ ـ احصاء عام لمكتبات الاقاليم المصرية

ندوّن فيمايلي جدولاً مختصراً نحصي فيه اسماء مكتبات الاقاليم المصرية التي بلغ

عددها في سلخ السنة ١٩٣٩ عشر مكتبات. ونضم الى ذلك تاريخ تأسيس كل من تلك المكتبات وعدد كتبها المخطوطة عربية وافرنجية :

عـــدد المجـــلدات

الاسم	المركز	تاريخ التاسيس	عربيـــة مطبوعـة	عربيـــة مخطوطـة	افرنجية	المجموع
المكتبة البلدية	طنطا	١٩١٣	٤٤١١	٢٠٠	١٨٦٠	٦٤٧١
دار الكتب الفاروقية	المنصورة	١٩١٨	١١٤١٧	٣٤٧	٣٩٤٨	١٥٧١٢
دار الكتب البلدية	الزقازيق	١٩٢٤	٦٦٩٢	٢٣٣	٣٦١٥	١٠٥٤٠
مكتبة الامير فاروق	شبين الكوم	١٩٢٧	٤٧٤٦	١٩٨	١٢١١	٦١٥٥
مكتبة المجلس البلدي	بني سويف	١٩٢٩	٣٢٢٦	٢١٥	٣٢٢٣	٦٦٦٤
مكتبة الملك فؤاد	دمنهور	١٩٣٠	١٠٥٩١	٢٥٥	٣٦٤٧	١٤٤٩٣
مكتبة الامير فاروق	سوهاج	١٩٣٢	٣٨٦٠	١٠٦٣		٤٩٢٣
دار الكتب البلدية	الفيوم	١٩٣٢	٣٧٥١	١٠	٢٢	٣٧٨٣
مكتبة الامير فاروق	المنيا	١٩٣٦	١٥١١	١	١٤٦	١٦٥٨
دار الكتب البلدية	المحلة الكبرى (١)		٥٠٢٠٥	٢ ، ٥٢٢	١٧،٦٧٢	٧٠،٣٩٩

(١) ضممنا اسم هذه المكتبة الى سائر مكتبات الاقاليم المصرية . الا انه لم يرد عنها الى الان احصاء لنثبته في هذا الجدول .

الفصل السادس والعشرون

خزائن كتب المغرب بشمال افريقيا

١ ـ اقسام بلاد المغرب الجغرافية في الزمان الحاضر

يُراد بالمغرب البلاد الواقعة في شمال افريقيا وينطق جميع سكانه بالضاد . وهو ينقسم من الوجهة السياسية الى ثلاث مناطق كبرى :

الاولى : المغرب الادنى او تونس يحكمه امير بالوراثة يقال له « الباي » من الاسرة الحسينية التي تتولّى العرش التونسي منذ ١٧٠٥ ميلادية (١١١٧) هجرية .

الثانية : المغرب الاوسط او الجزائر دخل في حوزة الحكومة الفرنسية في عهد لويس فيليب (١٨٠٧ — ١٨٤٨) ملك الفرنسيس . ذلك بعد حرب طاحنة أبلى فيها الامير الشهير عبد القادر الجزائري (١٨٠٧ — ١٨٨٣) بلاء حسناً في الدفاع عن وطنه وعرشه . وقضى اعوامه الاخيرة في دمشق وفيها توفي

الثالثة : المغرب الاقصى او مراكش تولّاه في سالف الزمان امراء يقال لهم امراءُ المسلمين . ثم رفعوا امارتهم الى مقام السلطنة وانتزعوا لانفسهم لقب «الخلافة» حينما تطرّق الضعف الى بنى العباس في بغداد . وما برح اهل مراكش حتى الآن لا يعترفون بالخلافة الا لسلاطينهم دون سواهم . ولما كانت السياسة الاوروبية الاستعمارية قد قسمت القطر المراكشي الى سلطنتين مختلفتين احداهما تحت حماية فرنسا والاخرى تحت حماية اسبانيا نتج ان الخلافة المغربية انقسمت ايضاً على نفسها . فاصبحت مدينة فاس قاعدة للخلافة الاولى في منطقة الحماية الفرنسية ومدينة تطوان عاصمة الخلافة الثانية في منطقة الحماية الاسبانية . وعلى هذا الشكل صار كل من سلطاني مراكش خليفة على شعبه مستقلاً عن الآخر .

٢ ـ ثقافة المغرب في العصور الغابرة

وقد احرز المغرب في العصور الغابرة نصيباً وافراً من الثقافة . لان طرفه الادنى اي « تونس » كان مرتبطاً بمصر ذات التاريخ الباهر في عهد الدولة الفاطمية التي يمتّ نسبها الى اصل مغربي . اما طرفه الاقصى اي « مراكش » فكان على اتصال مستمر بالاندلس وهي البلاد العربية المجاورة له بل الذائعة الصيت في الحضارة . يؤيد ذلك ما انشىء في « المغرب » من المكاتب العامة والخاصة فضلاً عمن برّز بين اهله من العلماء الاعلام الذين لا يُحصى لهم عدد .

٣ ـ مكتبة المهدي عبيد الله جد الفاطميين

من اقدم من نزع الى جمع الكتب وسعى للحصول على اكبر عدد منها في تلك البلاد كان المهدي عبيد الله (٢٥٩ – ٣٢٢ هـ) بن محمد الفاطمي العلوي مؤسس دولة العلويين في المغرب وجد العبيديين الفاطميين خلفاء مصر (٣٥٧ – ٥٦٧ للهجرة) . فقد حمل معه من سلمية (في سوريا) جميع الكتب والوثائق التي كانت لآبائه . ولكنها سُرقت وهو في طريقه الى سجلماسة في مكان يقال له «الطاحونة» بالقرب من طرابلس . ولما سار ابو القاسم بن المهدي ليغزو مصر للمرة الاولى سنة ٣٠٠ للهجرة استعاد الوثائق المذكورة (١)

٤ ـ انتشار المكتبات قديماً في المغرب

من ارجح الادلة على انتشار المكاتب قديماً في شمال افريقيا ما رواه المؤرخ العلامة الدكتور حسن ابرهيم حسن (٢) عن مكتبة القيروان . وهي مدينة في تونس اشتهرت بمدارسها ومكاتبها ومصانعها في عهد الحضارة الاسلامية قال :

---

(١) ابن الاثير : مجلد ٨ صفحة ١٤ (٢) الفاطميون في مصر : صفحة ١٣٣ و ١٣٤

« ولقد كان مذهب السنّة هو المذهب السائد في مصر قبل ان يتم فتحها على يد الفاطميين . ولهذا نشك فيما اذا كان في مكاتب الفسطاط والقطائع شيء من الكتب التي تتناول الكلام عن المذهب الشيعي اذ ليس هناك دليل واضح يشير الى انه كانت هناك مكاتب عامة . ولهذا نرجّح ان المعزّ بن المنصور قد حمل معه الى مصر عدداً عظيما من الكتب التي كانت في مكتبته الخاصة مع ما حمله من الاثقال عند رحيله من القيروان الى وادي النيل . وكانت سلطة المعزّ لما دوّخ بلاد مصر تشمل امارات افريقيا والغرب ومالطه وسردينيا وصقلية واغلب جزائر البحر المتوسط .

٥ ـ مكتبة عماد الدولة بن المحترق

بعد مقتل الوزير عماد الدولة ابي الفضل بن المحترق حاكم الاسكندرية نُقلت مكتبته الى المغرب وكانت من أغنى خزائن الكتب في عصره . وقد صارت اليه من بقايا كتب « دار العلم » ومن « مكتبة القصر » في القاهرة (١) في عهد الخليفة الفاطمي المستنصر (٤٢٧ – ٤٨٧ هـ) بن الظاهر

---

(١) الفاطميون في مصر : للدكتور حسن ابرهيم حسن صفحة ١٣٩

الفصل السابع والعشرون

خزائن كتب تونس

اولا : مكتبة الجامع الاعظم في القيروان

١ ـ فخامة مكتبة الجامع الاعظم

شرع العرب يبنون الجامع الاعظم بمدينة القيروان على اثر افتتاحهم اقطار افريقيا الشمالية. ويُعدّ هذا الجامع اكبر الجوامع في افريقيا كلها حتى جامع الازهر نفسه لانه يزيده اتساعاً. ولما استولى المعز بن باديس بن المنصور على بلاد تونس منذ السنة ٤٠٦ حتى السنة ٤٥٤ للهجرة أتم بناءه وزاد في زخرفته وتركه على الحالة التي يشاهد فيها الآن (١).

وكان في هذا الجامع الفخم مكتبة عامرة بالمخطوطات الثمينة انشأها الاغالبة سلاطين تونس ايام عزهم وضخامة ملكهم. فبلغت من الازدهار مبلغاً جارت به «بيت الحكمة» ببغداد قبل ان ناظرتها مكتبة قصر الحمراء في قرطبة عاصمة الاندلس.

٢ ـ نكبات مكتبة الجامع الاعظم

نُكبت مكتبة الجامع الاعظم بالقيروان كما نكب غيرها من المكتبات بتوالي الايام في سائر الاقطار العربية. لان الحروب الاهلية اجهزت عليها فجعلتها مسرحاً

---

(١) المقتطف : مجلد ٢١ سنة ١٨٩١ صفحة ٢٤٢

للنهب والتدمير بعدما كانت داراً للثقافة والعلم . ومن تلك النكبات فتنة ابي زيد النكاري عام ٣٣٣ للهجرة. ثم فتنة عرب هلال النازحين من الشرق باذن من الخليفة العبيدي الفاطمي بمصر تأديباً لنائبه الاغلبي الذي خلع الطاعة في القيروان . وآخر فتنة جرت هناك عام ١١١١ للهجرة اثارها مراد ابو باله من بايات المراديين الاتراك بتونس

٣ ـ خطبة محمد بيرم الخامس عن بقايا مكتبة الجامع الاعظم

لم يسلم من ذخائر مكتبة الجامع الاعظم الا ما لا يُحفل به اذا اعتبرنا ما كانت تملكه في ايام عزها من الثروة الكتابية التي لا يعادلها ثمن . وبرهاننا على ذلك خطبة تاريخية القاها العالم التونسي الشهير محمد بيرم الخامس (١٢٥٦ – ١٣٠٧ هـ) في الجمعية الجغرافية المصرية بتاريخ ٢٠ اذار ١٨٩٧ قال (١) :

«وفي هذه المقصورة ايضاً خزانتان كبيرتان مملوءتان برزم من الورق مربوطة بالحبال والامراس مختلطة بعضها ببعض اختلاط الحابل بالنابل يعلوها الغبار والتراب ونسج العنكبوت . وهي كل ما بقي من مكتبة القيروان التي اعتنى سلاطينها بجمعها . واذا نظر اليها الناظر لم يخطر بباله ما فيها من الكنوز الثمينة حتى انني لم اتحقق قط صدق المثل القائل « في الزوايا خبايا » كما تحققته هذه النوبة . فان هذه الرزم كلها رقوق من جلد الغزال مكتوبة بالقلم الكوفي بخط جميل ومموهة بالذهب ومزدانة بابدع النقوش والالوان . وهي قطع مصاحف قديمة وكتب حديث وفقه مكتوبة كلها في القرون الاولى من الهجرة وقد عبثت بها الايام. فجُمعت في هذه الرزم بلا ترتيب ولا نظام : الكبير مع الصغير والصغير مع الكبير . صفحة من هذا المصحف وصفحة من ذاك مع صفحات من كتب اخرى في مواضيع مختلفة وهلمّ جرّاً . رأيت هذه الرزم وفككتها وقلبتها وقد انصدع فؤادي لما حل بها . ثم فارقتها متحسراً عليها متأسفاً على بقائها في مكان تضيع فيه ويُجهل قدرُها .

---

(١) المقتطف : مجلد ٢١ سنة ١٨٩٧ صفحة ٢٤٣ ـ ٢٤٤

« وقد اتيح لي ان زرتُ كثيرا من المدن بل اكثر العواصم الاسلامية ولم اشاهد قط مجموعة « كوفية » مثل هذه حتى يمكنني ان احسبها نادرة في بابها ...

« ويظهر ان ما في المكتبة الخديوية من الكتب الكوفية قليل جداً بالنسبة الى ما في جامع القيروان. فان كان في المكتبة الخديوية عشرة مصاحف بالقلم الكوفي ففي تينك الخزانتين مئة. وان كان في المكتبة الخديوية نوعان او ثلاثة من المصاحف المختلفة الحجم ففي القيروان مئة نوع. وهي أجمل خطاً وابدع نقشاً وسيكون منها اعظم مكتبة بالقلم الكوفي. وقد همني أمر هذه الكتب بنوع خاص لان المرحوم والدي اهتم بلم شعثها وحفظها من الضياع لما تولى ادارة الاوقاف التونسية. ثم خرج من البلاد قبل ان يتم له ما اراده ».

٤ ـ تجديد مكتبة القيروان

على اثر التصريحات التي ادلى بها الخطيب محمد بيرم كما قلنا اتجهت انظار العلماء التونسيين الى مكتبة القيروان والى الحالة المحزنة التي وصلت اليها. فشرع ديوان الاوقاف بتونس يرمم مكان المكتبة ليصبح لائقاً بها وبمحتوياتها. ثم وضع كشفاً عن المخطوطات بعدما تولى جمعها وتنظيمها في خزائن جديدة لصيانتها من بوائق الحدثان. وقد عزز ديوان الاوقاف تلك الخزائن بخزائن اخرى ضمت الوفاً من الكتب المطبوعة ذات المواضيع المفيدة.

وفي السنة ١٩٤٠ عُنيت الحكومة التونسية باصلاح مكتبة القيروان فبلغت نفقات الاعمال الاصلاحية مليون فرنك ونيفاً. وبهذه الوسيلة شاءت مملكة الباي ان تُعيد الى كنوز المكتبة المشار اليها جانباً من مجدها القديم (١)

---

(١) مجلة « دمشق » في الفيحاء : مجلد ١ عدد ٤ شهر نيسان سنة ١٩٤٠ صفحة ٦٤

٥ ـ تنميق الفتيات مصاحف اهدينها يوم الزفاف الى ازواجهن وصيانة بعضها في مكتبة القيروان

من النوادر التي لا يصح السكوت عنها ان مكتبة القيروان اشتملت على مصاحف مزوقة بالالوان ومدبجة بالذهب خطتها انامل فتيات مسلمات . وكانت كل فتاة منهن تنافس زميلاتها في اجادة الخط والابداع في التصوير وتدوّن في ذلك المصحف الفقرة التالية : « هذا من صنع وقلم فلانة بنت فلان قدمته هدية لخطيبها فلان بمناسبة الاحتفال بزواجهما » (١)

ثانياً ـ مكتبة جامع الزيتونة في تونس

١ ـ عظمة جامع الزيتونة ومكتبته

لجامع الزيتونة منزلة عليا دينية وعلمية لا في تونس وحدها بل في سائر الاقطار الاسلامية . أسسه التابعي عبدالله بن الحبّاب سنة ١١٤ للهجرة . وهو اكبر معهد اسلامي في الدنيا بعد جامع الازهر . وقد تخرّج فيه كثير من فطاحل العلماء ونوابغ الفقهاء (٢). وقيل ان بند الاغلب عمّرهُ سنة ١٤٥ للهجرة (٣) والله اعلم !

واول من احدث خزانة الكتب في جامع الزيتونة ابو فارس عبد العزيز الحفصي سنة ٧٩٧ للهجرة وجعلها بالجامع المذكور بجنبة رصد الهلال . وعلى قياسه جرى حفيده السلطان ابو عمرو عثمان فقد اضاف في السنة ٨٣٩ الى خزانة جدّه خزانة اخرى اشتملت على اهم الكتب . وقد وضعها هذا الحفيد بالمقصورة الشرقية

---

(١) المكاتب العربية في المملكة التونسية: بقلم السيد البشير الفورتي: صفحة ١١ (٢) عبدالمجيد كامل : في بلاد الناس : قسم ١ جزء ٣ صفحة ٢٤ (٣) مقال للدكتور عبد الوهاب عزام (مجلة الرسالة : سنة ٣ صفحة ٢١٤)

في الجامع وتُعرف بمقصورة سيدي محرز بن خلف(١). وقد عين لها قوّاماً يديرون شؤونها ووقف عليها وقفاً كافياً مؤبداً (٢).

٢ ـ غارة الاسبان على جامع الزيتونة وعلى مكتبته

لما دخل الاسبان تونس عام ٩٧٨ للهجرة لاجل نجدة اميرها ابي عبدالله محمد الحفصي ضد علي باشا التركي اغاروا عليها بخيلهم ورجلهم . واحتل عساكرهم جامع الزيتونة فاجهزوا على خزائن كتبه (٣) ولم يسلم منها الا بضع نسخ من صحيح الامام البخاري. وكانت تلك الخزائن حافلة بالوف المجلدات حتى بلغت على عهد بني حفص ثلاثين الف مجلد (٤) .

٣ ـ تقهقر مكتبات تونس وتجديدها بهمة احمد باي الاول

من دواعي انحطاط المكتبات في تونس بعد الفاجعة المذكورة تعاقبُ الاوبئة ولا سيما وباء السنة ١١٠٠ للهجرة . قال الوزير السراج : ان العلم انقطع من تونس على اثر هذا الفناء المتعاقب . وكان ذلك من جملة الكوارث التي اجهزت على ما ابقته ايدي الفتن والسرقات. لان الكتب لا تعيش طويلاً الا بين اهل العلم . واستمرت الحال على هذا المنوال حتى اواسط القرن الثالث عشر للهجرة. فنهض الامير احمد باي الاول وجدّد سنة ١٢٥٦ خزائن جامع الزيتونة ونفحها بمخطوطات نافعة . فانطلقت ألسن العلماء والشعراء بالثناء عليه ونوّهَ الخطباء بمحامده فوق المنابر (٥) .
وكوّن احمد باي تلك الخزائن بما ضمه اليها من كتب مسجد بيت الباشا في

---

(١) المجلة الزيتونية : مجلد ١ سنة ١٩٣٦ صفحة ٧٣ (٢) المؤنس في اخبار افريقيا وتونس : تأليف محمد بن ابي القاسم الرعيني القيرواني : صفحة ١٣٤ ـ ١٣٧ (٣) دائرة المعارف للبستاني : مجلد ٦ صفحة ٢٧٨ (٤) الروزنامة التونسية للسيد محمد بن الخوجا : سنة ١٣٢٦ هجرية صفحة ٣٣ (٥) المجلة الزيتونية في تونس : مجلد ١ جزء ٢ سنة ١٩٣٦ صفحة ٧٣ — ٧٥

قصر باردو . واضاف اليها كتب الوزير حسين خوجه باش مملوك وقد اشتراها من دائنيه بمبلغ ٩١٧ و ٢٨ ريالا . ثم عززها بخزانة كتب الشيخ ابرهيم الرياحي بعد وفاته سنة ١٢٦٦ للهجرة. وهذه الكتب الرياحية هي انفس قسم اشتملت عليه مكتبة جامع الزيتونة . لانها جمعت بين النفائس المشرقية والنوادر المغربية مما اختاره الشيخ الرياحي بنفسهِ في رحلتيهِ الى فاس عام ١٢١٨ والى الاستانة عام ١٢٥٤ للهجرة .

٤ ـ تحابيس العظماء والعلماء على مكتبة جامع الزيتونة

لما ترك مصطفى خزندار منصب الوزارة الكبرى في السنة ١٢٩٠ للهجرة كان مديوناً للدولة التونسية بمبلغ من المال. وفي جملة ما ادّاه للدولة بدلا من دينه خزانة كتبه النفيسة المشتملة على اسفار غريبة ذات ابداع في نسخها وتزويقها وتذهيبها.

وتوالت تحابيس الملوك والوزراء والعلماء على مكتبة جامع الزيتونة حتى بلغت ما بلغته الآن من الثروة العلمية. ومن اشهر المتبرعين عليها نذكر : علي باي الثالث وابنه محمد الهادي باي. ومحمد الحبيب باي والوزير محمد خزندار المتوفى سنة ١٣٠٦ للهجرة. والوزير مصطفى بن اسمعيل والقائد ابرهيم بن عباس الرزقي والشيخ المختار بن عمر شهر قبادو وغيرهم (١)

٥ ـ اختلال شؤون المكتبة الزيتونية في الاعوام الاخيرة

بعد وفاة احمد باي الاول اهمل شأن المكتبة وتبعثر جانب كبير من كتبها التي تحوي من نوادر المخطوطات ما لا اثر له الا فيها (٢) . وفي الزمان الحاضر لم يبق في مكتبة جامع الزيتونة الا ٦٩٧٥ مجلداً. وهي محفوظة في خزائن خشبية

---

(١) المجلة الزيتونية : مجلد ١ جزء ٣ صفحة ٣٨ — ٣٩

(٢) راجع كتاب « التعريف بخزينة جامع الزيتونة »

حول محراب الجامع وعلى جداريه الايمن والايسر. ويتفقدها قوّامها في كل عام تفقداً سطحياً وينفضون عنها الغبار ثم يقفلونها الى السنة التابعة. وعلى هذا النمط يتكرر عملهم حولاً بعد حول بعد حول.

وليس لهذه الخزانة نظام خاص نظراً لخطورة محتوياتها . ولا تفتح ابوابها في اوقات محدودة كسائر المكتبات العامة. واذا شاء احد ان يستعير كتاباً وجب عليه ان يقدم طلبه بالكتابة ويتمم جميع الشروط المفروضة حتى نص صيغة الطلب. ولعل الطالب اضطر ان يزور احد قوّام المكتبة في منزله ويحضره اليها لاستعارة كتابٍ . وكثيراً ما يبقى الكتاب لدى المستعير الى آخر السنة فيعيده الى المكتبة اثناء التفقد السنوي ثم يسترجعه بطلب آخر. ويجري على هذه الخطة بعض المستعيرين فيحتكرون الكتب النفيسة اعواماً طويلة. وقد اقترحت الصحافة نقل تلك المكتبة الى مكان لائق بها تعميماً للفائدة فلم تفلح (١)

٦ ـ ذخيرة المكتبة الزيتونية

ومجمل القول ان اغلب المجلدات المخزونة في المكتبة الزيتونية مخطوط باليد. ومن ضمنها مخطوطات نادرة وغريبة يعز العثور على مثلها في سائر المكتبات (٢).

ثالثاً ـ المكتبة العبدلية والمكتبة الصادقية

١ ـ مركز المكتبة العبدلية

تُعد المكتبة العبدلية من اقدم المكتبات العامة وانظمها في المملكة التونسية. اسسها ابو عبدالله محمد بن الحسن بن محمد المسعود في اوائل المائة العاشرة للهجرة

---

(١) مكتبات المملكة التونسية : للسيد البشير الفورتي : صفحة ١
المجلة الزيتونية مجلد ١ جزء ٣ صفحة ١٣٩

فنُسبت اليه. وجعلهـــا في الرواق الشرقي من جامع الزيتونة مشرفة على جهة سوق العطارين (١)

٢ ـ اقتصار دخول المكتبة العبدلية على المسلمين فقط

للاديب التونسي الكبير السيد البشير الفورتي نبذة تاريخية انشأها عن المكتبات العربية في المملكة التونسية اجابة الى طلبنا. وقد كتبها بخط يده وبعث بها الينا فاستحق شكر اهل الادب وثناءهم. ومما اثبته عن المكتبة العبدلية قوله :

«تحتوي الخزانة العبدلية على كتب خطية ذات اهمية كبرى عددها نحو ٤٧٣٠ مجلداً يقصدها العلماء والادباء كل يوم . ولا عيب فيها الا ان بابها يفتح لداخل جامع الزيتونة فلا يقـــدر ان يذهب الا مسلم متطهر . وهناك كثير من المستعربين والمستشرقين لا يعرفونها الا بالوصف . ولو كانت في غير مكانهـــا لافادت العلم واستفاد منها العلماء على السواء (٢).»

٣ ـ احتذاء محمد الصادق باخديو اسمعيل في جمع مخطوطات المساجد وانشاؤه المكتبة الصادقية

عُرفت المكتبة العبدليـــة في الاصطلاح الرسمي بالمكتبة الصادقية نسبة الى محييها بعد اندراسها اعني الباي محمد الصادق عاهل تونس (١٨٦٠ - ١٨٨٢). وكان شديد الاعجاب بخديو مصر اسمعيل باشا الذي انشأ المكتبة الخديوية مما جمعه من المخطوطات المبعثرة في المساجد والمدارس المصرية . فاحب الباي ان يحتذي مثال الخديو فاصدر الاوامر بجمع ما تيسر له من المخطوطات المحبسة من سالف

---

(١) المجلة الزيتونية : مجلد ١ سنة ١٩٣٦ صفحة ٧٣

(٢) البشير الفورتي : المكاتب العربية في المملكة التونسية : صفحة ٢

الزمان على المساجد والمدارس والاضرحة في عاصمة المملكة التونسية وفي سائر انحائها . وكان لوزيره الاكبر خيرالدين باشا اليد الطولى في تحقيق هذه الامنية مثلما كان علي باشا مبارك اعظم مساعد لاسمعيل باشا في تأسيس المكتبة الخديوية عام ١٨٧٠

٤ - تبرع الكبراء والادباء على المكتبة الصادقية

برزت المكتبة الصادقية للوجود عام ١٨٧٥ واخذت الهدايا تتوالى عليها من كل جانب . نذكر منها الف مجلد تبرع بها الوزير خيرالدين باشا من خزانة كتبه الخاصة. ومنها كتب آل بيرم وعليها الشيء الكثير من التعاليق والحواشي بخطوطهم. ومنها خزانة كتب محمد داود احد عظماء الدولة التونسية في عهد المشير احمد باي. ثم خزانة كتب الشيخ الشاذلي بن ضيف وخزانة كتب الحاج صالح بن عمار الحداد المزابي. وقس على ذلك كتباً اخرى نفيسة وقفها احمد باي الثاني ملك تونس الحالي وغيرهم (١) .

وقد عهد الباي محمد الصادق الى العلامة التونسي الشيخ محمد بيرم الخامس امر تنظيم المكتبة الصادقية. فقام الشيخ بهذه المهمة خير قيام ونجحت المكتبة بادارته نجاحاً تاماً (٢) .

رابعاً : سائر المكتبات العامة في تونس

١ - المكتبة الخلدونية

تأسست عام ١٩٠١ بسعي قدماء تلامذة المدرسة الخلدونية . فاهدى اليها

---

(١) المجلة الزيتونية : مجلد ١ جزء ٣ صفحة ١٣٨ (٢) كتاب صفوة الاعتبار بمستودع الامصار والاقطار للشيخ محمد بيرم الخامس : ذيل الجزء الخامس - صفحة ي

الكبراء والعلماء كتباً كثيرة ولا سيما سيدي بوحاجب الوزير الاكبر في تونس . ولما حدثت الحرب العظمى (١٩١٤ – ١٩١٨) توقفت اعمال هذه المكتبة واستغرقت في سبات عميق حتى السنة ١٩٢٧ فاستيقظت واستأنفت سيرها (١) . وقد ارصد لها مجلس ادارتها مبلغاً سنوياً من المال لشراء الكتب العصرية والمجلات العلمية تعميما لفوائدها بين طبقات الامة . ولا تخلو الخزانة الخلدونية من بعض مخطوطات عربية لها شأنها لدى العلماء وارباب البحث (٢) وقد اهدينا الى هذه المكتبة طائفة من الكتب العربية التي نشرتها مطابع بيروت ولبنان.

٢ ـ المكتبة العمومية

هي مكتبة عصرية انشأتها حكومة تونس بايعاز الدولة الفرنسية الحامية وجعلت مركزها في بناء قديم بسوق العطارين . وكان هذا البناء في غابر الزمان ثكنة للاجناد ثم تحول بعد ذلك الى سجن عمومي . وانفقت الحكومة على هذه المكتبة الوف الالوف من الفرنكات وعينت لها اميناً من كبار علماء الفرنسيس يقوم بادارتها وتنظيمها . وهي تشتمل على قسم عربي غني بالكتب الوافرة العدد والجديرة بالاعتبار .

وفي هذه الاعوام الاخيرة اقفلت ابواب المكتبة وحظر على الجمهور الدخول اليها او الانتفاع منها ريثما يتم تنظيمها . فالكتب هناك مكدسة بعضها على بعض في الدهاليز لا تُقرأ ولا تعار بل يخشى عليها بتوالي الايام ان تأكلها السوسة او تعيث فيها الحشرات. تلك بلا ريب جناية على العلم لا يُتسمح بها.

٣ ـ مكتبة جمعية قدماء المدرسة الصادقية

انشئت هذه المكتبة في اوائل القرن التاسع عشر بهمة قدماء طلبة المدرسة

---

(١) نشرة الجمعية الخلدونية : سنة ١٩٣٠ صفحة ١٤٨ (٢) مكاتب المملكة التونسية: صفحة ٣

الصادقية . وقد كوّنها اهل الفضل بما نفحوها من الاسفار العديدة والمخطوطات الثمينة . ومما لا يجوز التغاضي عن ذكره في هذا المقام كتب نفيسة انتقاها السيد مصطفى بيرم من خزانة والده الشيخ محمد بيرم الخامس وبعث بها من القاهرة الى تلك المكتبة . فانها انطوت على عيون المخطوطات وغرائبها منها تفسير ابن عادل وهو من الكتب النادرة . واشترط السيد مصطفى انه اذا انحلت جمعية قدماء المدرسة الصادقية وجب ان ترجع تلك الكتب الى المكتبة العبدلية (١)

ولاتزال مكتبة جمعية قدماء المدرسة الصادقية في قيد الحياة على رغم ما اصابها من اهمال قوّامها وتفريطهم . وكادت تتلاشى في زمان الحرب العظمى (١٩١٤ – ١٩١٨) لو لم تتدار كها الجمعية الخلدونية وتحافظ عليها محافظتها على مكتبتها الخاصة. ولما وضعت الحرب اوزارها رجعت الى جمعية قدماء المدرسة الصادقية حياتها فاسترجعت كتبها واستأنفت اعمالها كأمس وما قبل (٢)

---

(١) المجلة الزيتونية : مجلد ١ جزء ٣ صفحة ١٣٩ (٢) المكاتب العربية في المملكة التونسية : صفحة ١٠

الفصل الثامن والعشرون

خزائن كتب الجزائر او المغرب الاوسط

اولا : مكتبات المدارس

ليس في القطر الجزائري مكتبات اسلامية عامة كسائر حواضر الاسلام التي ما برحت محتفظة بخزائن كتبها منذ سالف العصور . وحسبنا ان نخص بالذكر منها : مكتبة الازهر في القاهرة، ومكتبة القيروان ومكتبة جامع الزيتونة في تونس. ومكتبة القرويين في فاس. ومكتبة الامام علي في النجف وغيرها.

وكل ما هنالك مكتبات شبه عامة انشئت في بعض المدارس بالجزائر لتخريج القضاة وارباب الفتوى واساتذة الفقه طبقا للمذهب المالكي السائد في تلك الاقطار. وهي مكتبات ضئيلة تكاد لا تفي بحاجة من يعنيهم امرها من الطلاب والمشايخ وغيرهم ممن يؤمونها لا لتحصيل العلوم الشرعية فقط بل العلوم العصرية ايضاً. واهم تلك المدارس ثلاث انشئت عام ١٨٥٠ على اصول الانظمة الحديثة وهي : مدرسة الجزائر (العاصمة) ومدرسة قسنطينة ومدرسة تلمسان. وقد تثقف فيها رهط كبير من اعلام المسلمين ومشاهير الفرنسيس المستعربين يطول بنا سرد اسمائهم (١)

لا ريب في ان مكتبات المدارس المذكورة لم تكن وافية بالمرام كالمكتبات الفنية التي انشأها ملوك المسلمين في العصور الوسطى. غير انها تنطوي على اكثر ما يفتقر اليه الباحثون من كتب في شتى المواضيع العربية الاسلامية ولا سيما ما كان منها متعلقاً بشؤون شمال افريقيا . وفي مكتبة مدرسة قسنطينة خزانة مخطوطات جُمعت قديماً من مساجدها ووضعت فيها حرصاً عليها من الضياع. وبينها

---

(١) راجع اسماء بعض اولئك العلماء في كتاب La Lecture Publique صفحة ٤٦٤

طائفة من الكتب نادرة ونفيسة قد انشأ لها الاستاذ ميزا (M. Maiza) فهرساً لم يزل غير مطبوع. اما مكتبتا مدرسة الجزائر (العاصمة) ومدرسة تلمسان فالاولى تضم بضع ثلاثين مخطوطاً وتنطوي الثانية على مائة وعشرة مخطوطات.

ثانياً : المكتبة العربية في بون

اشتملت مدينة بون في سالف الزمان على خزانة كتب معتبرة حافلة بالوف المخطوطات انشأتها اسرة لنغيش الشهيرة التي ما برحت سلالتها معروفة حتى اليوم. والى هذه المدينة ينتسب العلامة البوني احد هواة الكتب الذي خلف مكتبة عظيمة بعثرتها يد الحدثان. وقد وردت ترجمته في كتاب « تعريف الخلف برجال السلف » تأليف الشيخ الحفناوي المفتي المالكي في الجزائر.

وفي مدينة بون لعهدنا هذا مكتبة اسلامية عامة تابعة لجامعها الاعظم المشهور بجامع الباي. وقد خصصتها الحكومة باعتماد مالي تؤديه سنويا لمشترى الكتب الضرورية والمفيدة (١)

ثالثاً : المكتبة الاسلامية في بوجي

تأسست هذه المكتبة عام ١٩٠٣ فى عمارة جديدة قريبة من جامع سيدي صوفي. وكل ما احتوته من الكتب تتناول مواضيعها الشرع المحمدي والعلوم القرآنية واللغة والادب. وفيها كذلك شيء من كتب الفلسفة والتاريخ والجغرافية والتراجم. وقس عليها بعض موسوعات ومجموعات ومعاجم ومؤلفات اساسية لا تستغني عنها خزانة كتب عامة في هذا العصر. وهي برمتها قد اشترتها الدولة بمالها الا ما ندر منها مما اتصل بها من تحابيس قديمة حُبست على مكتبة جامع مدينة بوجي. ولا تنحصر فائدة هذا المعهد العلمي في المترددين اليه من سكان مدينة بوجي

---

(١) M. Dournon : Bibliothèque Arabe de Bone, p. 478-481

بل تتعداهم الى رواد العلم من اهالي الاقاليم المجاورة ايضاً. وهكذا قد اصبحت فوائدها عمومية تشمل الاستاذ والتلميذ والقريب والبعيد (١)

رابعاً : المكتبة الباديسية في قسنطينة

كان الحاج عبد الحميد بن باديس إمام الدروس في الجامع الاخضر بمدينة قسنطينة . فخلف بعد وفاته سنة ١٣٥٩ هـ (١٩٤٠ م) خزانة كتب عامرة بآثار جليلة من مؤلفات وخطب ومقالات وبحوث وفتاوٍ وما الى ذلك . وقد عهد والده السيد محمد مصطفى الى الاستاذين عبد الحفيظ الجنان واحمد بوشمال في جمع تلك المخلفات العلمية وتنظيمها طبقاً للاصول الفنية . لانه اعتزم ان يجعلها مكتبة عامة ويدعوها « المكتبة الباديسية » احياء لذكر ابنه عبد الحميد . وتعميماً للمعارف بين جميع طبقات الامة تعهد القائمان على امر هذه المكتبة ان يطبعا من تلك المخطوطات ما فيه فائدة للخاص والعام (٢)

---

(١) M. Saadi-Chérif : Bibliothèque Arabe de Bougie (La Lecture Publique) p. 481 - 484

(٢) جريدة « الوفاق » في وهران بالجزائر : سنة ٣ عدد ٣٧ تاريخ ٣٠ تموز ١٩٤٠

الفصل التاسع والعشرون

خزائن كتب المغرب الاقصى في العصور الغابرة

اولاً : مكتبات المساجد والزوايا

كانت المكتبات العامة بمعناها العصري مجهولة في المغرب الاقصى قبل نشر الحماية الفرنسية . غير ان المساجد العظمى والزوايا الكبرى حفلت بخزائن كتب حبسها الخلفاء والعلمـــاء والموفقون من اهل البر وسجلوا التحبيس عليها . فكانت تلك الخزائن بمثابة مكتبات عامة يرتادها طلاب المعارف ويرتشفون من مناهلها الفياضة .

واعظم هذه الخزائن خزانة جامع القرويين في حاضرة فاس وسنأتي بعد هذا على وصفها مفصلاً . ومن اشهر الخزائن الحبسية التي لا يزال فيها بقيـة مخطوطات قديمة نورد ما يلي : خزانة جامع ابي يوسف في مراكش . وخزانة الزاوية العباسية وخزانة الجامع الاعظم وخزانة جامع النوّار في مكناس . وخزانة جامع الاندلس في فاس . وخزانة الجـامع الاعظم في تازه وهي تحوي نحو اربعة آلاف مجلد منها جانب يشتمل على نفائس المخطوطات . والخزانة الحبسية في رباط الفتح . وخزانة الزاوية الحمزاوية . وخزانة الزاوية الناصرية وغيرهما كثير في بلاد المغرب .

الا ان معظم تلك الخزائن تبعثر وتلاشى بتعاقب الازمان اذ حل من الرزايا ما حل بخزائن الكتب في سائر الاقطار العربية . وقد ألمعنا الى ذلك في باب عنوانه « رزايا الكتب والمكتبات » يجدر بالقارىء اللبيب ان يطالعه في محله .

وكان ملوك المغرب على اختلاف دولهم يمدّون تلك الخزائن الحبسية بتصانيف ثمينة قد يكون بعضها من خزائنهم الملكية الخاصة رغبة منهم في نشر الثقافة بين العموم . وما برحت الكتب التي حبسها الملوك المرينيون والسعديون والعلويون معروفة ومسجلة بتواقيعهم حتى الان . ويذكر التاريخ ان السلطان سيدي محمد بن

عبدالله العلوي (١١٧١ – ١٢٠٤ هـ) فرّق خزانة الكتب المخطوطة التي ورثها عن جده السلطان اسمعيل (١٠٨٢ – ١١٣٩ هـ) بمكناس على مساجد المغرب . وقد صنع ذلك لينتفع بها الطلاب والعلماء فلا تبقى مكدسة في الخزائن السلطانية. وكانت تشتمل تلك الخزانة على اثني عشر الف مجلد.

هذا ماكانت عليه بوجه الاجمال حالة المكاتب العامة قبل نشر الحماية الفرنسية في المغرب الاقصى. ولم تفكر الحكومة المغربية في تأسيس مكتبة عامة على النمط العصري الا بعد السنة ١٩١٩

ثانياً : مكتبات فاس

١ ـ مكتبة جامع القرويين

اول مكتبة أنشئت في مدينة فاس هي بلا ريب مكتبة جامع القرويين قد ابتُني عام ٢٤٥ للهجرة بمال السيدة ام البنين فاطمة بنت محمد الفهري. وهو يضاهي جامع القيروان في سعته. اما واجهته فمركبة على مائتي اسطوانة بين كل اسطوانتين خمس خطوات .

روى المستر نيفل باربر المستشرق الانكليزي ان اسم جامع القرويين يشتق من اسم مدينة القيروان. وحجته في ذلك ان المسلمين عندما عمروا مدينة فاس ادخلوا اليها العلوم والفنون التي نقلوها معهم من الشرق. ونهضوا بها هناك نهوضها الزاهر في القيروان والاندلس. ولا يزال نصف مدينة فاس معروفاً باسم « الحي الاندلسي» كما ان النصف الآخر يسميه الأهلون الى يومنا « حي المهاجرين » من القيروان (١)

ونرجّح ان مكتبة جامع القرويين لاتقل عنه قدامة فتكون والحالة هذه أقدم

---

(١) لمحة تاريخية عن مراكش وجغرافيتها بقلم نيفل باربر (مجلة المستمع العربي في لندن عدد ١ سنة ١ صفحة ١٠)

جميع المكتبات الاسلامية الحيّة. وما برحت منذ احد عشر قرناً ونيف مساهمة في خدمة الثقافة . ومن المعلوم انها لاول عهدها كانت صغيرة ثم اخذت تنمو وتزيد حقبة بعد حقبة بنسبة اتساع جامع القرويين وزيادة بنيانه وجهود السلاطين في انتاج رجال علماء من كليته. وقد بلغت المكتبة أوج عزها في القرن الثامن للهجرة كما ورد مفصـــلا في كتاب « القرطاس » لابن ابي زرع وكتاب « زهرة الآس » للجزنائي وكتاب « جذوة الاقتباس في من حلّ من العلماء بفاس » لابن القاضي المكناسي (١). وكتاب « جذوة الانفاس في من أقبر من العلمـاء بفاس » وهو للشريف الكتاني .

بلغ الجامع كماله فاتى دور المصالح والمنافع والمرافق الملحقة به من فسقيات وميضآت ومستودعات وخزانات ومقاصير ومدارس وما اليها . واهم ذلك خزانة الكتب التي أسسها فيه السلطان ابو عنان فارس المريني واودعها كما يقول الجزنائي: « من الكتب المحتوية على انواع علوم الابدان والاديان واللسان والاذهان وغير ذلك من العلوم على اختلافها وتنّوع ضروبها واجناسها . ووقفها ابتغاء الزلفى ورجاء ثواب الله الاوفى . وعين لها قيّماً لضبطها ومناولة ما فيها وتوصيلها لمن له رغبة . واجرى له على ذلك جراية مؤبدة تكرمة وعناية وذلك في جمادى الاول سنة ٧٥٠ للهجرة ».

وأسس ابو عنان المريني عينه خزانة مصاحف احتفل في بنائها وتشييدها بما لم يُسبق اليه . واعد فيها جملة كثيرة من المصاحف الحسنة الخطوط وكلف بها من يتولى امرها على احسن الشروط . ثم لم تزل الملوك والسوقة تقف الكتب على خزانة القرويين بعد ذلك حتى اجتمع بها من المجلدات العلمية والدينية ما لا يدخل تحت حصر ولا يستوفيه عد ولا حساب (٢)

---

(١) النبوغ المغربي في الادب العربي : لمؤلفه عبدالله جنون الحسيني : جزء ١ صفحة ١٨٦ - ١٨٧ (٢) مجلة « الرسالة » في القاهرة : سنة ٦ صفحة ١١١٠ - ١١١٢

وفي مكتبة جامع القرويين بمدينة فاس نسخة من المدونة في ثمانين مجلدا كتبها بخطه عبدالملك بن مسره اليحصبي شيخ ابن رشد (١) ويُقرأ في نهايتها هذا البيت :

بالله يا قارىء استغفر لمن كتبا فقد كفتك يداهُ النسخ والتعبا

٢ ـ مكتبة السلطان ابي يوسف يعقوب

ووجدت في فاس عاصمة المغرب الاقصى خزانة كتب انشأها السلطان ابو يوسف يعقوب (٥٥٤ – ٥٩٥ هـ) بن عبد الحق . فانه عندما عقد معاهدة الصلح مع الفونسو التاسع بن سنخو ملك قشتالة سنة ٥٩٤ للهجرة (١١٩٧ م) كان من جملة الشروط ان يرد الاسبان كتب العلم التي غنموها من المسلمين . فرد منها الملك الفونس التاسع (١١٥٧ – ١٢١٣ م) ثلاثة عشر حملا من المخطوطات (٢) فامر السلطان بتحبيسها على المدرسة التي بناها بمدينة فاس لكي يطالعها الطلبة ويستفيد منها الباحثون (٣)

٣ ـ مكتبة الاشراف السعديين

كان للاشراف السعديين في فاس مكتبة عامرة بالمخطوطات القديمة في شتى الفنون اتى على وصفها الاستاذ محمد عبدالله عنان قال (٤) :

ولقد كان المغرب الاقصى حتى عصر المقري اعظم مستودع لتراث الاندلس الادبي. وكانت مكاتب المغرب، ولا سيما مكتبة الاشراف السعديين عامرة الى ذلك العهد بكثير من الآثار الاندلسية النادرة . وكان لمولاي زيدان سلطان فاس

---

(١) مجلة « الرسالة » في القاهرة : سنة ٢ صفحة ٢١٣١ (٢) روى بعض المؤرخين انها كانت ثلاثة احمال فقط من المخطوطات والله اعلم (٣) الاستقصاء لاخبار دول المغرب الاقصى : للشيخ احمد بن خالد الناصري السلاوي: جزء ٢ صفحة ١٥٤ (٤) المقري مؤرخ الاندلس، حياته وتراثه بقلم محمد عبدالله عنان

لعهد المقري شغف خاص بجمع الكتب النادرة، وقد انتفع المقري بهذا التراث الحافل ، واغترف منه وقيد ما شاء . ولكن الظاهر ايضاً ان هذا التراث قد بدد معظمه بعدئذ بقليل. ذلك انه قد حدث في اواخر عهد مولاي زيدان حادث يخيل الينا انه ذو علاقة مباشرة بضياع الآثار الاندلسية. وذلك ان السفن الاسبانية اسرت مركباً مغربياً مشحوناً بآلاف من الكتب والتحف المملوكة لمولاي زيدان وحملت شحنتها الى اسبانيا. ويشير السلاوي في تاريخه الى ذلك الحادث نقلا عن الرواية الاسبانية فيقول : « وقال منويل ان قراصين الاسبنيول غنمت في بعض الايام مركباً للسلطان زيدان فيه آثار نفيسة من جملتها ثلاثة آلاف سفر من كتب الدين والادب والفلسفة وغير ذلك ». وتقول الرواية الاسبانية ان وقوع هذا الحادث كان في عهد فيليب الثالث ملك اسبانيا (١٥٩٨ – ١٦٢١ م). والظاهر انه وقع نحو سنة ١٠٣٠ هـ (١٦٢٠ م) حينما اشتد اضطراب العلائق بين اسبانيا والمملكة الشريفية. وعلى اي حال فقد حملت كتب مولاي زيدان وهي بلا ريب انفس مجموعة من نوعها الى اسبانيا وأودعت في دير الاسكوريال الى جانب بقية التراث الاندلسي التي كانت مودعة فيه منذ سقوط غرناطة . فاجتمع بذلك في الاسكوريال نحو عشرة آلاف مخطوط عربي معظمها من تراث الاندلس. ولكن محنة نزلت بهذا التراث النفيس. فقد شبت النار في الاسكوريال سنة ١٦٧١ والتهمت معظم الكتب العربية . ولم يبق منها سوى الفين، وبقيت ضمن هذه المجموعات عدة من كتب مولاي زيدان لا تزال الى يومنا في الاسكوريال.

٤ ـ مكتبة الجامع الاعظم الجديد

وكان السلطان ابوالعز الرشيد (١٠٧٥ – ١٠٨٢ هـ) من انجب سلاطين المغرب واعطفهم على العلم والعلماء . فانه اسس في فاس خزانة كتب في الناحية الجنوبية من الجامع الاعظم الجديد وحبس عليها مخطوطات نفيسة . يؤيد ذلك ما نقش باحرف بارزة في اعلى المحامل التي رصفت عليها تلك المخطوطات وهذا نصه :

« الحمد لله حق الحمد . هذه خزانة امر بصنعها وانشائها الامام الاوحد الهمام امير

المؤمنين ، المتوكل على رب العالمين ، مولانا الرشيد بن مولانا الشريف بن مولانا علي الشريف الحسني ايد الله امره واعزه بعزه بتاريخ فاتح شهر الله الحرام عام تسعة وسبعين والف (١) »

وظل السلاطين خلفاؤه يعطفون على خزانة القرويين ويعززونها بالتصانيف القيمة حتى قام صاحب الجلالة السلطان الحالي مولاي محمد بن يوسف سنة ١٣٤٦ للهجرة . فجرى على سنن اسلافه في تحبيس الكتب المفيدة على المساجد ولا سيما على الخزانة القروية التي امر بتنظيمها على نمط عصري لصيانة ذخائرها الثمينة . وقد شيد لها ثلاثة بيوت زيادة على الخزانة الكبرى القديمة : خُصص احدها بالكتب المطبوعة وثانيها بالمخطوطات الصغيره الحجم وثالثها بالآلات والادوات اللازمة للخزانة . ثم وسّع قاعة المطالعة واصلح قبة الخزانة الكبرى بعدما كان الخراب يتهددها منذ اعوام (٢)

ثالثاً : مكتبة الحكمة في مراكش

١ ـ النهضة العلمية في خلافة يوسف بن عبد المؤمن

لا ريب ان مراكش على عهد الخلفاء الموحدين في القرن السادس للهجرة خلفت بغداد وقرطبة في نهضتها العلمية . واعظم خليفة في الدولة الموحدية طمحت نفسه الى علوم اللغة والحكمة والرياضة والطب كان يوسف بن عبد المؤمن (٥٣٣ ـ ٥٨٠هـ) الذي احرز منها قسطاً وافراً لم يبلغه احد من اهل عصره . فانه ضم اليه العلماء والحكماء من اقاصي البلاد واسبغ عليهم النعم السخية والعطايا الكثيرة . وكان يحبهم حباً لا يدع له سبيلاً الى مفارقتهم الا في اوقات الضرورة .

ولما كانت نفسه نازعة الى علوم الحكمة اخذ يجمع كتبها بوجه خاص ثم خطا بعد ذلك خطوات واسعة في جمع الكتب والدفاتر من جميع الاقطار . فاوفد

---

(١) الدرر الفاخرة : صفحة ١٣ و ١٤ (٢) الدرر الفاخرة: صفحة ١٦٦ - ١٦٨

الرسل الى شتى البلدان وبذل الاموال الوافرة في اقتناء المخطوطات على اختلاف اصنافها حتى اجتمع لديه في « مكتبة الحكمة » قريب مما اجتمع للحكم المستنصر في قصر الحمراء .

٢ ـ مضاهاة مكتبة مراكش مكتبتي قرطبة وبغداد

لم يزل الخليفة يوسف بن عبد المؤمن مجداً في جمع الكتب من اقطار المغرب والاندلس باذلاً في سبيلها كل غال وعزيز. فاوفد لذلك رجالا حتى اجتمع له مكتبة عظيمة ضاهت مكتبة الحكمة بقرطبة ايام الحكم المستنصر او « بيت الحكمة » ببغداد ايام المأمون. فكان إمامنا هذا ماشياً في مضمار هذين الامامين عاملاً على غرارهما من تقريب اهل العلم وترفيع شأنهم والسعي للجمع بين الفلسفة والشريعة. ولم يشهد المغرب عصراً كعصر الموحدين في تآخي الشريعة والفلسفة وتمشيهما جنباً الى جنب.

٣ ـ تفاني ابي العباس الانصاري في خدمة مكتبة الحكمة

يقول غير واحد من المؤرخين كابن فرخون (٧٩٩ هـ) الاندلسي وابن الخطيب ان خدمة المكتبة العلمية عند الموحدين كانت من الخطط النبيهة التي لا يُعين لها الا الاكابر من علية اهل العلم . ومن ثم الزم إمامنا هذا ابا العباس احمد بن عبدالرحمن بن الصقر الانصاري بخدمة هذه المكتبة اذ كان من الافراد الافذاذ في معرفة الكتب وجمعها . وكانت مواهب رجال الدولة له جزلةً واعطياتهم له مترادفة كثيرة . قطع عمره في جمع الكتب على اختلاف اصنافها ولم يزل خادماً للمكتبة مضطلعاً باعبائها الى ان توفي بمراكش سنة ٥٦٩ للهجرة (١). وكان ابن الصقر من ادق العلماء نظراً في كثير من الفنون. وقد استنسخ لتلك الخزانة طائفة عظيمة من المجلدات الضخام مما دل على اخلاصه في الخدمة وتفانيه في سبيل العلم (٢).

---

(١) المعجز في تلخيص اخبار المغرب : تأليف عبد الواحد التميمي المراكشي (٢) النبوغ المغربي في الادب العربي : تأليف عبدالله جنون : صفحة ٦٦

رابعاً : مكتبات مكناس

١ ـ الخزانة الاسمعيلية

مكناس ويقال لهـا ايضاً « مكناسة الزيتون » كانت من عواصم المغرب الاقصى في سالف الزمان . وهي واقعة على نهر فلفل وفيها ينشد الشاعر :

انظر الى مكناسة الزيتون بين الاباطح والجبال الجون
وكأن فلفل بينهن مهند يهتزّ بين تعطف وسكون

وقد اتخذ بعض السلاطين مدينة مكناس عاصمة لملكهم فشيّدوا فيها من القصور والمساجد والمدارس والمكتبات ما لا تزال آثاره ظاهرة حتى اليوم. وكان اكبرهم شأناً واوسعهم شهرة السلطان ابو النصر اسمعيل (١٠٨٢ – ١١٣٩ هـ) الذي استوى على العرش سبعة وخمسين عاماً . فضاهى بدهائه وحسن تدبيره من عاصره من ملوك اوروبا ولا سيما لويس الرابع عشر (١٦٤٣–١٧١٥) ملك فرنسا. فان هذا الملك قد استغرقت مدته اثنتين وسبعين سنة. ولا يروي التاريخ قديماً وحديثاً اسم ملك من ملوك الارض استوى اكثر منه على عرش سلطنته (١).

ويروى عن هذا السلطان انه اعتنى بجمع الكتب وبذل كل غال ورخيص في سبيل تحصيلها . وقد حوت خزانته من التصانيف وجمعت من اشكال الدفاتر والتآليف ما لم تحوه خزانة بغداد (٢) في عصر العباسيين. ولشدة ولعه بالعلم كان ينتقي الخطاطين المتقنين لنسخ الكتب الثمينة ويجري عليهم الجرايات الضافية . وابتنى لهم ديواناً خاصاً بنسخ الكتب في بلاطه السلطاني. وكان يغاديهم ويراوحهم فيه كل يوم يفيض عليهم سجال العطايا ويمنحهم عقارات هامة ودورا رحبة. واقتفى

---

(١) علاقات ملوك فرنسا بملوك العرب : بقلم فيليب دي طرازي ص ٦

(٢) عن كتاب (سنا المهتدي في ترجمة فخر وزراء الدولة الاسماعيلية ابن الحسن اليحمدي) وهو كتاب إدب نفيس وضعه ابو الحسن علي الزرويلي

اثره في كل ذلك بنوه واحفاده من بعده ولا سيما السلطان مولاي الحسن (١٢٩٠–١٣١١هـ) فانه كان له نسّاخون بارعون يلازمون ابوابه ظعناً واقامة ولا يفارقونه الى ان ختمت انفاسه (١)

وكان مركز «الخزانة الاسمعيلية» في جامع الانوار الذي اسسه مولاي السلطان اسمعيل بمكناس عام ١١٠٧ للهجرة. وقد وصفها العلامة عبد الرحمن بن زيدان (٢) قال:

«ومن محاسن هذا الجامع ان اسند اليه بربعه القبلي من حيث اتصاله بالربع الشرقي خزانة مشتملة على قبتين قائمة حلقتها على اربع قوائم من الرخام. وبها من الكتب العلمية الوف عديدة مما لا ينطبق وصفه الا على جامع الانوار المعروف بهذا الاسم الآن. وذلك الانطباق وقت شبابه وقبل انقلابه وايابه. اما بعد ذلك فلم يبق من دلائل ذلك الانطباق الا شهرته قديماً وحديثاً بجامع الانوار مع ما ادركناه من بقايا دار الوضوء الموصوفة في الجهة الشرقية الى ان استأصلتها الدولة الحامية (٣). ومع بقايا خزانة الكتب الموصوفة في كلام «زهر البستان» فان بابها بالمحل المعين في كلام زهر البستان مع ما سمعته من والدي عن والده رحمهما الله ان تلك الباب هي باب خزانة الكتب الاسمعيلية التي فرّق السلطان سيدي محمد بن عبدالله كتبها على مساجد المملكة (٤)».

---

(١) الدرر الفاخرة بمآثر الملوك العلويين بفاس الزاهرة: ص ٣٩ ـ ٤٠

(٢) اتحاف الناس بجمال اخبار حاضرة مكناس: جزء ١ ص ١٦٠

(٣) المراد بالدولة الحامية هنا دولة الجمهورية الفرنسية التي احتلت احد قسمي القطر المغربي في صدر القرن العشرين وجعلته تحت حمايتها

(٤) كانت خزانة الكتب الاسمعيلية تشتمل على اثني عشر الف مخطوط كما ورد في مقال عنوانه «المكاتب العمومية بالمغرب الاقصى» نشرت في جريدة «السعادة» بالرباط: مجلد ٣٥ تاريخ ٢٢ دجنبر ١٩٣٨

٢ ـ مكتبة الجامع الاعظم

وفي مكناس مكتبة اخرى اقدم من الاولى اتى على ذكرها المؤرخ نفسه مولاي بن زيدان قال (١) : « وفي الجهة الغربية من الجامع الاعظم المكتبة العلمية الجامعة لمحاسن الكتب القديمة لولا اختلاس جل نفائسها ومد اليد العادية في ذخائرها الثمينة. واضاعة باقيها من ولاة الاحباس بعدم التعـــاهد والاصلاح اولا وتعطيل منفعتها بغلق ابوابها على القراء ثانياً . حتى آل الامر بسبب ذلك الى ان صار الكثير مما بقي من كتبها التي يعز ان توجد في غيرها الى حد لا ينتفع به اصلًا لتمزقه وتلاشيه ووضعه في محل الكناسة والازبال . وذلك من المفاسد التي تباح ومن العظائم التي اوقعته في الجناح . مع كون جانب الحبس عنها وبتجديد ذلك ورده الى حال شبابه ملياً » .

خامساً : مكتبات سبتة وسائر مكتبات المغرب الاقصى

١ ـ استيلاء الاسبان على سبتة ونقلهم الكتب منها

قال الوزير لسان الدين ابن الخطيب : « كانت في سبتة (٢) خزانة كتب العـــلوم وكذلك في مكناسة الزيتون خزانة كتب » . ولما استولى الافرنج (الاسبان) على سبتة عام ٨١٧ للهجرة (١٤١٤ م) حملوا منها كل ما وجدوه فيهـا حتى كتب العلم وكانت كثيرة . وقد ألف فيها القاضي ابو الفضل عياض (٤٩٦ ـ ٥٤٤ هـ) بن موسى اليحصبي كتاب «العيون الستة في اخبار سبتة ».

---

(١) اتحاف اعلام الناس بجمال اخبار حاضرة مكناس : جزء ١ صفحة ١٠٥

(٢) سبتة مدينة ساحلية في شمال مراكش . كانت تابعة لخلفاء الاندلس بينها وبين جبل طارق ١٦ كيلومتراً . وهي تبعد عن مدينة فاس شمالا ٢١٠ كيلومترات

٢ ـ بعض مشاهير علماء سبتة

ممن رفعوا لواء الادب في سبتة الشاعر الاسرائيلي ابرهيم بن سهل الاندلسي الاشبيلي (٦٠٥ ـ ٦٤٩ هـ). ويروى عنه انه دان بالاسلام فاتخذه ابن خلاص صاحب سبتة كاتباً في ديوانه وماتا كلاهما غريقين معاً في وقت واحد (١). ومنهم محمد بن محمد بليش العبدلي الغرناطي النحوي كان فاضلاً متضلعاً باللغة العربية عاكفاً عمره على تحقيقها . وقد برع بالطب وأثرى من التكسب بالكتب وحلت وفاته سنة ٧٥٣ للهجرة . ومنهم كذلك ابو بكر عبدالرحمن السبتي صاحب « شرح الرحبية » . ومنهم الشريف ابوالقاسم محمد بن احمد الحسيني السبتي (٦٩٧-٧٦٠ هـ) رئيس العلوم اللسانية بالاندلس (٢). وابوالعباس السبتي واضع علم الزايرجة وغيرهم (٣)

٣ ـ سائر مكتبات المغرب الاقصى

ما عدا الخزانتين اللتين اتينا على ذكرهما في صدر هذا الفصل فقد أنشئت في سالف الزمان خزائن كتب جمّة في سائر مدن المغرب الاقصى . لأن مساجده وقصور اشرافه ودور علمائه كانت تحفل بالآثار الكتابية التي نقلها المسلمون اثناء نكبتهم الاندلسية وجلائهم الى شمال افريقيا . الا انها تبعثرت وتلاشت بتعاقب الازمان اذ حلّ بها من الزرايا ما حل بخزائن الكتب في سائر الاقطار العربية . وقد المعنا الى بعضها في كلامنا عن « رزايا الكتب والمكتبات » . ومما يدعو الى الاسف الشديد انه لم يبقَ من تلك الثروة العلمية بديار المغرب الاجانب ضئيل لا يؤبَه له . وعلى رغم ما بذلناه من الجهود في البحث والاستقصاء لم نتوفق الى الوقوف الا على الشيء اليسير من اخبار تلك المكتبات التي بادت وكادت تكون اثراً بعد عين .

---

(١) فوات الوفيات : مجلد ١ صفحة ٢٣ (٢) نفح الطيب: للمقري جزء ٣ صفحة ١٠٢-١٠٨
(٣) مجلة « الضاد » بحلب : مجلد ٨ سنة ١٩٣٨ صفحة ٣٩٤

الفصل الثلاثون

مكتبات المغرب الاقصى في الزمان الحاضر (١)

اولا : المكتبة العامة في الرباط

١ ــ نواة المكتبة العامة وما ضُم اليها من المكتبات

انشأها المرشال ليوطي سنة ١٩١٩ وجعل نواتها خزانة كتب معهد الدروس المغربية العليا بالرباط . وانطوت هذه الخزانة على مؤلفات ووثائق ونصوص تتعلق بالقطر المغربي مما كان اساتذة المعهد المذكور محتاجين اليه في دروسهم . وليس من السهل اقتناء مثل هذه المجموعة في الزمان الحاضر لما يعانيه الباحثون عنها من المصاعب الجمة . وقد نقلت المكتبة عام ١٩٢٤ الى مركز جديد بني لها في شارع بيارني وعهد في تنظيمها على النمط العصري الى ذوي الاختصاص والكفاءة .

وفي اول تشرين الثاني ١٩٢٦ صدر مرسوم ادرجت بموجبه هذه المكتبة في مصاف المعاهد العلمية العمومية . وعام ١٩٣٤ اسند اليها امر المراقبة الفنية على جميع المكاتب العامّة والخاصة والحبسية المنتشرة في انحاء المغرب الاقصى . ولم تزل تتدرج يوماً بعد يوم في معارج التقدم حتى اشتهر امرها بين القوم وطنيين واجانب. فاقبلوا زرافات ووحدانا على مطالعة ما فيها من التآليف على اختلاف انواعها ولغاتها . وقد ازدادت خطورتها بعدما ضمّ اليها بعض مكاتب خاصة اليك اهمها :

---

(١) اكثر ما اثبتناه هنا عن المكتبات العامة اقتبسناه من تقرير رسمي تكرم به علينا الاستاذ الجليل السيد عبدالله الرجراجي المغربي . وهو اكبر خزنة المكتبة العامة في الرباط واقدمهم وانبههم فله منا الدعاء الوافر والثناء العاطر

مكتبة زاوية الشيخ ماء العينين في فاس . ومكتبة الوزير الحاج المختار ابن عبدالله السوسي في مكناس . ومكتبة النادي الالماني في طنجة . ومكتبة السلطان مولاي عبد الحفيظ . ومكتبة المسيو كروزيل الحاكم العام . ومكتبة المسيو برنار الموظف الجزائري . ومكتبة لاريش قنصل فرنسا سابقاً في الرباط . ومكتبة القسم الاجتماعي لادارة الاستعلامات التي كان مركزها بمدينة سلا .

٢ - ذخيرة المكتبة العامة وجهد كبار المستعربين في انمائها

بقطع النظر عن مجموعات المجلات التي تحفظ في هذه المكتبة فقد بلغ ما فيها من التآليف لغاية السنة ١٩٣٨ خمسين الفاً وتسعمائة واربعة واربعين مجلداً اكثر من ربعها في اللغة العربية . وبلغ عدد مجلداتها المخطوطة الفين وثلاثين كتابا . وانيطت محافظة تلك المخطوطات بعدة مستعربين عرفنا منهم الاستاذ ليفي بروفنسال الذي نشر اول مجلد لفهرس المخطوطات المذكورة . ثم عقبه الاستاذ جورج كولان وبعده الاستاذ بلاشير . واصبحت الآن بادارة الاستاذ علوش وهو يشتغل في تهيئة مواد المجلد الثاني لفهرس المخطوطات المذكورة

وتشتمل مكتبة الرباط على محفوظات دواوين الدولة من دفاتر وسجلات ووثائق ادارية وتاريخية . وفيها ايضاً الكنانيش القديمة التي خلفتها قنصلية فرنسا في طنجة وسائر القنصليات التي كانت لهذه الدولة في المغرب قبل تأسيس الحماية الفرنسية . ويرجع تاريخ بعض كنانيش هذه القنصليات الى عام ١٧٦٧ .

وصرفت ادارة المكتبة عنايتها الى اقتناء كتب تبحث عن تاريخ افريقيا الشمالية والغرب الاسلامي . وهذا القسم هو اغنى جميع اقسام المكتبة بل تعد مجموعته اكمل مجموعة من نوعها بين مجموعات اشهر خزائن العالم . ومما هو جدير بالذكر ان المكتبة العامة في الرباط اخذت على عاتقها وضع فهرس عام لما حوته الخزائن المغربية قاطبة من المخطوطات العربية . وفي نيتها عرض هذا المشروع ايضاً على ارباب الخزائن الخاصة تعميما للفائدة واستكمالا للموضوع .

وفي رباط معهد للدروس المغربية العليا. نشر هـــذا المعهد سلسلة صالحة من المخطوطات العربية فكان لنشرها صدى استحسان في الدوائر العلمية . ولم يبرح المستعربون الذين تقدم ذكرهم دائبين في طبع المخطوطات ونشرها وترجمتها .

ثانياً ـ اشهر المكتبات البلدية في المغرب الاقصى

ما كادت تظهر للوجود المكتبة العامة في الرباط وتتجلى منافعها للخاصة والعامة حتى مسّت الحاجة الى انشاء مكتبات غيرها في اهم حواضر المغرب الاقصى سُميت مكاتب بلدية . ذلك ارضاء لرغائب القراء ومماشاةً للتطور السريع الذي جرى في التعليم العالي ولا سيما القانوني والاقتصادي . على ان الدولة الفرنسية الحامية نشطت الحكومة المغربية الى تأسيس مكتبات بلدية تقوم مقام المكتبات العامة وتكون بمثـــابة فروع لها في المدن التالية وهي : فاس وسلا ومكناس ومراكش وتازه ووجدة وبركان والدار البيضاء وغيرها .

وقد جهزت تلك الخزائن بكتب لا يستغني عنها المطالعون واهـل البحث في كل المدن المذكورة . وتمكيناً لهم من الانتفاع ايضاً بما احتوته المكتبة العامة في الرباط من مطبوعات ومجموعـــات ومجلات فان ادارة هذه المكتبة نظمت فرعاً خاصاً باعارة الكتب للعموم خارج مدينة الرباط . وحددت ان تكون تلك الاعارة على نفقتها بواسطة المكاتب البلدية المذكورة آنفاً فلا يتكلف المستعير دفع شيء على الاطلاق .

اما الذين يريدون استعارة الكتب من الخزانة العامة وهم ليسوا في الرباط ولا في مدن انشىء فيها فرع لتلك الخزانة فان المكتبة العامة توجه اليهم ما يطلبونه من الكتب على نفقتها الخاصة . وقـــد كان لهذا التسهيل اثره الطيب في نشر الثقافة بين جميع طبقات الامة المغربية .

الفصل الحادى والثلاثون

خزائن كتب الاندلس

١ ـ حضارة الاندلس ايام عزّ العرب

مثلما كانت بغداد عاصمة العباسيين والقاهرة عاصمة الفاطميين مستودع الكنوز الكتابية الثمينة في الشرق هكذا كانت قرطبة عاصمة الامويين بالاندلس مركز الثقافة العربية في الغرب . ولعل قرطبة نافست بغداد والقاهرة وفاقتهما كلتيهما لان عرب الاندلس بلغوا اوج العمران والعرفان كما تدل آثارهم الباقية الى هذا الزمان . وكان عهدهم فيها من انبل صفحات التاريخ العربيّ

مدّوا الفتوحَ الى اطراف اندلسٍ ... وحكموا العدلَ بين الناس ميزانا
فكان تاريخهم في ارض قرطبةٍ ... للعلم نوراً وللاعداءِ نيرانا

وكانت قرطبة في عصر عزها قبة الاسلام ومجتمع علماء الانام والاعلام . بها استقر سرير الخلافة المروانية وفيها تمحضت خلاصة القبائل المعدية واليمنية . والى قرطبة « كانت الرحلة في رواية الشعر والشعراء. اذ كانت مركز الكرماء ومعدن العلماء . ولم تزل تملأ الصدور منها والحقائب . ويباري فيها اصحابُ الكتب اصحابَ الكتائب ... وهي من بلاد الاندلس بمنزلة الرأس من الجسد . والزور من الاسد (١) » . فكانت تشتمل على خمسين مستشفى وتسعمائة حمام وثمانمائة مدرسة وستمائة مسجد وسبعين مكتبة خاصة وعلى مكتبة عامة تضارع في ضخامتها مكتبة

---

(١) نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب : جزء ١ صفحة ٢١٤

الاسكندرية العظيمة (١) . وناهيك ان مدن الاندلس ازدهرت بفخامتها الشرقية وقصور امرائها . بل كانت متاحف للفنون الرفيعة وعنوانا لحضارة عريقة . فكانت قرطبة تتألف من مائتي الف بيت يسكنها مليون من النسمات . وكان شارعها الاكبر بطول عشرة اميال لم تزل آثاره باقية حتى الآن . وما احسن قول بعضهم فيها :

دع عنك خضرة بغداد وبهجتها ... ولا تعظم بلاد الفرس والصينِ
فما على الارض قط مثل قرطبة ... وما مشى فوقها مثل ابن حمدينِ

ولله در من قال :

باربع فاقت الامصار قرطبة ... منهنّ قنطرة الوادي وجامعها
هاتان ثنتان والزهراء ثالثة ... والعلم اعظم شيء وهو رابعها

٢ ـ مكتبة المستنصر بالله في قصر الزهراء في قرطبة

وكان للمستنصر بالله الحكم الثاني سلطان قرطبة يد طولى في هذه النهضة العلمية الجليلة وفي انشاء المكتبة الشهيرة في قصر الزهراء بمدينة قرطبة عاصمة بلاده . يؤيد ذلك ما رواه عنه المقري (٢) قال :

« كان يبعث في شراء الكتب الى الاقطار رجالا من التجار ويرسل اليهم الاموال لشرائها حتى جلب منها الى الاندلس ما لم يعهدوه . وبعث في كتاب الاغاني الى مصنفه ابي الفرج الاصفهاني وارسل اليه الف دينار من الذهب العين فبعث اليه بنسخة منه قبل ان يخرجه الى العراق . وجمع بداره الحذّاق في صناعة النسخ

---

(١) نهضة العلوم الطبية في اسبانيا العربية للدكتور زكي علي (مجلة الرسالة سنة ٥ صفحة ٥٥٨ ــ ٥٥٩) (٢) دائرة معارف القرن العشرين : مجلد ٨ صفحة ٦٨ـ٦٩

والمهارة في الضبط والاجادة في التجليد . فاوعى من ذلك كله واجتمعت بالاندلس خزائن من الكتب لم تكن لاحد من قبله ولا من بعده الا ما يذكر عن الناصر العباسي بن المستضيء . ولم تزل هذه الكتب بقرطبة الى ان بيع اكثرها في حصار البربر » .

وكان ابوه الامام عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ – ٣٥٠ هـ) اول من كسا الاندلس اشّهة الخلافة . وانصرفت همته الى مطالعة كتب العلوم والادب وجمعها في خزائنه . فانه بعث ثقته العباس بن ناصح الثقفي الى بغداد بالاموال فاشترى له منها كل غريب (١). وطلب عبدالرحمن الناصر عينه من صديقه رومانس قيصر القسطنطينية استاذاً يعلم عبيداً له يصبحون مترجمين في دواوين دولته . فارسل اليه القيصر راهباً حاذقاً اسمه نقولا للقيام بتلك المهمة الخطيرة (٢).

واختلف المؤرخون في تحديد عدد الكتب التي كانت في خزائن المستنصر بالله الحكم الثاني . فجعلها بعضهم اربعمائة الف مجلد (٣) والبعض الآخر اكثر من ذلك. ولكنهم اتفقوا على انها كانت كثيرة . وكان على طائفة منها شروح وحواش بيد السلطان المشار اليه . وابدى الذهبي رأيه في قيمة كتب الحكم فقال . « لعل كتبه كانت تساوي اربعمائة الف دينار ».

وروى ابن خلدون ان اسماء دواوين الشعر في تلك المكتبة كانت مدونة في ثمانمائة وثمانين صفحة . واثبت وليم درابر في كتابه « المنازعة بين العلم والدين » ان مكتبة خلفاء بني امية في قرطبة اشتملت على ستمائة الف مجلد . وكان فهرس اسماء تلك الكتب يتألف من اربعة واربعين مجلداً . فتأمل !

٣ ـ مكتبات الوزراء والعظماء في انحاء الاندلس

واقتدى بالخليفة المستنصر بالله الحكم الثاني وزراء دولته وعظماؤها فانشأوا

---

(١) رحلة الوزير في افتكاك الاسير لمحمد الغساني : صفحة ٢٠ (٢) زبدة الصحائف في اصول المعارف بقلم نوفل نوفل : صفحة ٤٥ (٣) نفح الطيب: مجلد اول صفحة ١٨٢ و١٨٦

خزائن الكتب في جميع انحاء المملكة . وأحصي عدد دور الكتب في الاندلس لدى بلوغ الدولة الاموية اوج مجدها فبلغ سبعين مكتبة عامة على ما قيل في غرناطة (١) فضلاً عن المكاتب الخاصة . وكان في كل مكتبة معهد للترجمة ومعهد للنساخة ومعهد للمطالعة . وكان اقتناء الكتب عند الاندلسيين من علائم التأنق ومقتضيات الوجاهة . وقد يجمع المثري الاندلسي ما شاء من كتب وقماطر وهو لا يعلم الفائدة الناجمة عنها.

وحكى ابن فياض في تاريخه في اخبار قرطبة قال (٢) : «كان بالربض الشرقي من قرطبة مائة وسبعون امرأة كلهن يكتبن المصاحف بالخط الكوفي . هذا ما في ناحية من نواحيها فكيف بجميع جهاتها ؟»

روى ابو الفضل التيفاشي ان قرطبة عاصمة الخلفاء اكثر بلاد الله كتباً . وروى ابن خاتمة ان اهل قرطبة ارغب في اقتناء الكتب من اكثر البلاد الاندلسية فكانت لا تخلو دار كبيرة من خزانة كتب . وروى المقري ان ذلك صار عندهم من آلات الابهة والرئاسة حتى ان الرئيس منهم الذي لا يكون عنده معرفة يحتفل في ان تكون في بيته خزانة كتب . وينتخب فيها ليس الا لان يقال فلان عنده خزانة كتب والكتاب الفلاني ليس عند احد غيره ، والكتاب الذي هو بخط فلان قد حصله وظفر به .

٤ ـ عصر الاندلس الذهبي

كان الحكم الثاني عالماً كبيراً بل كان اعلم بني امية خلفاء الاندلس بلا جدال . لان والده عبد الرحمن الناصر لم يدخر وسعاً في تهذيبه وتثقيفه . فاستحضر له صفوة العلماء من الشرق والغرب ومنهم ابو علي اسمعيل القالي . فقام الاستاذ بهذه المهمة خير قيام حتى بلغ الحكم تلميذه في الرقي الفكري شأواً بعيد المدى .

---

(١) تاريخ التمدن الاسلامي : مجلد ٣ صفحة ٢٠٨ (٢) مجلة المجمع العلمي العربي : مجلد ٢ سنة ١٩٢٢ صفحة ٢٦٥

وكانت لذة الحَكم في الحياة مطالعة الكتب ومجالسة العلماء ومذاكرتهم في شتى العلوم . وكان ذا غرام بالمعارف قد اثر ذلك على لذات الملوك فاستوسع علمه ودق نظره وجمّت استفادته . وقلما وجد كتاب في خزائنه الا وله فيها قراءة اونظر في اي فن كان . وكان يكتب فيه نسب المؤلف ومولده ووفاته . ويأتي بعد ذلك بغرائب لا تكاد توجد الا عنده لعنايته الخصوصية بهذا الشأن .

وقد اجمع المؤرخون انه لم يقم في الاندلس ملك عالم كهذا الملك . بل ان اسلافه على رغم ما كان فيهم من الرغبة في اغناء مكاتبهم لم يصل بهم الشغف في اقتناء الكتب الثمينة الى الحدّ الذي وصل اليه هيام الحكم الثاني (١) .

وفي عهد الحكم الثاني ارتفع شأن العلماء الذين باتوا مغمورين باحسانه وعائشين بكنف رعايته . فانتشرت تآليفهم في كل فن وتُرجم بعضها الى اللغة الاسبانية او اللاتينية . وكان كثير من اهل الاندلس على علم تام بهاتين اللغتين فينقلون منهما العلوم الغربية الى اللسان العربي وبالعكس . وقد اصاب المؤرخون في تسميتهم عصري عبد الرحمن الناصر (٣٠٠-٣٥٠ هـ) وابنه الحكم الثاني (٣٥٠-٣٦٦ هـ) بالعصر الذهبي الاندلسي . فقد نفقت فيه سوق المعارف بين الخاصة والعامة وكان البلاط الملكي مزدحماً بالادباء والعلماء ورجال الصناعة والفن .

ومما لا مندوحة لنا عن ذكره ان التحف الفاخرة كانت تتوارد من الملوك شرقاً وغرباً الى ذينك الخليفتين اعجاباً بهما واقراراً بمواهبهما العلمية . من ذلك ان قسطنطين ملك الروم بعث مع هديته المشهورة الى عبدالرحمن الناصر برسالة مكتوبة بحروف من ذهب في رق سماوي اللون . وضمّن تلك الرسالة طرساً سماويا من الرقّ مكتوباً بحروف فضية يصف الهدية واصنافها (٢) . وكان الكتاب مختوماً بطابع ذهب وزنه اربعة مثاقيل قد رُسِمت على وجهه الواحد صورة المسيح وعلى

---

(١) كامل الكيلاني : نظرات في تاريخ الادب الاندلسي : صفحة ٢٢٥

(٢) نظرات في تاريخ الأدب الاندلسي بقلم كامل الكيلاني : صفحة ٢٠٤

وجهه الثاني صورة قسطنطين الملك وصورة ابنه . وُضِعَ الكتاب ضمن صوان فضة غطاؤه ذهب نُقشت فوقه صوره قسطنطين الملك على باور ملون بديع (١)

٥ ـ تهافت الافرنج على اقتباس حضارة الاندلس

في القرن الثاني عشر للميلاد اصبحت مدن العرب في الاندلس كعبة للنازحين اليها من المستشرقين وغيرهم من علماء الافرنج . فكان هؤلاء يتهافتون على اقتباس علوم العرب للاستفادة منها او لترجمة مؤلفاتها الى اللغتين الاسبانية واللاتينية كما كانت بغداد في عصر الرشيد والمأمون .

وكان المستعربون وطلاب العلم يردون من اوروبا افواجاً ليرتووا من بحر علوم العرب وفلسفتهم . ومن جملتهم البابا سلوستر الثاني (٩٩٩ – ١٠٠٣ م) الذي درس العلوم العربية والفلسفة في اسبانيا وأحلّ الارقام العربية محل الارقام الرومانية (٢) . ومنهم بطرس رئيس دير كلوني (١٠٩٢ – ١١٥٦ م) ارتحل الى الاندلس حيث رقب شؤون العرب وتأدب بآدابهم وانتقد كتبهم (٣) .

ودليلنا على ذلك ان كتاب « الادوية البسيطة » لابن الوافد (٩٩٧–١٠٧٤ م) الطبيب بمستشفى طليطلة طبع بعد ترجمته الى اللغة اللاتينية اكثر من خمسين مرة . وقد بقي كتاب « الجراحة » لابي القاسم خلف بن عباس الزهراوي الاندلسي (١٠١٣ – ١١٠٦ م) اساساً للتعليم الجراحي ومزاولة مهنة الجراحة في اوروبا عدة قرون . وُنشرت ترجمته في فينا سنة ١٤٩٧ وكان المعوّل عليه في تعليم الجراحة في مدرسة البندقية بايطاليا . ثم طبع سنة ١٥٤١ في مدينة « بال » بسويسرا . وهناك حقيقة ذات اهمية قصوى وهي انه يرجع الفضل للعرب في المحافظة على تراث العلوم اليونانية القديمة التي فقدت اصولها فوصلت الى اوروبا عن طريق ترجمتها العربية (٤)

---

(١) نفح الطيب : جزء ١ صفحة ١٧١ (٢) ماثر العرب في العلوم الطبية : بقلم الدكتور سامي حداد : صفحة ٦٨ ـ ٦٩ (٣) المشرق : مجلد ١٠ سنة ١٩٠٧ صفحة ٣٧٦ ـ ٣٧٧

(٤) نهضة العلوم الطبية في اسبانيا العربية وتأثيرها في اوروبا (مجلة الرسالة سنة ٥ صفحة ٥٥٨ ـ ٥٦١)

وكان اشهر المترجمين للعلوم الطبية والفلسفية من اللغة العربية الى اللاتينية « جيرار دي كريمونا » (١١١٤ – ١١٨٧ م) الذي اشتغل في مدرسة طليطلة معظم حياته . فنقل الى اللاتينية فلسفة يعقوب الكندي والفارابي وقانون ابن سينا وكتاب المنصوري للرازي وكتاب الاحجار لارسطو وجالينوس وكتاب علم النجوم لجابر بن افلح وغير ذلك . ويقال انه ترجم سبعين كتاباً في جميع فنون العلم وضروب الآداب (١)

٦ – تنازع عرب الاندلس وزوال ملكهم وانقراض مكتباتهم

ظلت الحال على هذا المنوال حتى اشتدت الفتن في الاندلس وأفل نجم سعدها اذ تسللت اليهم جراثيم الفساد بانتشار الاطماع الشخصيـــة . فانقسمت على نفسها وانفرط عقد الخلافة الاموية . واستقل الولاة والعمال بهذه الاجزاء المتفرقة . ثم لم يكتفِ هؤلاء بتسمية انفسهم « ملوك الطوائف » بل ساقهم الغرور الى التشبه بالخلفاء في عظمة الملك وضخامة الالقاب حتى استبد كل منهم بجانب من الاندلس وسمّى نفسه امير المؤمنين .

وما عتم ان تسرّبت دواعي الوَهن الى اولئك الملوك بعد هذا الانقسام الذي ضعضع قواهم . فاخذ بعضهم يحارب بعضاً ويتناصرون على انفسهم بعدوّهم امير اسبانيا ويتقربون اليه بالقلاع والحصون للتشفي بعضهم من بعض . ثم آل الامر بهم الى ضياع هذا الملك الفخم ودخوله في حوزة الاسبان . ومن النتائج المؤسفة التي حلت ببلاد الاندلس على اثر تلك الفتن تشتّت خزائن كتبها التي لعبت بها الايدي في طول البلاد وعرضها . وقد احرق الاسبان جانباً منها على جاري عادة رجال الفتح في تلك الايام (٢)

---

(١) المستشرقون بقلم نجيب العقيقي : صفحة ٤٠ و ٤١ (٢) تاريخ آداب اللغة العربية : مجلد ٣ صفحة ١١٣

ولم يسلم من تلك الثروة العلمية العظيمة التي الفها علماء الاندلس او جمعها الامراء والوزراء او الملوك بنو امية من مختلف البلدان سوى النزر من المخطوطات العربية المتفرقة في بعض دور الكتب الشهيرة باوروبا. ولا تخلو من بعضها مكتبة الاسكوريال التي سنفرد لوصفها فصلاً خاصاً.

وفي مدريد عاصمة اسبانيا طائفة صالحة من المخطوطات العربية ايضاً تزدان بها المكتبة الرسمية ومكتبة المجمع العلمي التاريخي. وعددها في كلتا المكتبتين يزيد على الف مجلد.

٧ـ تفجع العرب على سابق مجدهم في الاندلس

وصف المؤرخون قديماً وحديثاً مجد العرب في الاندلس وتفجعوا على زوال ذلك الملك الباذخ والجاه العريض. واصبحوا ولسان حالهم يهتف مع الشاعر المصري حافظ ابرهيم:

لم يبقَ شيءٌ من الدنيا بأيدينا ... الاّ بقيّة دمع في مآقينا
كنا قلادة هذا الدهر فانفرطت ... وفي يمين العلى كنا رياحينا
كانت منازلنا بالعز شامخةً ... لا تطلع الشمس الا في مغانينا
فلم نزل وصروف الدهر ترمُقُنا ... شزراً وتخدعنا الدنيا وتلهينا
حتى غدونا ولا ملكٌ ولا نشبٌ ... ولا صديق ولا جار يوآسينا

الفصل الثاني والثلاثون

خزائن كتب استنبول

١ ـ محاولة الاتراك انشاء حضارة كحضارة العرب

استنبول وهي بوزنطيا القديمة جددها قسطنطين الكبير (٣٠٦ – ٣٣٧ م) وأطلق عليها اسمه ونصب فيها تخت مملكته. فاشتهرت منذ ذلك الحين باسم « قسطنطينية ». وقد تعاقب فيها خلفاؤه القياصرة مدة احد عشر قرناً حتى استولى عليها عام ١٤٥٣ م محمد الفاتح. وكانت تلك العاصمة في الحقبة المذكورة زاهرة بالمعارف والآداب آهلة بالتحف والمكتبات كما نوهنا ببعضها في فصل سبق وسنذكر بعضها في فصول لاحقة.

أخذ الاتراك منذ احتلالهم القسطنطينية يحاولون ان ينشئوا فيها حضارة خاصة بهم ويعتنوا بترقية لغتهم الخالية حين ذاك من الضوابط والقواعد. فاستعانوا باللغتين العربية والفارسية واستعادوا منهما اصولا كثيرة والفاظاً جمة ليبلغوا بلغتهم ما بلغته هاتان اللغتان من الارتقاء والضبط والانتشار.

وفي الوقت ذاته اطلق الاتراك على عاصمة ملكهم في عهد سلاطينهم العثمانيين اسماءً شتى اخصها: الاستانة واستنبول او اسلامبول ودار الخلافة و « درسعادت » الخ. وعلى اثر انقراض السلطنة العثمانية وتأسيس الجمهورية التركية عام ١٩٢٤ الغيت تلك الاسماء واصبحت المدينة المذكورة تُعرف باسم « استنبول » فقط. اما عاصمة الاتراك فقد انتقلت مذ ذاك الحين الى مدينة انقرة في آسيا.

٢ ـ تأسيس الاتراك مكتبات من مخطوطات البلدان التي افتتحوها

من الذرائع التي ساعدت الاتراك على تحقيق بعض امانيهم ما نهض به سلطانهم

سليم الاول (١٥١٢ - ١٥١٩) من الفتوحات في البلدان التي ينطق سكانها باللسان العربي . فانه امر المقرّبين اليه من العلماء والفقهاء ان يجمعوا ما يعثرون عليه اثناء الفتوحات من غُرر الكتب وينقلوها مع الاسلاب الى عاصمة السلطنة . وناهيك ما تيسر جمعه من المخطوطات النادرة في مدن العراق وما بين النهرين وسوريا وفلسطين ومصر وغيرها من البلدان . فانها شُحنت الى الاستانة وتألفت منها خزائن للكتب ألحقت باهم الجوامع والمدارس وبعض القصور السلطانية .

ثم أنشئت في اوقات مختلفة مكتبات وقفها بعض سلاطين آل عثمان وابنائهم . والبعض الآخر وقفة فريق من الوزراء وانصار العلم للفائدة العمومية . فكانت المخطوطات العربية في تلك المكتبات وسيلة كبرى ليطلع علماء الاتراك على حضارة العرب ويقفوا على محاسن اللغة العربية ويرتشفوا مناهل آدابها الفيّاضة . بل نافسوا العرب أنفسهم في إجادة الخط وتفوّقوا عليهم فيه . وقد احدثوا خطوطاً شتى تشهد لهم بالبراعة في هذه الصناعة أشهرها الخط الرقعي والخط الهمايوني . واليهم انتهت الرئاسة في الخط العربي على اشكاله المختلفة .

٣ - انتزاع الأتراك من لغتهم كل مسحة عربية

ظل الاتراك مدة اجيال محافظين على الوديعة الثمينة التي تسلموها من لغة القرآن وآداب العرب . غير انهم نسخوا تلك الخطة الرشيدة منذ انسلاخ الاقطار العربية عن دولتهم على اثر الحرب العظمى (١٩١٤ - ١٩١٨) فانتزعوا من لغتهم التركية كل اثر يمت بالفاظه الى اصل عربي واستعملوا بدلا منها الفاظاً غريبة خالية من كل مسحة قحطانية . وما اكتفوا بذلك بل عمدوا منذ السنة ١٩٢٤ الى ابدال الحروف العربية في كتاباتهم بحروف لاتينية . فكان هذا الابدال ضربة قاضية على الصبغة الشرقية وعلى الروح العربية اللتين تميز بهما اللسان التركي منذ قرون شتى .

٤ ـ تضعضع مكتبات استنبول وصعوبة الانتفاع بكنوزها

غير خاف انه مع توالي الايام تُلف وتُنهب جانب من مكتبات استنبول إما لاهمال قوّامها او لخيانة الخدم في صيانتها. وما نراه محفوظاً فيها حتى الان من مخطوطات عربية وفارسية وتركية ليس الا نزراً مما نجا من ايدي الحدثان. ومعما فيه فان استنبول لبثت زمناً طويلا في طليعة جميع عواصم الشرق بوفرة مخطوطاتها التي لا يحصى لها ثمن. وكانت مجموعة في اثنتين واربعين مكتبة لكل منها فهرس خاص مطبوع على حدة يتضمن اسماء كتبها المطبوعة والمخطوطة. ومن شاء الوقوف على عناوين تلك المكتبات وسنة انشائها وتاريخ طبع فهارسها فليراجع « معجم المطبوعات العربية والمعرّبة (١). »

وفي تموز السنة ١٩٠٤ ارتحل لويس شيخو الى استنبول وزار اهم مكتباتها وتفقد اشهر معاهدها العلمية والاثرية. فلما جاء على ذكر ما احتوته تلك المكتبات من المخطوطات صرح بانها لو جُمعت بلغ عددها نحواً من ثلاثين الفاً (٢).

ومن المؤسف ان اغلب تلك المكتبات كان الدخول اليها والانتفاع بكنوزها من اصعب الامور. غير ان فريقاً من اعلام المستشرقين تمكنوا بعد عناء جسيم من التوصل الى الوقوف على بعضها كمكتبة آجيا صوفيا الشهيرة وغيرها من المكتبات الغنية بمخطوطات شرقية قديمة. فوصفوها وصفاً وافياً ودوّنوا لها الفهارس ونشروها بالطبع لفائدة اهل البحث.

٥ ـ مكتبة علي اميري

بين مكتبات استنبول المهمة التي لا يصح السكوت عنها مكتبة « على اميري

---

(١) معجم المطبوعات العربية والمعربة : تأليف يوسف اليان سركيس : صفحة ١٤٦٥-١٤٦٦

(٢) سياحة حديثة الى جهات اوروبا : بقلم لويس شيخو (المشرق : مجلد ٧ سنة ١٩٠٤ صفحة ١٠٦٤

افندي » فهي تستحق وصفاً مخصوصاً بين سائر خزائن تلك العاصمة . وقد كتب لنا الاستاذ البحاثة محمد كردعلي (١) انه تعهدها بذاته وكان فيها يومئذ ثلاثة عشر الف مخطوط بينها كتب ودواوين كان يطالعها سلاطين آل عثمان . ومنها مجموعة مخطوطات نفيسة اتى بها « علي اميري » من بلاد اليمن وغيرها من الاقطار العربية. وقد جعل مركز هذه الخزانة في مدرسة « فيض الله افندي » قريباً من جامع الفاتح. وكان يتفاخر بمخطوطاته ويصرح لكل من تفقدها بانه يريد ابلاغ عددها الى الخمسين الفاً. لكنها ما كادت تبلغ العشرين الفاً حتى ادركته المنية.

٦ ـ اهم مكتبات استنبول وادماج بعضها في البعض الآخر

من اهم خزائن الكتب في استنبول ايضاً نذكر : مكتبة «الجامعة» فيها سبعة عشر الف مجلد مخطوط بينها مصاحف جلودها مرصعة بالزمرد والياقوت . ثم «المكتبة العمومية » في ميدان بايزيد يبلغ عدد مخطوطاتها خمسة آلاف ومائتي مجلد معظمها عربي . ومكتبة « الفاتح » تحوي ستة آلاف مخطوط . ومكتبة « نور عثمانية» عدد مخطوطاتها خمسة آلاف (٢) .

وكانت مكتبات استنبول تابعة لوزارة الاوقاف ثم ألحقت بوزارة المعارف منذ اعوامٍ قليلة . ولوحظ ان تعدّد المكتبات وتبعثر الكتب فيها لا يؤدي الى النتيجة المقصودة منها . فصدر امر هذه الوزارة باندماج بعض المكتبات في البعض الآخر . فجُعلت سبع عشرة مكتبة بعدما كانت اثنتين واربعين مكتبة. ذلك بان ضُمّ الى احداها اثنتا عشرة مكتبة والى اخرى عشر مكتبات او خمس او ثلاث . وهذا بيان مكتبات استنبول في الزمان الحاضر (٣) :

١ً : مكتبة الفاتح ٢ً : مكتبة فيض الله ٣ً : مكتبة الشهيد علي باشا

---

(١) تاريخ رسالته الينا من دمشق ٢٩ ايار ١٩٣٨ (٢) رحلة صيف بقلم الصحافي العجوز توفيق حبيب : طبع مصر سنة ١٩٣٣ صفحة ٣٦ ـ ٣٨ (٣) رحلة صيف : صفحة ٣٩ ـ ٤٠

٤ً: مكتبة عاطف افندي ٥ً: مكتبة منلا مراد ٦ً: مكتبة كوبرلي ٧ً: مكتبة جامع بايزيد ٨ً: المكتبة العمومية ٩ً: مكتبة نور عثمانية ١٠ً: مكتبة آجيا صوفيا ١١: مكتبة يحيى افندي في بشكشطاش ١٢: مكتبة خسرو باشا ١٣: مكتبة قبطان باشا في ايوب ١٤: مكتبة سليم آغا في اسكودار ١٥: مكتبة السليمانية ١٦: مكتبة راغب باشا ١٧: مكتبة والدة جامع (آق سراي).

٧ ـ مكتبة مخطوطات عربية في الموسيقى

في استنبول مكتبة خطية وحيدة من نوعها انشأها الموسيقار رؤوف يكنا التركي الذي أحرز في مهنته شهرة عالمية كبرى. وقد روى زميله الموسيقار وديع صبرا البيروتي ان المكتبة المشار اليها ما احتوت الا على مخطوطات عربية نادرة في فن الموسيقى. منها كتاب «مقاصد الالحان» يتضمن قصيدة مطلعها «قد لسعت حيةُ الهوى كبدي» يقال انها أنشدت امام نبي الاسلام والله اعلم!

٨ ـ وصف احمد زكي باشا مخطوطات سراي طوب قبو

نختتم هذا الفصل بما دوّنه شيخ العروبة احمد زكي باشا المصري عن خزائن مخطوطات سراي «طوب قبو» قال (١):

«... فيها خزانتان لا تزالان الى الآن: احداهما مشحونة بنفائس الكتب والدفاتر. والثانية مرصودة لغوالي الذخائر وبوادر الجواهر. فاما الاولى فكان محظوراً على الناس كلهم ان يدخلوها سوى امير المؤمنين بحاشيته ورجال دولته في موسمين اثنين لا ثالث لهما: يوم الجلوس على العرش وليلة القدر.

«فاما الثانية فكان فيها ولا يزال ما لا عين رأت ولا اذنٌ سمعت ولا خطر

---

(١) مجلة «الآثار الشرقية» في بيروت: مجلد ٤ حزيران ١٩٢٩ صفحة ٧١ ـ ٧٢

على قلب بشر. ولكن الدخول لم يكن مباحاً الا بارادة سنية. على ان الذي يتهمم به المتيم الهائم (احمد زكي بك) ويذوب شوقاً اليه فانما هو تلك الخزانة الاولى الحاوية لجواهر العقول. بل ذلك الكنز المرصود الذي بقيت ابوابه موصودة في وجوه جميع الوجوه والاعيان منذ اربعة قرون وستة اعوام. اي منذ ما عاد السلطان سليم باسلاب الدولتين المصرية والفارسية الى مقر ملكه بالقسطنطينية العظمى.

« وكان من عناية الله بي ان صديقي حسين حلمي باشا الصدر الاعظم أكرمني بتحقيق امنية لم يحلم بها انسان لغاية ذلك الزمان. فاستصدر فرماناً شاهانياً خاصاً يبيح دخول هذه الخزانة المطلسمة الساحرة لشخص احمد زكي بك (١) المصري. فكانت هذه الاكرومة من قبيل الكرامات والمعجزات. وهكذا صارت هذه الخزانة مقرّاً لابن النيل ومركزاً لعمله طول النهار مدة اربعة شهور متواليات ».

---

(١) ترقى احمد زكي باشا الى رتبة الباشوية بعد صدور الفرمان الشاهاني المذكور.

الفصل الثالث والثلاثون

خزائن كتب الروملي والاناضول

اولا - مكتبات الروملي

يطلق اسم « روملي » على الولايات التي كانت تابعة للسلطنة العثمانية في اوروبا . اما « الاناضول » فهو قسم من الاقطار الخاضعة للجمهورية التركية في آسيا . وفي البلاد المذكورة مكاتب كثيرة تشتمل على مخطوطات عربية ذات شأن خطير . وقد تعهدها الرّحالة العربي الشيخ خليل الخالدي في الربع الاول من القرن العشرين واطلع على كنوزها الثمنية . فرأينا ان نوجز الكلام عنها مستندين الى ما ورد في كتاب « مجمع الآثار العربية » المطبوع في دمشق (١) :

١ - مكتبة « قره فريه » في ضواحي سلانيك قضى الله عليها بان تكون بيد اناس لا يقيمون للعلم وزناً . الا انه بالرغم من ذلك بقي منها شيء له قيمته العلمية .

٢ - مكتبة « الغازي اورنوس » في « يخه » وهي بلدة ارسطو الذي وضع علم المنطق . فيها « كتاب الاجماع » لابن حزم لا وجود له في المشرق ولا في المغرب.

٣ - مكتبة « سيروز » وهي عظيمة لِما فيها من المخطوطات النفيسة الجليلة .

٤ - مكتبة «السلطان سليم» في ادرنة مقرّها في الجامع المنسوب اليه. وهي مكتبة لا نظير لها في تلك الاصقاع . فيها من الاصول الصحيحة ما يبهر العقول لانها حوت كتب السلطان مراد الثاني والد السلطان محمد الفاتح

---

(١) جزء ١ صفحة ١٢٨ — ١٢٩

٥ ـ مكتبات « قالقان دلن » و « جامع الفاتح في اسكوب » و « برشتنه » و « برزرين » .

ثانياً ـ مكتبات الاناضول

١ ـ مكتبات « بورصة » هي حافلة بكثير من المخطوطات النفيسة . وكانت « بورصة » مقراً للسلطنة العثمانية في سالف الازمان .

٢ ـ مكتبات قونيه : اولاها « مكتبة جلال الدين الرومي » وثانيتها « مكتبة ابن قرمان » فيها كتب نادرة الوجود . وثالثتها « مكتبة يوسف بك » وهي كخزائن الملوك الكبرى في الاستانة . والرابعة « مكتبة الصدر القونوي » صاحب مفتاح الغيب . وفيها كتب الشيخ محيي الدين العربي التي كانت ملكاً له وعليها خطه . منها نسخة « الفتوحات المكيّة » و « المحجة البيضاء في الاحكام المنقولة عن الائمة الاعلام من السنن والآثار ومذاهب علماء الابصار » .

٣ ـ المكتبة « المرادية » في مغنيسا تحوي من الكتب والآثار ما يذهل العقول . وعلى بعض كتبها خطّ امام المتكلمين بما وراء النهر نجم الملة والدين النسفي صاحب التآليف في الاصول والكلام .

الباب الرابع

المكتبات الاسلامية الخاصة

اجملنا البحث حتى الان عن دور الكتب الاسلامية العامة التي انشأها الخلفاء والسلاطين والوزراء في اقطار البلاد العربية وغيرها. وهناك مكتبات تابعة للمساجد والمدارس والمارستانات وغيرها لا تدخل تحت حصر ولا تقلّ مجلدات بعضها عن مجلدات دور الكتب العامة. ومن هذا القبيل ايضاً الخزائن الخاصة التي اقتناها الادباء والاغنياء وجهابذة العلوم لانفسهم في انحاء العالم الاسلامي. بينها ما هو مجهول لشدة حرص ذويه الذين لا يسمحون لاحد ان يطلع على مكنونات خزائنهم الثمينة.

بناء عليه لا نرى مندوحة عن ذكر ما اتصلت بنا معرفته من اخبار المكتبات الخاصة ولا سيما الحديثة العهد استيفاءً للموضوع الذي نحن بصدده. وهو موضوع شاقّ كثير الشعاب لا يتسنى لمؤرخ ان يُلم به من جميع اطرافه مهما عانى من التنقيب والدرس والصبر والاجتهاد. وعلى رغم تلك المصاعب صرفنا اقصى العناية فجمعنا ما تيسر لنا جمعه من انباء الخزائن المشار اليها واثبتناها في ما يلي (١):

---

(١) نحيل القارىء الى مطالعة اخبار بعض المكتبات القديمة الخاصة في فصل لاحق عنوانه: «غلاة الكتب وهواة المكتبات»

الفصل الاول

خزائن كتب الجمهورية اللبنانية

اولا : مكتبات بيروت

١ ـ مكتبة الامير ناصر الدين خضر

هو الامير ناصر الدين الحسين بن سعد الدين خضر بن نجم الدين محمد امير الغرب عاش في ايام الملك الناصر محمد بن قلاوون (٦٩٣ — ٧٤١ هـ) .

كان الامير ناصر الدين اديباً جليلًا في عصره ونظم كثيراً من الشعر الرقيق . ورغب في اقتناء المخطوطات فحصل منها طائفة كبيرة غالبها دواوين شعر وتواريخ بينها اربع نسخ من ديوان المتنبي عتيقة جداً (١) . وروى صالح بن يحيى ان شرف الدين يعقوب بن عبد الحق كتب لناصر الدين « مرآة الزمان » والذيل عليها . ونسخ له ايضاً عدة كتب فكان ما نسخه له نيفاً وثلاثين مجلداً كبيراً ضخم الحجم . وقد رآها صالح بن يحيى بعينه وذلك غير الذي شاهده من خزائن كتب الامير (٢) الذي حلت وفاتهُ سنة ٧٥١ للهجرة (١٣٥٠ م)

٢ ـ الخزانة الاحدبية

انشأها الشيخ ابرهيم بن علي الاحدب (١٢٤٢ — ١٣٠٨ هـ) احد اركان النهضة العلمية في القرن التاسع عشر . وكان نابغة في حفظ اشعار المتقدمين والمتأخرين يُملي

---

(١) راجع ترجمته في كتاب « تاريخ بيروت » لصالح بن يحي : صفحة ٨٧ — ٨٨

(٢) تاريخ بيروت : صفحة ٩٧

عن ظهر قلبه متوناً شتى من الصرف والنحو والمعاني والبيان والمنطق ومن مقامات الحريري وغيرها. وكان ايضاً على اطلاع وافر من امثال العرب وتواريخهم ووقائعهم ونوادرهم. وعلى اشتغاله بالتدريس والتأليف فقد نقل بخطه الظريف الانيق ما ينيف على الف كتاب ورسالة (١) احرزنا بعضاً منها في خزانتنا الخاصة وفي دار الكتب اللبنانية ببيروت. ذلك عدا ما اقتناه الشيخ ابرهيم الاحدب من كتب مخطوطة ومطبوعة تجمعت في «الخزانة الاحدبية» فاقتسمها من بعد وفاته ابناؤه واحفاده.

وشاهدنا في مكتبة نجله حسين بك الاحدب (١٢٨٨–١٣٥٩هـ) وزير النافعة في الجمهورية اللبنانية بقية صالحة من خزانة والده لا ينقص عدد مخطوطاتها عن مائة وخمسين مجلداً. وبين تلك المخطوطات سبعون مجلداً نقّتها يراعة والده الشيخ ابرهيم الاحدب. وقد انتقلت هذه الثروة الادبية الى ابرهيم بك وفائز بك نجلي حسين بك وهما شديدا الحرص على تراث ابيهما وجدهما.

٣ ـ مكتبة الشيخ مصطفى الغلاييني

للشيخ مصطفى الغلاييني قاضي بيروت بعض مؤلفات تدل على علو كعبه في العلوم العربية نظماً ونثراً. وقد نزعت نفسه منذ صغره الى احراز الكتب فتجمع لديه منها خزانة حافلة بالمؤلفات ولا سيما العلوم الشرعية والدينية. ولما تعهدنا هذه الخزانة الفيناها حسنة الترتيب يناهز عدد محتوياتها الفي كتاب. وقد اشترتها بعد وفاته دار الكتب اللبنانية.

٤ ـ الخزانة المحمصانية

انشأها الشيخ احمد المحمصاني الذي تخرج في جامعة الازهر واشتغل ردحاً من زمانه في دار الكتب المصرية بالقاهرة. وقد ورث محبة الكتب عن والده السيد

---

(١) فرائد اللآل في مجمع الامثال: المقدمة: صفحة ٣

عمر صاحب « المكتبة الحميدية » التي كانت ملتقى ادباء بيروت وعلمائها. فاجتمع لديه بتوالي الاعوام خزانة ثمينة انطوت على زهـــاء الف وستمائة مجلد في شتى العلوم والفنون. بينها مائة وعشرون مخطوطاً لا تخلو من النوادر.

٥ ـ مكتبة آل ابي النصر

تتحدّر اسرة ابي النصر من السيد عمر اليافي (١١٧٣–١٢٣٣ هـ) احد مشاهير شعراء المسلمين في اوائل القرن الثالث عشر للهجرة. ومن سلالته اشتهر ابنه المحدّث الفقيه الشيخ محيي الدين اليافي المتوفى سنة ١٣٠٤ للهجرة وحفيده الشيخ عبدالكريم ابو النصر (١٢٨٢ – ١٣٥١ هـ) نقيب الاشراف في بيروت. وقد نظم مؤلف هذا الكتاب البيتين التاليين لدى تعيين الشيخ عبد الكريم في المنصب المذكور قال:

يا شيخنا عبد الكريم لقد سعت ... طوعاً اليك نقـــابة الاشرافِ
انت الخليق بها ومُعلي شأنها ... في قطرنا بالعزّ والانصـافِ

وللشيخ عبد الكريم نجلان اولعا بالعلم والتأليف وجمع الكتب وهما عمر وعادل: فعمر ابو النصر جمع خزانة كتب حوت زهاء ثلاثة آلاف مجلد في اللغات العربية والانكليزية والفرنسية. اكثرها تاريخ ثم ادب ثم علوم اجتماعية. وليس فيها كتاب قديم بل كلها كتب حديثة مطبوعة طبعاً متقناً. ومن ميزاتها انها تشتمل على اغلب ما وضعه المستشرقون في التاريخ الاسلامي او نشره بعض رواحل الافرنـج عن الاقطار الشرقية. وتحتوي ايضاً على اهمّ التراجم الادبيـــة والتاريخية التي لا يستغني عنها صاحب هذه الخزانة في ما يتعاطاه او ينشره من الابحاث.

اما عادل ابو النصر المهندس الزراعي فقد انشأ بجانب مكتبة شقيقه خزانة كتب لا تحوي الا كتباً تتعلق بفن الزراعة. وعلى رغم حداثة عهدها فان عددها يتجاوز الآن سبعمائة وخمسين مجلداً. ومعظم تلك المجلدات تدور ابحاثها حول الحشرات والامراض النباتية التي نشر عنها السيد عادل الشيء الكثير على صفحات المجلات والجرائد او في كتب خاصة.

٦ ـ مكتبات آل بيهم

كان الحاج حُسين بيهم (١٢٤٩ – ١٢٩٨ هـ) من صفوة ادباء بيروت وخيار اعيانها. تولّى رئاسة «الجمعية العلمية السورية» وساهم في تحرير مجلتها الخاصة. وكان حريصاً على اقتناء الكتب حتى جمع منهـــا خزانة عظيمة (١) اشتهر امرها بين الخاص والعام. ومن حسناته انه ما منع طالباً عن استعارة ما يريـده من تلك الكتب بحيث كان الكتاب يبقى اعواماً لدى المستعير ولعله نسيه عنده او تناساه(٢)

وحوت مكتبة الحاج حُسين من المخطوطات القديمة فضلاً عن المطبوعات الكثيرة العدد ثلاثمائة وسبعين مخطوطاً لم يزل جانب منها محفوظاً بكل حرص عند اولاده واحفاده .

ومن اركان أسرة بيهم في ايامنا السيد محمد جميل بيهم الذي خدم الأدب قولا وعملا بآثار قلمه المفيدة . ثم انشأ خزانة آهلة بكتب نادرة ووثائق خطية قديمة جمعها بكده وانفق عليها بسخاء .

٧ ـ مكتبة الشيخ سعيد اياس

الشيخ سعيد اياس من افاضل المسلمين ووجهائهم في بيروت. ورث عن والده ثروة واسعة وما لبث ان تعمم وانقطع الى طلب العلم. وقد انشأ في منزله خزانة امتازت عن غيرها من الخزائن بما حوته من الاسفار التي نشرها علماء الاستشراق. فكان لا يبخل ان يدفع ثمن الكتاب غالياً مهما بلغت قيمته . هكذا ازدخر في خزانته طائفة معتبرة من الكتب العربية المطبوعة في انحاء اوروبا والهند وفارس وسوريا ولبنان ومصر.

---

(١) معجم المطبوعات العربية والمعربة : ليوسف اليان سركيس : صفحة ٦٢١
(٢) تاريخ الصحافة العربية: لفيليب دي طرازى : مجلد ١ صفحة ١١٨

٨ ـ مكتبة جميل العظم

ينتمي صاحب هذه الخزانة الى اسرة « العظم » الدمشقية التي قام منها احد عشر والياً تولوا حكومة سوريا في القرنين الاخيرين. وكان مولده في دمشق وقضى معظم ايامه في بيروت مفتشاً لمديرية المعارف. وانصرف جميل بك العظم (١٢٩٠ـ ١٣٥٢ هـ) الى الدرس والتأليف فنظم الشعر الجيد ونشر مجلة « البصائر » وصنف بعض مؤلفات اشهرها كتابه « عقود الجوهر في من لهم خمسون مؤلفاً فاكثر ». واتصف جميل بك باقتدار عجيب في تقليد الخطوط العربية واصلاح المخطوطات القديمة على اختلاف انواعها وبلدانها وعصورها. وبلغت براعته في ذلك انه كان يسكب على كل نوع من الخطوط طابعه من حيث الكتابة والورق والحبر والقلم. وكثيراً ما تعذر على اهل الخبرة ان يميزوا بين الاصلاح الحديث والاصل القديم في مخطوطات خزانته. واعتكف جميل بك على جمع الكتب فاحرز منها ما اناف على الفي مخطوط بين غثّ وسمين ورتب لها فهرساً خصوصياً. غير ان عسراً مالياً انتابه في شيخوخته اضطره الى بيع قسم مهم من تلك المخطوطات ولا سيما النادرة منها(١)

٩ ـ الخزانة الناصرية

للشيخ محمد ناصر كلف شديد بالكتب يجمعها ويطالعها ويعتني بها ويحافظ عليها جهده. وعرفنا له هذه المزية منذ عهد الصبا اذ كنا نشاهده يتردد على الادباء ويختلف الى باعة الكتب لانتقاء المفيد منها وضمه الى خزائنه. هكذا تجمع لديه مكتبة حافلة بنفائس ونوادر لا اثر لها عند غيره على الاطلاق. ومما يجدر بالذكر ان دار الكتب اللبنانية لما احتاجت الى بعض مؤلفات نفدت من الاسواق راجعته في امر ابتياعها من مكتبته. فلبى طلبها دون تردد خدمة للعلم والادب.

---

(١) طالع ترجمة جميل العظم بقلم عيسى اسكندر المعلوف في « مجلة المجمع العلمي العربي »: مجلد ١٤ صفحة ٥٦ ـ ٦١

١٠ ـ سائر المكتبات الاسلامية الخاصة في بيروت

في بيروت عدة مكتبات اسلامية خاصة عدا المكتبات التي اثبتنا اسماءها ووصفناها فيما سبق . اهمها : مكتبة كلية المقاصد الخيرية . ومكتبة الكلية الشرعية ومكتبة الشيخ عبد الرحمان سلام امين الفتوى وفيها بعض المخطوطات النادرة . ومكتبة السيد عمر الفاخوري احتوت على طائفة غير قليلة من الكتب الفرنجية العصرية . ومكتبة آل الانسي وفيها مخطوطات جمة موروثة عن الاجداد . ومكتبة الشيخ هاشم الخليلي وقد باع ورثته قسما وافراً منها . ومكتبة الدكتور حسن الاسير احتوت على مذكراته بخط يده في ثلاثة عشر مجلداً مع مخطوطات اخرى في الطب . ومكتبة الاستاذ احمد رمضان مدير مدرسة دار المعلمين . ومكتبة السيد راشد طباره الخ الخ .

ثانياً : مكتبات جبل لبنان

١ ـ الخزانة الارسلانية

انشأها الامير محمد ارسلان (١٨٣٨ – ١٨٦٨ م) وهو اول رئيس تولى الجمعية العلمية السورية التي تأسست بتاريخ ١٥ كانون الثاني ١٨٦٨ في بيروت(١) . واشتهر هذا الامير بمعارفه وتآليفه وترويج اسواق العلوم بين ابناء وطنه . اذ كانت داره مجلساً لروّاد الادب وطلاب الحكمة (٢) . وكان مركز الخزانة الارسلانية قصبة الشويفات مسقط رأس الامير . وكانت حاوية جلّ المطبوعات العربية في عصره فضلاً عن مخطوطات بلغ عددها ثلاثمائة مخطوطاً في التاريخ والادب والفقه والفلك

---

(١) تاريخ الصحافة العربية : مجلد ١ صفحة ٧٥ (٢) الآداب العربية في القرن التاسع عشر : تأليف لويس شيخو : جزء ١ صفحة ٨١ ـ ٨٢

والطب والفلسفة . وانتقلت من بعده الى اخيه الامير مصطفى الذي حافظ عليها مدة حياته وافرد لها مكانا فسيحاً في قصره بعين عنوب . وبعدما اقتسمها ورثته تشتت شملها فاصبحت اثراً بعد عين .

٢ ـ الخزانة الجنبلاطية

آل جنبلاط من اقدم الاسر الدرزية وانبلها في جبل لبنان . وتاريخهم طافح بامجاد ومكارم يتوارثها خلفهم عن سلفهم جيلا بعد جيل. واشتهر بينهم رجال تولوا مناصب عالية فأجمعت القلوب والالسنة على محبتهم وامتداح عدالتهم والتحدث بمروءتهم وسخاء ضيافتهم (١)

جمع آل جنبلاط منذ قديم الزمان مخطوطات وافرة نادرة في قصريهم بالمختارة وبعذران في لبنان الجنوبي. وقد روى لنا سليلهم علي باشا جنبلاط المتوفى سنة ١٣٣٤ للهجرة (١٩١٥ م) ان القسم الاكبر من تلك المخطوطات تبعثر او نُهب او احترق اثناء فتن اهلية انتابت جبل لبنان. واطلعنا نحن بنفسنا على بقية منها في منزله في ميناء الحصن ببيروت وكان شديد الحرص عليها. وانشأ المأسوف عليه حكمت بك جنبلاط وزير الزراعة في الجمهورية اللبنانية خزانة حديثة على انقاض تلك الخزانة القديمة. فحشد في داره من الكتب ما يناهز الفاً وخمسمائة مجلد ينطوي اغلبها على ما يتعلق بتواريخ لبنان والبلاد المجاورة له. واعتنى حكمت بك خصوصاً بالأسفار التي كتبت عن اسرته باية لغة كانت عربية وافرنجية . وقد نسقها تنسيقاً عصرياً واستصنع لها بطاقات دوّن فيها عناوين الكتب واسماء مؤلفيها وغير ذلك من الفوائد. واصبحت الان في حوزة ابن عمه كمال بك جنبلاط وزير الاقتصاد.

٣ ـ مكتبة غندور زيتونه

غندور زيتونه درزي المذهب وُلد في لبنان باواسط القرن التاسع عشر.

---

(١) اخبار الاعيان في جبل لبنان : للشيخ طنوس الشدياق : صفحة ١٢٩ ـ ١٦١

وكف بصره وهو في الثالثة من سنه واشتهر منذ صباه بالدهاء وتوقّد الذهن. وعلى رغم انكفاف بصره فقد تلقى العلوم في مدارس الانكليز البروتستنت فجاراهم في تعاليمهم واحرز ثقتهم وتزوج احدى فتياتهم. وكان اختلاطه بهم مدعاة الى ترقي افكاره وترغيبه في تعزيز المعارف بين ابناء جلدته. فحصر اهتمامه بهذا الامر مدة حياته كلها وانشأ للدروز في بعض قرى الشوف مدارس شتى من اموال جمعيات البروتستنت الذين كان منتمياً اليهم وعائشاً في نعمتهم. ولكثرة علاقاته بهم تخلق باخلاقهم ولم يأنف ان لبس القبعة الفرنجية مثلهم في رأسه بينما كان الدروز لا يعرفون حتى ذاك التاريخ لباساً للرأس سوى العمامة البيضاء. ولهذا السبب كان يعرف باسم « مستر زيتونه » لدى الخاصة والعامة.

ومن آثاره انه خلف خزانة حافلة بالكتب العلمية على اختلاف الموضوعات بلغ عدد مجلداتها زهاء الف وخمسمائة مجلد. ومن اهم محتوياتها القسم العربي للحروف الناتئة التي يستعملها العميان في القراءة ويبلغ عدده اكثر من مائتي كتاب (١). وقد اعتنى غندور زيتونه خصيصاً بهـــذا القسم العمياني لانه كان ضريراً ومحباً للمطالعة. وعملا بوصيته الشرعية اصبحت هذه المكتبة بعد وفاته وقفاً على مدرسة قرية « عيتات » مسقط رأسه تشرف عليها زوجته الانكليزية بالاشتراك مع لجنة من مشايخ القرية. وبالرغم من بقائها سالمة فانه لا ينتفع منها احد لما انتابهـا من الاهمال وقلة الترتيب بعد وفاة واقفها في ١١ ايار ١٩١٤

ثالثاً : مكتبات صيدا وجبل عامل

١ ـ مكتبة الجامع الكبير في صيدا

يُعرف الجامع الكبير في صيدا بالجامع العمري نسبة الى عمر بن الخطاب. وكان

---

(١) استندنا في اثبات عدد مجلدات هذه المكتبة الى رواية احد المقربين من غندور زيتونه والقاطنين بجواره

فيما قيل كنيسةً للنصارى ثم تحول الى مسجد في زمن الفتوحات الاسلامية .غير ان البحر طغا سنة ١٨٢٠ فقوّضه وجعله قاعاً صفصفاً. وما عتم ان تجدد بناؤهُ بطراز ظريف جداً واشتركت في نفقاته حكومة تلك المدينة وادارة اوقافها وبعض ذوي الاحسان . وهو الآن اجمل مسجد في صيدا ببنائهِ وهندستهِ وموقعه وسائر مميزاته.

والحق بالجامع العمري المشار اليه مكتبة احتوت على طائفة من الكتب قديمة وحديثة تغلب عليها المواضيع الدينية . والدخول الى المكتبة ومطالعة ما فيها من الاسفار مباحان لكل من اراد من روّاد العلم (١) .

٢ ـ مكتبات جبل عامل اجمالا وعبث الجزار فيها

لابناء الشيعة في جبل عامل صفحة ادبية سجلها لهم افاضل كتبتهم في القرون الاخيرة . وقد وردت تراجم هؤلاء الادباء في تآليف شتى نذكر منها . كتاب « امل الآمل » للشيخ محمد بن الحسن الحر العـــاملي . وكتاب « لؤلؤة البحرين » للشيخ يوسف البحراني . وكتاب « تراجم اعيان دمشق » تأليف ابن شاشو . وكتاب « الدر المنثور » للشيخ علي .وكتاب «الذريعة الى تصانيف الشيعة » لمحمد محسن الشهير بالشيخ آغا بزرك الطهراني وغيرها .

ولما كان المقال يطول بنا في سرد جميع من انجبه هذا الجبل في حقل الادب رأينا ان نقتصر على ذكر احدهم الشيخ زين الدين العاملي الجبعي (٩١١-٩٦٥هـ) فقد كان امام عصره في التحقيق وكثرة التصنيف مع الاجادة حتى بلغت مصنفاته ما بين مطول ومختصر ستين كتاباً . وبلغ ما كتبه بخط يده من الكتب مائة كتاب (٢)

وقد حمل الشغف بالادب فريقاً من ابناء الشيعة في جبل عامل على انشاء خزائن

---

(١) تاريخ صيدا : لاحمد عارف الزين : صفحة ١٠٨

(٢) مجلة المجمع العلمي العربي : مجلد ٩ سنة ١٩٢٩ صفحة ٣٤٤

حفلت بمخطوطات عربية كثيرة العدد متشعبة المواضيع . غير ان اكثرها ذهب ضحية الجهل والنهب والحريق بعدما اجتاحها الجزار وعاث فيها عام ١٢٠٩ للهجرة (١٧٩٤ م) . وحكاية ذلك انه حدث خلاف بين احمد باشا الجزار والي عكا واعيان الشيعة في جبل عامل ادّى الى ثورة اهالي هذا الجبل عليه . فجهّز الجزار جيشاً فتك بهم واهلكهم حتى افنى الحرث والنسل (١) .

وافضت الغباوة بالجزار الى ان ينهب مخطوطاتهم ويحتفظ بقسم منها في خزانة الجامع المعروف باسمه في مدينة عكا . وروى بعضهم انه وزّع قسماً آخر من تلك المخطوطات على افران عكا فظلت النيران تلتهمها مدة ثلاثة ايام بلا انقطاع . وبعد تلك النكبة لم يبق من ذخائر المخطوطات في جبل عامل الا ما سلم من مكتبة آل خاتون التي جمعت في ايام عزها خمسة آلاف مجلد (٢) .

٣ ـ اهم المكتبات الخاصة في جبل عامل

من اهم المكتبات الخاصة التي اشتهرت في جبل عامل مكتبة آل الصغير ومكتبة الشيخ ابرهيم يحيى ومكتبة الشيخ زين الدين . وكان الشيخ عبدالله نعمة يملك في قرية « جباع » خزانة مخطوطات عزّ نظيرها بين المكتبات الخاصة . ومن نفائسها « شرح المعلقات » وكتاب « تاريخ بغداد » في مجلدين وكتاب « رسوم دار الخلافة » وغير ذلك .

وقد تبعثر بتوالي الايام اغلب تلك المكتبات لان العسر المالي ضرب اطنابه بين سكان جبل عامل فاضطر اصحابها الى بيع مخطوطاتهم . فاقتنينا ما وجدناه بينها موافقاً ومفيداً من كتب الطب والفلك واللغة والادب والتاريخ .

وعُرضت طائفة مهمة من بقايا تلك المكتبات على الكردينال اغناطيوس

---

(١) مجلة « العرفان » في صيدا : لاحمد عارف الزين : مجلد ٥ صفحة ٢٣

(٢) مجلة « الآثار » في زحلة : لعيسى المعلوف : مجلد ٣ صفحة ٤٣٩

جبرائيل تبوني بطريرك السريان الانطاكي في بيروت . فانتقى عدداً غير يسير من نفائسها وغرائبها على اختلاف المواضيع والابحاث بينها كتب الفقه الجعفري مما لا اثر له في المكتبة الواتكانية برومة . وقد اهداها برمتها سنة ١٩٣٧ الى البابا بيوس الحادي عشر الذي اهداها بدوره الى المكتبة المذكورة .

اما المكتبات الخاصة التي أنشأها حديثاً ابناء الشيعة في صيدا وفي جبل عامل فهاك اشهرها : مكتبة الشيخ احمد عارف الزين منشىء مجلة « العرفان » بصيدا . ومكتبة الشيخ احمد رضا في النبطية . ومكتبة الشيخ سليمان الضاهر وغيرها . وهي من انفس المكتبات العصرية واغناها في الاصقاع المذكورة . ولا تخلو ايضاً من مخطوطات قديمة لها شأنها عند عشاق الآثار الكتابية .

رابعاً : مكتبات طرابلس الشام

١ ـ مكتبة الشيخ مصطفى الميقاتي

كان الشيخ مصطفى ابن ابي بكر الميقاتي من اجلاء اهل العلم في طرابلس . وقد اوقف مكتبة عظيمة سنة ١٠٨٨ هجرية (١) على الجامع الكبير المنصوري في المدينة المذكورة .

٢ ـ مكتبة آل كرامي

من اقدم الأسر واشهرها في طرابلس الفيحاء آل كرامي الذين تولوا فيها منصب الافتاء منذ نيف ومائة سنة . وقد انشأ جدهم المفتي عبد الحميد كرامي (١٢١٢ ـ ١٢٩٧ هـ) خزانة مخطوطات انتقلت بعد وفاته الى ابنه الشيخ مصطفى الذي خلف اباه في منصبه . وقد اعتنى الشيخ مصطفى بتلك الخزانة وزاد عليها

---

(١) تراجم علماء طرابلس وادبائها : صفحة ٥٦

حتى انه ما كان يدع مكتبة تُباع في المزاد العلني الا اشتراها. هكذا تجمعت لديه ما ينيف على ستمائة مخطوط تبحث في شتى المواضيع من دين وادب وتاريخ وفلسفة وطب وفلك وغيره وغيره .

ثم انتقلت هذه الخزانة الى حفيده الشيخ عبد الحميد كرامي (الثاني) الذي اضاف اليها كثيراً من المطبوعات اللبنانية والسورية والمصرية ومطبوعات الجوائب في الاستانة. وقد فتح ابوابها للباحثين والمنشئين يرتادونها للمطالعة . وفي مطلع سنة ١٩٤٥ تعين رئيساً للوزارة اللبنانية فساسها بالحكمة والنشاط والنزاهة.

٣ ـ مكتبة محمد باشا المحمد

كان محمد باشا المحمد زعيماً لعشيرته في عكار في النصف الاول من القرن الرابع عشر للهجرة. وقد انشأ في قريته « مشحا » خزانة كتب جمع فيها نحو مائتي مخطوط ما عدا الكتب المطبوعة وحبسها للنفع العام. ثم نُمي الينا ان الشيخ امين عز الدين قاضي طرابلس سابقاً ضم ما تبقى من المكتبة بعد وفاة منشئها الى اوقاف هذه المدينة ووضعها في الجامع المنصوري الكبير . لان بعض الايدي امتدت اليها واختلست قسما من مجلداتها .

٤ـ مكتبة آل الجسر

يرتقي عهد هذه المكتبة الى الشيخ محمد الجسر (١٢٠٧-١٢٦١ هـ) الطرابلسي فقد جمع فيها كتباً صوفية وفقهية تستحق الاعتبار . ثم اضاف اليها ابنه الشيخ حسين (١٢٦١ - ١٣٢٧ هـ) اسفاراً ادبية وعلمية وتاريخية . وبعد وفاة الشيخ حسين اقتسم الكتب ولداه الشيخ محمد يمن الجسر المتوفى سنة ١٣٥٣ للهجرة والشيخ نديم الجسر .

ولما عُين الشيخ محمد يمن الجسر رئيساً لمجلسي الشيوخ فالنواب منذ السنة

١٩٢٦ في الجمهورية اللبنانية اتخذ بيروت العاصمة مقراً لسكناه. وانتهز تلك الفرصة فنقل اليها حصته من المكتبة المذكورة. وبتوالي الايام زاد عليها كتباً قانونية ومجموعات باللغة الفرنسية وطائفة معتبرة من الكتب العربية. وتتألف هذه الخزانة من نحو ثلاثة آلاف مجلد بينها مائة وخمسون مخطوطاً عربياً. وهي الآن في حوزة نجله الاديب السيد رشاد الجسر.

٥ ـ مكتبة آل نشابه

انشأها الشيخ محمود نشّابه الازهري (١٢٢٨ ـ ١٣٠٨ هـ) الذي كان من افاضل عصره (١) في طرابلس الفيحاء. وقد خلف خزانة حافلة بالكتب العربية على اختلاف اصنافها لم يبق منها لعهدنا سوى مائتي مجلد اكثرها مخطوط (٢)

٦ ـ مكتبة آل المغربي

من بيوتات العلم القديمة في طرابلس الشام آل المغربي الذين قام منهم علماء اعلام. واشتهر منهم في عصرنا البحاثة اللغوي الشيخ عبد القادر نائب رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق.

خلف اسلاف آل المغربي في طرابلس الفيحاء خزانة كتب معتبرة احتوت ماعدا المطبوعات على ثلاثمائة مخطوط اتى على وصفها الشيخ عبد القادر في كتاب مخصوص لانها محفوظة لديه في دمشق. وقرأنا مقالا لصديقنا الاستاذ الجليل عبدالله مخلص عن محتويات هذه الخزانة النفيسة فالمع الى ما فيها من نوادر المخطوطات الدينية واشباهها. ثم سرد اسماء نفائس المخطوطات الادبية وما يتصل بها. وذكر ما تضمنته من الرسائل والمجاميع الثمينة التي لا وجود لنظيرها في غير خزائن. ومن شاء زيادة ايضاح عن ذخائر الخزانة المغربية فعليه ان يراجع كتاب صاحبها الشيخ عبدالقادر ومقال الاستاذ عبدالله مخلص (٣)

---

(١) تراجم علماء طرابلس وادبائها: صفحة ٩٤ ـ ٩٥ (٢) عن رسالة وجهها السيد مصطفى كرامي من طرابلس الى السيد صلاح عثمان بيهم في بيروت بتاريخ ٢٦ ايار ١٩٣٨
(٣) مجلة المجمع العلمي العربي: مجلد ١٨ صفحة ١٢٣ ـ ١٣٠

الفصل الثاني

خزائنه كتب سوريا

اولا : مكتبات دمشق القديمة

١ ـ اشهر الخزائن المحبسة على الجامع الاموي

لا يكاد يخلو مسجد او مدرسة في عاصمة الامويين من خزانة كتب يطالعها العلماء ويرجع اليها ائمة الحديث . وفي طليعة خزائن دمشق نذكر خزانة الجامع الاموي التي حبس عليها فريق من ارباب الدين كتبهم ومصنفاتهم . فقد اثبت المؤرخون ان علي بن طاهر السلمي النحوي المتوفى سنة ٥٠٠ للهجرة كانت له حلقة في الجامع الاموي وحبس عليه كتبه . وكان لتاج الدين الكندي (٥٢٠-٦١٣هـ) ايضاً خزانة كتب في الجامع المشار اليه احتوت على كل نفيس ونادر (١) . ووقف شرف الدين بن عروة الموصلي خزائن كتبه على مشهد ابن عروة في الجامع الاموي عينه .

٢ ـ اشهر الخزائن المحبسة على المدرسة العمرية

كان في المدرسة العمرية خزائن كتب عديدة وقفها عليها اناس مشهورون . قال ابن طولون: وبها كتب السيد الحسيني وهي كتب نفيسة قيّمة. وبها كتب قوام الدين الحنفي، وبها كتب الشمس البانياسي. وبها كتب الحافظ بن عبد الهادي. وبها كتب شهاب الدين بن منصور . وبها كتب البدر بن ديوان الجيش. وفيها مصحف بخط علي (رضه). وبها ايضاً كتب ابن طولون نفسه وقد صارت اليوم الى المكتبة الظاهرية وعليها خطه.

---

(١) بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة : للسيوطي : صفحة ٢٤٩

وفي غرفة القرآن وهي المقصورة خزانتان شرقية وغربية كان يجلس عندهما شيوخ الاقراء .فيها مصاحف كثيرة زادها محمد بن المبارك واقف المدرسة الحاجبية بخط زين الدين بن الحبال . وقد تبدّد اكثر كتبها (١) .

٣ ـ اشهر مكتبات دمشق الخاصة في القرون الغابرة

احرزت مدرسة الطب في دمشق شهرة واسعة بجهود مؤسسها مهذّب الدين الدخوار في القرن السابع للهجرة . فقد جمع فيها كتباً كثيرة واقتنى لها من آلات النحاس التي يُحتاج اليها في علم الفلك ما لم يكن عند غيره . وحبس قطب الدين النيسابوري خزانة كتب مهمة على احدى مدارس دمشق . ونهج نهجه ابن رواحة الحمـــوي المتوفى سنة ٦٢٢ للهجرة فحبس خزانة كتبه على مدرسة نُسبت اليه في دمشق. وذكر المؤرخون ان الملك الاشرف موسى حبس كتبه على المدرسة الاشرفية بدمشق ومات سنة ٦٣٥ للهجرة .

اما ابن ابي اصيبعة المؤرخ المشهور فقد كان له ولتلميذه ابن القف خزانة كتب عامرة في دمشق ايضاً . ولُقب بابي اصيبعة لانه كان يحمل في يده ستة اصابع يظهر ان الاخيرة منها كان «أُصيبعا» وقد توفي سنة ٦٤٩ للهجرة (٢) .

ومن خزائن دمشق القديمة الخاصّة خزانة تقي الدين البلداني حبسها سنة ٦٥٥ للهجرة على المدرسة الفاضلية بالكلاّسية . وخلف الفتح الفارقي المتوفى سنة ٦٩٤ للهجرة الفين ومائتي مخطوط . وخلف بـدر الدين بن غانم الدمشقي الفي مجلدة . ووقف علي الدفتري في القرن الحادي عشر للهجرة كتباً نفيسة غالية (٣).

---

(١) المدرسة العمرية : للدكتور محمد اسعد طلس (مجلة دمشق : مجلد ١ عدد ٧ صفحة ٣٧)
(٢) اطباء المستشفى النوري الكبير : بقلم الدكتور سامي حداد (مجلة الايمان : مجلد ١ نيسان ١٩٣٩ صفحة ٤٢) (٣) خلاصة الأثر : جزء ٣ صفحة ٢٠٠

٤ ـ مكتبات دمشق الخاصة في القرون الاخيرة

اما مكتبات دمشق الخاصة منذ القرن الحادي عشر للهجرة فصاعداً فاشهرها : مكتبة فضل الله الاسطواني الدمشقي (١٠٤٤ ـ ١١٠٠ هـ) الذي سافر الى بلاد الروم وحج وجمع من نفائس الكتب والذخائر ما لم يجتمع عند احد من ابنـــاء عصره (١) . ومكتبة الشيخ حسن العمادي المتوفى سنة ١٠٤٠ للهجرة كان سريع الكتابة صحيح الضبط كتب بخطه الكثير من الكتب . وقد وقف جميع كتبه على طلبة العلم بدمشق وهي محتوية على كل نفيس (٢). واشتهر في دمشق الشيخ خير الدين الرملي (٩٩٣ ـ ١٠٨١ هـ) الذي خلف من المخطوطات ما ينوف عن الف ومائتي مجلد معظمها من نفائس الكتب في شتى العلوم . وكان لديه من الكتب نسخ مكررة انتفع بها خلق لا يحصون (٣)

ونبغ في دمشق درويش محمد الطالوي الارتقي (٩٥٠ ـ ١٠١٤) هـ) الذي كان ماهراً في كل فن من الفنون عظيم الذكاء فصيح العبارة . وكان منشئاً بليغاً حسن التصرف في النظم والنثر . ذكر ابن البوريني عن الطالوي انه شيد في داخل داره بيتاً صغيراً سماه « بيت الفتاوى وموضع الكتب » . فلما نقل كتبه الى البيت المذكور كان يصفّها ويرتبها وينظر فيها ويقلبها وهو ينشد هذا البيت:

أقلبها حفظاً لها وصيانةً فيا ليت شعري من يقلبها بعدي (٤)

وعُرف يوسف بن حسن بن عبد الهادي من علمـــاء صالحية دمشق بجمع المخطوطات والحرص عليها . ادرك اوائل القرن العاشر للهجرة ووقف هذه الكتب في زهاء ستمائة مصنف لو عُدت مجلداتها لبلغت الفاً ونيفاً : بعضها من تصنيفه بخط يده وبعضها مجاميع شتى تشتمل على عدة مؤلفات ورسائل نبّه على عنوانها . وما

---

(١) خلاصة الأثر : جزء ٣ صفحة ٢٧٥ ـــ ٢٧٦ (٢) خلاصة الأثر : جزء ٢ صفحة ٧٨
(٣) خلاصة الأثر : جزء ٢ صفحة ١٣٤ ـ ١٣٩ (٤) خلاصة الأثر : جزء ٢ صفحة ١٤٩ ـ ١٥٥

كان منها بخط المؤلف نفسه مما يدل على شدة عناية القوم في ذلك العهد بانشاء المكاتب والتدقيق في الكتب (١)

وفي السنة ١٢٤٠ للهجرة وقف الشيخ خالد النقشبندي كتبهُ . وأوصى ان تكون التولية والنظارة عليها بيد اولاده الارشد فالارشد ثم اولادهم ما تناسلوا (٢) .

ثانياً : مكتبات دمشق الحديثة

١ ـ مكتبة الجامعة السورية

تأسست هذه الجامعة في ١٥ حزيران ١٩٢٣ وهي تُعد في العصر الحاضر مفخرة من مفاخر عاصمة بني امية . وقد شيدت لها الحكومة بناية فخمة في المرج الاخضر عند مدخل المدينة الغربي قريباً من بناية المتحف .

وتتكوّن هذه الجامعة من معهد الحقوق . ومعهد الطب والصيدلة . ومدرسة طب الاسنان . ومن فرعين للقوابل والممرضات . ويدرس الطلبة علومهم باللسان العربي على اساتذةٍ وطنيين . وقد اخذ اساتذة الطب على عاتقهم احياء علوم العرب بتأليف الكتب وترجمتها وتلقينها . وأصدر المعهد الطبي منذ السنة ١٩٢٤ مجلته المعروفة باسمه فكانت همزة الوصل بين الشرق والغرب تنقل من علوم الافرنج الى الامصار العربية كل مستحدث مفيد .

وللجامعة السورية مكتبة تعتبر اليوم في طليعة جميع المكتبات الخاصة بدمشق الفيحاء. وهي منسّقة تنسيقاً فنياً يسّهل طرق الاستفادة لكل من امّها من اساتذة وطلبة وزوّار. وعلى حداثة عهدها فان عدد ما احتوته من الأسفار بلغ زهاء عشرين

---

(١) خزائن الكتب في دمشق وضواحيها : بقلم حبيب زيات : صفحة ١٤

(٢) خزائن الكتب في دمشق وضواحيها : صفحة ١٥ — ١٦

الف مجلد بين عربي وافرنجي . وقد انهالت عليها الهدايا من مصادر شتى ولاسيما من الدولة الفرنسية التي اتحفتها بعددٍ وافر من الكتب العلمية الحديثة (١) .

٢ ـ مكتبة الامير عبد القادر الجزائري

ما من احد من الادباء يجهل منزلة هذا الامير الكبير الذي قرن السيف بالقلم وملك ناصيتي المجد والكرم. فانه بعدما طلق السياسة انصرف الى العبادة والعلم فكان مجلسه حافلا بالفقهاء والشعراء لا يفارقهم ولا يفارقونه. وله تآليف مفيدة في التصوف وعلم الكلام وبعض كتب ادبية. منها « ذكرى العاقل وتنبيه الغافل » نقله المستشرق غوستاف دوغـــا الى اللسان الفرنسي ثم طبعه سنة ١٨٥٨ في باريس (٢). وكان للامير سليقة شعرية ومن منظوماته قصيدة حماسية كثيراً ماتغنى في معاركه ضد الجيش الفرنسي باحد ابياتها الفخرية منشداً :

ومن عادة السادات بالجيش تحتمي وبي يحتمي جيشي وتحرس ابطالي

وازدان قصر الامير عبد القادر (١٢٢٢ — ١٣٠٠هـ و ١٨٠٧ — ١٨٨٣ م) بخزانة ضمّت انفس الكتب العربية والمصاحف الدينية من مخطوطـــات المغرب خصوصاً والاقطار الاسلامية عموماً. وقد اسعدنا الحظ فتعرفنا في حداثتنا الى هذا الامير الشهير وشاهدناه يطالع في خزانة كتبه فدهشنا بما فيها من غوالي الجواهر. وبعد وفاته عام ١٣٠٠ للهجرة تقاسمها ورثته العديدون فتشتت شملها وامست اثراً بعد عين (٣) .

---

(١) الجامعة السورية واثرها في البلاد العربية : بقلم رضا سعيد (مجلة دمشق : مجلد ١ عدد ١٢ صفحة ٣١ — ٣٨) .

(٢) الآداب العربية في القرن التاسع عشر : تأليف لويس شيخو : جزء ٢ صفحة ٩٠ـ٩١

(٣) راجع ترجمة هذا الامير في كتاب « تحفة الزائر في مآثر الامير عبد القادر واخبار الجزائر »

٣ ـ مكتبة ابي السعود الحسيبي

كان للسيد ابي السعود الحسيبي هيام بجمع التحف النادرة من آنية قاشانية واسلحة ثمينة واقمشة جميلة الى غير ذلك مما كانت داره مزدانة به. وكلف خصوصاً بحشد الكتب فأنشأ خزانة حوت من المخطوطات وحدها اكثر من الف مخطوط. وكان يحب اقتناء الكتب الممتازة بجودة خطوطها وزخارف جلودها ويفضلها على ما تفردت به من المزايا العلمية. لانه غلب عليه حب الفنون الجميلة والآثار القديمة. وانتقلت تلك التركة الغالية الى نجله السيد احمد الحسيبي نقيب الاشراف في دمشق ثم الى ورثتهما من بعدهما.

٤ ـ مكتبة محمود حمزة وحفيده خليل مردم بك

يتصل نسب السيد محمود حمزة الحسيبي باسرة قديمة جاءت من حرّان الى دمشق وتولى فضلاؤها نقابة الاشراف فيها عدة قرون حتى اشتهروا بآل النقيب. ثم اطلقت عليهم كنية «حمزة» نسبة الى حمزة الحرّاني احد اجدادهم.

ولد السيد محمود حمزة (١٢٣٦ ـ ١٣٠٥ هـ) بدمشق. وأحكم دروسه على افاضل علمائها. واعتكف منذ صباه على المطالعة والتدريس والتأليف والنظم. وتولى في السنة ١٢٨٤ للهجرة افتاء الديار الشامية واحرز مراتب علمية وأوسمة شريفة. واتحفه نابليون الثالث امبراطور فرنسا بجفتٍ مذهب في صندوق من عاج اقراراً بما صنعه من المبّرات الى نصارى دمشق على اثر حادثة سنة ١٨٦٠ المشؤومة. وكان صادقاً في قوله وفعله مقصوداً في قضاء الحاجات يحبّه الناس على اختلاف نحلهم. وكان اذا مرّ بطريق وقف له المارّون مهابة واجلالا وتسابقوا الى تقبيل يديه.

وحرص السيد محمود حمزة على اوقاته حرصاً ساعده على نظم القصائد البديعة

وعلى النهوض بمشاغله العديدة وتآليفه الجمة التي لا تقل عن الاربعين مجلداً (١) .

وورث السيد حمزة عن اجداده خزانة كتب غنية بمخطوطات قديمة . واضاف هو اليها شيئاً كثيراً مما اقتناه مدة حياته او نسخه بخطه الجميل الذي كان آية في الروعة والجودة . ويقال ان بعض تلك الكتب اتصل بحفيده الاديب الكبير خليل مردم بك امين السر العام للمجمع العلمي العربي. وهو يضنّ بها كل الضنانة . وقد ضمها الى خزانة كتبه التي تُعد على قلة عدد مجلداتها من اثمن المكتبات الخاصة وانفسها . وادركنا نحن السيد محمود حمزة في اواخر ايامه وجالسناه فاكبرنا علمه وفضله ومزاياه. ونظمنا في مدحهِ قصيدة بعثنا بها اليه من غابة ارز لبنان ونشرناها في ديواننا « قرة العين » (٢)

٥ ـ مكتبة ابي اليسر عابدين

يُعتبر آل عابدين من اقدم الاسر الدمشقية واشهرهم بالعلم والوجاهة . ولديهم خزانة كتب عززها سليلهم ابو اليسر عابدين انطوت على نيف وخمسمائة مخطوط فيها نوادر فريدة وذخائر عديدة .

٦ ـ مكتبة طاهر الجزائري

لا حاجة الى تعريف الشيخ طاهر الجزائري (١٢٦٨ – ١٣٣٨ هـ) وحسبهُ انه كان من اركان النهضة العلمية الحديثة في سوريا . ومن مآثره انه جمع خزانة كتب فيها بضعة آلاف مجلد كان معظمها مخطوطاً وبينها امهات ونفائس. وقد نقل اكثرها من دمشق الى القاهرة (٣) فابتاعها صاحب الخزانة التيمورية الشهيرة (٤) . وتفرغ

---

(١) تراجم مشاهير الشرق : جزء ٢ صفحة ١٨٧ ـ ٢٨١

(٢) ديوان « قرة العين » :صفحة ٦٣ ـ ٦٤

(٣) المشرق : مجلد ١٨ سنة ١٩٢٠ صفحة ١٤٨

(٤) مجلة « الآثار » في زحلة : مجلد ٣ سنة ١٩١٣ — ١٩١٤ صفحة ٤٣٦

الشيخ طاهر للتأليف فوضع كتباً عديدة تنقّل في مواضيعها من ادبية الى علمية الى دينية الى لغوية دلت على اجتهاده واتساع ذكائه . ونشر كتباً لقدماء المؤلفين وسعى لتعزيز الآداب العربية واحياء التاريخ بين قومه . ومن مخلفاته المخطوطة التي لم تنشر بالطبع كتابه « التذكرة الطاهرية » بحث فيه عن نوادر المخطوطات فوصفها واشار الى محل وجودها (١) . ويقع هذا الكتاب في عشرين مجلداً بنيف يتمنى الناطقون بالضاد ان يُطبع تعزيزاً للادب والتاريخ . وهو الآن في حوزة المجمع العلمي العربي .

وصرف الشيخ طاهر حياته منقطعاً الى مطالعة المخطوطات والتنقيب في المكتبات وتنظيمها ووضع فهارس لها تسهيلاً لاهل البحث . فاصبح مرجعاً للعلماء والمستشرقين يفاوضونه ويستندون الى معارفه في كل ما يتعلق بفن المؤلفات وعلم وصف الكتب. وقد تولى في شهر تشرين الاول ١٩١٩ ادارة المكتبة الظاهرية التي سعى لتأسيسها قبل اربعين سنة في عهد مدحت باشا والي سوريا. غير ان المنية عاجلته مصاباً بالربو الصدري في ٨ كانون الثاني ١٩٢٠ (١٦ ربيع الاخر ١٣٣٨) فكانت خسارته جسيمة على العلم واللغة (٢) .

٧ ـ مكتبة جمال الدين القاسمي

اشتملت هذه الخزانة على مئات المخطوطات الطريفة لان جمال الدين لم يكن يقتني المخطوط الا لميزة خاصة به او لنادرة لم ترد في غيره من نسخ ذلك الكتاب . وتفرد بحرصه على ان يكون موضوع كل مخطوط مشتملاً على قيمة علمية او طرفة فنية . وعلى رغم تقواه وسعة معارفه قلّ ما اكترث لاقتناء كتب الدين واللغة والادب لوفرة عددها وكثرة تداولها بين ايدي الطلبة والعلماء. وقد لبّى

---

(١) الآداب العربية في الربع الاول من القرن العشرين للاب شيخو : صفحة ٩٦
(٢) المشرق : مجلد ١٨ سنة ١٩٢٠ صفحة ١٤٤ — ١٤٨

داعي المنون سنة ١٣٣٢ للهجرة وهو في التاسعة والاربعين من سنيه . وخلف نحو عشرين مؤلفاً معظمها ديني (١) .

٨ ـ مكتبة آل الطنطاوي

لا نستطيع السكوت عن خزانة وحيدة في بابها انشأها آل الطنطاوي من قديم الزمان وتوارثها الخلف منهم عن السلف . وقد جمعوا فيها مخطوطات وادوات في العلوم الفلكية لم تزل باقية لديهم حتى الآن يضنون بها ويحافظون عليها .

٩ ـ مكتبة عبد المحسن الاسطواني

للشيخ عبد المحسن الاسطواني قاضي دمشق الشام خزانة عامرة تشتمل على ما نفس من المخطوطات والمطبوعات . لكنها لسوء الحظ مقفلة بوجه الخاصة والعامة لا ينتفع احد بكنوزها العلمية . وقد مُنيت هذه المكتبة باضرار جسيمة اثناء حريق اندلع لسان لهيبه في سوق الحميدية بدمشق . فاتصل بمخطوطات المكتبة وشوه محاسنها وأتلف جانباً منها (٢) .

١٠ ـ مكتبة محمد كردعلي

للاستاذ محمد كردعلي منزلة رفيعة احرزها بثقافته وحصافته وجهوده. وليست حياته الا سلسلة مآثر جليلة قرن فيها العلم بالعمل. فمن اشتغال في الصحافة الى تأليف كتب مستجادة الى رحلات علمية الى محاضرات تاريخية الى مراسلات ادبية الى جمع مخطوطات وتعزيز مكتبات الى تنقيب عن آثار قديمة الى عضوية في مجمع اللغة العربية الملكي الى تأسيس المجمع العربي الى غير ذلك من المفاخر الباهرة.

---

(١) مجلة « الاثار » : مجلد ٣ سنة ١٩١٣ — ١٩١٤ صفحة ٤٣٠

(٢) خطط الشام : لمحمد كردعلي : مجلد ٦ صفحة ٢٠٤

هذا هو الاستاذ محمد كردعلي وزير المعارف سابقاً في الدولة السورية ورئيس المجمع العلمي العربي بدمشق ومؤلف الكتب العديدة وفي طليعتها كتابه « خطط الشام ». وقد تجلت فيه تلك المآثر وهذه المفاخر بانشائه في داره خزانة عامرة ضم اليها كل غال من كتب التاريخ واللغة والفن والادب. ورتبها ترتيباً نمّ عن سلامة ذوقه فضلا عن شدة كلفه بجمع الكتب. وهي تنفرد بما حوته من الاسفار العربية التي نشرها المستشرقون على اختلاف بلدانهم ولغاتهم في اهم العلوم البشرية. اما مخطوطات مكتبته فقد اهداها برمتها الى الخزانة التيمورية في القاهرة وكانت على جانب من الخطورة والنفاسة.

١١ ـ مكتبة احمد الزيناتي

ليس احمد الزيناتي من ارباب الثروات او حملة الاقلام. لكنه صانع احذية في دمشق أولع منذ صباه بجمع المخطوطات المزخرفة وبدائع آثار الخطاطين. فكوّن منها خزانة معتبرة تعد وحيدة من نوعها في جميع الامصار العربية. وقد اقتنى طائفة منها مصطفى نور باشا الذي كان من اكبر غلاة المخطوطات المستبدعة في وادي النيل.

١٢ ـ مكتبة آل القوتلي

تُعتبر اسرة القوتلي من اوجه الاسر الاسلامية واقدمها في دمشق. ومن هذه الاسرة قام السيد شكري بك القوتلي رئيس الجمهورية السورية في زماننا الحاضر. وكان في حوزة آل القوتلي مكتبة عامرة اثبت عيسى اسكندر المعلوف ان مخطوطاتها بلغت نحو ثمانمائة فيها نوادر (١).

---

(١) مجلة الآثار في زحلة: مجلد ٣ سنة ١٩١٤ صفحة ٤٣٧

١٣ ـ مكتبة الشيخ عبد الرزاق البيطار

اشتد ولع الشيخ عبد الرزاق البيطار بالمخطوطات القديمة تاريخية وادبية حتى انه جمع منها في داره بالميدان نحو الفي مخطوط والفي مطبوع . من جملتها مؤلفات ابن طولون الدمشقي ونظائرها من نوادر المؤلفات التي قلما احتوت عليها مكتبة غيرها . وقد ذهب منها قسم وبقي فيها قسم آخر . ومن نفائس هذه المكتبة مجموعة تاريخية عن العرب بخط الدملاسي المصري تنطوي على تحقيقات لا اثر لها في غير هذة المجموعة . وعلى هوامشها تعاليق بخط ابن مفلح من علماء القرن العاشر للهجرة . وفيها كتاب « تاريخ البلدان » لابي بكر السمرقندي وهي نسخة وحيدة في العالم كُتبت عام ٦٩٠ للهجرة (١٢٩١ م) . وفيها ايضاً كتاب « المعزّة في ما قيل في المزّة » وكتاب « اخبار القلعة الدمشقية » وهما مخطوطان لابن طولون المذكور آنفاً. وقد انتقلا كلاهما من مكتبة آل البيطار الى الخزانة المعاوفية بزحلة

١٤ ـ مكتبة آل الغزي

آل الغزّي أسرة علمية في دمشق قديمة العهد نبغ منها مؤلفون كثيرون . واليهم يرجع الفضل في اقتناء خزانة حفلت بالمخطوطات الوافرة العدد والمختلفة المواضيع . وقد اتصلت على ممر الزمان باولاد احد علمائهم الشيخ اسمعيل الغزي . ومن نفائسها كتاب « الكواكب السائرة لاعيان المائة العاشرة » تأليف النجم الغزي . ولسنا ندري نسخة سواها لهذا المؤلف وهي اليوم في حوزة الجامعة الاميركية ببيروت . وعنها نقل احمد تيمور باشا نسخة ضمها الى خزانته التيمورية بالقاهرة .

وفي مكتبة الشيخ اسمعيل الغزي كتاب « التذكرة الكمالية » لجده الشيخ كمال الدين الغزي الصدّيقي الدمشقي المتوفى سنة ١٢١٤ للهجرة وبخط يده . وهذا المخطوط النفيس الوحيد من نوعه يقع في اربعة عشر مجلداً تبحث في التاريخ والادب والتراجم وغير ذلك .

١٥ ـ مكتبة آل اليوسف

انشأها محمد سعيد باشا شمدين الذي عينته السلطنة العثمانية اميراً للحج سنة ١٢٨٦ للهجرة. فخدم هذه الوظيفة اعواماً طوالا واحرز ثروة عظيمة واقتنى اطياناً واسعة. وعلى رغم ثقافته الضئيلة أولع بالمخطوطات فحشد منها طائفة كبيرة دفع اثمانها اضعاف قيمتها وزين بها قاعات قصره. وبعد وفاته انتقلت تلك المكتبة الى حفيده عبد الرحمن باشا اليوسف الذي خلفه ايضاً في امارة الحج.

١٦ ـ مكتبات آل الخطيب

اشتهر آل الخطيب في دمشق بشغفهم الغريب بجمع الكتب. وقد روى لنا احدهم اسماء بعض افرادهم الذين احرزوا خزائن غنية بالمخطوطات العربية: فالشيخ ابو الفرج الخطيب احتوت خزانته على اربعمائة مخطوط. ولا يقل عدد مخطوطات خزانة ابي الخير الخطيب عن الثلاثمائة مخطوط. اما ابو الفتح الخطيب الذي اختصر «تاريخ ابن عساكر» فقد اشتملت مكتبته على نيف واربعمائة مخطوط.

١٧ ـ مكتبة الشيخ عطا الكسم

كان الشيخ عطا الكسم مفتي دمشق من جملة العلماء والفقهاء لا يفتر عن البحث والمطالعة. وعُني في حياته باقتناء خزانة جمعت من المخطوطات العربية ما لم يجتمع مثله في سواها من مكتبات الافراد. وقد ضُمت بعد وفاته عام ١٣٥٦ للهجرة الى خزانة نجله الشيخ حسني الكسم الذي يُعتبر لعصرنا هذا حجة في علم المخطوطات. ذلك ما حدا المجمع العلمي العربي في اول عهد تأسيسه على تعيينه خازناً لدار الكتب الظاهرية.

١٨ ـ سائر المكتبات الاسلامية الخاصة في دمشق

ما عدا المكتبات الخاصة التي سبق ذكرها فان مدينة دمشق اشتملت على مكتبات اخرى اليك اهمها : مكتبة الشيخ خالد الصاحب. ومكتبة عبد المجيد السقطي. ومكتبة احمد ابي الفتح . ومكتبة آل الكزبري. ومكتبة آل المرادي. ومكتبة الشيخ اديب تقي الدين نقيب الاشراف وغيرها .

ثالثاً : مكتبة عبده الخطيب في الصنمين بحوران

الصنَمين قرية في حوران شُيدت على انقاض مدينة قديمة حوت آثاراً كتابية يونانية . يبلغ عدد سكانها في عصرنا زهاء الف وخمسمائة نسمة جميعهم مسلمون سنيون.

نشأ في الصنمين شيخ يقال له عبده الخطيب انتزح في حداثته عن مسقط رأسه والتحق بفريقٍ من الحجاج المغاربة .ثم سافر معهم الى المغرب الاقصى فطاف المدن والدساكر حتى القى عصاه في تطوان وسكنها اعواماً طوالا. واقتبس هناك صناعة الطب على بعض شيوخ مهروا فيها وتعاطوها خلفاً عن سلف . ولبث يزاولها هناك ريثما بلغ من السن عتياً . وعادت عند ذاك الى ذهنه ذكريات عهد الصبا فشد رحاله الى الصنمين قريته وفيها توفي دون عقب بالغاً الثمانية والثمانين من سنه .

خلف الشيخ عبده الخطيب خزانة مخطوطات ثمينة معظمها في الطبابة والنجامة والسحر. وقد اقتناها اثناء اقامته في المغرب ورحلاته الطويلة الى الامصار العربية. ولا يُعلم ماذا حل بها بعد وفاته عام ١٩١٩

امّا طريقة الشيخ عبده في الطبابة فكانت تستند الى طب الرازي وابن سينا واشباههما . وقد لازمه في اواخر ايامه الحكيم الياس فضول اللبناني فتلقى عنه الطبابة العربية القديمة وهو يزاولها الآن بمهارة وامانة .

رابعاً : مكتبة دوما

دوما قرية من قرى الغوطة بضواحي دمشق فيها جامع من اجمل الجوامع(١). وكان هذا الجامع يشتمل على مكتبة قديمة العهد عامرة بالمخطوطات الكثيرة تفقّدها الرّحالة الشيخ خليل الخالدي في نواحي السنة ١٣٣٥ للهجرة . فروى انها حوت كثيراً من كتب الحنابلة (٢). وافادنا احد العلماء الذين يموا دوماً في الاعوام الاخيرة ان مكتبتها اصبحت قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً . لان ايدي المشرفين عليها لعبت بها فنهبوها على بكرة ابيها .

خامساً : مكتبات حمص

كانت حمص من اهم عواصم الادب في العصر العربي الذهبي . وكانت خزائن الكتب فيها عامرة وافرة . غير انه انتابها ما انتاب غيرها من الغوائل في اثناء الفتوحات والنكبات العامة . فتبعثرت مخطوطاتها ولم يسلم منها الا ما قلّ ودلّ لدى بعض البيوتات القديمة وهي :

المكتبة الجمالية ـ انشأها العالم الفقيه الشيخ جمال الدين الجمالي . ولا تحوي اقل من الف وخمسمائة مجلد من الكتب المهمة بين مخطوط ومطبوع . ثم المكتبة الاتاسيّة ـ اسسها آل الاتاسي في حمص تشتمل على نحو اربعمائة مخطوط ما عدا المطبوع . واكثر مخطوطاتها تبحث في الادب والتاريخ والطب واللغة والفلك والدين . والمكتبة الجنديّة ـ يرتقي عهدها الى الشيخ امين الجندي (١١٨٠ ـ ١٢٥٧ هـ) الذي كان من اشعر شعراء زمانه (٣) وفيها مخطوطات نفيسة وقديمة

---

(١) خطط الشام : مجلد ٦ صفحة ٦٥ (٢) كتاب «مجمع الآثار العربية» بقلم ابرهيم السيد عيسى المصري : جزء ١ صفحة ١٢٦ (٣) طالع ترجمة الشيخ امين الجندي في مخطوط عنوانه «حلية البشر» للبيطار . وفي كتاب « الآداب العربية في القرن التاسع عشر » للاب لويس شيخو : جزء اول صفحة ٥٤ ـ ٥٥

اطّلعنا عليها عام ١٩٠٤ اثناء زيارتنا حمص للمرة الاولى . وقس على ذلك المكتبة العبودية والمكتبة الكيلانية والمكتبة السباعية وغيرها.

سادساً : مكتبات حماة

١ ـ المكتبة النورية

اسسها نوري باشا الكيلاني عام ١٨٨٠ ثم زاد عليها نجله هاني بك طائفة من الكتب العصرية والكتب القديمة . وقد سبّلها المؤسس على طلاب العلم فافرز لها مكاناً خاصاً في جامع جده الشيخ ابرهيم الكيلاني الكائن بصقع السوق . وهي مفتوحة الابواب للجميع يؤمونها يومياً في اوقات معينة للدرس والمطالعة . وما عدا الكتب المطبوعة التي لا يزيد الآن عددها على الف وخمسماية كتاب فانها تشتمل ايضاً على مخطوطات يقرب عددها من مائتي مجلد ورسالة .

٢ ـ مكتبة الشيخ سعيد النعساني

للشيخ سعيد النعساني مفتي حماة ولع شديد بجمع الكتب انشأ منها في منزله خزانة جديرة بالاعتبار . وقد اقتفى في ذلك آثار استاذه الشيخ طاهر الجزائري (١٢٦٨ – ١٣٣٨ هـ) الذي سبقنا فذكرناه في مكتبات دمشق . واشتملت خزانة النعساني على اربعة وستين مخطوطاً متنوعة المواضيع ما عدا الكتب المطبوعة وهي متوفرة العدد

٣ ـ سائر المكتبات الاسلامية في حماة

في حماة خزائن كتب خاصة تحتفظ بها بعض الاسر القديمة لم نتوفق الى العثور على اخبارها ووصف مخطوطاتها . انما عرفنا منها اسماء الخزائن الآتي بيانها وهي:

مكتبة الشيخ عارف القوشجي ومكتبة اديب الحوراني ومكتبة الشيخ مفيد لطفي. اما اهمها واغناها ولا سيما بالكتب العصرية فهي مكتبة المرحوم الدكتور توفيق جيجكلي نائب مدينة حماة في مجلس النواب السوري كما سلف القول

سابعاً : مكتبات حلب في العصور الغابرة

١ ـ خزانة الفارابي

كان لفيلسوف الاسلام ابي نصر الفارابي (٣٣٩ هـ) خزانة كتب معتبرة في حلب تنطوي على كل نادر من اسفار الحكمة والفلسفة والموسيقى وغيرها. ويُروى عن لسانه هذان البيتان (١) :

مِن على يمنتي خزانة كتبي وعلى يسرتي خزانة شربي
فاذا ما صحوت اعملتُ فكري واذا ما سكرتُ اعملت قلبي

٢ ـ خزائن بني جرادة

اشتهرت خزانة بني جرادة في القرن السادس للهجرة بحلب وقد نبغ منهم علماء عديدون . وكتب احدهم وهو ابو الحسن ابن ابي جرادة بخطه ثلاث خزائن من الكتب النفيسة وخزانة لولده ابي البركات وخزانة لابنه عبدالله . وحلت وفاته عام ٥٤٨ للهجرة (٢). وقام من بني جرادة كمال الدين عمر بن احمد هبة الله المعروف بابن العديم (٥٨٨-٦٦٦ هـ) المؤرخ والمحدث والشاعر. ومن تآليفه : « تاريخ حلب

---

(١) كتبخانهاى ايران : بقلم عبد العزيز الجواهري : صفحة ٩٧ - ٩٨ (٢) خطط الشام : مجلد ٦ صفحة ١٩٣

و « الدراري في الذراري » و « رفع الظـــلم والتجرّي عن ابي العلاء المعري » و « الاخبار المستفادة في ذكر بني جرادة » (١).

ومما نظمه ابو الحسن بن ابي جرادة المشار اليه ابياتٌ كتبها بليقة مزج مدادها بالذهب (٢) قال :

ما اخترتُ الا اشرف الرتبِ ... خطاً أخلّدُ منه في الكتب
والخط كالمرآة ننظرهـــا ... فنرى محاسن صورةِ الادب
هو وحده حَسبٌ يُطال به ... إن لم يكنْ الاّهُ من حَسبِ
ما زلتُ أنفق فيه من ذهبٍ ... حتى جرى فكتبتُ بالذهبِ

٣ - خزائن سيف الدين ارغون وبني الشحنة وبني الخشاب وغيرهم

من المكتبات العامرة بالمخطوطات قديماً : خزانة الامير سيف الدين ارغون نائب حلب المتوفى سنة ٧٣١ للهجرة. وخزانة بني الشحنة. وخزانة بني الخشاب. وخزائن كتب المدارس الكبرى كالمصرونية والحلوية والشرفية والرواحية وغيرها. وقد اندثرت على يد الطاغية تيمورلنك في اواخر القرن الرابع عشر للميلاد.

٤ - مكتبات جامع منكلي بغا ودار الحديث واوكوز محمد باشا

من المكتبات القديمة في الشهباء « مكتبة جامع منكلي بغا » وقد أنشىء ذلك الجامع سنة ٧٦٧ للهجرة وهو معروف الآن بجامع الرومي في محلة باب قنسرين. وكانت الكتب موضوعة في خزانة متقنة محكمة فيهـــا الصنائع العظيمة. ومنها

---

(١) فوات الوفيات : جزء ٢ صفحة ١٠١ وارشاد الاريب : جزء ٦ صفحة ١٨
(٢) اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء : جزء ٤ صفحة ٤٦٧

« مكتبة دار الحديث » التي امر ببنائها احمد مطاف باشا في محلة الجلوم (١). واشتملت مكتبة اوكوز محمد باشا المتوفى سنة ١٠٠٢ للهجرة على مكتبة حافلة اسسها الشيخ احمد القاري واودعها نفائس المخطوطات . وبتوالي الازمنة لعبت بها ايدي العابثين فمزقتها كل ممزق. ولم يسلم منها الا بقية يسيرة وُضعت في خزانة صغيرة ضمن الحجرة التي دُفن فيها الشيخ المشار اليه (٢)

٥ ـ الخزانة الاحمدية

في القرن الثاني عشر للهجرة أنشئت في حلب مكتبة معتبرة اطلق عليها اسم « المكتبة الاحمدية » التي أسسها احمد الحلبي طه زاده احد المتحدرين من سلالة الشيخ كليب (٣). وقد وقف عليها ما اقتناه من المخطوطات النفيسة والآلات الفلكية حتى اناف عدد تلك المخطوطات على ثلاثة آلاف مجلد (٤) . نذكر منها : « تاريخ الحافظ ابن كثير » في عشرة مجلدات وقد طُبع في حلب (٥). ومن جملة نفائسها اسطرلاب نحاسي بديع الصنعة لا تقلّ قيمته عن خمسين ليرة ذهبية. وتحوي المكتبة كذلك كُرتين قديمتين : الواحدة سماوية والاخرى ارضية قلما تجد كرة معاصرة لها في المتاحف الاوروبية نفسها. اما متولي هذه المكتبة في عهدنا فهو عبد اللطيف افندي احد احفاد احمد الحلبي ومركزها في حي الجلوم بحلب.

٦ ـ الخزانة العثمانية ومكتبة محمد البخشي

نضيف الى المكتبات السابقة الذكر مكتبتين مهمتين أنشئتا في القرن الثالث عشر

---

(١) مجلة المجمع العلمي العربي : مجلد ١٥ سنة ١٩٣٧ صفحة ٣٠٤

(٢) اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء : تأليف محمد راغب الطباخ : جزء ٦ صفحة ١٣٠

(٣) منظومة الشيخ وفا في اولياء حلب: مخطوطة المكتبة الشرقية : رقم ١٥٩٨ سطر ٤٠٧

(٤) اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء : جزء ٧ صفحة ٦٧

(٥) مجلة المجمع العلمي العربي : مجلد ١٦ سنة ١٩٤١ صفحة ١٢٩

للهجرة : الاولى «الخزانة العثمانية» أسسها عثمان باشا الدوركي باني المدرسة العثمانية. ومن اثمن مخطوطاتها كتاب «انباء الغمر بابنـــاء العمر» تأليف الحافظ الامام الشيخ احمد بن علي بن حجر العسقلاني. وهو مخطوط نادر يقع في مجلدين ضخمين يتضمنان حوادث مصر وغيرها من يوم ولادة المؤلف سنة ٧٧٣ حتى وفاته سنة ٨٥٢ للهجرة (١). اما المكتبة الثانية فتُعزى الى محمد البخشي شيخ سجادة التكية الاخلاصية في محلة البياضة. واورد الشيخ وفا في منظومته ذكر محمد البخشي قال (٢):

اما خليفة الولي اخلاصِ ... محمد البخشي فخاصّ الخاصِ
اولُ آخذٍ من البخشية ... عنه الطريق وهي خلوتيهْ
كان وعـاء جامع العلوم ... يجول في المنطوق والمفهوم
حبراً مدققاً وفي الحديث ... خاتمة الحفاظ في التحديث
وكان قد حج ومات في الحرم ... دُفن في الحجون موفور الحرم

ثامناً : مكتبات حلب الاسلامية في الزمان الحالي

تُعرف لعصرنا هـذا في حلب عدة مكتبات اسلامية خاصة انطوت على كمية معتبرة من المخطوطـــات فضلاً عن المطبوعات. اليك اشهرها : خزانة صالح آغا الكتخدا. وخزانة آل الغزي. وخزانة ال الكواكبي. وخزانة مرعي باشا الملاح. وخزانة زكي بك آل حميد باشا. وخزانة الشيخ محمد الزرقاء. وخزانة آل المدرس انشأها الحاج حسين سليلهم.

وفي الاعوام الاخيرة عنيت ادارة الاوقاف في حلب بجمع ما تبقى من خزائن المخطوطات المبعثرة في الجوامع والكتاتيب التابعة لها. وصيانةً لها من السلب

---

(١) مجلة المجمع العلمي العربي : مجلد ١٦ سنة ١٩٤١ صفحة ١٢٨ — ١٢٩
(٢) منظومة الشيخ وفا في اولياء حلب : مخطوطة المكتبة الشرقية : رقم ١٥٩٨ سطر ٧٠-٧٤

والنهب حصرتها في « المدرسة الشرَفية » وراء الجامع الكبير. واهم تلك الخزائن: خزانة محمد الجزار . وخزانة الشيخ ابي بكر صاحب المزار (١) المشهور بحلب . والخزانة المنصورية. وخزانة جامع السكاكيني. وخزانة المدرسة الاسمعيلية. وخزانة الحاج عبد القادر الجابري مفتي حلب . وقد ابتاعت ادارة الاوقاف بعض كتب مطبوعة فتألف منها ومن خزائن تلك المخطوطات مكتبة عامرة يؤمل لها مستقبل حسن .

واحسن مكتبة خاصة في حلب تفقدهـــا العلامة الأب لويس شيخو وميّزها بالوصف مكتبة اسعد بك العينتابي . فقد جمع فيها منشئها معظم مطبوعات الشرق العربية مع بعض المخطوطات الدينية القديمة العهد البديعة الخط : بينها ما كتبه المصنفون بايديهم فتضاعفت قيمته (٢) .

وللاسرة الكيالية بحلب كلف خاص بالكتب . وممن اقتنى مكتبات من افرادها نذكر : الدكتور عبد الرحمن الكيالي والمفتي الشيخ عبد الحميد الكيالي . وضمت مكتبة سامي بك الكيالي زهاء الفي مجلد يغلب فيها الطابع الادبي والتاريخي. وفيها قسم من مطبوعات المستشرقين في اوروبا . وهي المكتبة الخاصة الوحيدة التي يُرجع اليها اليوم في الادب الحديث .

نضيف الى ما تقدم خزانة حديثة العهد انشأهـا خير الدين الاسدي الذي جمع فيها احاسن الكتب العصرية ونسقها تنسيقاً فنياً . ويؤثر عنه انه كان يضن على نفسه بما لذ وطاب ليتسنى له تعزيز هذه الخزانة وتنميتها . وقد ضُمت الى دار الكتب الوطنية في حلب كما سلف القول .

---

(١) طالع رسم هذا المزار في مجلة « المشرق » مجلد ٣٥ سنة ١٩٣٧ صفحة ٤٠٥

(٢) رحلة حديثة الى الشهباء : للاب شيخو (المشرق : مجلد ١٩ سنة ١٩٢١ صفحة ٧٥٦)

الفصل الثالث

خزائنه كتب فلسطين

اولا ـ مكتبات القدس الشريف

لما انتهينا في ابحاثنا الى المكتبات الاسلامية في القدس الشريف استعنّا بمعارف العلاّمة الاستاذ احمد سامح الخالدي رئيس الكلية العربية في تلك المدينة . وهو نجل الحاج راغب مؤسس المكتبة الخالدية الشهيرة . فقد اتحفنا بما لديه من المعلومات عن تلك الخزائن التي حوت كنوزاً يعزّ وجود نظيرها في بـــلد آخر . وها نحن نسرد اسماء تلك المكتبات ونضم اليها ذكر مكتبات اخرى فات الاستاذ احمد سامح التنويه بها وهي :

١ ــ مكتبة الشيخ خليل جواد الخالدي : لهذا الشيخ معرفة واسعة بالكتب ومؤلفيها ومواضيعها واثمانها ومزاياها وكل ما يتعلق بها . وقد تفوق بعلم المخطوطات فاحكمه ونبغ فيه حتى اصبح علماً من اعلامه . وتعهد مكتبات الاستانة واستنسخ كثيراً من نوادر مخطوطاتها . وجمع في خزانته الخاصة زهاء خمسة آلاف مجلد عربي بينها الف مخطوطة . وحلت وفاته سنة ١٣٦٠ للهجرة .

٢ ــ المكتبة الحنبلية : هذه المكتبة تخص اسرة « قُطينة » بالقدس الشريف . وتشتمل على اربعة آلاف مجلد في جملتها ثمانمائة مخطوطة .

٣ ــ مكتبة حسن الترجمان : اسس هذه المكتبة حسن بك الترجمان الصالح . فعني بجمع كل ما وقع تحت يده من مخطوط ومطبوع حتى بلغ عدد ما جمعه ثلاثة آلاف مجلد بينها تسعمائة مخطوط عربي .

٤ – مكتبة عبدالله مخلص : أنشئت هذه المكتبة اول بدء في عكا ثم نقلها صاحبها الى القدس الشريف. وهي تحوي حوالي ثلاثة آلاف مجلد بينها مائة وعشرة مخطوطات .

٥ – مكتبة الشيخ الخليلي : – هو صاحب « الفتاوى الخليلية » الشهيرة المتوفى سنة ١١٤٧ هـ وقد جمع في خزانته طائفة معتبرة من الكتب بينها نحو خمسمائة مخطوط عربي .

٦ – مكتبة الكلية العربية : تأسست الكلية العربية عام ١٩٢٠ وتحتوي على خزانة تنيف مجلداتها على اربعة آلاف كتاب .

٧ – مكتبة البُديري : ان مخطوطات هذه الخزانة بلغت الف مجلد .

٨ – مكتبة احمد سامح الخالدي : تحتوي على اكثر من مائة مخطوط عدا الكتب المطبوعة . ومن مخطوطاتها : نسخة من كتاب « الانس الجليل » مؤرخة في السنة ٩١٠ للهجرة . وكتاب « الخميس » للدياربكرلي وغير ذلك من الكتب القديمة النفيسة .

٩ – دار الكتب الفخرية : وقفها القاضي فخرالدين ابو عبدالله بن فضل الله المتوفى سنة ٧٣٢ للهجرة . وكان عدد مجلداتها نحو عشرة آلاف اقتسمها افراد اسرة ابي السعود اصحاب الزاوية الفخرية في الزمان الحاضر .

وفي القدس مكتبات خاصة لبعض الاسر نذكر منها : مكتبة آل الحسيني والداودي وابي اللطف والموقت واسعاف النشاشيبي وغيرهم.

ثانياً – مكتبات نابلس

١ – مكتبة آل الجوهري: لآل الجوهري في نابلس خزانة كتب قديمة العهد تُعد من اهم الخزائن الخاصة في تلك المدينة. وفيها مخطوطات نفيسة أتى على وصف بعضها السيد محمد عزّة دروزة في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق (١)

---

(١) مجلة المجمع العلمي العربي : مجلد ٤ صفحة ٤٥٣

٢ ـ مكتبة آل صوفان : وفي نابلس ايضاً خزانة كتب لآل صوفان لا يقلّ عدد مخطوطاتها عن مخطوطات مكتبة آل الجوهري . ومن اهمها مخطوط نفيس عنوانه « مناقب الامام احمد بن محمد بن حنبل » من تأليف الحافظ الجوزي . جاء في آخره هذه العبارة : « وافق الفراغ منه ضحى يوم الاثنين ثالث ذي القعدة سنة تسع وتسعين وخمسمائة ». ويُقرأ على احد هوامشه : « قوبل فصُحح بخط مصنفه »

ثالثاً : مكتبات يافا

١ ـ خزانة آل الدّجاني : لا نعرف من خزائن الكتب في يافا اهم من خزانة آل الدّجاني . وما برحت هذه الخزانة منذ اواسط القرن الثالث عشر للهجرة منهلا للوراد وكعبة للقصاد .

٢ ـ خزانة ابي نبوت باشا : ومن مكتبات يافا ايضاً مكتبة ابي نبوت باشا احد رجال احمد باشا الجزار في اوائل القرن التاسع عشر . وهي الآن بادارة الاوقاف الاسلامية وتحتوي طائفة من المخطوطات. وفي جملتها كتاب « اتحاف الاخصا في فضائل المسجد الأقصى » المنسوب خطأ الى الكمال ابي شريف وما هو بالحقيقة الا للسيوطي . ومركز هذه المكتبة في جامع يافا (١) الذي ابتناه ابو نبوت باشا .

رابعاً : مكتبة الجزار في عكا

انشأ احمد باشا الجزار والي عكا مكتبة في الجامع المنسوب اليه. وجمع فيها كل المخطوطات التي انتزعها من انحاء البلاد الخاضعة لولايته. ولا سيما من خزائن دير المخلص قرب صيدا ومن خزانة الشيخ خيري مفتي الرملة (٢) . وانتهب الجزّار

---

(١) طالع اخبار محمد ابي نبوت في « تاريخ ولاية سليمان باشا » تأليف ابرهيم العورة : طبع دير المخلص بجوار صيدا : سنة ١٩٣٦

(٢) رحلة فولناي في الشرق : مجلد ٢ صفحة ٣٠٧ طبعة باريس سنة ١٨٠٧

نفسه مكتبات علماء جبل عامل وخصوصاً مكتبة آل خاتون في قرية « جويا » وكانت غنية بمخطوطاتها اذ اناف عددها على خمسة آلاف مجلد (١) . فأمر اعوانه ان ينهبوا من تلك المكتبة كل ما استطاعوا وينقلوه الى عكا . فاضطر فريق من اولئك العلماء ان يخفوا مخطوطاتهم عن المعتدين ويطمروها فى صناديق تحت الارض حيث اتلفت الرطوبة جانباً وافراً منها.

وعلى رغم ما تبعثر من مخطوطات جامع الجزار فقد سلم منها قسم يقال ان عدد مجلداته يبلغ الان خمسمائة مجلد اكثرها مخطوط.

على ان الرعية تألمت كثيراً من مظالم هذا الطاغية وفواحشه حتى اطلقت عليه لقب « الجزّار ». وقد قضى نحبه عام ١٢١٩ للهجرة (١٨٠٤ م) فأرخ الشيخ مصطفى الرومي وفاته بهذين البيتين :

هلك الجزّار ولا عجب ... ومضى بالخزي وبالاثمِ
وبميتته الباري عنّا ... أرِخْ قد كف يد الظلمِ

خامساً : مكتبة آل دويك في خليل الرحمن

أسس هذه المكتبة الاستاذ عارف الدويك نائب مفتش المعارف في خليل الرحمن (٢). وهي المكتبة الوحيدة في تلك البلدة . اما محتوياتها فتقدر باكثر من الف مجلد بين مخطوط ومطبوع.

---

(١) مجلة الآثار في زحلة : مجلد ٣ صفحة ٤٣٩
(٢) مجمع الآثار العربية : لابرهيم السيد عيسى المصري : جزء ١ صفحة ١٤٩ ـ ١٥٠

الفصل الرابع

خزائن كتب العراق

اولا : مكتبات مدينة بغداد

كثيرة هي المكاتب الاسلامية الخصوصية في عاصمة مملكة العراق . وكانت هذه المكاتب مخبوءة محجوبة عن الابصار لا يؤذن لاحد ان يطلع عليها او ينسخ شيئاً من تحفها . وقد تيسر لنا الوقوف على اخبار بعضها نثبتها في ما يلي :

١ ـ المكتبة المرجانية

هي اشهر المكاتب الخاصة في بغداد واقدمها عهداً . اسسها الوزير مرجان بن عبدالله بن عبد الرحمن نحو السنة ٧٦٠ للهجرة . وفيها من المخطوطات ثلاثة آلاف مجلد معظمها في الدين والفلسفة والهيئة . وقد انتفع المستشرقون انتفاعاً كبيراً بمطالعتها (١) . ومن اندر مخطوطاتها كتاب « جامع التعريب بالطريق القريب » وهو كتاب فريد من نوعه يبحث عن الالفاظ المعرّبة .

٢ ـ المكتبة الازبكية

سُميت كذلك نسبة الى ازبك وهي من المكاتب القديمة التي تنطوي على مخطوطات جليلة .

---

(١) الاثار : مجلد ٣ سنة ١٩١٤ صفحة ٤٣٤

٣ ـ المكتبة الخالدية

تُعتبر المكتبة الخالدية من اغنى خزائن كتب بغداد في الزمان الحاضر . فيها من نوادر المخطوطات ونفائسها ما يستحق لفت الانظار .

٤ ـ مكتبة عيسى العطار

هي من اجلّ المكاتب فيها من المخطوطات النادرة وامّهات المصنفات ما لاترى له مثيلًا في غيرهـا من خزائن كتب بغداد . لكن الوصول الى رؤية كتاب منها كالوصول الى مناط الثريا (١) .

٥ ـ المكتبة الالوسية

انشأها العلاّمة السيد محمود شكري الآلوسي مؤلف كتاب « بلوغ الارب في معرفة احوال العرب » الذي نال الجائزة الاولى سنة ١٨٨٩ في مؤتمر المستشرقين بمدينة استكهولم عاصمة اسوج . وتشتمل خزانته على احاسن الكتب ونوادرها . ولابن عمه الحاج علي الآلوسي خزانة حوت مخطوطـات كثيرة ومؤلفات نفيسة .

٦ ـ مكتبة هبة الدين الشهرستاني

هو السيد هبة الدين الحسيني الشهرستاني (٢) منشىء مجلة « العلم » في النجف ووزير المعارف في المملكة العراقية . أولع منذ حداثته بجمع الكتب فاقتنى منها خزانة آهلة بالاسفار العديدة بينها اكثر من مائتي مخطوط اهمها : كتاب « ارصاد

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية : مجلد ٤ صفحة ١٤٣

(٢) طالع رسم الشهرستاني في « تاريخ الصحافة العربية » : جزء ١ صفحه ٤٠

المنجمين» لابي ريحان البيروني . وكتاب في « النجوم » خطّهُ قديم مزّين برسوم ملونة لابي ريحان البيروني ايضاً . وكتاب « منطق الشفاء » لابن سينا . وكتاب « آكام المرجان في اسماء البلدان » لحنين بن اسحق . ورسالة في « الجواهر والمعادن » لنصير الدين الطوسي . وكتاب « التحفة الشاهية في علم الفلك » لقطب الدين الشيرازي محمود بن مسعود. وكتاب « شرح الشاطريّة » في التجويد وعليها خواتيم ملوك الهند . وكتاب « محاسن الوسائل في اخبار الاوائل » بخط مؤلفه ابرهيم السوبلبني . وكتاب « وقائع الايام » بخط مؤلفه السيد مهدي اليزدي الطباطبائي . وكتاب « المغرب » للمطرزي . وكتاب « تقويم البلدان » ليحيى بن جزلة الطبيب .

٧ ـ مكتبة عباس العزاوي

انشئت هذه المكتبة المعتبرة عام ١٩٠٦ بعناية السيد عباس العزاوي واحتوت على اثني عشر الف مجلد بينها اربعة آلاف مخطوط . ومن انفسها كتاب « لباب آداب اللغة العربية » للثعالبي قدمه مؤلفه لاحد ملوك خوارزم . وهو يشتمل على ثلاثة مطالب : اولها في اللغة وثانيها في الخطب وثالثها في الشعراء . ومن تلك المخطوطات كتاب « قرّة العيون في تاريخ اليمن الميمون » . وكتاب « شمامة العنبر » . وكتاب « السموم » لشاناق . وآخر لجنكه الهندي . ورسائل في الدروز . وكتاب « سمط الحقائق » وهو منظوم في عقائد الاسمعيلية الفه داعي الدعاة علي بن حنظلة بن ابي سالم.

وقد اقتنى عباس العزاوي مخطوطات مكتبته من خزائن قديمة جرى بيعها بعد وفاة اصحابها وكانوا من مشاهير عشاق الكتب وجماعيها في ايامهم.

٨ ـ مكتبة الشيخين

للشيخين كاظم وجواد آل دجيلي مكتبة اسساها عام ١٩٠٠ وافرغا قصاراهما في تجهيزها بالمؤلفات الخطية والمطبوعة فجمعتْ ووعت. ففيها الشيء الكثير من

المخطوطات النوادر ككتاب « المجمع » لابن فارس. وكتاب « العين » للخليل. وكتاب « المثالب » لابن الكلبي وغيرها. وفيها من المطبوعات القديمة طائفة صالحة مما نشر في بولاق والهند وايران بلغ عددها مع المخطوطات ما يناهز الفي مجلد.

٩ ـ مكتبة عبد الرحمن النقيب

يتصل نسب عبد الرحمن هذا بالشيخ عبد القادر الكيلاني المشهور . وقد خلف بعد وفاته خزانة عامرة بالمخطوطات يبلغ عددها نحو ثلاثة آلاف مخطوط . ومن مزاياها انها تشتمل على مخطوطات شتى في الانساب : وفيها مجلد واحد من كتاب « التمهيد » لابن عبد البر الاندلسي وغير ذلك من الكتب النادرة . وهي اليوم في حوزة ابنه السيد عاصم نقيب الاشراف في بغداد

١٠ ـ مكتبة احمد نيازي

هو ابن عبد الوهاب نيازي حاكم الشرع في بغداد. انتقلت اليه هذه المكتبة بالارث من والده المشار اليه. وفيها مخطوطات خطيرة اخصها : ديوان المتنبيء وهو اقدم نسخة خطية معروفة في المكاتب. وكتاب « تخير الالفاظ » لابن فارس وهو كتاب في اللغة نادر. وكتاب « كيمياى سعادة » باللغة الفارسية للغزالي . وهذا المخطوط الجميل قد وشيت صفحاته بالذهب ونزّلت بين الصفحة والصفحة ورقة من رق الغزال الشفاف. ثم ديوان حافظ الشيرازي نسخه احمد نيازي بخط يده . وقد صُدر هذا المخطوط الرائع بصورة تمثل الناسخ يقدم الكتاب للسلطان عبد المجيد الاول (١٨٣٩ ـ ١٨٦١) العثماني

١١ ـ مكتبة آل جميل

كان في خزانة كتب آل جميل في بغداد كتب نفيسة بل فريدة ، واكثرها

من المخطوطات التي يندر وجود مثلها في خزانة كتب اخرى. وكان اصحابها من المحتفظين والمعتنين بها الى درجة انهم كانوا يضنون على الناس برؤيتها. واصاب بيت آل جميل سنة ١٩١٤ حريق فجائي هائل التهم خزانة كتبهم ولم يسلم منها الا بعض الكتب التي لا اهمية كبرى لها ما خلا كتابين هما : كتاب « المثالب والمناقب » اعني مثالب الامويين ومناقب الهاشميين لابن الكلبي . وكتاب «تاريخ ابن ابي عدسة » الذي نال عظيم الذكرى عند العراقيين كما اشتهر عند المؤرخين(١)

١٢ ـ سائر المكتبات الاسلامية الخاصة في بغداد

في بغداد مكتبات اسلامية جمة اقل شأناً من التي ذكرناها . وهي تنحصر في ما يلي : مكتبة الشيخ محمد رضا الشبيبي. ومكتبة عبد الرزاق الحسني . والمكتبة المرادية. والمكتبة الخاتونية . ومكتبة بيت الشاوي تشتمل على مخطوطات لغوية ودواوين شعرية ومؤلفات مختلفة . ومكتبه بيت السويدي معظم مخطوطاتها في التاريخ والادب واللغة. ومكتبة عيسى البندنيجي فيها مخطوطات تاريخية وجغرافية وتراجم وغير ذلك. ومكتبة يوسف العطاء احتوت على مؤلفات مخطوطة ومطبوعة ونادرة. ومكتبة الفيلسوف جميل صدقي الزهاوي المتوفى سنة ١٣٥٤ للهجرة. ومكتبة مدرسة محمد الفضل في رصافة بغداد (٢) وغيرها

ثانياً : مكتبات الموصل

للدكتور داود الجلبي الموصلي تأليف خطير سماه « مخطوطات الموصل » ونشره بالطبع سنة ١٩٢٢ في بغداد . وقد ضمنه اسماء كل ما عثر عليه من المخطوطات في مدارس مدينة الموصل وملحقاتها وما وجده منها عند الأسر المشهورة . فعدد اسمائها

---

(١) الهلال : مجلد ٢٨ صفحة ٦١٧

(٢) نوادر المخطوطات لتيمور باشا (مجلة الهلال : مجلد ٢٨ صفحة ٢٨ و ٥٧ و ٥٨)

كلها ووصفها وصفاً علمياً دقيقاً . وقد بلغ عدد تلك المخطوطات نيفاً وثلاثة آلاف وثلاثمائة مخطوط (١) . واليك ما رواه هذا المؤلف من هذا القبيل قال :

« لما كانت مدارس الموصل الحاوية تلك المخطوطات كثيرة اكتفينا بذكر اشهرها وهي: المدرسة الاحمدية، المدرسة الاسلامية، مدرسة جامع الباشا، مدرسة بكر افندي، مدرسة جامع الخاتون، مدرسة الجامع الكبير، مدرسة الحاج حسين بك، مدرسة الحجيات، المدرسة الحسينية، مدرسة الخياط، مدرسة عبدالرحمن جلبي الصائغ، المدرسة العبدالية، المدرسة المحمدية في جامع الزيواني، مدرسة النبي شيت، المدرسة النعمانية، مدرسة يحيى باشا الخ.

ومن اشهر الاسر الاسلامية الموصلية التي عُنيت بحفظ المخطوطات في خزائنها نذكر : آل عبد الجليـــل، آل النقيب، آل العمري، آل الشربتجي، آل الجلبي وغيرهم. اما الدكتور داود الجلبي فقد حوت مكتبته كثيراً من المخطوطـــات النادرة وصف منها ستة وسبعين مخطوطاً في كتابه « مخطوطات الموصل » من الصفحة ٢٦٦ الى الصفحة ٢٨٦ ومن اهم تلك المخطوطات :

١ — كتاب « دفع مضار الاغذية » لمحمد بن زكريا الرازي كتبهُ بخطه محمد بن الحسين بن زيد بعد مقابلته بالاصل . وتاريخ هذا المخطوط سنة ٤٠٣ للهجرة . ولا يُعرَف كتاب اقدم منه في جميع مخطوطات الموصل

٢ — مجموعة كتب في مجلد واحد نـذكر منها كتاب « نزول الغيث » للدماميني منسوخاً بخـط مؤلفه الذي عاش في القرن التاسع للهجرة . وفي آخر هذا المخطوط صفحة بخط مغربي جميل كتبها بيده ابن خلدون في تقريظ الكتاب.

ثالثاً : مكتبات دير قُنى واربيل

١ ـ مكتبة محمد القنائي بدير قُنى

دير قُنى اسم لبلدة قديمـة في العراق موقعها على ستة عشر فرسخاً من بغداد .

---

(١) راجع فهرس تلك الكتب في كتاب «مخطوطات الموصل» من الصفحة ٣٠٧ ـ ٣٥٤

اشتهر منها نفرٌ من الكتبة المسلمين والنصارى نذكر منهم محمد بن علي القنائي . وكان هذا من اصحاب الحلاج فقبض عليه وكبس دارُه . فوُجد فيه دفاتر مكتوبة بماء الذهب ومبطنة بالديباج والحرير ومجلدة بالاديم . ووجدت فيه اشياءُ اخرى من آثار الحلاج (١) .

٢ ـ مكتبة الملا باكير في اربيل

اربيل مدينة في العراق منها الى الموصل يومان خفيفان. ولها قلعة على تل عال في داخل السور (٢). وكانت اربيل في سالف الزمان عاصمة للدولة الحديابية التي لعبت دوراً مهماً في حضارتها وسخاء ملوكها. وراجت في مدارسها ومكتباتها اسواق العلوم كما كانت رائجة في مدارس ومكتبات الرها حليفتها .

وعلى خمول ذكر اربيل في عصرنا لم يزل فيها بقية من المخطوطات القديمة حُفظت في خزائن الملا باكير. وقد اتصلت اليه بالارث من اجداده الذين انشأوها كما يقال منذ عدة قرون. وقد زارها منذ بضعة اعوام فريق من الادباء كالدكتور عبد الرحمن شهبندر (٣) وعبد اللطيف العسلي وحسن الحكيم ومحمد الشُرَيقي فأعجبوا بثروتها العلمية. وهي تتألف من غرف متعددة تضم بين جدرانها زهاء ثلاثة آلاف مخطوط ما عدا الكتب المطبوعة. وعلى كون صاحبها ضنيناً بها فانه يتسمّح بنسخ ما يراد منها ويقوم بضيافة الناسخين بسخاء وافر. فضلاً عن ان لهذه المكتبة خداماً وقواماً يديرون شؤونها ويحافظون عليها.

رابعاً : مكتبات النجف الاشرف

١ ـ مكتبات آل بحر العلوم

لاصحاب هذه المكتبات مكانة ادبية تدل عليها كنيتهم « آل بحر العلوم » .

---

(١) صلة الطبري : صفحة ٩٠ و٩٦

(٢) مجاني الادب : جزء ١ صفحة ١٨٨ (٣) قتل في دمشق سنة ١٩٤٠

فقد قام منهم فقهاء ومحدثون وشعراء ولغويون عززوا المعارف ما بين ابناء الشيعة في تلك الارجاء . وتفردوا خصوصاً بجمعهم مخطوطات قديمة ذات فوائد ادبية او قيمة اثرية . وفيما يلي نعدد بعض خزائنهم وهي :

اقدمها عهداً مكتبة السيد بحر العلوم المتوفى سنة ١٢١٢ للهجرة (١٧٩٧ م) . اشتملت على مخطوطات نفيسة محلاة بالذهب جيدة الخط والقرطاس . وانتقلت بعده الى ولده السيد رضا . ثم بيعت وتفرقت وامتلك جملة منها الشيخ علي آل كاشف الغطاء.

ثانيتها : مكتبة السيد علي بحر العلوم . وكانت مخطوطاتها في غاية الكثرة والجودة . لان صاحبها اولع بشراء المخطوطات وجمعها وادخارها حتى انه لم يكن يبالي بدفع اثمانها مهما غلت . لكنها بيعت بعد وفاته بالمزاد العلني فاشترى الكثير الجيد منها ابن اخيه وصهره مؤلف كتاب « بلغة الفقيه » .

ثالثتها : مكتبة السيد محمد آل بحر العلوم المتوفى سنة ١٣٢٦ للهجرة. جمعت بين المخطوط والمطبوع فضلاً عن مخطوطات قديمة كديوان الشريف الرضي المنسوخ في عهد مؤلفه . وتفرد صاحب هذه المكتبة بالبحث على المخطوطات النادرة فكان يشتريها مهما كلفه الامر . ولم يفتر كل حياته من جمع الكتب الثمينة . غير انه على اثر وفاته تصرف فيها ابنه جعفر فباع طائفة منها بمزاد استغرقت مدته اكثر من ثلاثة اشهر (١) .

٢ ـ مكتبة الشيخ جعفر

كان الشيخ جعفر زعيما للطائفة الجعفرية في النجف. جمع خزانة ثمينة في بيته اشتملت على كتب مذهبة نفيسة جيدة الخط وعلى كثير من النسخ المتعددة. وحوت نسختين من ترجمة التوراة والانجيل. وعلاوة على ذلك فقد ازدانت بتآليف ثمينة لا أثر لها في مكتبات العراق. وقد اشتراها الشيخ جعفر اثناء سفره الى الحج وتنقلاته العديدة الى ايران. غير انه بعد وفاته سنة ١٢٢٧ للهجرة باعها ابنه الشيخ موسى ووفى باثمانها ديون والده.

---

(١) ماضي النجف : لجعفر ابن الشيخ باقر آل محبوبة : صفحة ١٠٣

٣ ـ مكتبة آل القزويني

أسسها جدهم السيد احمد المتوفى عام ١٢٤٧ للهجرة. واربى عدد مخطوطاتها على الالف مجلد من اجود الكتب واتقنها. فاصبحت من اشهر مكتبات النجف وأوسعها. ولمـــا انتقلت بعد وفاته الى ولده جعفر باع اكثرها من الاقارب والاجانب.

٤ ـ مكتبة نظام الدولة

امتاز نظام الدولة بأدبه الجم فحشد في داره من الكتب ما اربى على عشرين الف مجلد: بعضها مخطوط بخطوط مؤلفيها واغلبها حسنة متقنة الخط جيدة القرطاس. ولفرط ما استهوته الكتب سيّر في طلبها رسلا الى بلاد ايران وانحـاء العراق وكلفهم ان يشتروها له مهما بلغت اثمانها. ولما توفي بيع بعضها وتقاسم ورثته اغلبها ولم يبقَ منها الا نسخ معدودة لدى احفاده (١)

٥ ـ مكتبة احمد هلالة

السيد احمد الشهير بهلالة كان من اثرى رجالات بلاده. وكانت له بطائح زراعية بين البصرة والكوفة يصرف جل وارداتها في اقتناء الكتب. فاختزن منها الشيء الكثير حتى اصبحت خزائنه ملاءى بالكتب النفيسة. وقد شاهـد بعضها مؤلف كتـاب « نهج الصواب ». وكان احمد سخيـاً جوّاداً سافر الى الحج واستصحب بعض العلماء على نفقته. وتؤثر عنه قصص في سخائه وكرمه. غـير ان اولاده لم يكونوا من اهل العلم فتفرقت مكتبته بعد وفاته بالبيع بين اهالي النجف وغيرهم ولم يبق منها شيء في حوزة اولاده (٢)

---

(١) ماضي النجف : صفحة ١٠٥ (٢) ماضي النجف : صفحة ١٠٥

٦ ـ مكتبة النمازي

احرزت مكتبة الشيخ فتح الله الشريعة النمازي شهرة واسعة بين مكتبات النجف لا بكثرة مجلداتها بل بما اشتملت عليه من النفائس العديمة المثيل . وكان النمازي من المدرسين واهل المنابر وحلت وفاته سنة ١٣٣٩ للهجرة (١).

٧ ـ مكتبة بيت عبودي

عُرف بيت عبّودي بآل «شيخ مشهد» في النجف. وكان لديهم مكتبة معتبرة روى عنها صاحب « نهج الصواب » ما يلي قال : وقفت على جملة من كتب آل « شيخ مشهد » فوجدتها في غاية الجودة. ولكن الدهر اخنى عليها فأتلفها واصبحت مبعثرة تلعب بها صبيانهم واطفالهم . وقد استنقذت جملة منها واحييتها وحفظتها من التلف وهي في خزانة كتبي (٢) .

٨ ـ مكتبة آل كاشف الغطاء

نذكر في طليعة مكاتب النجف مكتبة « آل كاشف الغطاء » التي اسسها الشيخ علي (١٢٦٦ – ١٣٥٠ هـ) بن محمد رضا بن موسى ابن الشيخ جعفر الكبير بن خضر بن يحيى آل كاشف الغطاء . كان الشيخ علي ولعاً بالكتب جمع منها عدداً وافراً اثناء رحلاته الى ايران وتركيا وسوريا والحجاز. ووضع ثلاثة تآليف: اولها « نهج الصواب في الكاتب والكتابة والكتاب » وثانيها « سمير الحاضر وانيس المسافر » وثالثها « الحصون المنيعة في طبقات الشيعة » .

وبلغت خزانة كتب آل كاشف الغطاء نحو الخمسة آلاف مجلد لا يقلّ عدد مخطوطاتها عن الالف . وحوت كثيراً من يتيمات الكتب مثل « طراز اللغة »

---

(١) ماضي النجف : صفحة ١٠٩ (٢) ماضي النجف : صفحة ١١٠

للسيد علي خان و« سلوة العارفين » لعبد الرحمن السلمي خط في السنة ٤٥٩ للهجرة. و« نهاية اللغة » لابن الاثير الجوزي خط في السنة ٦٠٦ للهجرة وعليه اجازة بخط المؤلف .

٩ ـ الخزانة السماوية

الخزانة السماوية غنية بالكتب الثمينة فانها تشتمل ما عدا الكتب المطبوعة على ثمانمائة مخطوط اغلبها بخطوط قديمة وبعضها بخطوط مصنفيها. ومن اجلّ مخطوطاتها كتاب « العين » للخليل وكتاب « المحيط » للصاحب بن عباد. وكتاب « المجسطي » نُقل عن نسخة بخط المؤلف. وكانت مخطوطات « الخزانة السماوية » اوفر عدداً في العهد العثماني منه في العهد الحالي . ولكنه عرضت لصاحبها محمد ابن الشيخ طاهر السماوي ازمة مالية سنة الاحتلال البريطاني في العراق اضطرته ان يبيع مائتي مجلد فيها خطوط القرنين الخامس والسادس للهجرة اي الحادي عشر والثاني عشر للميلاد .

١٠ ـ مكتبة الطباطبائي

تنطوي خزانة السيد محمد بحر العلوم الطباطبائي على مخطوطات عزيزة بينها جملة من الكتب القديمة. نذكر منها « ديوان الشريف الرضي » وقد نُسخ في عهد مؤلفه ويحوي من الاشعار اكثر مما نُشر في النسخة المطبوعة

١١ ـ مكتبة هادي الجعفري

ينتمي الشيخ هادي ابن الشيخ عباس الجعفري الى آل كاشف الغطاء الذين ذكرناهم آنفاً . ولهذا الشيخ خزانة كتب معتبرة فيها من الاعلاق والنفائس ما لا مثيل له في سائر خزائن العراق . نذكر من هذه المخطوطات ما يأتي : « شرح مقالات اقليدس » تأليف ابن الهيثم . وكتاب « نثر الدرر » للوزير الآبي و« ديوان

القيراطي » وهو الشاعر الفذ . وكتاب « المنقذ من الهلكة من السمائم المهلكة » . وكتاب « نهاية المرام » للسيد صاحب المدارك . وكتاب « درة التاج » في الهندسة (١) الخ .

١٢ ـ مكتبة رضا الاصفهاني

عرف آغا رضا الاصفهاني بنقده فلسفة دروين . ولديه خزانة مخطوطات وافرة بينها من النوادر الجليلة ما لا يحصى (٢) .

١٣ ـ مكتبة صادق كمونه

لهذا الاستاذ المحامي مكتبة في النجف تحتوي على نيف ومائة وخمسين مخطوطاً لا تخلو من النوادر والنفائس . نذكر منها كتاب « قطب السرور في اوصاف الخمور (٣) » لابي اسحق ابرهيم بن القاسم القيرواني المعروف بالرقيق القديم . وكتاب « الكناش » المشهور بالمائة مقالة في الطب لابي سهل المسيحي استاذ الشيخ الرئيس ابن سينا (٤) . وكتاب « تقدمة المعرفة » لابقراط شرح القزويني وخط يده وكتاب « احسن القصص ودافع الغصص » للنوشجاني (٥) . ونسخة من «عمدة الطالب في انساب آل ابي طالب » كتبت في عصر المؤلف وقد صححها بخطه . وفيها غير ذلك من كتب الرجال والادب والتاريخ .

١٤ ـ مكتبة محمد علي الخونساري

يعد الشيخ محمد علي الخونساري من صرعى الكتب في النجف . فانه اشتهر

---

(١) مجلة « الرابطة العربية » لامين سعيد في القاهرة : م ٢ سنة ١٩٣٨ ج ٩٤ ص ٤٥
(٢) تاريخ آداب اللغة العربية : مجلد ٤ صفحة ١٤٢ (٣) منه نسخة ناقصة في المتحف البريطاني بلندن
(٤) تاريخ مختصر الدول : صفحة ٣٣٠ (٥) منه نسخة في مكتبة الامام الرضا في ايران

بمبالغته في اقتناء الكتب وخصوصاً نوادر المخطوطات التي جمع منها عدداً غير يسير. واحتوت خزانته على طائفة كبيرة من المخطوطات في الفلسفة القديمة (١) ومن خرائدها كتاب « الاستخراج في طلب العمر والهيلاج » لمؤلفه محمد بن ابي ايوب الطبري (٢) وكتاب « الاستقلالية » في استقلال الاب بالولاية على البكر في التزويج تأليف محسن بن مرتضى الفيض الكاشاني المتوفى سنة ١٠٩١ للهجرة (٣)

وروى مؤلف كتاب « ماضي النجف » عن محمد علي الخونساري انه افنى عمره في جمع مكتبته وقتر على نفسه في تحصيلها. وحشد فيها ما لا اثر له عند غيره حتى اربى عدد مجلداتها على الالفين. وقد وضع لها الخونساري فهرساً جامعاً لاسمائها واسماء مؤلفيها. ثم انتقلت بعد وفاته سنة ١٣٣٢ للهجرة الى ولده الملا محمد.

١٥ ـ مكتبة محمد اليزدي

اشتهر السيد محمد اليزدي بانه من اكبر المفطورين على حب الكتب في النجف. فان لديه خزانة مخطوطات ضمت كثيراً من الامهات مثل كتاب « غريب ابي عبيدة » ويظن انه مخطوط في القرن الخامس للهجرة. ومنها كتاب « المجمل » في اللغة لابن فارس وغيرهما كثير (٤)

١٦ ـ مكتبة ضياء الدين الدخيلي

يُعد الشيخ ضياء الدين الدخيلي من افاضل اساتذة النجف في هذا العصر. ولديه خزانة كتب لا يتجاوز عددها الف مجلد كثير منها مخطوط عزيز. وقد زارها

---

(١) مجلة « لغة العرب » في بغداد : مجلد ٢ سنة ١٩١٣ صفحة ٣٧٥

(٢) الذريعة الى تصانيف الشيعة لمحمد محسن آغابزرك الطهراني : جزء ٢ صفحة ٢٠

(٣) الذريعة الى تصانيف الشيعة : جزء ٢ صفحة ٣٣

(٤) مجلة « لغة العرب » ببغداد : مجلد ٢ سنة ١٩١٣ صفحة ٣٧٥

البحاثة عبد العزيز الميمنيّ الهندي المعلق على « أمالي القالي » فرأى فيها كتاباً مخطوطاً قديماً اعجبه فقال : « لو ضربت آباط الابل الى الصين ولم احظَ بغير رؤية هذا الكتاب لكفاني في ذلك غُنما » (١)

١٧ ـ سائر مكتبات النجف الاشرف

ما عدا المكتبات التي أتينا على ذكرها فان النجف الاشرف لا تزال فيه بقية من الثروة الادبية التي جادت بها ادمغة جبّارة من فلاسفة الكتّاب وعباقرة الشعراء في العصر العباسي. ولحسن حظ العلم والعلماء ما امتدت الى تلك الخزائن ايدي التتر بقيادة هولاكو ولا ايدي امثالهم من الطغاة والبرابرة الذين حرقوا الكتب او اغرقوها في دجلة. ومن مكتبات النجف التي تستحق الوصف ولم نتوفق الى معرفة محتوياتها نذكر : مكتبة المعارف وهي من اغنى المكتبات.

خامساً : مكتبات كربلا

أثبت جرجي زيدان في « تاريخ آداب اللغة العربية » اسماء ثلاث مكتبات في كربلا (٢) وهي :

١ ـ مكتبة عبد الحسين الطهراني

فيها مؤلفات نادرة الوجود كلها خطية واغلبها بخطوط مصنفيها . وفيها كتاب العين للخليل والمحيط للصاحب بن عباد (٣) . وتحرير المجسطي بخط خوجه نصير الدين الطوسي. والتحفة الشاهية وقد قرئت على مصنفها. والتفهيم للبيروني مخطوط في القرن

---

(١) جوامع النجف الاشرف (مجلة الرسالة : سنة ٦ صفحة ٢٦٧)
(٢) تاريخ آداب اللغة العربية : مجلد ٤ صفحة ١٤٢
(٣) نوادر المخطوطات بقلم تيمور باشا (الهلال : مجلد ٢٨ صفحة ٥٥)

السادس للهجرة . وليس فيها من الكتب المطبوعة الا النذر اليسير .

٢ـ مكتبة عبد الحسين الكليدار

كان عبد الحسين الكليدار خازناً للروضة الحسينية. وهو من اكبر غلاة الكتب لديه خزانة تنطوي على مخطوطات نفيسة في بعض العلوم ولا سيا التاريخ. ومن تلك المخطوطات ما لا يشاهد مثله عند غيره .

٣ ـ مكتبة آل شهيد

من المكتبات العامرة في كربلا مكتبة « شهيد » التي انشأها في اوائل القرن الثالث عشر للهجرة الشيخ محمود الحسني من احفاد الشهيد الاول. وهي تشتمل على نيف وثلاثمائة مخطوط في الفقه والاصول والحكمة والطب والادب والفلك. وفيها مصاحف نادرة ومجموعات ثمينة كتاريخ ابن عساكر والطبري والاغاني وغير ذلك. وفيها خصوصاً مخطوطات فلكية زُينت صفحاتها بصور تشير الى اوضاع الكواكب وسير النجوم. ومن نفائسها مخطوط قديم يبحث في الخمرة وآدابها لا يقل عمره عن الخمسمائة سنة .

٤ ـ مكتبة الشيخ زين العابدين

نضيف الى المكتبات الثلاث التي نقلنا اخبارها عن « تاريخ آداب اللغة العربية » مكتبة رابعة في كربلا لا تقل عن تلك الثلاث قيمة وشأناً. نريد بها مكتبة الشيخ زين العابدين الذي جمع فيها مخطوطات عتيقة كثيرة العدد فريدة المزايا . وقد توفرت فيها خصوصاً مصنفات تتعلق بالشيعة الامامية.

٥ ـ مكتبة ميرزا الشهرستاني

توفي السيد ميرزا الشهرستاني سنة ١٣١٥ للهجرة. وهو ابن محمد حسين بن ميرزا

محمد علي بن ميرزا محمد حسين الحسيني المشهور بالشهرستاني . خلف مكتبة عامرة بالمطبوعات والمخطوطات ومن انفسها كتاب « الاستخارات » نسخه بخط يده (١)

٦ ـ سائر مكتبات كربلا

في كربلا مكتبات فردية جمة غير التي ذكرنا وهي غنية بالمخطوطات القديمة النادرة. ولا غرابة في الامر لان كربلا مدينة مقدسة يشاهد فيها مزار الحسن والحسين ويحجها الشيعيون من جميع اطراف المعمور. ومن جملة مكتباتها مكتبة مدرسة باد كوبة (٢) ومكتبة السيد عبد الحسين الحجة (٣).

سادساً : مكتبات الكاظمية

١ ـ مكتبة محمد الصدر

اهمّ مكتبات الكاظمية واشهرها مكتبة السيد محمدالصدر رئيس مجلس الاعيان في المملكة العراقية . وقد ورثها عن والده السيد حسن صدرالدين الذي ضم اليها من المخطوطات الجليلة ما يعز وجود نظيره في مكتبات الشرق والغرب. ولعل في هذه المكتبة بعض مخطوطات هي يتيمة في البلاد كلها . مثلاً كتاب «الدر المسلوك في احوال الانبياء والاوصياء والخلفـــاء والملوك » تأليف احمد بن الحسن الحر العاملي (٤) .

٢ ـ مكتبة آل السيد حيدر

بعد مكتبة السيد محمدالصدر لم يتيسر لنا الوقوف على اخبار مكتبة اخرى في

---

(١) الذريعة الى تصانيف الشيعة : جزء ٢ صفحة ١٩ (٢) الذريعة الى تصانيف الشيعة : جزء ٢ صفحة ٢١٨ (٣) الذريعة الى تصانيف الشيعة : جزء ٢ صفحة ٢٢٦

(٤) تاريخ آداب اللغة العربية : مجلد ٤ صفحة ١٤١

الكاظمية تستحق النظر افضل من مكتبة آل السيد حيدر (١) . فقد افادنا العارفون بها والمتصلون بأربابها انها تضم طائفة غير قليلة من مخطوطات قديمة لا قرين لها في سائر المكتبات الخاصة .

سابعاً: مكتبات البصرة في العصور الخالية

١ ـ دار كتب البصرة

يُروى ان اقدم دار كتابية وُقِفَت في الاسلام هي دار الكتب التي أنشئت في البصرة قبل ظهور دولة بني بويه سنة ٣٢٢ للهجرة. يؤيد ذلك ما اثبته عنها ابن الاثير بلسان عضد الدولة بن بويه (٣٣٨ – ٣٧٢ هـ) قال : « هذه مكرمة سُبقنا اليها وهي اول دار وُقفت في الاسلام » . وقد احرقها عرب بني عامر عام ٤٨٣ للهجرة عندما شنّوا الغارة على البصرة وملكوها في عهد حاكمها العميد عصمة (٢)

٢ ـ دار كتب ابي منصور بن شاه مردان

كان ابو منصور بن شاه مردان وزيراً في دولة بني بويه ومن اساطين اهل الادب في زمانه. اقتنى خزانة حافلة بنفائس الكتب واعيانها ثم وقفها على النفع العام. وقد اصابها ما اصاب دار كتب البصرة السابقة الذكر من الحريق على يد عرب بني عامر سنة ٤٨٣ للهجرة (٣)

٣ ـ مكتبة القاضي ابي الفرج

ثالث مكتبة اشتهرت بالبصرة في سالف الزمان هي التي وقفها القاضي ابوالفرج

---

(١) الذريعة الى تصانيف الشيعة : جزء ٢ صفحة ١٩٤

(٢) التاريخ الكامل لابن الاثير : جزء ١٠ صفحة ٧٥

(٣) » » » » » » »

ابن ابي البقاء في القرن الخامس للهجرة. غير انها نُكبت بالنهب في ايام السلطان محمد عندما استولى عرب آل ربيعة والمنتفق على البصرة. فانهم نهبوا هذه المدينة واوقدوا النيران في دورها واسواقها. وحل ذلك سنة ٤٩٩ للهجرة (١)

٤ ـ مكتبة الامير آقسنقر

انشأها في جامع البصرة ابو المظفر بن عبدالله الرومي المعروف بالامير آقسنقر. قال ابن القفطي: كان ابو المظفر مملوكاً لعائشة بنت الخليفة المستنجد بالله فأشتغل بالعلم وحفظ القرآن وخدم جندياً. ثم عُهدت اليه حكومة البصرة فاقام فيها ثلاثاً وعشرين سنة وعمرّها وشيد مارستاناً. ومن مآثره انه جدد جامع البصرة وبنى مكتبة في دهليزه. ووقف كتباً على جميع المدارس حتى انتشر العلم في كل ناحية. وقصده العلماء من الآفاق فكان يوفدهم بسخاء ويتباهى في تكريمهم. وظلت تلك المكتبات عامرة الى ان هجم المغول على البلاد فخرّبوها واحرقوا كل ما فيها. وتوفي آقسنقر عام ٦٤٠ للهجرة (٢)

ثامناً: مكتبات البصرة في الزمان الحاضر

١ ـ المكتبة العباسية

سُميت كذلك لان مالكيها يمتون بقرابتهم الى عبدالله بن عباس جد الخلفاء العباسيين في بغداد. ويتحدر فرع هذه الاسرة النبيلة من الامير محمد بن المستضيء بالله الخليفة العباسي (١١٧١ – ١١٨٠ م) بنسب متسلسل اباً عن جد الى يومنا هذا. ولما زحف هولاكو التتري الى بغداد سنة ١٢٥٨ م في عهد المستعصم بالله

---

(١) التاريخ الكامل لابن الاثير: جزء ١٠ صفحة ١٧٢

(٢) الجامع المختصر: جزء ٩ صفحة ٧٥ـ٧٦

(١٢٤٢ – ١٢٥٨ م) تشتت شمل العباسيين تحت كل كوكب . فاستقر من سلم من اجداد هذه الاسرة في مدينة البصرة واتخذوها مسكناً لهم . ومذ ذاك الحين طلقوا الامور السياسية وحصروا اهتمامهم بادارة شؤون املاكهم الواسعة التي ورثوها عن آبائهم .وانصرف فريق منهم الى العلوم فالفوا الكتب في شتى المواضيع. وعرفوا منذ السنة ١١١٨ للهجرة (١٧٠٦ م) بلقب « باش اعيان البصرة » طبقاً لفرمان سلطاني منحهم اياه السلطان العثماني احمد الثالث (١١١٥ – ١١٤٢هـ)واول من أطلق عليه هذا اللقب كان الشيخ انس المتوفى سنة ١١٥٠ للهجرة.

ويرجع الفضل الاول في تكوين المكتبة العباسية (١) الى ما ابقاه الخلفاء العباسيون من الكتب التي غفل عنها الطاغية هولاكو ولم تمسها ايدي جنوده البرابرة . وبلغ مجموع ما حوته حتى السنة ١٢٠٦ هـ ما اربى على اربعة وثلاثين الف مجلد خطي بين استملاك واستنساخ وتأليف. وكانت تلك المخطوطات موزّعة بين افراد العترة الموما اليها في ذلك العهد . واغلبها موقّع بخواتيمهم ومدوّن بتواقيعهم وعليه بعض شروح وهوامش بخطوطهم.

وبتوالي الاعوام تبدد ذلك التراث القديم بين ايدي المستعيرين والموالين والمحاسيب والاصدقاء .هكذا انتقل معظمه الى مكتبات اوروبا ومكتبة عظيم آباد في الهند وانحاء خليج فارس وبغداد والبصرة وغيرها . وكل ما تبقى من تلك الثروة العلمية قد حفظ بعناية العلامة الشيخ عبدالله ضياء الدين باش اعيان البصرة . وعلى اثر وفاة الشيخ المذكور عام ١٣٤٠ للهجرة اخذ حفيده الشيخ ياسين على عاتقه تنسيق الثمانية آلاف مجلد الباقية في هذه المكتبة طبقاً للاصول الفنية المصطلح عليها في الزمان الحاضر. فرتبها في خزائن محكمة على الطراز الحديث وجعل لها ثلاثة فهارس : اولها فهرس التسلسل العام ثانيها فهرس انواع العلوم وثالثها فهرس هجائي.

---

(١) استندنا في اخبار هذه المكتبة النفيسة الى رواية خازنها الشيخ ياسين باش اعيان العباسي. فله الشكر والثناء

الفصل الخامس

خزائن كتب الحجاز

اولا : مكتبات المدينة المنورة

كثيرة هي المكتبات الخاصة في المدينة المنورة . وكثيرة هي مخطوطاتها التي بينها ما لا مثيل له في اشهر خزائن الكتب. واليك موجز ما اتصل بنا من اخبارها:

١ ـ المكتبة الحميدية

سُميت كذلك نسبةً الى السلطان عبد الحميد الاول الذي تولى عرش الخلافة العثمانية منذ السنه ١١٨٧ حتى السنة ١٢٠٣ للهجرة او منذ السنة ١٧٧٤ حتى السنة ١٧٨٩ م.

٢ ـ المكتبة المحمودية

أسسها الخليفة العثماني السلطان محمود الثاني (١٢٢٣ ـ ١٢٥٥ ﻫ) اعني (١٨٠٩ ـ ١٨٣٩ م) ومن نوادر مخطوطاتها (١): «الاشراف بمعرفة الاطراف» لابن عساكر. و« نزهة الالباب في الالقاب » و « المغني في ضبط الاسماء والانساب» للحافظ بن حجر . و « الدرر الكامنة في اعيان المائة الثامنة » لابن حجر ايضاً . و « مختصر العين » لأبي الحسن الحوافي . و « تاريخ بغداد » للخطيب . و « رفع الاصر عن قضاة مصر » لابن حجر بخط السخاوي . وكتاب « العظمة » لابن حبّان الخ. الخ.

---

(١) مجلة المجمع العلمي العربي : مجلد ٨ سنه ١٩٢٨ صفحة ٧٥٧ـ٧٥٨

٣ ـ مكتبة رباط سيدنا عثمان

اشتملت هذه الخزانة على مخطوطات نفيسة نذكر منها (١): كتاب «الكشف في القراآت» للزمخشري. و «شرح منظومة ابن سينا» في الطب لابن رشد الاندلسي بخط مغربي. و «منظومة في الكيميا» لابن سينا ايضاً. وكلتا المنظومتين في مجلد واحد. وكتاب «الانساب» لابن الشحنة

٤ ـ مكتبة الصاقزلي

تضمنت هذه المكتبة مخطوطات ثمينة لفت نظرنا منها ما يلي (٢): كتاب «تحفة الدهر في اعيان المدينة من اهل العصر» تأليف عمر بن عبد السلام الداغستاني وبخطه. وكتاب «خلاصة الجواهر في طبقات الحنفية» وضعه عبد السلام الداغستاني وكتبه بخطه.

٥ ـ المكتبة البساطية

حوت مخطوطات جمة اهمها: «نظام المملكة في الاماكن المتبركة» لعبدالرحمن بن أسلم المكي. وكتاب «الانساب» لابن الشحنة الحلبي وغيرهما.

٦ ـ سائر مكتبات المدينة المنورة

ما عدا المكتبات الخمس التي اتينا على سرد اسمائها فان في المدينة المنورة مكتبات اخرى هذه اسماؤها: المكتبة العرفانية. ومكتبة امين باشا. ومكتبة حسين آغا. ومكتبة بشير آغا مركزها في مدرسة بجوار الحرم النبوي. ومكتبة مدرسة قره باشي. ومكتبة مدرسة ثروت. ومكتبة السادة.

---

(١) نفائس المخطوطات في دور كتب المدينة المنورة: بقلم حسني الكسم: سنة ١٩٢٨

(٢) نفائس المخطوطات في دور كتب المدينة المنورة: سنة ١٩٢٨

ثانياً : مكتبات جدة

١ ـ مكتبة محمد ناصيف

تُعتبر مدينة جدة اهم ثغر لمملكة الحجاز على البحر الاحمر. وفيها مقر السفراء والقناصل الذين يمثلون الدول الاجنبية لدى عاهل الدولة المذكورة.

ولا تخلو جدة من مكتبات خاصة أنشئت بهمة المثقفين من اهاليها. الا انه بعد التحري لم يتصل بنا الا اسم مكتبة من تلك المكتبات انشأها الاستاذ محمد ناصيف من كبار ادباء تلك الحاضرة. وهي تضم بين رفوفها زهاء الفي مجلد مطبوع ومائتي مخطوط طبقاً لما رواه الدكتور مدحت شيخ الارض الذي تعهدها مراراً بنفسه. وهو الطبيب الخاص لجلالة الملك عبد العزيز بن سعود عاهل الحجاز ونجد.

ثالثاً : مكتبات حائل ونجد

كانت امارة حائل في حوزة ابن الرشيد قبل غارة ابن السعود عليها. اما نجد فكانت تابعة للامير ابن السعود قبل استوائه على عرش مملكة الحجاز. وكان في محل من عاصمتي هاتين الامارتين البدويتين مكتبة ذكرتها مجلة « لغة العرب »(١) البغدادية اليك ما اوردته عنها بالحرف الواحد :

١ ـ مكتبة حائل

اثبتت مجلة « لغة العرب» عن مكتبة حائل قولها : « ولما دالت امارة آل سعود وافق آخرها نموّ امارة محمد الرشيد فانتقلت اكثر الكتب الى حائل. وانت تعلم ان لا صناعة ولا تجارة لاهل حائل الا الغزو لا غير. ومع ذلك فتراهم قد سبقوا

---

(١) لغة العرب : مجلد ١ صفحة ٢٢ سنة ١٩١١

غيرهم في العلوم العصرية وذلك لاختلاف كبرائهم الى الاستانة ومصر والحجاز ايام السلطان عبد الحميد المخلوع. فاصبح البعض منهم يعرف اللسان التركي والفارسي. وترى في بلادهم اليوم الكتب العربية القديمة النادرة الثمينة التي لا ترى لها وجوداً في سائر البلاد العربية واغلبها غير مطبوع ».

٢ ـ مكتبات نجد

نورد في ما يلي كلام مجلة « لغة العرب » عن خزانة كتب الامير في نجد وهذا نصه : « الكتب الموجودة في خزانة الامير تُقسم ثلاثة اقسام قسم لصقت اوراقه بعضها ببعض من الرطوبة. وقسم أكلته الأرضة وتمزقت اوراقه. وقسم بين ناقص وتام . وها نحن نصف القسم الاخير منها :

« هذا ما وُفقنا لوصفة من كتب خزانة الامير علي بن ابي طالب . وهناك بقية كتب مشتتة الاوراق وممزّقتها وبعضها تامة وبعضها نواقص من الاوائل والاواخر والاواسط . وهي في الاصول والحديث والكلام والمنطق وقليل من الفقه . وليس فيها من التاريخ واللغة والشعر شيء سوى ما ذكرناه . وقد اخبرنا العلامة السيد حسن صدر الدين في الكاظمية ان في خزانة الامير نسخة من تفسير القرآن في ثلاثة مجلدات لابي جعفر الطوسي وهي اليوم معارة لبعض الافاضل للاستنساخ . وخطها قريب من عصر المفسرّ .

« وقد جاء في الجزء الثاني من كتاب « النقود والردود » للشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء (صفحة ١٥٣) انه وقف قبل برهة (اعني المؤلف) على مجلد من شرح نهج البلاغة لعبد الرحمن بن محمد العتايقي المار ذكره في خزانة كتب الامير وهو بخط الشارح. ونحن لم نعثر في تنقيبنا على هذا المجلد ولعله فقد كاخوته والله اعلم.

« ولربما يوجد في خزانة الامير بعض الكتب التاريخية والاخبارية واللغوية. لكننا لم نهتدِ اليها لما ذكرناه من تفريق اوراقها وتشتيت شملها . ولعلنا نراجعها في فرصة اخرى ونعود الى وصف ما فاتنا منها والعود احمد » .

الفصل السادس

خزائن كتب اليمن

اخبرنا شيخ العروبة احمد زكي باشا العلامة المصري (١٢٨٣ – ١٣٥٣ ﻫ) ان اليمن أغنى جميع الاقطار في شبه جزيرة العرب بما احتواه من المخطوطات الثمينة. وهي مكنوزة بكل حرص في خزائن قصور الامراء وبيوتات الشيوخ والعلماء منذ العصور الاسلامية القديمة. وقد راجعنا نحن في هذا الشأن ايضاً صاحب السمو الملكي «سيف الاسلام» وغيره من الائمة اليمانيين. فظفرنا بما دوناه من اخبار تلك المكتبات في هذا الفصل وفي الفصل الثاني عشر من الباب الثالث:

١ ـ مكتبة الامام محمد بن الحسين

اشتهر بالعلم في القرن الحادي عشر للهجرة الامام محمد بن الحسين بن القسم إمام اليمن. وصفه ابن ابي الرجال بقوله: «عالم ابن عالم كان من اهل العلم ورعاته مطلعاً على مقاصد الادباء ومناهجهم». وقد اجتمع عند الامام محمد من الكتب ما لم يجتمع مثله الا عند السلاطين. وحلت وفاته بعد عصر الجمعة ثامن شوّال سنة سبع وستين والف. ودُفن بالتربة المشهورة بالبستان في باب صنعاء الغربي (١).

٢ ـ مكتبة حسن حيدرة الذماري

وُلد الشيخ حسن حيدرة في ذمار باليمن سنة ١١٧٠ للهجرة (١٧٥٦ م) وكان من اكبر علماء بلاده ومؤرخيها. جوّد القرآن منذ حداثته وبلغ الغاية من العلوم

---

(١) خلاصة الاثر في اعيان القرن الحادي عشر: جزء ٣ صفحة ٤٥٥ـ٤٥٦

العقلية والنقلية. وجدّ وكدّ في تقييد الشوارد ونظم مسلك السطور الخ. واعتنى خصوصاً بجمع الكتب النفيسة ونسخها وضبطها وصيانتها. فاحرز منها في خزانته ما يشرح صدر المطلع عليها وتقر عين الناظر اليها (١)

٣ ـ مكتبة الحسن بن علي حنش

وُلد الحسن في شهارة سنة ١١٥٣ للهجرة (١٧٤٠ م) وارتحل في حداثته الى صنعاء انتجاعاً للعلم. ولما تولى المنصور علي الخلافة اناط بصاحب الترجمة شؤوناً خطيرة ورقاه الى رتبة الوزارة. ثم بالغ في تعظيمه لكونه شيخه في العلم وفضّله على سائر الوزراء.

وتفرد الحسن بسجايا لم تُعرف في سواه. فانه كان ينفق امواله سراً على العلماء ويؤاسي الفضلاء والفقراء. وكان يشتري بيوتاً ويهبها لمن ليس له بيت الى غير ذلك من صنائع الصدقة والزكاة. واشتهر الحسن خصوصاً بعلمه ونظمه. وخلف خزانة معتبرة حوى فيها من المخطوطات النفيسة ما لم يحوه غيره. وتوفي بصنعاء ليلة ١٥ شعبان ١٢٢٥ للهجرة (١٨١٠ م). (٢)

٤ ـ مكتبة الامام احمد بن المنصور

الامام احمد بن المنصور علي بن العباس وتلقب بالمتوكل كان حازماً عاقلا يحب العلماء ويقربهم اليه. ويؤثر عنه انه اصلح ما افسده المنصور وجمع بين الخلافة والملك والحكمة والشجاعة. وروى الشيخ عبد الواسع بن يحيى الواسعي ان المتوكل احرز في خزائنه زيادة على مائة الف كتاب. وتعوّد المتوكل والائمة اسلافه من قبله ان ينصبوا الوزراء ولا يعزلوهم حتى تدركهم المنون. وقد ملأ المتوكل بلاطه من الذهب والفضة والاحجار الكريمة والحلل الثمينة وآلات السلاح. وتوفي سنة ١٢٣١ للهجرة (١٨١٥ م) ودفن ببستان المسك (٣).

---

(٢) نيل الوطر من تراجم رجال اليمن في القرن الثالث عشر : تأليف جمعه محمد زباره الحسني اليماني : جزء ١ صفحة ٣٢٢ (٢) نيل الوطر من تراجم رجال اليمن في القرن الثالث عشر : جزء ١ صفحة ٣٤٨ (٣) فرجة الهموم والحزن في حوادث تاريخ اليمن : تأليف عبد الواسع بن يحيى الواسعي اليماني : صفحة ٦٠ـ٦١

٥ ـ مكتبة عبد الرحمن العمراني

في السنة ١٢٦٤ للهجرة وصل الاتراك الى صنعاء نهار الجمعة سادس شهر رمضان. فقام اهالي المدينة قومة رجل واحد على حين غفلة وابادوا الاتراك قتلاً ولم يسلم منهم الا مَن لجأ الى القصر. وتحدّث العوام في صنعاء عن القاضي عبد الرحمن بن محمد العمراني ناظر الاوقاف انه كان ممن اشار بخروج الاتراك الى اليمن. فهجموا على داره وقوّضوها ونهبوا جميع ما فيها في لحظة. ولم يشفقوا على خزانة كتبه العظيمة اشتملت على مخطوطات وافرة في جملتها الف مخطوط من افخر الكتب واجودها (١).

٦ ـ مكتبة احمد الكبسي

قرأنا في كتاب « فرجة الهموم والحَزن » ان اهل صنعاء خلعوا سنة ١٢٧٤ للهجرة الحاج احمد الحيمي وانتزعوا منه الرئاسة والمشيخة. ذلك لما رأوه من سوء تصرفه وما افتعله بهدمه دار الطواشي التي كانت تُعد من احسن قصور اليمن وافخمها. ومن فظائع احمد الحيمي انه اثار اهالي صنعاء فهجموا على دار العلامة احمد بن محمد الكبسي ونهبوا جميع ما فيها ودكوها حجراً حجراً. فتفاقم الاسف عليها ولا سيما على خسارة ما احتوته خزائنه من المخطوطات الغالية (٢).

٧ ـ مكتبة حسين حلمي باشا

كان حسين حلمي باشا من انبل وزراء الدولة العثمانية وارصنهم في عهد السلطان عبدالحميد الثاني. تقلّب في مناصب شتى عالية كالصدارة العظمى في الاستانة وسفارة تركيا في فينا عاصمة النمسا وغير ذلك. وعُين سنة ١٣١٥ للهجرة (١٨٩٧ م) والياً على اليمن فأجرى فيها اصلاحات وتنظيمات خطيرة دلت على نباهته وحصافته.

---

(١) فرجة الهموم والحزن في حوادث تاريخ اليمن : ٧٣ ـ ٧٤

(٢) فرجة الهموم والحزن في حوادث تاريخ اليمن : ٩٩

روى المؤرخ اليماني الشيخ عبد الواسع بن يحيى الواسعي ان حسين حلمي باشا كان يُحب العلم وينشّط ذويه. والف اثناء ولايته على اليمن جمعية علماء برئاسة حسني بك وكان اعلمهم واحذقهم. وانشأ في مدينة صنعاء خزانة نفيسة انطوت على كتب خطية جمعها من كل انحاء اليمن. واستنسخ كثيراً من المخطوطات التي تعذر بيعُها من مالكيها. وكان يشتري كتباً باضعاف اثمانها لمنفعة اهالي تلك الديار الذين أحبهم حباً مفرطاً فتزيا بزيهم وتعمم مثلهم (١).

٨ ـ مكتبة الامام يحيى ملك اليمن

هو الامام السابع والثمانون من أئمة الزيود الذين تعاقبوا في إمامة اليمن. واليه يعود الفخر في استقلال بلاده بعدما ظلت زمناً طويلاً خاضعة لحكم الاتراك.

وللامام يحيى كلف بجمع الكتب واذدخارها والحرص عليها في قصره المسمى «قصر السعادة» وهو يطالعها ويستفيد من ابحاثها. واثبت المؤرخ المدقق امين محمد سعيد عن مكتبة الامام يحيى قوله (٢) : « ولدى الامام مكتبة ثمينة جداً وفيها كتب خطية نادرة. وأبوابها مقفلة خوفاً على ذخائرها وكنوزها ومفتاحها معه ».

وكتب امين الريحاني في اخبار رحلته الى البلاد العربية عن مكتبة الامام يحيى ما يلي : « قيل لي ان عنده مكتبة من المخطوطات لامثيل لها في البلاد العربية كلها. ولكنه يغار عليها من عيون الناس وايديهم وخصوصاً الاجانب منهم. فقد أخبرتُ واني اروي حديث المكتبة كما رويتُ حديث الكنوز ان كتاب « الأكليل » كاملا بعشرة اجزائه موجود في مكتبة الحضرة الامامية. وانه سيطبع ان شاء الله عندما تصل الطباعة الى اليمن في سياحتها العربية البطيئة وتستقر في اليمن (٣).

---

(١) فرجة الهموم والحزن في حوادث تاريخ اليمن : صفحة ١٧٦ (٢) ملوك المسلمين المعاصرون ودولهم : تأليف امين محمد سعيد : صفحة ١٨١ (٣) ملوك العرب : لامين الريحاني : جزء ١ صفحة ١٤٣ — ١٤٤

الفصل السابع

خزائن كتب ايران (بلاد فارس)

اذا استثنينا مدينة الاستانة لا نظن بلداً غير عربي في الشرق حوى من خزائن الكتب العربية ما حوته البلاد الايرانية . وتكاد لا تخلو مدينة في تلك المملكة الشاسعة من خزانة او خزائن كُنزت فيها المخطوطات العربية القديمة على اختلاف العلوم والفنون . فان مساجد ايران ومدارسها وقصورهـــا ومنازل بعض الاسر العريقة فيها تشتمل على مخطوطات عربية جمة حُفظت فيها بجانب المخطوطات الفارسية منذ العصور الغابرة .

وناهيك ان البلاد الايرانية لبثت مدة طويلة خاضعة للدولة العربية فانجبت عدداً وافراً من فحول العلماء الذين ألفوا في اللسان العربي او نقلوا اليه العلوم الدخيلة . ولا غرابة في ذلك لان حملة الاقلام في القرون الاسلامية الاولى اكثرهم العجم(١) .

ولو شئنا تعداد علماء الفرس الذين برّزوا في لغة الضاد لضاق بنا المقام . وحسبنا ان نذكر منهم الجرجاني والزوزني وسيبويه وابن سينا وآل بختيشوع اطباء الخلفاء العباسيين والراغب الاصفهاني وابا معشر البلخي . ومنهم الميـــداني والفيروزآبادي والفخر الرازي والزمخشري والمطرزي والسكاكي والصفائي الخ الخ .

وظل كتّاب الشرق وعلماءُ المشرقيات في اوروبا يجهلون خزائن الكتب العربية في ايران حتى نهض من كشف النقاب عنها في اواخر القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين . وبين الذين تصدوا لتعريف تلك الخزائن السيد عبد العزيز الجواهري احد علماء ايران في نبذة سماها «كتابخانهاي ايران» ونشرها عام ١٣١١ للهجرة .

---

(١) مقدمة ابن خلدون طبع المطبعة الادبية في بيروت : فصل ٣٥ صفحة ٥٤٣ و٥٤٤

ولم يتخلف العلامة اللغوي الأب انستاس الكرملي عن نشر مقالات عديدة في مجلته « لغة العرب » تشير الى ما في بلاد ايران من خزائن الكتب العربية.

ونحن بدورنا كتبنا الى من نثق بمعرفتهم وخبرتهم من جلة علماء ايران ان يوافونا بما لديهم من المعلومات في هذا الصدد. فلبّى اغلبهم طلبنا واطرفونا بما تيسر لهم جمعه ولا سيما السيد ابو عبدالله الزنجاني الذي تدعونا معرفة الجميل الى تأدية الشكر له بلسان التاريخ والادب.

ولما كان بعض اصحاب تلك المكتبات يضنّون بما حوته خزائنهم ويضيّقون على اهل البحث ابواب الوصول اليها لم نتمكن الا من ذكر المكتبات التي اطلعنا على اخبارها وهي:

اولا: مكتبات طهران

١ ـ الخزانة الشاهانية

انشأها « فتح علي شاه » احد سلاطين الدولة القاجارية الذي قرّب اليه العلماء بعد انحطاط شأنهم في عهد الدولتين الافشارية والزندية. ثم اضاف اليها حفيده ناصر الدين شاه (١٨٤٦ – ١٨٩٦) طائفة عظيمة من نوادر المخطوطات المصورة وغير المصورة التي يبلغ عددها الآن ٤٨٠٧ مجلدات. وبعضها منمق بريشة مشاهير مصوري الهند والصين وايران ومجلد بافخر المنسوجات. وادارة هذه الخزانة منوطة بالبلاط الشاهاني يُنفق عليها من موازنة المملكة. ولا يرخّص لأحد في الدخول اليها الا باجازة خاصة من الشاه او من وزير البلاط.

وفي اواخر عهد مظفر الدين شاه (١٨٥٣ – ١٩١٧) تواطأ خازن هذه المكتبة مع تاجر ارمني يُدعى « ارشاك خان كريانس » على اختلاس نفائسها وبيعها في اوروبا. ومن ذلك الحين منعت الحكومة الايرانية منعاً باتاً اخراج الكتب المخطوطة من مملكتها.

٢ ـ الخزانة الناصرية

مُنشىء هذه الخزانة هو ميرزا حسين خان سفهسالار في اواخر القرن التاسع عشر. وقد اوقفها على تلامذة « المدرسة الناصرية » التي بناها في عصر ناصر الدين شاه ودعاها باسم هذا العاهل تيمناً. ومن جملة ما ابتاع لها من الكتب قسم من الخزانة الشهيرة التي خلفها وزير المعارف البرنس « اعتضاد السلطنة علي قلي ميرزا » المتوفى سنة ١٢٩٩ للهجرة . ويبلغ عدد مخطوطاتها نحو الخمسة آلاف اكثرها نادر من حيث ورقها وكتابتها. غير انها كسائر خزائن طهران لهذا العصر لا ينتفع بها الا النزر اليسير من الادباء (١).

٣ ـ خزانة مجلس النواب

من اهم الخزائن الكتابية في الزمان الحاضر « خزانة مجلس النواب » التي تُعد في طليعة جميع مكتبات عاصمة البلاد الايرانية. بيد ان طائفة من نفائس مخطوطاتها أتلفت عند تسلط جنود آخر ملوك الدولة القاجارية اثناء الثورة الدستورية.

٤ ـ خزانة حسين آقا

الحاج حُسين آقا معروف بلقب « ملك التجار » في طهران وخراسان . وقد ساعدته ثروته الطائلة على احراز خزانة حافلة باثمن الكتب واندرها. انما لشدة حرصه عليها وضنه بكنوزها كان يحرّج على اي كان من الباحثين الاشراف عليها والاستفادة منها .

٥ ـ الخزانة النورية

أسس هذه الخزانة المعتبرة آقا ضياء الدين من كبار عشاق الكتب في الديار

---

(١) مجلة لغة العرب : مجلد ٥ صفحة ٥٢٥

الايرانية. وقد ورث هذه المزية عن والده العالم الشيخ فضل الله النوري الذي شُنق في اوائل الانقلاب الفارسي السياسي.

٦ ـ سائر مكتبات طهران

تحوي مدينة طهران عدة مكاتب غير التي ذكرنا توفرت فيها الكتب المخطوطة والمطبوعة. اليك اهمها : مكتبة وزارة المعارف، ومكتبة نصرالله الاخوي احد اعضاء مجلس التمييز في طهران. ويُروى عنه انه من عظام المولعين بجمع الكتب وتنظيمها. والمكتبة المروية نسبة الى منشئها ميرزا محمد حسين خان المروي.

ثانياً : مكتبات اصفهان

١ ـ خزانة الكتب بمدرسة النظام

هي اقدم مكتبة اثبتها التاريخ عن مكتبات اصفهان. روى ابن القفطي عن المظفر بن احمد انه فارق اصفهان طفلا. فاقام بالشام حتى تعلم الطب والادب ونظم الشعر. وقد عارض ديوان الحماسة فأخذ كل بيت من ابياته وعارضه ببيت من نظمه. وهذه النسخة كانت في خزانة الكتب بمدرسة النظام باصفهان (١). فلما رجع اليزدي الى اصفهان في ايام ملكشاه هجاها قائلًا :

هي تربتي لكنني فارقتُها ... طفلًا ولم اعبأ بلوم ترابها
شبانها ككهولها وكهولها ... كشيوخها وشيوخها ككلابها

وله ايضاً يخاطب مدينة اصفهان :

اذا لم يكن لي منك جاهٌ ولا غنى ... ولا عندما يغتالني الدهر موئلُ
فكلُ سلامٍ لي عليك تكرُمٌ ... وكل التفاتٍ لي اليك تفضلُ

---

(١) اخبار العلماء باخبار الحكماء لابن القفطي : صفحة ٢١٥

٢ ـ الخزانة الصفوية

هي من اشهر المكاتب الايرانية بمـــا احتوته من جواهر المخزونات الخطية وخرائدها. وصفها فريق من العلماء اخصهم الجوالة الفرنسي « شاردن » الذي أعجب بمحتوياتها اثناء رحلته الى ايران في عهد الشاه سليمان الصفوي. وقد اسهب عبد العزيز الجواهري في وصف هذه الخزانة (١) المعتبرة فنحيل القـــارىء الى مطالعة ما كتبه بشأنها.

٣ ـ خزانة المجلسي

أسسها الشيخ محمد باقر بن محمد تقي المجلسي مؤلف كتاب « بحار الانوار» . وقد حظي محمـــد باقر لدى السلاطين الصفويين ولا سيما لدى الشاه حسين الصفوي بجميع ما كانت تصبو اليه نفسه من قبيل الكتب. فحُملت اليه المخطوطات وهو في اصفهان من اقصى الديار حتى اجتمعت له خزانة من اعظم خزائن الكتب نفاسة واوفرها عدداً.

وبعد وفاة الشيخ محمد باقر انتقلت مكتبته الى احفاده بابنته . وهم « آل امام الجمعة » في اصفهان . وما زالت عندهم بالرغم من تفرق جانب منها الى ان اخرجها بعض وراثهم سنة ١٣٢٥ للهجرة وباعوهـا . فحُمل قسم من نفائسها الى طهران والعراق في جملتها كثير من الآثار المذهبة المجدولة البديعة الصناعة (٢) .

٤ ـ سائر مكتبات اصفهان

خزانة كتب خوانساري وخزانة كتب خانـدان خاتون آبادي . وفي كلتا الخزانتين الاخيرتين من فرائد المخطوطات ما يدهش العقول .

---

(١) كتابخانهاى : صفحه ٤٩-٥٢

(٢) مجلة العرفان : مجلد ٧ صفحة ٤٧٠ سنة ١٩٢٢ وكتابخانهاي ايران صفحة ٥٤

ثالثاً : مكتبات تبريز

١ ــ خزانة الملا علي آقا

الحاج الملا علي آقا ابن عبد العظيم الواعظ التبريزي الخيابانى عالم جليل من صفوة علماء ايران . له خزانة مخطوطات ثمينة حوت فرائد الاسفار وبدائع الآثار. وقد ورد وصفها في الجزئين الثاني والثالث من المجلد السابع لمجلة « لغة العرب » فنحيل القارىء الى مطالعتها .

٢ ــ خزانة كتب رشيد الدين

من اهم خزائن كتب تبريز التي يُشار اليها بالبنان خزانة كتب رشيد الدين الطبيب . فانها لا تقلّ شأناً عن الخزانتين السابقتين سواء اكان بكثرة عدد مجلداتها ام بنفاسة مخطوطاتها .

٣ ـ خزانة علي الايرواني

من ابرز مكتبات تبريز خزانة الحاج السيد علي الايرواني وهي غنية بالمخطوطات القديمة . في جملتها كتاب « استنباط الاحكام في عصر غيبة الامـــام » لحيدر بن الشيرواني ميرزا (١) .

رابعاً : مكتبات زنجان

١ ــ خزانة ميرزا فضل الله

هو من علماء زنجان واشرافها تنطوي خزانته على مخطوطات وافرة في التاريخ

---

(١) الذريعة الى تصانيف الشيعة : جزء ٢ صفحة ٣٤

والانساب والادب والفلسفة والمنطق والطب والرياضيات وغيرها . ومن جملة تلك المخطوطات « تذكرة ابي علي الفارسي » ترتقي نسخته الى نحو القرن الخامس للهجرة . ومنها كتاب « المفصل » للزمخشري نُسخ في حلب سنة ٦٠٣ للهجرة الخ الخ .

٢ ـ خزانة ابي عبد الله الزنجاني

ابو عبد الله الزنجاني هو علم من اعلام مدينة زنجان بأدبه وثقافته . اولع بجمع الكتب فاحرز منها خزانة معتبرة حافلة بالمطبوعات والمخطوطات . ومن اشهر مخطوطاتها نذكر كتاب « الاراء الطبيعية التي يقول بها الحكماء » لفلوطرخس . وهذه النسخة منقولة عن اصل قديم كُتب في سنة ٦٧٧ للهجرة . ومنها « رسالة تربيع الدائرة » لابن الهيثم المصري .

٣ ـ خزانة شيخ الاسلام

من اشهر المكتبات الفردية واغناها بالمخطوطات العربية والفارسية معاً مكتبة شيخ الاسلام في زنجان. غير اننا لم نتوفق الى الوقوف على اخبارها لنثبت تفاصيلها خدمة للتاريخ والادب .

خامساً : مكتبات اردبيل

١ ـ الخزانة الصفوية

قرأنا في مجلة لغة العرب (١) وصفاً لخزانة الشيخ صفي الدين جد الملوك الصفوية في اردبيل بقلم عبد العزيز الجواهري . فرأينا ان نثبته بالحرف الواحد قال :

---

(١) مجلد ٥ صفحة ٢١٤

«وكان الشاه عباس الكبير الصفوي قد عني بجمعها وتنظيمها وبقيت مورد استفادة القراء الى سنة ١٨٢٨ مسيحية وفيها احتلت جنود الدولة الروسية اردبيل . وكان معهم المستشرق سنكوسكي فاطلع على المكتبة المذكورة ووقف على نفائسها . فنقلها الى خزانة بطرسبرغ (هي لينغراد اليوم) حيث ضمت الى الخزانة العمومية . وقد صرح بما ذكرناه ايضاً كتاب تاريخ الروابط العلمية بين روسية والشرق واوروبة المؤلف باللغة الروسية المطبوع في لينغراد .

« وتوجد اليوم في مخازن مقبرة الشيخ صفي الدين في اردبيل متفرقات من هذه الكتب توازي اربعين او خمسين مجلداً في علوم مختلفة . ومن نوادرها ترجمة تفسير محمد بن جرير الطبري الى الفارسية في ستة مجلدات . تاريخ تحرير بعضها اوائل القرن السابع للهجرة . ونقل لنا بعض زملائنا انه رأى هذه المجلدات من ترجمة تفسير الطبري عند السيد الخلخالي في طهران . وكان قد حصل عليها من تلك الخزانة ولم تسنح لنا الفرصة للوقوف عليها ».

سادساً : مكتبة سبزوار

١ ـ خزانة محمد مهدي العلوي

اثبتت مجلة « لغة العرب » في بغداد (١) طائفة من المخطوطات المصونة في خزانة السيد محمد مهدي العلوي في سبزوار . نذكر منها مخطوطاً قديماً يشتمل على نخبة من حكم الامام علي بن ابي طالب مرتبة على حروف المعجم .

سابعاً : مكتبات بيرجند

١ ـ خزانة محمد باقر

هي من خزائن ايران الجديرة بالذكر فيها مخطوطات وافرة قلما يشاهد مثلها

---

(١) مجلد ٦ صفحة ١٨٥

في سائر الخزائن. وقد اثبت منها محمد مهدي العلوي مائة وخمسين مخطوطاً في التاريخ والهيئة والطب والفقه وغيرها من العلوم (١)

ثامناً: سائر مكتبات ايران

لو شئنا احصاء بقية مكتبات المدن الايرانية والاحاطة بمخطوطاتها العربية لضاق بنا المجال وتعذر توفية الموضوع حقه. ولوفرة عددها نكتفي بالاشارة الى بعضها اتماماً للفائدة وهي :

١ – مكتبة غياث الدين منصور ابن الامير صدر الدين محمد في شيراز

٢ – مكتبة رشيد الوطواط في خوارزم

٣ – مكتبة ملا حسين اردبيلي في استراباد

٤ – مكتبة ملا نصرالله في همذان

٥ – مكتبة نور الدين الجزائري في خوزستان

وهنالك مكاتب شتى في سمرقند وساوه وبلخ ونيسابور وغيرها نضرب عن سردها صفحاً. وفي ما رويناه حتى الآن مؤونة كافية لبيان ما اشتملت عليه خزائن البلاد الايرانية من ذخائر المخطوطات العربية التي تستحق الاعتبار.

---

(١) مجلة لغة العرب : مجلد ٦ جزء ٧ و ٨

الفصل الثامن

خزائن كتب الهند

ذكرنا في الفصل الحادي والعشرين من الباب الثالث ان الهمم انبعثت في بلاد الهند الى اقتناء الكتب العربية وتعزيزها في المكاتب العامة والخاصة. واثبتنا ان في زوايا تلك الخزائن كثيراً من نفائس المخطوطات لا يستفيد احد من مطالعتها.

ومما يؤيد حجتنا على غنى البلاد الهندية بالمخطوطات العربية ما نشرته « مجلة المجمع العلمي العربي » في دمشق (١) قالت : « عنّ لجلالة السلطان (مير عثمان علي خان) صاحب حيدر آباد خاطر شريف في نشر العلم. فأصدر أمره بتأليف كتاب يحتوي على صفوة المخطوطات العربية النادرة. فتلقت جمعية دائرة المعارف امره بالارتياح ورشحت لهذا العمل الاستاذ هاشم الندوي. فرحل في نواحي الهند منقباً في بطون الخزائن فظفر بنصيب وافر مما اراده وسعى اليه. وأودعه كتاباً سماه « تذكرة النوادر » وهو على شكل بديع: يذكر اسم الكتاب برقمه الخاص ثم اسم المؤلف وتاريخ وفاته وذكر شيء من مناقبه. ثم يذكر مزية الكتاب وتاريخ كتابته والخزانة التي عثر عليه فيها . وقد قدم كتب السلف على الخلف ورتبها على العلوم بحسب خطورة امرها »

١ ـ مكتبة حامد حسين في لكنهوا

من اهم المكاتب الفردية في الهند الانكليزيه لعصرنا هذا خزانة حامد حسين لكنهوي نسبة الى مدينة لكنهوا التي فيها نشأ وعاش. فانه كان من ذوي العناية بالكتب والتوفر على جمع آثارها الثمينة. فأنفق الاموال الطائلة على ابتياع نوادرها

---

(١) مجلد ١٢ سنه ١٩٣٢ صفحة ٧٠١

واستنساخها . وقد اشتملت خزانة كتبه على الوف من المجلدات فيها كثير من المخطوطات القديمة. وعلى اثر وفاته بعد الحرب العظمى انتقلت خزانته الى ولده (١)

٢ ـ مكتبة الشيخ الشيرازي في بمباي

حدثنا الاب لويس شيخو في سياحته من بيروت الى الهند (١٨٩٥) عن مكتبة عربية في بمباي قال (٢) : « كدنا نيأس من وجود اثر يذكر بين عرب الهند اذ ارشدنا الله على طريق الصدفة العجيبة في عشاء الليلة التي سبقت سفرنا الى اكبر الكتبيين في الهند اسمه « الشيخ الشيرازي » ويُلقب بملك الكتاب . فهذا كان عنده في بيته مكتبة واسعة جمع فيها معظم مطبوعات الهند والعجم مع عدد وافر من المخطوطات. فذهبنا الى بيته وقضينا ساعتين من الليل بين كتبه فاخترنا منها نحو الخمسين. ثم عدنا في سحر النهار اليه قبل سفرنا واخذنا مثلها عداً . وبعد الاتفاق على قدر اثمانها نقلناها الى المدرسة وجعلناها في صندوق على عجلة لتحمل الى مركبنا .

« ومن اعز ما وجدناه هنا من المخطوطات النفيسة كتاب في « معجم الادباء » قديم الا ان اوله مفقود . وكتاب مختصر اصول الفلسفة لبهمينار بن المرزبان من تلامذة الشيخ الرئيس ابن سينا يدعى « تحصيل بهمينار » . وهي نسخة فريدة تاريخ كتابتها سنة ٩٠٥ للجهرة (١٥٠٤ م) . وكتب اخرى في الهيئة والحساب والادب الخ » .

٣ ـ مكتبة بطنا

من جملة خزائن الكتب النفيسة المتعددة في الهند خزانة كتب بطنا الغنية بالمخطوظات العربية . وقد تفقدها بعض المستشرقين وفي طليعتهم المستشرق

---

(١) مجلة العرفان : مجلد ٧ صفحة ٤٦٩ — ٤٧٠ سنه ١٩٢٢

(٢) المشرق مجلد ١٦ سنة ١٩١٣ صفحة ٢٦٥ — ٢٦٦

الانكليزي ستبلتن . فانه شاهد فيها نسخة مصورة من كتاب « التصريف لمن عجز عن التأليف » بقلم ابي القاسم خلف بن عباس الزهراوي الاندلسي المتوفى نحو السنة ٤١٠ للهجرة (١٠١٩ م) . وكتبت هذه النسخة عام ٥٨٤ للهجرة (١١٨٨ م) (١).

٤ ـ مكتبة محمد اجمل خان في دلهي

محمد اجمل خان زعيم كبير من زعماء الهند احرز بينهم منزلة رفيعة بالعلم والجاه والسياسة. درس الطب فنبغ فيه وجعل الامراء والاعيان يقصدونه من جميع انحاء تلك البلاد للمعالجة. وتولى رئاسة الجامعة الاسلامية الاهلية التي أنشئت عام ١٩٢١ وكان من اركان جمعية الخلافة الاسلامية الشهيرة. فنفع بلاده كثيراً وخلف فيها آثاراً خطيرة.

ومن اهم تلك الآثار كلية طبية أسسها في مدينة دلهي تدرس الطب باللغتين العربية والاردوية. واقتنى لها مؤسسها خزانة كتب نفيسة انفق عليها من جيبه مبلغاً وافراً وبذل في جمعها جهوداً متواصلة. وحوت تلك الخزانة زهاء ثلاثة آلاف مخطوط بينها ثلاثمائة من الكتب الطبية النادرة. ولدى مرور اجمل خان بلبنان سنة ١٩٢٥ اشترى بعض مخطوطات في الطب والكيمياء من الاستاذ عيسى المعلوف بالحاح احمد زكي باشا (٢). ووضع محمد اجمل خان فهارس علمية لمخطوطات خزانته غير ان المنية عاجلته قبل نشرها بالطبع. وكان هذا الحكيم عضواً في المجمع العلمي العربي بدمشق.

ومن ابدع ما حوته هذه الخزانة من المخطوطات العربية كتاب « نور العيون وجامع الفنون » تأليف ابي زكريا يحيى بن ابي الرجاء في ٣٩٩ صفحة. يشتمل على صور العين وامراضها وتكسير الخطوط في حدقتها الى غير ذلك من الصور التي

---

(١) تاريخ الطب عند العرب : لعيسى المعلوف : صفحة ٣٠

(٢) برنامج مخطوطات عيسى المعلوف: صفحة ٤٠٥

اج طبيب العيون الى الوقوف عليها لاجل مداواتها. ويرتقي عهد نساخة هـذا المخطوط النفيس الى السنة ٩٩١ للهجرة (١) (١٥٨٣ م)

• ـ مكتبة آصف الدولة

واعظم من الخزائن المشار اليها بل من سائر خزائن الكتب الاسلامية الخاصة في عصرنا خزانة آصف الدولة يحيى خان من احفاد (برهان الملك) احد اعيان رجال (محمد شاه) ملك الهند. اشتملت خزانته على ما رواه السيد عبد اللطيف الجزائري في رحلته الفارسية «تحفة العالم» على ثلاثمائة الف مجلد. بينها من نفائس المخطوطات شيء كثير يقوم على كل مائة مجلد قيّم (٢) بمراقبتها وحفظها. وهي من اصناف العلوم وانواع الفنون واللغات. قيل ان فيها سبعمائة كتاب عليها خطوط مؤلفيها. ويقال ان كتب التيموريين من ملوك الهند المنقرضين انتقلت الى هذة الخزانة (٣)

---

(١) الاسر العربية المشتهرة بالطب العربي واشهر المخطوطات الطبية العربية: بقلم عيسى المعلوف صفحة ٤٨ — ٤٩

(٢) نظن ان هذا القول مغلوط او مبالغ فيه. لانه لا يعقل ان خزانة كخزانة آصف الدولة مشتملة على ثلاثمائة الف مجلد يكون عدد قوامها ثلاثة آلاف قيم. والله اعلم!

(٣) مجلة العرفان: مجلد ٧ صفحة ٤٧١

الفصل التاسع

خزائن كتب مصر

المكاتب الاسلامية الخاصة في وادي النيل لا تدخل تحت حصر. لان النهضة العلمية التي انتعشت فيه منذ قيام الدولة المحمدية العلوية بثت في ابنائه محبة العلوم والانصراف الى مطالعة الكتب. هكذا تولدت فيهم رغبة انشاء المكاتب في طول البلاد وعرضها. بل عمت المنافسة جميع طبقات الامة من مليك مصر الى مملوكها في اقتناء الكتب المفيدة والنادرة. فاشبعنا هذا الموضوع درساً والفينا ان المكاتب الخاصة في القاهرة وحدها تستحق ان يؤلف لها تاريخ خاص لكثرتها وخطورتها. بناء عليه نقتصر على ذكر اهمها واشهرها :

اولا : مكتبات القاهرة

١ ـ مكتبة قصر عابدين

في قصر عابدين مكتبة قديمة يتصل عهدها بايام محمد علي باشا راس العترة المالكة المصرية. وكانت مؤلفة في بدء الامر من بعض المصاحف المخطوطة ومن المطبوعات البولاقية ومما أهدي الى ذلك الامير من مؤلفات اصدقائه العلماء. وظلت مكتبة القصر بطيئة النمو في زمان خلفاء محمد علي باشا حتى جلس الملك فؤاد الاول (١٩١٧ – ١٩٣٦) فامر بلم شعثها وتنظيمها. ثم انشأ في قصر عابدين مكتبة اخرى خاصة به تفوق الاولى باحاسن الكتب واوفرها فائدة وابدعها تجليداً.

وفي قصر عابدين مجموعة ثمينة للمحفوظات (١) الملكية أمر الملك فؤاد بنقلها

---

(١) اصطلح الباحثون والكتاب على اطلاق لفظة «المحفوظات» على ما يسميه الافرنج Archives

من مركزها القديم في القلعة. وهناك كانت مكدسة اكداساً يعلوها الغبار الكثيف منذ عشرات السنين. وكأنّ الملك فؤاد تنّبه الى ما في بطون تلك الاكداس من الذخائر الثمينة التي كادت تذهب ضحية الاهمال والنسيان. فاوعز في استخراجها وتنظيفها وتنظيمها تنظيماً فنياً يكون مرجعاً للباحثين عن تاريخ مصر الحديث. واهم مشتملات تلك المحفوظات مايتعلق بالشؤون العسكرية والبحرية والادارية والحوادث اليومية، واوامر الجيش وخطط المعارك والتقارير السياسية واعمال الجاسوسية والوثائق المصادرة من الاعداء. ويبلغ عدد الوثائق في دار المحفوظات زهاء مليون وثيقة من ايام محمد علي وحده.

واكبر دليل على خطورة تلك الذخائر التاريخية ان دار المحفوظات الملكية وحدها تشتمل على خمس وستين الف وثيقة تتعلق بالحملة المصرية (١٨٣١ – ١٨٤١) في سوريا. ومن مشاهير الرجال الذين ذيلت تلك الوثائق بتواقيعهم نذكر: محمد علي باشا وابنه ابرهيم باشا والامير بشير الشهابي الكبير وعبدالله باشا والي عكا وحنابك البحري وميخائيل عورا ويوسف عيروط وغيرهم (١).

وقد اقتفى الملك فاروق الاول آثار والده الملك فؤاد في تعميم المعارف وتعزيز المعاهد العلمية في انحاء مملكته. فهو كلف بالكتب يقضي ساعات في مكتبته يرتبها بيده. ويُعنى كذلك بمتحفه الحربي وبمجموعة الساعات القديمة التي في قصره وهي ترجع الى القرنين السابع عشر والثامن عشر (٢).

٢ ـ المكتبة الحسينية

اسسها الفقيه احمد بك الحسيني وانتقلت بعد وفاته الى حسين نجله. انطوت على مخطوطات كثيرة ونفيسة ذكر بعضها العلامة احمد تيمور باشا في مقالة له عنوانها « نوادر المخطوطات واماكن وجودها » (٣).

---

(١) The royal Archives of Egypt: Introduction, Assad J. Rustum

(٢) جريدة البشير في بيروت: السنة ٦٩ العدد ٥٦٧٣ في ٥ كانون الاول ١٩٣٨

(٣) مجلة الهلال مجلد ٣٨ صفحة ٤٩ — ٦٥ و ٣١٨ — ٣٣١

وقرأنا لهذه المكتبة وصفاً موجزاً بقلم جرجي زيدان اليك نصه بالحرف الواحد قال (١) : « هي من المكاتب الخصوصية النفيسة موضعها في منزل صاحبها قرب المحكمة الشرعية . وهي مرتبة ومقسمة حسب مواضيعها . ولها فهارس وعليها مشرفون او مغيرون . ويؤذن لمحبي المطالعة ان يطالعوا فيها او ينقلوا ما شاؤا في اوقات معينة من الاسبوع . وبلغ عدد ما فيها من المجلدات ٤٧٨٠ مجلداً اهمها في الفقه والقانون والادب والتاريخ » .

وقد ضمت هذه المكتبة عام ١٩٢١ الى دار الكتب المصرية . وصرحت ادارة المكتبة في نبذتها الوجيزة عام ١٩٣٩ ان المكتبة الحسينية اشتملت على ٣٩٩٥ مجلداً بين مخطوط ومطبوع (٢) .

٣ ـ مكتبة حسن الجبرتي

حدثنا عبد الرحمن الجبرتي عن مكتبة والده الشيخ حسن بن برهان الدين ابرهيم الجبرتي المتوفى سنة ١١٨٨ للهجرة قال (٣) : اما ما اجتمع عند والدي من الكتب في جميع العلوم فكثير جداً وقلما اجتمع مثله عند غيره من العلماء وغيرهم. وكان سموحاً باعارتها وتغييرها . واقتنى نسخاً من الكتب المستعملة التي تداول علماء الازهر قراءتها ككتب اللغة والتوحيد والاستعارات والمعاني والبيان والحديث والتفسير والفقه وغير ذلك.

وكان الطلاب يأتون الى مكتبة الجبرتي فيأخذون ويغيرون وينقلون من غير استئذان . فمنهم من يأخذ الكتاب ولا يرده. ومنهم من يسافر ويترك الكتب عند غيره. ومنهم من يهمل آخر الكتاب فتضيع بعض كراريسه . ويتفق ان

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية : مجلد ٤ صفحة ١٢٨

(٢) نبذة وجيزة عن دار الكتب المصرية : صفحة ٢١

(٣) الآثار في التراجم والاخبار لعبد الرحمن الجبرتي : جزء ١ صفحة ٣٨٧

طالبين او ثلاثة طلاب يشتركون معاً في الكتاب الواحد او النسخة الواحدة فينتج من ذلك ان بعض الكتب تضيع او تتلف .

واقتنى الشيخ حسن كتباً نفيسة خلاف الكتب المتداولة بين القراء في مكتبته. وقد اتحفه السلطان مصطفى الثالث العثماني (١١٧١ – ١١٨٧ هـ) بكتب نفيسة من خزانته الملكية. واتحفه بمثل ذلك اكابر الدولة في بلاد الروم ومصر وباي تونس ووالي الجزائر. واجتمع لديه الشيء الكثير من كتب الاعاجم المزدانة بالتصاوير البديعة الصنعة والغريبة الشكل . وحوى في خزائنه آلات فلكية وكرات نحاسية واميالا وحلقات ارصاد واسطرلابات وارباعاً وعدداً هندسية وادوات اغلب الصنائع.

٤ ـ المكتبة الطهطاوية

انشأ هذه المكتبة رفاعة بك رافع الطهطاوي (١٢١٦ – ١٢٩٠ هـ و١٨١١ – ١٨٧٣ م) كبير علماء مصر في عهد مؤسس الأسرة العلوية المالكة . وكان اماماً لاول ارسالية وجهها محمدعلي باشا من شبان مصر الى فرنسا لتحصيل العلوم الحديثة . فأظهر من الرغبة والنباهة في احراز المعارف ما اهله ان يتولى في وطنه اعظم المناصب العلمية. وقد ألف كثيراً من الكتب وترجم عن اللغة الفرنسية ما لايحصى من المصنفات المختلفة المواضيع . وملأ الديار المصرية مترجمين واساتذة واطباء ومهندسين استفادوا من مؤلفاته وتعاليمه . ونبغ بين تلامذته رهط عظيم ارتقوا الى اعلى المناصب وشرفوا وطنهم باعمالهم المشكورة (١) .

ومن آثار رفاعة بك الطهطاوي خزانة كتب جمعها في حياته احتوت ما ينوف على الف مجلد اكثرها مخطوط وبينها نوادر ثمينة . نذكر منها « شرح ابي منصور الحياني على فصيح ثعلب » نسخ سنة ٣٩٨ للهجرة . ومنها الجزء الثاني من كتاب

---

(١) حلية الزمن بمناقب خادم الوطن: كتاب مخطوط بقلم صالح بك مجدي

« المثل السائر » بخط المؤلف (١) . وعلى اثر وفاة رفاعة بك انتقلت مكتبته الى ابنه علي باشا رفاعة . وروى لنا ثقة ان المكتبة الطهطاوية تشتت شملها بعد وفاة صاحبيها رحمهما الله .

٥ ـ مكتبة عبد الهادي نجا الابياري

يُعد الشيخ عبد الهادي نجا الابياري (١٢٣٦–١٣٠٦ هـ و١٨٢١–١٨٨٨ م) من اكبر علماء مصر في القرن التاسع عشر ومن اعظم كتابهم ومؤلفيهم . وكان له شأن خطير في النهضة العلمية حين ذاك في وادي النيل وقد استدعاه الخديو اسمعيل ففوض اليه تعليم انجاله من جملتهم ولي عهده محمد توفيق الاول (١٨٥٢ – ١٨٩٢). وما كاد يعتلي الاريكة المصرية حتى احلّ استاذه الابياري منزلة رفيعة وجعله إمام المعية الخديوية ومغيثها (٢)

وخلف مكتبة غنية بالمخطوطات التاريخية والادبية واللغوية والدينية . ونسخ بيده واستنسخ اسفاراً نادرة اضافها الى تلك الثروة الكتابية التي قضى بينها الشطر الاوفر من عمره. وروى لنا العالم البحاثة احمد زكي باشا ان مكتبة الابياري تفرقت بعد حلول اجله بين ورثته الذين لم يحفظوا منها الا القليل.

٦ ـ مكتبة الشيخ علي الليثي

وُلد الشيخ الليثي سنة ١٢٣٦ للهجرة وكان على رغم دمامة سحنته حسن المجالسة حاضر الجواب محبباً الى القلوب. واقتنى خزانة كتب نفيسة اجتمعت له بالاهداء والشراء والاستنساخ. وغالى فيها وبذل الاثمان الغالية . فجُلبت له من الآفاق

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية : مجلد ٤ صفحة ١٢٨

(٢) تراجم مشاهير الشرق : تأليف جرجي زيدان : جزء ٢ صفحة ١٦٠

وعرفه تجار الكتب والوّراقون فخصوه بكل نفيس منهـا . ثم لمـا مات اقتسمها ورثته وبقيت الى الآن محبوسة تحت ايديهم لا يُنتفع بها وحلت وفاته في ١٠ شعبان ١٣١٣ للهجرة بالغاً السابعة والسبعين من سنه.

٧ ـ مكتبة الدكتور دري باشا

درس الدكتور محمد دري باشا (١٢٥٧ – ١٣١٨) للهجرة (١٨٤١–١٩٠٠م) في مدرسة « قصر العيني » بالقاهرة . ونبغ في الطبابة والجراحة وصرف معظم ثروته في اختيار الكتب مخطوطة ومطبوعة حتى كوّن مكتبة عُدت من اثمن المكتبات الخاصة. وما انفك الدكتور درّي يلاحظها ويغذّيها حتى آخر انفاسه . وضم اليها رسوم مشاهير المصريين وحفرها على النحاس في باريس احياءً لذكرهم . امّا مكتبته فقد اصبحت الآن في حوزة حفيده الاستاذ محمد صدقي الدّري

٨ ـ مكتبة اباظة باشا

انجبت اسرة اباظـــة في وادي النيل رجالاً افاضل خدموا الحكومة والعلم والصحافة . اشهرهم سليمان باشا اباظة الذي خلف خزانة كتب حوت نحو الفي مجلد اكثرها من المخطوطات النادرة الوجود العزيزة المنال . منها ما كتب بخط ابن مقلة وغيرها بخط ابن هلال. ومنها قديم لاوجود له الا فيها.

ومما احتوته مكتبة اباظة باشا اكثر من مائة كتاب منسوخة بخطوط مؤلفيها من العلماء السالفين . وقد انفق منشئها اموالاً طـائلة على اقتنائها لانه كان مغرماً بالعلوم كلفاً بجمع المخطوطـات النفيسة . وعلى اثر وفاته أهدى ورثته تلك المكتبة الثمينة الى دار الكتب الازهرية حرصاً عليها من الضياع (١) . وجرى الاهداء بتاريخ ١٠ ربيع الاول ١٣١٦ هجرية (١٨٩٨ م) على يـد الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية (٢) .

---

(١) المقتطف : مجلد ٢٢ سنة ١٨٩٨ صفحة ٩١٧

(٢) مجلة « المنار » بالقاهرة : للشيخ محمد رشيد رضا : مجلد ١ سنة ١٣٢٥ هـ صفحة ٤٨٢

٩ ـ مكتبة سامي باشا البارودي

وُلد محمود سامي باشا البارودي عام ١٨٤٠ في القاهرة وفيها توفي عام ١٩٠٤ وكان ابوه حسن بك جركسي الأصل. فتخرج محمود سامي في المدرسة الحربية وتقلب في المناصب العسكرية وحارب بجانب الاتراك سنة ١٨٧٧ في محاربتهم روسيا. ثم تولى نظارة الحربية المصرية فنظارة الاوقاف فنظارة المعارف. واشترك في الثورة العرابية سنة ١٨٨٢ فنفي الى جزيرة سيلان. ثم رجع الى وطنه بعد العفو عنه وانصرف الى الكتابة ونظم الشعر حتى حاول اجله. ويُعد شعره من الطقبة الاولى بين شعراء زمانه. وخلف منظومات رائعة جرت مجرى الامثال بين خاصة الادباء وعامتهم.

واغرم سامي باشا بالكتب منذ حداثته فاهتم الاهتمام المشكور في التقاط ما كان مبعثراً من المخطوطات في مساجد القاهرة ونقلها الى مكان واحد وحرص عليها حرصاً شديداً. ولما عوّل علي باشا مبارك على تأسيس دار الكتب المصرية كانت هذه المخطوطات من جملة ما نُقل اليها (١). وقد جمع سامي باشا لنفسه خزانة حافلة بكتب الادب ودواوين الشعر قلما اتفق جمع مثلها لغيره من حملة الاقلام في عصره (٢).

ومن الآثار القلمية التي خلفها البارودي مجموعة ثمينة عنوانها «مختارات البارودي» في اربعة اجزاء ضمنها ما عذب وراق من قصائده.

١٠ ـ المكتبة الآصفية

تأسست المكتبة الآصفية عام ١٣٠٨ للهجرة وطُبع لها فهرست بعد

---

(١) تراجم مشاهير الشرق: جزء ٢ صفحة ٣٠٠

(٢) ذكرى الشاعرين لاحمد عبيد: صفحة ١٠٣

التاريخ المذكور بعشر سنين على مطبعة حجرية . وقد وصف جرجي زيدان هذه المكتبة النفيسة قال (١) : « هي لمحمد بك آصف بن علي باشا آصف وابن اخت احمد بك تيمور . تحتوي على ٦٠٠٠ مجلد منها نحو ٤٠٠٠ باللغة العربية ما بين مخطوط ومطبوع . ونحو ٢٠٠٠ باللغتين الافرنسية والتركية . وتمتاز هذه المكتبة باشتمالها على اكثر ماطبعه المستشرقون الاوروبيون من الكتب العربية من القرن السادس عشر الى الآن. وفيها تاريخ الثورة العرابية تأليف احمد عرابي باشا الموسوم « بسر الاسرار في تاريخ الحركة العرابية في سنتي ١٨٨١ و١٨٨٢ » وهو كتاب كبير في ثلاثة اجزاء حوى حوادث الثورة المذكورة من اولها الى آخرها . وهذه النسخة هي الوحيدة من هذا التاريخ .

« واما الكتب التي باللغتين الافرنسية والتركية فما كان منها بالافرنسية اكثره مما ألف عن مصر والدولة العثمانية والشرق الادنى قديماً وحديثاً في التاريخ والسياحات وحوادث الاحتلال الفرنساوي لمصر، وما ادخله محمد علي باشا من الاصلاحات والتنظيمات وحروبه هو وابنه ابرهيم باشا في الحجاز ونجد مع الوهابية والشام والسودان والمورة . وكتب اثرية لمصر في عهد الفراعنة والمدنية الاسلامية وغير ذلك » .

١١ - مكتبة ولي الدين يكن

كان ولي الدين يكن من نوابغ المفكرين وكبار الشعراء واللغويين في زمانه. ولد في الاستانة سنة ١٨٧٣ وجاء صغيراً الى مصر مع اهله فتوفي فيها والده . فتخرج في « مدرسة الانجال » حيث احكم اللغة العربية كما احكم التركية (٢) . وانشأ في مصر خزانة حوت الشيء الكثير من مختارات الكتب.

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية : مجلد ٤ صفحة ١٢٧

(٢) الآداب العربية في الربع الاول من القرن العشرين للاب لويس شيخو : صفحة ٩٨

ثم عاد ولي الدين الى الاستانة فعيّنته الدولة العثمانية عضواً في مجلس المعارف الاعلى. ونقل الى هناك مكتبته التي تفقدها العلامة احمد تيمور باشا المصري (١) واستشهد ببعض مذخوراتها في مقالة له عنوانهـــا « نوادر المخطوطات واماكن وجودها » .

وعاش ولي الدين بالاستانة على عهد عبد الحميد تراقبه جماعة المستبدين وهي في عنفوان امرهـا واستفحال حكمها . وقـد بث اولئك المستبدون العيون حوله يريدون الفتك به لانه كان من الاحرار الذين حاربوا الظلم بالقول والقلم . ولمـا اشتدت الرقابة عليه بلغه ان ناظر الضابطة سيرسل الرجال لتفتيش اوراقه وكتبه والاستيلاء على ما كان منها مخالفاً للرضى السلطاني. فعمد الى مكتبته وجعل يمزق تلك المذخورات الغوالي ثم القى بها في النار تفادياً من شر الطغاة (٢)

وفي ٢ كانون الثاني ١٩٠٢ طوّق رجال البوليس منزله وانتزعوا ما كان باقياً فيه من صكوك وعقود وكتب. ثم جمعوها في اكياس وختموهـا بالشمع الاحمر وحملوها غانمين الى ناظر الضابطة الذي امر بنفيه الى سيواس . فمـا كان من ولي الدين الا ان رفع شكواه الى السلطان بتلغراف هذا نصه :

« دخل رجال الضابطة الليلة بيتي واخذوا اوراقي وكتبي وملأوا قلوب من في البيت فزعاً. وانما يُصنَع هذا باللصوص واهل الجنايات لا بمن اختارتهم الدولة لخدمتها ورفعت مراتبهم في حكومتها. وها انا اليوم اتظلم لصاحب هـذه البلاد واسأله إنصافي واصدار امره بمحاكمتي لانال براءتي مما وُصمت به او يلحقني جزائي(٣)

ذلك مثال من امثلة لا تُحصى مما اقترفه الحكام الاتراك من العسف باجهازهم المكتبات القديمة الثمينة في طول البلاد العثمانية وعرضها . وكانت تلك الخزائن منطوية على تحف كتابية جديرة بالاعتبار قد تعب اصحابها في تكوينهـا وصيانـة كنوزها منذ قرون كثيرة.

---

(١) الهلال : مجلد ٢٨ صفحة ٥٨ (٢) المعلوم والمجهول لولي الدين يكن : جزء ٢ صفحة ١٠
(٣) المعلوم والمجهول : جزء ٢ صفحة ١٦ — ١٧

وبعدما افرج عن ولي الدين هجر البلاد العثمانية ونقل معه ما تبقى من خزانة كتبه عائداً الى القطر المصري. وهناك اشتغل بالصحافة حتى وافته المنية بمدينة حلوان في ٦ اذار ١٩٢١ رحمة الله عليه. ومما نظمه ولي الدين منددا بالسلطان عبد الحميد ومعدداً سيئاته قوله :

ان الثلاثين التي مرّت بنا مر العصور
وهَبَتْك تجربة الأمو رفعشتَ في جهل الأمور
من كان يدعوك الخبيـ رَ فلست عندي بالخبير

١٢ ـ مكتبة المنار

المنار عنوان لمجلة شهرية ذائعة الصيت اسسها الامام محمد رشيد رضا (١٢٨٢–١٣٥٤ هـ و١٨٦٥ – ١٩٣٦ م) لخدمة الاسلام والمسلمين . وانشأ خزانة كتب يستعين بها في تهيئة مواد المجلة وتأليف ما وضعه من المصنفات العديدة . وقد حفلت تلك الخزانة بمئات من المخطوطات التي تبحث عن شؤون الدين المحمدي وعن تاريخه وفلسفته ومذاهبه وفرقه وتراجم رجاله الخ. وبوفاة هذا الامام توقف نشر «المنار» وتضعضعت خزانة الكتب .

١٣ ـ مكتبة مصطفى نور باشا

روى لنا خبر هذه المكتبة الاستاذ عيسى اسكندر المعلوف الذي تعهدها غير مرة واطلع على مضامينها . وذكر لنا ان صاحبها مصطفى نور باشا اولع خصوصاً باقتناء مخطوطات تفردت بجودة نسخها او روقة صورها وامتازت بزخارفها او تذهيبها او جمال تجليدها . وقد بلغ ما جمعه من تلك النفائس العزيزة الوجود بضع مئات انفق فى احرازها اموالاً طائلة . وحلت وفاة مصطفى نور باشا عام ١٣٥٦ للهجرة (١٩٣٨ م) .

١٤ ـ مكتبة طلعت بك

كان احمـــد طلعت بك من اعاظم هواة الكتب وكانت مكتبته اوسع جميع المكتبات الخاصة في وادي النيل. وقد انفق عليها مالاً طائلاً وعانى جهوداً جبارة في تكوينها وتنظيمها . ولفرط غيرته على الأدب لم يشأ ان يُحرم العلماء وطلاب البحث الانتفاع بكنوزهـا الغالية . فأوصى بقسم وافرٍ منها لدار الكتب المصرية التي اثبتت في تقريرها عن السنة ١٩٣٩ ما نصه (١) :

« وقد خص الدار منها بنحو ثلاثين الف مجـلد بين مخطوط ومطبوع باللغات العربية والشرقية والافرنجية . وبها من المصاحف والمرّقعـات ما يمتاز بنسبته الى اشهر الخطاطين » .

١٥ مكتبة مختار بك

بين خزائن الكتب العربية في القاهرة لا نرى بداً من التنويه بمكتبة مختار بك المتوفى سنة ١٣٤٨ للهجرة . فانه خلف خزانة حوت ١٨١٧ مجـــلداً من عيون الكتب . وقد نشر لهـا نجله مصطفى محرم بك مختار فهرساً مدققاً باللغتين العربية والفرنسية . وهذه الخزانة على قلة عدد مجلداتها غنية بمخطوطات قديمة يناهز عددها اربعمائة مخطوط كما يتضح من فهرسها المشار اليه .

١٦ ـ مكتبة محمد مسعود بك

لمحمد مسعود بك منزلة رفيعة في عالمي الادب والصحافة بالقطر المصري . وظل مدة نصف قرن يكتب ويؤلف ويترجم ويخدم امته بمـا اوتيه من الثقافة التامة والاجتهاد الوافر . وبالجملة فانه كان عالماً محققاً غمر العـالم العربي بفيض من ابحاثه

---

(١) نبذة وجيزة عن دار الكتب المصرية : سنة ١٩٣٩ صفحة ١٨

القيمة وآثار قلمه الخالدة . وقد اختاره المولى لجواره صباح الاثنين في ٣ ذي الحجة ١٣٥٩ (٢ كانون الاول ١٩٤٠) بعد حياة حافلة بأطيب المآثر (١) .

وخلف محمد مسعود بك خزانة كتب مدهشة بين مخطوط ومطبوع وصفها لنا غير واحد ممن زاروها واطلعوا على ذخائرها. ومن مميزاتها انها حوت نيفاً وعشرين الف قصاصة في شتى المواضيع . ونظراً الى نموها المطرد استأجر لها منشئها الهمام مكانا خارجاً عن داره يعتني بترتيبها وتنسيقها ويحرص على كنوزها الثمينة .

١٧ ـ مكتبة الامير محمد علي باشا

الامير محمد علي ولي عهد المملكة المصرية هو ابن الخديو محمد توفيق ابن الخديو اسمعيل بن ابرهيم باشا ابن محمد علي باشا الكبير . اولع منذ صباه بالعلم فاحرز منه ما لم يحرزه غيره من امراء الأسر المالكة . وقد قرن العلم بالعمل فألف كتباً شتى وقام بسياحات مهمة في العالمين القديم والجديد دوّن اثناءها ما شاهده من الغرائب والعجائب تم نشر ذلك كله بالطبع . وامتاز بشغفه بالخيول العربية فصنّف في هذا الموضوع كتاباً انكليزي العبارة في مجلدين يشهد بمعارفه الواسعة .

وقد بلغ كلف هذا الامير بالخيول العربية مبلغه حتى انه ابتاع في اوروبا سنة ١٩٣٨ مكتبة محتوية على ثمانية آلاف مجلد لا تبحث الا في الخيول العربية (٢) . وما عتم ان اضافها الى خزانة الكتب الثمينة التي ازدان بها قصره الاميري في القاهرة

ويترجح لدينا انه ليس من خزانة عامة او خاصة في العالم كله تشتمل على هذا القدر من التآليف في الموضوع المشار اليه ، والله اعلم !

---

(١) جريدة « منبر الشرق » في القاهرة للشيخ علي الغاياتي : سنة ١٩ عدد ١٣٠ تاريخ ٦ دسمبر ١٩٤٠

(٢) مجلة Images في القاهرة : رقم ٤٤٧ بتاريخ ٩ نيسان ١٩٣٨

وكان الامير محمدعلي يتعهد في سياحاته خزائن الكتب الشهيرة ولا سيما العربية منها لانه تفرد بالبحث عن المخطوطات العتيقة والمنسوخات الاثرية النادرة . وله في ذلك مواقف مشهورة تشير الى ادبه الجم وغيرته على المعارف (١)

١٨ ـ المكتبة اليوسفية

انجبت الاسرة المالكة في مصر افراداً رفعوا شأن المعـــارف بما وضعوه من التآليف النفيسة وانشأوه من خزائن الكتب التي اشتهر امرها بين الناس . ومن افراد هذه الاسرة الذين جمعوا كلتا المزيتين نذكر في طليعتهم صاحب السمو الامير يوسف كمال منشىء « المكتبة اليوسفية » التي ظهرت لعـالم الوجود عام ١٩١٠ في القاهرة . وهي تتميز عن سواها بما حوته من الكتب التي ينحصر معظم علومها في المواضيع الآتية : التاريخ والجغرافيـا والسياحات والفلسفة والقانون والادب . ويتجاوز عدد مجلداتها سبعة عشر الفاً بينها مخطوطات لا يُستهان بها .

وقد تخلى البرنس يوسف كمال عن مكتبته للجامعة المصرية مشترطاً ان لا تنقل اليها الا بعد وفاته . ثم قدم فهرس مكتبته العام الى الجـامعة المشار اليها . وظل يتحفها في كل سنة بفهارس مجلدة حوت كل ما استجد لديه من الكتب

ولهذا الامير العلامة الخطير تآليف جليلة لم يسبقه مؤلف الى وضع مثلها في هذا العصر . اشهرها « المجموعة الكمالية في جغرافية مصر والقارة الافريقية » برَزَ منها حتى الآن ثلاثة عشر مجلداً كبيراً بقياس ٧٦ سنتمتراً طولا و٦٢ سنتمتراً عرضاً . وهي مزينة بالخرائط النادرة والرسوم الفاخرة التي عثر عليها المؤلف في المخطوطات العربية والقبطية واليونانية والسريانية المحفوظة في المتاحف الشهيرة والمكتبات الكبرى . وقصارى الكلام ان تأليفاً كهذا التأليف الفريد حريٌ ان يُعتبر في ارفع منزلة بين تآليف هذا العصر .

---

(١) رحلة الامير محمد علي باشا في شمال افريقيا : صفحه ٤٧-٤٨

وبناءً على طلبنا اختص الأمير يوسف كمال دار الكتب اللبنانية في بيروت بنسخة من «المجموعة الكمالية» المشار اليها . فافردنا لها هناك خزانة مستقلة بذاتها وجعلنا فيها لكل مجلد بيتاً خاصاً دون سواهُ

١٩ ـ سائر المكتبات الاسلامية الخاصة في القاهرة

في عاصمة الديار المصرية مكاتب اسلامية خاصة لا تحصى لوفرة عدد المتأدبين وغلاة الكتب. وفي ما يلي نسرد اسماء بعض من اشتهر بجمع الكتب في القاهرة وهم : علي باشا مبارك، وعبدالله فكري باشا، ولطيف باشا سليم (١)، ومحمد الانبابي شيخ الجامع الازهر، وخليل آغا بجوار الازهر . ومكتبة الشيخ عبد المعطي السقا (٢) من علماء الازهر. ومكتبة جمعية الشبان المسلمين (٣) وغيرهم.

ثانياً : مكتبات الاسكندرية

تغلبت على الاسكندرية حضارة مختلطة نتجت عن تعدد جنسيات سكانها وتباين اخلاقهم واختلاف لغاتهم وحضاراتهم وثقافاتهم. فترى كلا من اليوناني والايطالي والمالطي والفرنسي والانكليزي واللبناني والسوري والارمني والتركي وغيرهم يتكلم بلغته ويفاخر ببني قومه ويرفع لواء حضارة بلاده.

وقد نشأ عن هذا المزيج الغريب إجحاف باللغة العربية التي تحوّل فريق من ابناء الضاد في الاسكندرية عن درسها او التكلم بها احياناً في مجالسهم. ولهذا السبب توانت الهمم في انشاء المكاتب العربية خلافاً لما عهدناه من اقبال القوم عليها في القاهرة وفي سائر العواصم العربية. وبالرغم من ذلك فان الاسكندرية لا تخلو من

---

(١) المقتطف : مجلد ٣٧ سنة ١٩١٠ صفحة ١٠٧٧

(٢) نوادر المخطوطات لتيمور باشا (الهلال : مجلد ٢٨ صفحة ٥١ و ٦٥

(٣) الهلال : مجلد ٦ صفحة ٧١٦ — ٧١٧

مكاتب فردية تستحق الذكر كمكتبة راتب باشا ومكتبة آل حمزة وغيرهما (١)

١ ـ مكتبة الامير عمر طوسون

من اهم المكاتب الفردية في الاسكندرية خزانة الامير عمر طوسون الذي ورثها عن والده المتوفى سنة ١٨٧٦ وورث معها محبة جمع الكتب. ثم زاد عليها بتوالي الايام ما لا يحصى من المؤلفات التي اقتصرت ابحاث معظمها على التاريخ والجغرافيا في اللغات العربية والفرنسية والانكليزية. ومن مميزاتها انها تحتوي على اغلب الكتب العربية المطبوعة بعناية علماء الاستشراق في اوروبا. وفي هذه الخزانة العمرية مجموعات صور قديمة تتعلق بمصر خاصة وبسائر الاقطار الشرقية والاسلامية عامة . اعني سوريا ولبنان والعراق والحجاز واليمن وتونس والجزائر والمغرب الاقصى وايران وافغانستان وغيرها. وهي تشتمل ايضاً على طائفة كبيرة من الكتب المنقولة بالتصوير الشمسي عن مخطوطات عربية قديمة في مكاتب باريس وبرلين ولندن والفاتيكان وغيرها.

ولا يقل عدد مجلدات خزانة الامير عمر طوسون عن مجموع مجلدات الاميريوسف كمال التي سبق وصفها في مكاتب القاهرة . ولا عجب في ذلك لان هذين الاميرين الخطيرين هما كفرسَي رهان يستبقان الى رفع منار اللغة العربية بثقافتهما العالية وتآليفهما النفيسة.

وللامير عمر طوسون مصنفات حسان في مواضيع مختلفة ولا سيما في التاريخ والجغرافية والرحلات والاحصاآت نفحنا بالكثير منها. وهي تدل على عبقرية سموه وتشهد له بسعة الاطلاع والرغبة في نشر المعارف بين ابناء الضاد. وفضلاً عن ذلك فانه لا تخلو مكتبة من المكتبات العامة في الشرق والغرب من آثار قلمه ومآثر كرمه.

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية : مجلد ٤ صفحة ١٢١

٢ ـ مكتبة محمد ابي الفتح الحنفي

وُلد محمد ابو الفتح بالقاهرة في اوائل القرن الثالث عشر للهجرة. وطلب العلم في الازهر على الشيخ الصاوي وعلى غيره من شيوخ زمانه . وكان ملازماً للشيخ محمد البنا الكبير مفتي الاسكندرية ثم خلفه في منصب افتاء هذه المدينة ولبث فيه الى آخر حياته .

وكان للشيخ ابي الفتح شغف زائد بجمع الكتب واقتناء ما نفس وندر منها حتى اجتمعت له خزانة ثمينة بيعت بعد موته باسعار بخسة. بعدما عانى ابو الفتح ما عاناه في جمعها واستنساخها. ووافقت وفاته ليل الاثنين ٦ صفر سنة ١٢٩٤ للهجرة.

٣ ـ المكتبة العباسية

ورد وصفها في كتاب « تاريخ آداب اللغة العربية » لمؤلفه البحاثة جرجي زيدان. فرأينا ان ننقل كلامه عنها بالحرف الواحد قال (١):

« أسسها الشيخ عبد الفتاح البناء بالاسكندرية سنة ١٣٢١ هـ (١٩٠٣ م). وبيان ذلك ان الحاج علي بشتا من اعيان الاسكندرية كان عنده كتب عرضها للبيع. فاشار عليه الشيخ عبد الفتاح ان يقفها على مكتبة تكون برسم سيدي ابي العباس المرسي فوافقه. فاضاف اليها كتباً كانت عنده وكتباً اهداها محمد افندي توفيق من ابناء الأسر القديمة ووضعت يدها عليها ووسعت نطاقها وعينت الشيخ عبد الفتاح اميناً لها. وهي الان بمركز ادارة المشيخة بسراي حافظ باشا بالاسكندرية. وعدد مجلداتها ستة آلاف وخمسمائة وخمسون مجلداً في علوم اللغة والطبيعة والتاريخ والادب. وقد اعانتها تبرعات المتبرعين اهمهم ورثة محسن باشا ومصطفى بك المنزلاوي ومصطفى باشا خليل.»

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية : مجلد ٤ صفحة ١٢٣

ثالثاً : مكتبات سائر المدن المصرية

١ ـ مكتبة محمد فريد وجدي في بطنابة

لهذا العلامة شغف عظيم بجمع الكتب ورثه عن والده. وقد استطاع ان ينشيء خزانة معتبرة حافلة بالمخطوطات والمطبوعات في بطنابة احدى مدن القطر المصري. فانه اتى على وصفها في كتابه « دائرة معارف القرن العشرين » قال (١)

« وعسى ان لا أنسَب الى التباهي اذا أشرتُ الى المكتبة التي وهبتُها لمدينة « بطنابة » لان غرضي من ذكرها انما هو تنبيه المستشرقين اليها. وهذه المكتبة في كنف الحكومة الآن وهي تعتني بحفظها شديد الاعتناء. ولكنها تبقى دون المراد حتى يضاف اليها مطبع تطبع ما فيهـا من الكتب النادرة المثال وتنشرها الى الملأ. وقد كان المرحوم والدي شديد الغرام بالكتب وانفق على جمعها واستنساخها اكثر دخله. فبلغ عددها حين وفاته الفاً واربعمائة مجلد. ولما حضرته الوفاة اوصاني بها وامرني ان اجعلها مكتبة عمومية حالما استطيع ذلك. وقد ورثتُ منه محبة جمع الكتب وجمعت كثيراً منها بعد وفاته. وفتحتُها للجمهور سنة ١٨٩١ وكان فيها حينئذ سبعة آلاف مجلد من كتب الخط. وعدد كتب الخط فيها الان ثمانية آلاف.

« وفيها ايضاً نخبة كبيرة من الكتب الانكليزية العلمية والادبية. وفي هـذه المكتبة كثير من الكتب لمشاهير المستشرقين مثل ده صاصي والسر غور ارزلي والمستر بلنشمان من مدرسة كلكتا. وعلى بعضها حواش بخطهم »

٢ ـ مكتبة عبد الرازق الرافعي في طنطا

عبد الرازق الرافعي ينتسب الى اسرة الرافعي في طرابلس الشام. وقد وَفد سليلها محمد الطاهر الرافعي سنة ١٢٤٣ هجرية الى مصر ليتولى فيها قضاء الحنفية بامر

---

(١) مجلد ٨ صفحة ٧٥ و ٧٦

من السلطان محمود الثاني . ثم توافد اخوته وابناء عمومته حتى اجتمع منهم في وقت اربعون قاضياً في مختلف المحاكم المصرية الشرعية .

وكان الشيخ عبد الرازق الرافعي رئيس محكمة طنطا من فقهاء عصره وجهابذة زمانه وخلف خزانة حافلة باشتات الكتب المعتبرة على اختلاف مواضيعها (١). واخبرنا احد المطلعين على هذه الخزانة النفيسة انها حوت كثيراً من المخطوطات النادرة .

٣ ـ المكتبة الاحمدية في طنطا

حوت هذه المكتبة نيفاً وستة آلاف مجلد بين مخطوط ومطبوع . انشأها سنة ١٨٩٨ الشيخ ابرهيم الظواهري امام الجامع الاحمدي في طنطا . وقد سماها « المكتبة الاحمدية » تيمناً باسم هذا الجامع وفيه جعل مركزها .

وبتوالي الايام اضيفت الى المكتبة الاحمدية المشار اليها في طنطا مكتبة خليل آغا وكانت تنطوي على ثلاثمائة مجلد (٢) . ومن جملة مخطوطاتها الفريدة كتاب « تحفة الاشراف بمعرفة الاطراف » للمزي (٣) . والى هذه المكتبة يختلف طلبة العلم للمطالعة والاستفادة من كنوزها الثمينة .

---

(١) مجلة « الرابطة العربية » لامين سعيد : مجلد ٢ سنة ١٩٣٨ الجزء ١٠٠ صفحة ٩

(٢) دائرة معارف القرن العشرين : مجلد ٨ صفحة ٨٧ — ٨٨ (٣) نوادر المخطوطات لتيمور باشا (الهلال : مجلد ٢٨ صفحة ٥٢)

الفصل العاشر

خزائن كتب المملكة التونسية

اننا استندنا في اكثر ما رويناه عن المكاتب الخاصة بتونس الى نبذة خطية مختصرة وضعها البحاثة الاستاذ البشير الفورتي صاحب جريدة « التقدم » في عاصمة المملكة التونسية. فأدى بصنيعه هذا خدمة جلى للتاريخ وللاداب العربية نقابله عليها باوفر الشكر واجزل الثناء على حميته الادبية. اما ما رويناه عن تلك المكاتب استناداً الى مراجع اخرى فقد اشرنا اليه حيث وجبت الاشارة.

اولا : مكتبات تونس العاصمة

١ ـ مكتبة مسجد بيت الباشا

انشأ هذه المكتبة الامير علي الاول باي تونس (١٧٤٠ – ١٧٥٦ م) وصاحب النهضة العلمية الاولى في العصر الحسيني. فانه وجه الى الاستانة مفتي دولته الشيخ حسين البارودي لاشتراء اكثر ما يمكنه اشتراؤه من افضل المخطوطات وافيدها واجودها كتابة وابدعها تزويقاً وافخرها تذهيباً. وقد جمعها في مكتبة جعلها بمسجد بيت الباشا في « باردو » وهو القصر الذي يسكنه البايات القائمون في عرش المملكة التونسية. الا ان كثيراً من تلك المخطوطات انتهبه باي قسنطينة الذي اشترك في نزاع وقع بين علي باي الاول وبين ابني عمه محمد الرشيد باي وعلي باي الثاني. فان هذين الاميرين حاربا علي باي الاول قاتل ابيهما حسين الاول (١٧٠٥–١٧٤٠م) ففتكا به فتكا واسترجعا منه بالقوة القاهرة عرش ابيهما المغصوب.

ويستفاد من فهرس قديم مصون بين محفوظات الدولة ان ما سلم من المخطوطات

في مسجد بيت الباشا لدى ارتقاء محمود باي (١٨١٤ – ١٨٢٤ م) الى الاريكة الحسينية كانت جملته ٢٧٢٦ مجلداً مخطوطاً. وكان الامراء يفاخرون اهل العلم بتلك المخطوطات كما كان شيوخ المجلس الشرعي يرجعون اليها عند حدوث خلاف بينهم(١)

٢ ـ مكتبة الجنرال محمد بلخوجه

السيد محمد بلخوجه مؤرخ بحاثة عينته الحكومة التونسية مستشاراً لوفرة علمه وغزارة فضله. اولع منذ حداثة سنه بجمع الكتب فاقتنى منها خزانة تُعد من اثمن خزائن بلده. وميزتها الخاصة انها تشتمل على كنّاشات لكثير من علماء تونس وادبائها ضمنوها مفكراتهم ومذكراتهم. وهي لا تخلو من حوادث تاريخية وآراء اجتماعية ونوادر ادبية وغير ذلك من المواضيع المختلفة . ومن هذه الكنّاشات استمد السيد محمد بلخوجه اكثر البحوث المفيدة التي نشرها على صفحات مجلة « شمس الاسلام » و « المجلة الزيتونية »

٣ ـ مكتبة الشيخ محمد النجار

جمع الشيخ محمد النجار المفتي المالكي في تونس خزانة معتبرة احتوت على العدد الوافر من المخطوطات التي تبحث في الفلسفة .وبعد وفاته خلفها لابنه بلحسن النجار الذي تولى مثله منصب الافتاء المالكي . وفي هذه الخزانة من المخطوطات النفيسة ما لا اثر لهُ في غيرها من مكتبات العالم العربي . نذكر منها « تفسير الزجاج » بخط الزجاج نفسه في القرن الثالث للهجرة .

٤ ـ مكتبة الشيخ الصادق النيفر

للشيخ الصادق النيفر قاضي تونس المالكي مكتبة تُعدُ فريدة من نوعها بين

---

(١) المجلة الزيتونية : مجلد ١ سنة ١٩٣٦ صفحة ٧٤ – ٧٥

المكاتب الخاصة . وهي تحوي عدداً عظيما من الكتب المطبوعة والمخطوطات الثمينة في فقه مالك والحديث وغيرهما من كتب الاحكام . وقد اقتناها الشيخ الصادق في رحلاته المكررة الى المغرب الاقصى .

٥ ـ مكتبة الشيخ محمد النيفر

هي مكتبة محترمة انشأها المؤرخ الشيخ محمد النيفر المدرّس بالجامع الاعظم . وفيها من نفائس الكتب التاريخية والادبية والفقهية وغيرها ما لا يُحصى له عدد . وبعد وفاته انتقلت هذه الخزانة الى نجله الشيخ علي النيفر المدرّس بالجامع المشار اليه . ومن آثار منشئها كتاب «عنوان الاريب في مَن نشأ بتونس من عالم واديب» وكتاب « حسن البيان » في تاريخ افريقيا

٦ ـ مكتبة السيد الهادي الشريف

هو احد ائمة جامع الزيتونة كثير الاطلاع واسع الثروة فُطِر منذ صباهُ على محبة الكتب والرغبة في جمعها . وله ولع عظيم بشراء المخطوطات البديعة والمصاحف الجميلة الخط المزوقة بالذهب والمدبّجة بالرسوم الزاهية بذل في اقتنائها المال الوافر . هكذا تكوّنت لديه مكتبة تفرّدت بالفخامة والنفاسة وحسن الذوق .

٧ ـ مكتبة السيد محمد بن الامين

كان محمد بن الامين عضواً في جمعية الشورى التونسية . ولشدة كلفه بالعلم أنشأ مكتبة مهمة عُدّت من ابدع المكاتب لما حوته من نفائس المخطوطات وشتى المطبوعات . ومن مميزات صاحبها انه لم يسمع باسم كتاب صدر في اوروبا او اميركا او أي قطر كان شرقاً وغرباً الا احرزه وضمهُ الى خزانته .

٨ ـ مكتبة الامير الصادق

يُعد الامير الصادق ابن الامير مصطفى باي من أنجب امراء الاسرة الحسينية المالكة. أولع منذ نعومة اظفاره بالكتب فابدى اعتناء عجيباً وحزماً كبيراً في جمعها واقتناء بدائعها. وبتوالي الايام تكونت لديه خزانة معتبرة جمعت فأوعت

٩ ـ مكتبة الملك محمد الهادي

من اكبر عشاق الكتب في الاسرة الحسينية نذكر الاميرين الاخوين الطاهر باي والبشير باي ابني الملك الاسبق محمد الهادي. فانهما في طليعة الامراء عناية بالكتب. وقد اقتفيا بذلك آثار والدهما الذي خلف لهما خزانة عظيمة تستحق الوصف المخصوص.

١٠ ـ مكتبة حسن حسني عبد الوهاب

يُعتبر السيد حسن حسني عبد الوهاب من اشهر الكتّاب والمؤرخين في الديار التونسية ويعرف من اللغات : العربية والفرنسية والايطالية واليونانية واللاتينية وبعض التركية (١). ونظراً الى ثقافته العالية عُين عضواً في مجمع اللغة العربية الملكي بمصر. شب السيد حسن وشاب في محبة الكتب فجمع منها خزانة احتوت على كل نادر وثمين. وهي تتألف من ستة آلاف مجلد مطبوع وثلاثمائة مخطوط قديم قضى نيفاً وثلاثين سنة في انتقائها وتنظيمها حتى صارت مرجعاً لابحاث بعض علماء الاستشراق. ومن خصائص هذه الخزانة انها ضمت كل كتاب يبحث عن تونس تاريخياً وادبياً وسياسياً واقتصادياً الخ.

---

(١) عبد المجيد كامل : كتابه «في بلاد الناس» طبع بيروت الجزء الثالث من القسم الاول صفحة ٢٩

١١ ـ مكتبة السيد محمد التركي

للسيد محمد التركي مكانة ادبية عالية رفعته الى منصب « مدير التشريفات » في البلاط الملكي التونسي. وهو ايضاً شديد الكلف بجمع الكتب لا تقع عيناه على كتاب الا اشتراه. وكل مرة اتصل تجار الكتب بسفر مفيد عرضوه عليه قبل غيره من المشترين لما عهدوه فيه من رغبة المشترى وبذل المال وعدم المماحكة في الاخذ والرد ولا سيما اذا كان الكتاب نادراً. هكذا استطاع السيد محمد ان يقتني خزانة غنية بالمخطوطات والمطبوعات العربية.

١٢ ـ مكتبة زين العابدين السنوسي

هو منشىء جريدة « تونس » ومجلة « العالم الادبي » وصهر باي المملكة التونسية. حوت مكتبته ما جمعه هو بنفسه او ورثه عن والده الشهير الشيخ محمد السنوسي محرر جريدة « الرائد التونسي » في اول نشأتها سنة ١٨٦١ ميلادية. وبين مخطوطاتها كتاب « مجمع الدواوين » في عشرين مجلداً حوى تراجم مئات من علماء التونسيين وشعرائهم. وبينها ايضاً مخطوطة له عنوانها « الرحلة الحجازية » في مجلدات شتى تطرق فيها الى وصف بعض اعلام الشرق الذين شاهدهم في رحلته. وخص بالذكر المعلم بطرس البستاني فاورد ترجمته وعدد مؤلفاته ولا سيما « دائرة المعارف » التي نشر فيها الشيخ السنوسي فصلا عن تونس وملوكها الحُسينيين.

١٣ ـ مكتبة البشير الخنقي

تفردت هذه الخزانة بالكتب المطبوعة النادرة وقوانين الحكومات ودساتير الدول ومجموعات الاوامر الرسمية وانظمة الجمعيات والشركات. واشتملت خصوصاً على مجموعة كاملة لكثير من الجرائد والمجلات العربية التي صدرت شرقاً وغرباً في اوروبا واميركا والمغرب الاقصى والجزائر وتونس وطرابلس الغرب ومصر وفلسطين ولبنان وسوريا والعراق الخ الخ...

ثانياً : مكتبات القيروان

١ ــ مكتبات جوامع القيروان

اثبتنا في الفصل السابع والعشرين من الباب الثالث بحثاً خاصاً بمكتبة الجامع الاعظم في القيروان . والمعنا الى ما فيها من الخطوط النادرة المكتوبة بقلم كوفي على الرق والكاغد . وما عدا هذا الجامع المعروف ايضاً بجامع عقبة بن نافع مؤسسه فان القيروان لا تخلو جوامعها الاخرى من خزائن للكتب . واهمها خزانة مقام السيد الصاحب وخزانة الزاوية الغريانية

٢ ــ مكتبة ابي الفضل احمد

كانت مدينة القيران في سالف الزمان حافلة باهل العلم الذين كانوا يتنافسون باذّخار الكتب ونساختها . ويُروى عن قاضٍ فيها اسمه ابوالفضل احمد جمع خزانة كتب بيعت بعد وفاته بألف دينار (١)

٣ ــ مكتبة ابي جعفر احمد بن الجواز

بين مئات العلماء الذين اشتهروا قديماً في القيروان ورد ذكر ابي جعفر احمد بن الجواز الذي كان من اكبر عُشّاق الكتب وجمّاعيها . وحسبنا برهاناً انه كان لديه خمسة وعشرون قنطاراً من مخطوطات طبية وغيرها .

٤ ــ مكتبة عظوم

لاسرة عظوم مقام محترم لما انتجته من العلماء الاعلام في مدينة القيروان . ولهذه

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين : مجلد ٨ صفحة ٧٤

الاسرة مكتبة معتبرة حوت من المخطوطات طائفة عظيمة بينها كتب نادرة في علوم كثيرة . ولهـــذه المخطوطات وصف دقيق بقلم المستعربين هوداس وباسه (A. Houdas et R. Basset) نشراهُ سنة ١٨٨٤ في ١٨ صفحة (٢) وقد خلف بعض العلماء من بني عظوم فتاوى ذات قيمة في التشريع والقضاء تُسمى « فتاوى عظوم » .

٥ ـ مكتبة الشيخ محمد الجودي

للشيخ الجودي مفتي القيروان خزانة كتب رائعة تفتن الابصار بما تضمهُ من المجلدات الضخمـــة . ولصاحبها عناية كبيرة باقتناء نفائس الاسفار حتى صارت مكتبته يُشار اليها بالبنان في دوائر العلم

٦ ـ مكتبة الشيخ محمد طراد

امتازت هذه الخزانة باحتوائها على كثير من الوثائق التاريخيـة الخطيرة . وصاحبها ولوع بجمعها والتنقيب عنها واقتنائها بكل ذريعة ويُعد هذا الشيخ مرجع ثقة في التاريخ وعلم الآثار والكتابات القديمة وما يتعلق بها . ولديه في خزانته وثائق وصكوك بخطوط اصحـابها ومؤلفيها يرتقي عهد تاريخها الى القرنين الثاني والثالث للهجرة . وهي نادرة الوجود على غاية من القدامة والنفاسة .

ثالثاً : مكتبات جربه

١ ـ مكتبة الشيخ محمد الباسي

وقف هذا الشيخ على طلاب العلم طائفة كبيرة من كتب مطبوعة ومخطوطة وجعلها في خزائن بالجامع المنسوب اليه في جزيرة جربه . وفي هذه المكتبة مصاحف

Bulletin de corresp. africaine tome II (1884) pages 181-198 (١)

بخطوط بديعة بينها مصحف تحت كل آية او كلمة منه تفسيرها باللغة التركية. وتمتاز هذه المكتبة بالتآليف في مذهب الاباضية وتاريخ مشاهير الرجال والادباء والشعراء الذين ينتسبون الى هذا المذهب. وقد خلف الواقف ريعا سنوياً يُنفق على المكتبة والجامع المشار اليهما.

٢ ـ المكتبة الناصرية

في جزيرة جربه مكتبة اخرى تدعى « المكتبة الناصرية » أنشأها رهط من اهل المكانة والفضل. فأهدى اليها كل منهم جملة من الكتب وحبسها على المطالعين من ابناء هذه الجزيرة الذين يؤمونها ويستفيدون منها.

٣ ـ مكتبة جامع علي الكاتب

كان علي الكاتب من مشاهير تجار الاستانة وقد كلفته الدولة العثمانية في غابر الزمان بتقديم ما يحتاج اليها جيشها من الطرابيش. فاثرى من وراء ذلك وتبرع بالوف الدنانير لمساعدة المشاريع الخيرية ولا سيما السكة الحديدية الحجازية. ومن آثاره المبرورة انه شيد في مسقط رأسه « جربه » جامعا ومدرسة يعرفان باسمه. وقد انشأ في هذا الجامع خزانة كتب ضم اليها طائفة من المخطوطات المفيدة والمصاحف المذهبة والاسفار المطبوعة في الاستانة.

٤ ـ مكتبة جامع الترك

في حومة السوق بمدينة جربه جامع قديم يقال له « جامع الترك » وهو من بقايا الاتراك عندما كانت تونس خاضعة لحكمهم. وفيه خزانة كتب اكثرها مخطوطات عربية قديمة.

٥ ـ مكتبة السيد احمد بن ابرهيم

للمستعربين هوداس وباسّه O. Houdas et R. Basset كلف بالمخطوطات العربية والتفتيش عنها في انحاء شمال افريقيا. وقد وصفا كل ما اطلعـــا عليه من المخطوطات ووضعا لها فهارس علمية دقيقة. ومن جملة ما نشراه من هذا القبيل سنة ١٨٨٤ فهرس لمخطوطات خزانة السيد احمد بن ابرهيم الكائنة في حومة السوق بجزيرة جربه (١).

رابعاً : مكتبات صفاقس

١ ـ مكتبة علي النوري الصغير

ينتمي الشيخ علي النوري الصغير الى اسرة اشتهرت بالعلم والثروة في صفاقس. وتُعتبر مكتبته من اعظم المكاتب العربية بالاقطار التونسية اذ احتوت على ما لا يحتوي عليه غيرها من المخطوطات القديمة الوافرة العدد.

٢ـ مكتبة السيد محمد المزيو

في صفاقس مكتبة اخرى يجمل الاشارة اليها لخطورتها وهي مكتبة السيد محمد المزيو . فانها امتازت عن غيرهـا بما تضمنته من الاسفار التي تبحث في الفلاحة والزراعة والحيوان والنبات والكيمياء والطبيعيات وغير ذلك من المواضيع الجليلة. وهي مجموعة لانظير لهـا عني صاحبها باحرازها وكلف من بحث له عن ذلك ودفع له اجرة وافية .

---

(١) Bulletin de Corresp. Afric; Tome II (1884) page 398

٣ ـ سائر مكتبات صفاقس

في مدينة صفاقس مكاتب اخرى لا نرى بداً من الالماع اليها وهي : مكتبة جامع صفاقس . ومكتبة الشيخ محمد السلامي نائب جمعية الاوقاف . ومكتبة الشيخ محمد المهيري . ومكتبة احمد الشرقي من اعيان المدينة المذكورة وكبار اغنيائها .

خامساً : مكتبات سليمان

١ ـ مكتبة آل ماضور

يتحدر آل ماضور من اسرة اندلسية هجرت منذ خمسمائة سنة واستقرت في بلدة « سليمان » بتونس . وهي من الأسر الماجدة التي اشتهر افرادها بالادب وتولى كثير منهم مراكز القضاء والافتاء . وتُعد مكتبة آل ماضور من اعظم مكاتب العالم العربي وفيها من جلال الاسفار الخطية القديمة ما لا وجود له على الاطلاق في غيرها . لانها تتضمّن الشيء الكثير من مخلفات الجدود الذين جاءوا بها اثناء جلائهم عن بلاد الاندلس . وهي ملك لجميع افراد الاسرة المذكورة لا تُمس ولا تُباع .

٢ مكتبة الجامع

في مدينة « سليمان » الوطن القبلي بتونس جامع يحتوي على خزانة كتب قديمة العهد . ولم يزل فيها بعض المخطوطات النفيسة التي سلمت من صروف الزمان

سادساً : مكتبات بنزرت

المكتبة اللزامية

هي مكتبة عامة انشأها السيد عبد الرحمن اللزام وانفق النفقات السخية على

مشتراها وتجهيزها وترتيبها حتى صارت مجلداتها تُعد بعشرات الآلاف (١) . ثم جعلها وقفاً للادباء والباحثين ولكل من شاء المطالعة تعميماً للعلوم بين سكان بلده . فعَرفَ له اهل بنزرت هذا الفضل وانتخبوه غير مرة نائباً عنهم في المجلس الكبير التونسي .

سابعاً : مكتبات سوسة

مكتبة عبد الحميد السقا

للسيد عبد الحميد السقا مكتبة يذكرها العلمـــاء والادباء كل مرة ورد ذكر مدينة « سوسه » عروس مدن الساحل التونسي. فانها غنية بالمصنفات والمخطوطات العزيزة الوجود .

ثامناً : مكتبات المنستير

مكتبة الشيخ محمد مخلوف

اشتهر الشيخ محمد مخلوف قاضي المنستير باشتغاله في التاريخ والادب والعلوم الشرعية. ولاجل ذلك صرف عنايته الى جمع التآليف الوافرة والنفيسة في المواضيع لمشار اليها . فتكونت لديه مكتبة قليلة النظير .

---

(١) مجلة « تونس المصورة » بتونس : سنة ٢ عدد ١ في ٢٦ تشرين الاول ١٩٣٨

الفصل الحادى عشر

خزائن كتب الجزائر او المغرب الاقصى

القطر الجزائري غني كسائر الاقطار الاسلامية بجوامع وزوايا صينت فيها مخطوطات قديمة عصت على رزايا الدهر وحوادث الايام. وهي بقية ضئيلة مما انشأه الملوك والامراء إبان عزّ العرب او دوّنه حملة الاقلام في تباين الآراء الفلسفية والمذاهب الدينية عصراً بعد عصر.

وعلى رغم انتشار اللغة الفرنسية في جميع انحاء الجزائر فان اللغة العربية ظلت راسخة بين سكانها بفضل لغة القرآن التي هي لغتهم الاصلية. ولأجل ذلك ضنّ الجزائريون بتراث اجدادهم وحافظوا عليه محافظتهم على اثمن الكنوز. وقد زادهم تمسكا به ما عاينوه ولمسوه في الفرنسيين فاتحي تلك البلاد من الحرص الشديد على صيانة كل اثر قديم. وادلتنا على صدق هذا القول ما جمعه الفرنسيس من المخطوطات العربية العتيقة التي كانت مبعثرة في كل مكان. فألفوا منها مجموعات قيمة زيّنوا بها خزائن الكتب الخاصة والعامة في اهم مدن الجزائر وسائر الاقطار المغربية. وما اكتفوا بذلك بل نهض منهم علماء ومستعربون انصرفوا بكل نشاط الى البحث عن المخطوطات المحفوظة من قديم الزمان في المساجد والزوايا والمدارس وبيوت الاشراف. فدوّنوا لها الفهارس ووصفوا نفائسها في بطون الكتب وعلى صفحات المجلات العلمية وصفاً دقيقاً كما سنوضحه في ما يلي :

اولا : مكتبات عاصمة الجزائر وولايتها

للجامع الاعظم في مدينة الجزائر خزانة كتب تنطوي على بعض المخطوطات القديمة. وقد وضع السيد محمد شنب عام ١٩٠٩ بياناً في ١٩ صفحة لتلك المخطوطات

ونشره في كتاب فرنسي عنوانه « فهرس المخطوطات العربية في اهم المكتبات الجزائرية » ثم اردفه بفهرس لاسماء مؤلفيها.

ونشر الاستاذ رينه باسه (René Basset) عام ١٨٨٥ فهرساً لكل المخطوطات المحفوظة في خزائن الزوايا بولاية عاصمة الجزائر كزاوية تماسين وزاوية عين ماضي وزاوية عجاجة وزاوية ورْجَلة. ويقع هذا الفهرس في ٩٢ صفحة بقطع ثمن (١). ووضع الاستاذ عينه فهرساً لمخطوطات خزانة « باش آغا » في جلفا ونشره عام ١٨٨٤ في ١٣ صفحة. ثم وضع كذلك فهرساً لمخطوطات مكتبة زاوية الحمل وعددها ٥٣ مخطوطاً (٢).

وكان رينه باسه (١٨٥٥–١٩٢٤) من افاضل المستشرقين اللغويين في زمانه. اتقن لغات الشرق كالفارسية والتركية والحبشية والقبطية الا انه تفرغ خصوصاً للعربية واللغات السامية يوم عُهد اليه تعليم العربية سنة ١٨٨٢ في جامعة عاصمة الجزائر. وخلف مؤلفات تاريخية ولغوية وادبية نوّهت بعلو كعبه في العلوم الشرقية عموماً والاسلامية خصوصاً (٣). وقد احصى المجمع العلمي العربي بدمشق بين اعضائه الاستاذ رينه باسه اقراراً بفضله وخدمه الوافرة للغة العربية (٤)

واعتنى الاستاذ كالاسنتي موتيلنسكي A. Calassanti Motylinski بوضع فهارس لخزائن الكتب في مزاب. فنشر القسم الاول منها ووصف في جملة ما وصف من مخطوطاتها: كتاب ابن سرير – وطبقات الدردجيني – والجواهر المنتقاة للبرّادي – وكتاب السير للشّماخي الخ (٥)

---

(١) Bulletin de Corresp. Africaine, 1885, pages 211-266, 465-492

(٢) G. S. A. I., vol. X, 1897, pages 43-97

(٣) تاريخ الآداب العربية في الربع الاول من القرن العشرين : صفحة ١٢٣ — ١٢٤

(٤) اعمال المجمع العلمي العربي بدمشق (التقرير السادس عن سنتي ١٩٢٩ و ١٩٣٠) صفحة ١٦

(٥) Bulletin de Corresp. Afric. t. III (1885) p. 15-72

ثانياً : مكتبات قسنطينة وولايتها

نشر الاستاذ دي سلان (de Slane) تقريراً عن مكتبات القطر الجزائري واردفه بفهرس ينطوي على اهم المخطوطات المحفوظة في خزائن دار الكتب بعاصمة الجزائر وفي خزانة سيد حموده بمدينة قسنطينة (١)

وللاستاذ بَنْيان (E. Pagnan) بحث واف عن المخطوطات المخزونة في سيد حمّوده المشار اليـــه (٢) ووضع الاستاذ شربونو (A. Cherbonneau) فهرساً للمخطوطات العربية التي تنطوي عليها خزانة كتب السيد بن باشترزي في قسنطينة وعددها ١٢١ مخطوط (٣) ثم اضاف اليها شروحاً وحواشي كافية.

ثالثاً : مكتبات وهران وولايتها

الف الاستاذ المستعرب كور (A. Cour) فهرساً مسهباً للمخطوطات العربية المحفوظة في اشهر المكتبات الجزائرية. وقد المع فيه الى ما حوته خزانة « مدرسة تلمسان » في مدينة تلمسان من الكتب الخطية وعددها مئة وعشرة مجلدات. ونشر المستعرب العلامة المشار اليه ذلك الفهرس سنة ١٩٠٧ بمدينـــة الجزائر في ٦٧ صفحة قطع ربع. هكذا اصبحت اكثر مكتبات الجزائر بمخطوطاتها النادرة معروضة لدى اهل البحث في الامصار العربية وغير العربية.

---

(١) Archives des Missions scientifiques, 16 pages

(٢) Revue Africaine, t. 36 (1892) page 165

(٣) Journal Asiatique, 5e série, t. IV (1854), p. 433-443

الفصل الثاني عشر

خزائن كتب المغرب الاقصى

ليست خزائن الكتب الخاصة في المغرب الاقصى اقـــلّ عدداً واعتباراً من خزائن كتب سائر الامصار العربية. فقد عثرنا بعـد البحث والتدقيق على اسماء مكتبات جمة فيها من نفائس المخطوطات وذخائر المطبوعات ما هو جدير بان يدوّن في بطون التاريخ. وقد اعتمدنا في ذلك على ما اقتبسناه من معلومات ضافية اتحفنا بها فريق من علماء المغرب وجهابذة مؤرخيهم. نخص بالذكر منهم الشريف العلامة مولاي عبد الرحمن بن زيدان نقيب الاسرة المالكة بالمغرب الاقصى. ثم المؤرخ المدقق الاستاذ عبدالله كنّـون الحسني احد كبار الادباء في ثغر طنجه. فان كلاً منهما نفحنا بنبذة وافية عن المكتبات العربية الخاصة في تلك الاصقاع. فنخص اولهما وافر الشكر ونثني على ادبه وصدق خدمته لابناء الضاد. ونستنزل غيوث الرحمة على ثانيهما الذي قصفته يد المنون في شهر محرم عام ١٣٥٨ بعد حياة حفلت بالآثار المفيدة والمآثر المشكورة العديدة. اما تلك المكتبات فتنحصر في ما يلي:

اولا: مكتبات الرباط او رباط الفتح

١ ـ الخزانة السلطانية

أسسها مولاي الرشيد سلطان المغرب الاقصى (١٠٧٥–١٠٨٢ هـ) وضم اليها مخطوطات ثمينة كانت في الزاوية الديلائية. ثم سعى لتوسيع نطاقها بالنسخ والشراء وبما اهدي اليها من جميع الانحاء. وممن نسخوا له كتباً عديدة المؤذن الكاتب من بني المؤذن السجلماسيين. وكان هذا مؤرخاً نسّابة واسع الاطلاع بديع الخط (١)

---

(١) اتحاف اعلام الناس: تأليف عبد الرحمن زيدان: جزء ٤ صفحة ٣٨١

وبعد مولاي الرشيد تولى اخوه السلطان اسمعيل (١٠٨٢ – ١١٣٩ هـ) فعزز هذه الخزانة التي وصفها المؤرخون وصفا مشبعا ونوّهوا بفخامتها ونفاسة محتوياتها. وظل السلاطين ابناؤه واحفاده يرمقونها بعنايتهم ملك تلو ملك حتى افضت السلطنة الى مولاي محمد السلطان الحالي اعزه الله. وقد بلغ عدد مجلدات هذه الخزانة في عهده نيفاً وثلاثين الفا بينها من المخطوطات اكثر من عشرين الفا. ومن انفس ما احتوته جزء من كتاب « البيان المُغرب في اخبـــار المغرب » لابن العذارى المراكشي. وهو غير الجزئين اللذين نشرهما المستشرق دوزي الهولندي سنة ١٨٤٨ و ١٨٤٩ في ليدن.

٢ ـ مكتبة الشيخ المكي البطاوري

كان الشيخ المكي البطاوري شيخ الجماعة بالرباط. جمع في حياته خزانة كتب قيّمة اربت مجلداتها على اربعة آلاف مجلد. بينها مخطوطات لا يحصى لها عدد فضلا عن مؤلفاته مكتوبة بخط يده. وقد انتقلت بعد وفاته الى ورثته وهم يحافظون عليها لهذا العهد.

٣ ـ سائر مكتبات الرباط

في الرباط مكتبات خاصة غير التي سبق ذكرها : اهمها مكتبة الشيخ محمد بن الحسن الحجوي الفاسي الاصل مندوب المعـارف بالرباط . ثم مكتبة الشيخ احمد الزبيدي احد اعيان الرباط وفضلاء ادبائه

ثانياً : مكتبات فاس

١ ـ مكتبة الشيخ عبد الحي الكتاني

اسس هذه المكتبة الشيخ عبد الحي وهي غنية بذخائر المؤلفات مما لا نظير له في غيرها من المكتبات . واختلف الرواة في تحديد عدد ما ضمته من الكتب . فذهب

بعضهم الى ان مخطوطاتها وحدها تقارب الالف وقال غيرهم خلاف ذلك .

وقد تعهد الامير محمد علي بن توفيق الاول خديو مصر هذه المكتبة اثناء رحلته الى شمال افريقيا فكتب عنها ما نصه (١) : « اطلعنا على مكتبة الشيخ عبد الحي الكتاني الحاوية نحو ثلاثة آلاف كتاب . ضمنها كثير من المنسوخات بعضها ترجع الى الف عامٍ ومع ذلك في حالة جيدة. فتصفحنا زهاء الساعتين بعض تلك المنسوخات التي لها عند المسلم اهمية كبيرة . والتي قد لا يهتم لها الاوروبي كثيراً لخلوها من البيانات والرسومات الفنية .وانها لمن اثمن المكاتب لما تحويه من الكتب النادرة عن تاريخ العرب والاسلام والمنسوخات لمشاهير المسلمين . وان هذا الشيخ كثير الولع بالكتب القديمة وبجمعها والبحث عنها ... وله مؤلفات كثيرة وقد تلقى عنه الحديث اثناء وجوده بالازهر كثير من علمائنا » .

وحازت مكتبة الشيخ الكتاني شهرةً واسعةً في العالم الاسلامي . لذلك لجأ اليها العلماء والادباء ورجال الدولة . ونشرت عنها جريدة « السعادة » في مدينة الرباط مقالات متتابعة بقلم السيد محمد ابي جندار .

وللشيخ عبد الحي الكتاني علاقات مستحكمة بالكتبيين في مختلف الانحاء ومما يُحكى عنه انه لم يُشاهد قط في سوق من اسواق المدن التي سكنها او دخلها الا في دكاكين باعة الكتب (٢) . وبالنظر الى غزارة علمه عده المجمع العلمي العربي بدمشق بين اعضائهِ .

٢ ـ مكتبة محمد بن جعفر الكتاني

كان للشيخ محمد بن جعفر الكتاني ولع شديد بجمع الكتب فأحرز طائفة وافرة من المطبوعات الهندية ونفائس المخطوطات . وانتقلت بعد وفاته الى ورثته .

---

(١) رحلة الامير محمد علي باشا في شمال افريقيا : صفحة ٤٧ — ٤٨

(٢) فهرس الفهارس والاثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات : المقدمة : صفحة ١٤

٣ ـ مكتبة المولى المأمون

أنشأ هذه الخزانة الخليفة السلطاني المولى المأمون. وضم اليها مطبوعات كثيرة ومخطوطات نادرة بينها زهاء مائتي مخطوط مزدانة بصنوف الزخارف.

٤ ـ مكتبة الشيخ عبدالله الفاسي

كان الشيخ عبدالله الفاسي وزيراً للخليفة السلطاني واقتبس عنه الشغف بجمع الكتب. فاحرز في داره خزانة عامرة بالمطبوعات والمخطوطات التي ما برح ورثته حراصاً عليها حتى هذا العهد.

ثالثاً : مكتبات سلا

سلا مدينة في افريقيا عريقة في القدم اسسها الفونيقيون ولم تزل من آثارهم بقية ظاهرة فيها حتى الآن. واشتملت هذه المدينة على بعض مكتبات نذكر منها مايلي:

١ ـ المكتبة الناصرية

اسسها المؤرخ الشهير ابو العباس احمد (١٢٥٠ – ١٣١٥ هـ) بن خالدالناصري مؤلف كتاب « الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى ». وتحتوي على نحو عشرة آلاف مجلد منها نحو مائتين وخمسين مخطوطاً. وفي قسم المخطوطات كثير مما الفه المؤسس او خطته يمينه او علق عليه بقلمه في الفقه والنحو والتاريخ والادب. وفيه ايضاً ما الفه انجال المؤسس او نسخوه او صححوه من الكتب. وفيه اخيراً مجموعة طريفة انطوت على تآليف اجداد آل ناصر من عهد الشيخ الاكبر ابي عبدالله بن ناصر وعلى ما كتب عن هذه الاسرة او كتب لها او جُمع باسمها.

وليست الخزانة الناصرية مجموعة كتب فقط بل هي متحف آثار ايضاً يشتمل

على صور قديمة لملوك المغاربة وامرائهم واعيانهم وغيرهم. واحتوت كذلك على كثير من الخرائط الجغرافية التي كانت مستعملة قديماً عند رؤساء البحر من اهل « سلا » ايام ازدهار بحريتهم وجولان اسطولهم في البحرين المتوسط والاطلنطيقي. وتضمنت شيئاً وافراً من المؤلفات التاريخية والحقوقية والاجتماعية والزراعية والعلمية التي تبحث في احوال افريقيا الشمالية عموماً والمغرب الاقصى خصوصاً.

وخلاصة القول ان اصحاب هذه الخزانة رتبوها ترتيباً فنياً ليسهلوا على المطالعين الانتفاع بها. وهي مأثرة يشكرهم عليها كل اديب اريب.

٢ ـ مكتبة الشيخ محمد الدكالي

اتصف الشيخ محمد بن علي الدكالي السلوي بادبه العالي. والف بعض الكتب في جملتها تاريخ مدينة « سلا » وطنه. ويشغل الشيخ الدكالي في يومنا وظيفة كاتب لمندوب المعارف في البلاط الملكي. وله شغف شديد بالكتب جمع منها خزانة مهمة تُعدّ من احسن خزائن كتب سلا.

٣ ـ مكتبة آل الصبيحي

لآل الصبيحي في « سلا » خزانتان حافلتان باصناف الكتب مخطوطة ومطبوعة: احداهما تخص الشيخ محمد الصبيحي باشا والثانية تخص ابن عمه احمد الصبيحي ناظر الاحباس (الاوقاف) في تلك المدينة.

رابعاً: مكتبات مكناس

١ ـ الخزانة الزيدانية

وضع اساس هذه المكتبة مولاي الشريف عبد الرحمن بن زيدان نقيب الاسرة

المالكة بالمغرب الاقصى . واحتوت على ثمانية آلاف مجلد بينها ثلاثة آلاف مخطوط تُعد من غرائب الكتب ونوادرها . وفي تلك المخطوطات ما نُسخ بايدي مؤلفيها او دُونت عليه حواشٍ بخطوطهم . وفيها علاوة على ذلك كنوز كتابية ثمينة ومناشير سلطانية تتعلق بتاريخ الدولة العلوية . وقد نُظمت الفهارس لهذه الخزانة تنظيماً عصرياً بعناية مؤسسها العلامة .

ولمولاي الشريف عبد الرحمن بن زيدان تآليف شهيرة تدل على علو كعبه في شتى العلوم ولا سيا في التاريخ . نذكر منها : كتاب « اتحاف اعلام الناس بجمال اخبار حاضرة مكناس » وكتاب « الدرر الفاخرة بمآثر الملوك العلويين بفاس الزاهرة » وكتاب « العزّ والصولة فى نظام الدولة » وغيرها .

٢ ـ سائر مكتبات مكناس

ما عدا الخزانة الزيدانية فان مكناس تشتمل على غيرها من المكاتب اشهرها : مكتبة الشيخ محمد فتحا السوسي قاضي العاصمة المكناسية الاسماعيلية العلوية . ومكتبة الشيخ محمد بن مبارك الهلالي مفتي مكناس . ومكتبة ورثة الشيخ محمد بن عبد السلام الشريف الطاهري .

خامساً : مكتبات مراكش

مراكش هي احدى عواصم المغرب الاقصى وفيها عدة مكاتب نذكر منها : ١ ـ مكتبة باشا مراكش الحمراء الحاج التهامي الاجلاوي . وفيها عجائب وغرائب من المخطوطات المزخرفة النادرة الوجود ٢ ـ مكتبة الشريف مولاي احمد بن السعيدي العلوي احد قضاة مراكش وفيها مخطوطات نفيسة ٣ ـ مكتبة الشيخ عباس بن ابرهيم مؤرخ مراكش واحد قضاتها في العصر الحاضر وهي تتضمن نفائس وذخائر ٤ ـ مكتبة الشيخ محمد بن عبد الكبير الخ .

سادساً : مكتبات وزّان

في مدينة وزّان مقر الاشراف الوزّانيين مكتبة جليلة تُنسب الى ابن عبدالله الشريف وهو جد الاشراف المشار اليهم . وفي هذه الخزانة من أمّهات الكتب المخطوطة ما لا يقع تحت حصر (١)

سابعاً : مكتبات سوس

لم يغمّض مشايخ سوس وادباؤها عن تزيين دورهم بمكتبات معتبرة نذكر منها: ١ ـ مكتبة المرابط الشيخ مسعود البونعماني ٢ ـ مكتبة زاوية ازرق ٣ـ مكتبة القائد عياد الجراري احد قواد سوس ٤ ـ مكتبة الشيخ عبد العزيز الادوزي شارح الشمقمقية وغيرها.

ثامناً : مكتبات طنجه

١ ـ الخزانة الكنونية

اهم ما عرفنا من خزائن كتب طنجه هي الخزانة الكنّونية التي اسسها العلامة عبدالله كنّون الحسني المتوفى سنة ١٣٥٨ للهجرة. وهي تضم اشتاتا لا نظير لها من الكتب في الطب والفلسفة والرياضيات القديمة فضلا عن كتب الحديث والفقه والتفسير واللغة والادب والتاريخ. ولصاحب هذه الخزانة مؤلفات مستملحة نذكر منها: كتاب « النبوغ المغربي في الادب العربي » وكتاب « شرح الشمقمقية » وكتاب « شرح مقصورة المكودي » وكتاب « محاذي الزقاقية » وغيرها.

---

(١) مجمع الآثار العربية : صفحة ١٧٤

٢ ـ سائر مكتبات طنجه

في طنجه نفسها مكتبتان اخريان تشتملان على طائفة من المخطوطات النفيسة : احداهما خصوصية اتى على وصفها (١) المستعرب سلمون (G. Salmon) .والثانية محفوظة في خزائن جامع طنجه كما روى المستعرب مايلار (Maillard) في مجلة العالم الاسلامي (٢)

تاسعاً : سائر مكتبات المغرب الاقصى

في منطقة الحماية الفرنسية

نذكر هنا اهمها وهي : مكتبة الشيخ احمد سكيرج قاضي سطات. ومكتبة الشيخ عبد الهادي بن محمد السلاوي قاضي زرهون وفيها طرائف ونوادر. ومكتبة الشيخ احمد الازموري قاضي قصبة ابن احمد. ومكتبة الشيخ عبدالله الشرقاوي قاضي ابي الجعد. ومكتبة الشيخ موسى بن العربي قاضي تارودانت وفيها غرائب. ومكتبة الشيخ محمد البيضاوي الشنجيطي عامل تارودانت المذكورة. اخيراً المكتبة الناصرية في تمجروت اسسها الشيخ ابن ناصر حول القرن الحادي عشر. وهي اكبر خزائن المغرب الاقصى.

عاشراً : مكتبات المغرب الاقصى في منطقة الحماية الاسبانية

في المنطقة الاسبانية من المغرب الاقصى خزائن كتب جمة لها شأنها في عالم الثقافة. وهي تشتمل على عدد وافر من المخطوطات العربية مما لم نتوفق الى العثور

---

(١) Archives Marocaines, V (1906) pages 134-146

(٢) Revue du Monde Musulman, tome XXXV pages 107-192

على فهارس لها منظمة ومطبوعة. واخصها في مدينة تطـــاوين او تطوان عاصمة البـــلاد المذكورة كما افادنا الشريف عبد الرحمن بن زيدان نقيب الاسرة العلوية المالكة . وحباً للايجاز نذكر من تلك الخزائن ما يأتي :

١ – خزانة قصر صاحب السمو مولاي حسن الخليفة السلطاني بالمنطقة الاسبانية في المغرب الاقصى ٢ – خزانـة كتب المسجد الاعظم في تطوان ٣ – خزانة العلاّمة الشيخ احمد الرهوني في تلك المنطقة . ومن تصانيفه المفيدة تاريخ تطـاوين وعاداتها في مجلدات شتى عانى جهوداً عظيمة في جمعه وتأليفه ٤ – خزانة كتب الحاج عبد السلام بنونة كانت حافلة في حياة منشئها باثمن المخطوطات واندرها. انّما نجهل مصيرها بعد وفاته ٥ – خزانة كتب المعهد الخليفي وهي اغنى جميع المكتبات في عاصمة المنطقة الاسبانية خصوصاً بوفرة عدد مجلداتها ومزايا مخطوطاتها . ويديرها في عهدنا العالم الشيخ المكي بن اليماني الناصري .

ونضيف الى تلك الخزائن خزانة « المكتبة العمومية » وموقعها في « ساحة اسبانيا » بمدينة تطوان العاصمة . وقد ذكرها الرحالة امين الريحاني اللبناني في كتابه « المغرب الاقصى (١) » .

---

(١) مجلة « الحديث » في حلب : لسامي الكيالي : مجلد ١٤ سنة ١٩٤٠ صفحة ١٩٩

الفصل الثالث عشر

مكتبة الاوقاف في طرابلس الغرب

طرابلس الغرب واقعة غربي البحر المتوسط بين مصر وتونس لكنها اقل خصباً وحضارة منهما . ومكتباتها قليلة بالنسبة الى مكتبات سائر البلدان الراقية في العصر الحاضر . ولا يُعرف الآن في طرابلس الغرب الا مكتبة واحدة يقال لها « مكتبة الاوقاف » . وقد انشئت منذ ايام الاتراك الذين سيطروا على ذلك القطر اجيالاً عديدة . وافادنا السيد محمد الاسير البيروتي الذي اقام هناك ردحاً من الزمان ثم اختلف غير مرة الى تلك المكتبة انها كانت غنية بالاسفار الخطية الوافرة العدد النادرة الوجود . لكن معظمها نُهب بتوالي الازمان او ذهب ضحية الجهل والاهمال . وممن زارها ايضاً واستفاد من ذخائرها العلمية الرحالة الفلسطيني الشيخ خليل جواد الخالدي الذي تعهدها عام ١٣٢٢ للهجرة (١٩٠٤ م) ومكث فيها مدة شهر (١)

وفي الآونة الاخيرة اعتنت ادارة الاوقاف بهذه المكتبة وابتنت لها مركزاً خصوصياً بجانب جامع سيدي حموده . ثم نظمتها تنظيما جديراً بالاعتبار يتوافق وثقافة هذا العصر . وقد ضمّت اليها عدداً كبيراً من المطبوعات العربية في كل فن ومطلب تعميماً للمعارف بين جميع طبقات الامة . زد على ذلك كله انها توفر للمطالعين تسهيلات وافية فتجيب على اسئلتهم العلمية وتُعيرهم الكتب ليطالعوها ويردّوها في اوقات معلومة .

---

(١) مجم الآثار العربية: لابرهيم السيد عيسى المصري : جزء ١ صفحة ١٢٨

الفصل الرابع عشر

مكتبات بلاد البربر وصحارى افريقيا

نثبت تحت هذا العنوان اسماء مكتبات عربية توفق الى العثور عليها اهل البحث من علمـــاء اوروبا المستعربين . فكتبوا عنها الفصول الطوال في مجلاتهم العلمية ووصفوا محتوياتها باقصى ما يمكن من الدقة والتحقيق . ومزية هذه المكتبات انها حُفظت من قديم الزمان في صحارى افريقيا او في اماكن معرّضة لغارات قبائل البرابرة . ومما يدعو الى الاستغراب ان تلك الكنوز الكتابية ظلت سالمة مدة قرون بين اقوام ليسوا على شيء من الثقافة ولم يتسن لهم ان يفتحوا عيونهم لنور الحضارة العصرية . وقد اطلعنا المستعربون على مخطوطات عربية حُفظت في تلك الاصقاع النائية لا نرى مندوحةً عن تلخيص اخبارها للذكرى والتاريخ . وهي تنحصر في اربع مجموعات كما يلي :

١ – مجموعة خطية تتألف من واحد وستين مجلداً عثر عليها الاستاذ المستعرب دسفانيغ (Ed. Desfanig) في افريقيا الغربية فجلا غوامضها واسهب في شرح مضامينها في « المجلة الافريقية » الفرنسية (١)

٢ – وضع الاستاذ العلامة لويس ماسّينيون (L. Massignon) مقالة عنوانها « مكتبة صحراوية » اتى فيها على وصف مخطوطات عربية نفيسة صادفها في خزانة كتب الشيخ سيدي. وقد نشر عنها عام ١٩٠٩ درساً مدققاً في مجلة لهعنوانها « مجلة العالم الاسلامي » في باريس (٢)

٣ ـ للمستعرب لوقيان بوفا (Lucien Bouvat) نبذة بحث فيها عـن مجموعة

---

(١) Revue Africaine, t. 55 (1911), t. 56 (1912), t. 57 (1913)

(٢) Revue du Monde Musulman, t. VIII (1909) p. 409 418

مخطوطات عربية اصلها من قبيلة بربرية تُسمى « Touareg Oullimiden » في غرب افريقيا وهـــذه القبيلة من الرحل الذين يسرحون ويتنقلون في صحراء واقعة على ضفاف نهر نيجر (١)

٤ ـ اما المجموعة الخطية الرابعة فهي مكتبة الشيخ محمد بن أحمدّون بن سليمان الذي ينتمي الى قبيلة « ولاد دْيمان » في صحراء افريقيا. وقد نشر احد علمـــاء الاستشراق مقالة طريفة في « مجلة العالم الاسلامي » الباريسية عن تلك المجموعة الثمينة الـــتي بلغ عدد مخطوطاتها مائة وسبعة وستين مجلداً (٢) . وهو عدد يعز وجوده بين جدران كثير من مكتبات المدن العربية .

الخاتمة

نجز بحوله تعالى المجلد الاول حاوياً مباحث متعددة عن علوم العرب في الجاهلية وصدر الاسلام والحالة الفكرية في المشرق حينذاك . وعن نقل العلوم الدخيلة الى اللسان العربي ، وتكوين المكتبات وانتشارها . تليها اخبار المكتبات الاسلامية .

وسنردفه بالمجلد الثـاني الذي اودعناه اخبار المكتبات النصرانية والمكتبات العربية في اوروبا واميركا والمكتبات الاسرائيلية ، واخبار غلاة الكتب وهواة المكتبات . وعلى الله الاتكال .

---

(١) Journal Asiatique, 1926, (8 pages)

(٢) Revue du Monde Musulman, t. XXXI (1916) p. 117-126

فهرس

خزائن الكتب العربية في الخافقين

		صفحة
تمهيد		
الباب الاول	مقدمة الكتاب وفيها ثمانية فصول	١
الفصل الاول	علوم العرب في الجاهلية وصدر الاسلام	١
١ ـ	الحفظ والتدوين عند العرب	١
٢ ـ	الخط وتعليم الكتابة في صدر الاسلام	٣
٣ ـ	خمول الحالة العلمية عند العرب في اوائل الاسلام	٤
٤ ـ	حياة العرب البدوية	٤
٥ ـ	مزايا العرب ومجالسهم واسواقهم	٥
٦ ـ	استفحال مُلك العرب وتضعضع الشعوب المغلوبة	٦
الفصل الثاني	القرآن	٧
١ ـ	ما هو القرآن	٧
٢ ـ	توحيد القرآن لشتات الأمة العربية	٨
٣ ـ	تأثير القرآن في المسلمين العرب وغير العرب	٩
٤ ـ	إجماع الخلفاء والملوك والمسلمين كافة على تعظيم القرآن	١١
٥ ـ	نسّاخ القرآن ومنمقوه	١٤

صفحة

٦ ـ القرآن وعلماء النصارى ١٦
٧ ـ طرائف عن مصاحف القرآن ٢١
٨ ـ ترجمات القرآن وطبعاتها ٢٤
٩ ـ متاحف القرآن ٢٧

الفصل الثالث الحالة الفكرية في بلاد المشرق قبل الفتح العربي ٢٩

١ ـ دواعي انتشار الروح العلمية في المشرق ٢٩
٢ ـ النزاع الديني بين نصارى الشرق وتشعبّهم ٢٩
٣ ـ تحزب النصارى السريان للعرب الفاتحين ضد قياصرة الروم ٣٠

الفصل الرابع ثقافة شعوب البلاد التي فتحها العرب ٣٢

١ ـ لغات الشرق حين الفتح العربي ٣٢
٢ ـ مدارس الاسكندرية وانطاكية وبيروت ٣٣
٣ ـ مدارس المدائن ودير قُـنّى في العراق ٣٤
٤ ـ مدرسة الرها وأشهر العلماء المنتسبين اليها ٣٥
٥ ـ مدرسة نصيبين وكبار جهابذتها ٣٥
٦ ـ مدارس تلّعدا وقنسرين وقرقيسيا ونوابغها ٣٧
٧ ـ سائر الكتبة في الامصار التي افتتحها العرب ٣٨

الفصل الخامس احصاء بعض مدارس النصارى واديارهم في صدر الاسلام ٤١

١ ـ مدارس الرها وطور عبدين وآسيا ٤١
٢ ـ مدارس انطاكية وافاميا ودمشق وحلب وضواحيها ٤٢
٣ ـ مدارس النصارى واديارهم في بلاد العرب ٤٣
٤ ـ مدارس النصارى واديارهم في القطر المصري ٤٤
٥ شهادة محمد امين على مدارس السريان واديارهم ومكتباتهم ٤٥

صفحة

الفصل السادس نقل العلوم الدخيلة الى اللسان العربي ٤٦

١ ـ لغة الدواوين الرسمية على اثر الفتح العربي ٤٦
٢ ـ حاجة العرب الى علوم الاعاجم ٤٦
٣ ـ ما اقتبسه العرب من العلوم الدخيلة ٤٧
٤ ـ رُسل المأمون الى بلاد الروم في جمع الكتب ٤٨
٥ ـ اهتمام المأمون بالعلوم الدخيلة واجلاله للعلماء ٤٨

الفصل السابع مصادر العلوم الدخيلة ومشاهير نقلتها ٥٠

١ ـ الكتب الهندية ومعرّبوها ٥٠
٢ ـ الكتب الفارسية ومعربوها ٥١
٣ ـ الكتب اليونانية والسريانية ومترجموها ٥٢
٤ ـ آل بختيشوع في بلاط العباسيين ٥٣
٥ ـ ثئودورس ابو قرة وثئوفيل الرهاوي ومعاصروهما ٥٤
٦ ـ يوحنا بن ماسويه وثقة العباسيين بطبابته وأمانته ٥٥
٧ ـ يعقوب الكندي فيلسوف العرب ٥٦
٨ ـ حنين بن اسحق شيخ تراجمة الاسلام وتلامذته ٥٦
٩ ـ ثابت بن قرة وسائر علماء الصابئة ٥٨
١٠ ـ سائر نقلة العلوم الدخيلة ٥٩
١١ ـ تصريح محمد كردعلي بفضل نقلة علوم الاعاجم ٦٤

الفصل الثامن عصر النهضة العربية الذهبي ٦٥

١ ـ فجر العصر العربي الذهبي ٦٥
٢ ـ انشاء المدارس والمكتبات في العصر العربي الذهبي ٦٦

صفحة

٣ ـ تنشيط الكتّاب الى الترجمة والتأليف في العصر العربي الذهبي ٦٧
٤ ـ مبالغة الخلفاء في تعزيز العلم وتكريم العلماء ٦٨
٥ ـ احتذاء الفاطميين والأمويين مثال العباسيين في العصر الذهبي ٧١
٦ ـ تعزيز الفلاحة في العصر الذهبي ٧٢
٧ ـ انتشار علم الفلك في العصر الذهبي ٧٣
٨ ـ الطب والاطباء في العصر الذهبي ٧٥
٩ ـ المارستانات في العصر العربي الذهبي ٧٨
١٠ ـ المتاحف في العصر العربي الذهبي ٨٠
١١ ـ رواج سوق العلماء وتعدد مصنفاتهم في العصر الذهبي ٨١

الباب الثاني المكتبات العربية ٨٤

الفصل الاول تكوين خزائن الكتب العربية ٨٤

١ ـ حرص الأقدمين على تدوين آثارهم واخبارهم ٨٤
٢ ـ اشهر المكتبات في العصور الخالية ٨٥
٣ ـ شهادة محمد فريد وجدي على صيانة المؤلفات في الكنائس والاديار ٨٥
٤ ـ المعلقات في البيت الحرام ٨٦
٥ ـ النقوش والكتابات في ابنية العرب ٨٦
٦ ـ مصادر ابحاثنا عن المكتبات العربية ٨٧
٧ ـ تغاضي المؤرخين عن تدوين اخبار المكتبات ٨٨

الفصل الثاني انتشار المكتبات واندثارها في الاقطار العربية ٨٩

١ ـ انتقال العرب من البداوة الى الحضارة ٨٩
٢ ـ اقدم الآثار الكتابية بعد الاسلام ٨٩
٣ ـ مغالاة العرب في اقتناء الكتب وتجميعها ٩٠

صفحة

٤ ـ تنافس العلماء والخطاطين والمجلدين في تعزيز المكتبات ٩١
٥ ـ تكاثر المكتبات في البلدان العربية تكاثراً مدهشاً ٩١
٦ ـ تشييد المكتبات ومعاهد العلم بجوار قبور العظماء ٩٢
٧ ـ استطراد في رزايا المكتبات ٩٤
٨ ـ اقتصار البحث في هذا التأليف على المكتبات العربية ٩٥

الفصل الثالث احصاء المكتبات العربية في الخافقين ٩٦

١ ـ وصف اجمالي للمكتبات العربية في هذا الكتاب ٩٦
٢ ـ المكتبات العربية وما يقابلها من سائر المكتبات ٩٦
٣ ـ جدول دور الكتب العامة ومجلداتها في البلدان العربية ٩٧
٤ ـ جدول دور الكتب العامة ومجلداتها فى اشهر الممالك ٩٨

الباب الثالث المكتبات الاسلامية العامة ٩٩

الفصل الاول خزائن كتب بغداد ٩٩
اولا: مكتبات بغداد في العصور الغابرة ٩٩
١ ـ اعتناء المهدي خليفة بغداد بجمع الكتب ٩٩
٢ ـ مكتبة بيت الحكمة ١٠٠
٣ ـ مكتبة ابي نصر سابور ١٠١
٤ ـ مكتبة المدرسة النظامية ١٠٢
٥ ـ مكتبة المدرسة المستنصرية ١٠٣
٦ ـ مكتبة فخر الدين المرورذي ١٠٤
٧ ـ خزانة الدار الخليفية ١٠٤
٨ ـ مكتبة دار دينار ١٠٥

صفحة

٩ ـ خزانة المعتصم بالله ١٠٥
١٠ ـ خزانة الحكمة في كركر بضواحي بغداد ١٠٥
١١ ـ تضعضع الخلافة العباسية ١٠٦
١٢ ـ فاجعة بغداد باستيلاء التتر عليها ١٠٦
١٣ ـ محق مكتبات بغداد واتلاف كنوز قصورها ١٠٧
١٤ ـ ثقة اسلام بغداد بجائليق النساطرة واستيداعهم اياه اموالهم ١٠٩
١٥ ـ انقراض الخلافة العباسية وانتقالها الى آل عثمان ١٠٩
ثانياً : مكتبات بغداد في الزمان الحاضر ١١٠
١ ـ دار الكتب العمومية ١١٠
٢ ـ المكتبة العامة ١١١
٣ ـ مكتبة الاوقاف العامة ١١٢
الفصل الثاني خزائن كتب النجف الاشرف ١١٣
١ ـ جامع النجف وقبته الثمينة وكنوزهُ ١١٣
٢ ـ مكتبة جامع النجف ١١٤
٣ ـ المكتبة الحسينية ١١٦
الفصل الثالث خزائن كتب الموصل ١١٧
اولا : مكتبات الموصل في العصور الغابرة ١١٧
ثانياً : مكاتب الموصل في العصر الحاضر ١١٨
١ ـ مكتبة غازي ١١٨
الفصل الرابع خزائن كتب ماردين وميافرقين وآمد ١١٩

صفحة

١ ـ المكتبة الحسامية في ماردين ١١٩
٢ ـ مكتبة جامعي ميافرقين وآمد ١٢٠

الفصل الخامس خزائن كتب حلب ١٢١

اولا : خزائن كتب حلب في القرون السابقة ١٢١

١ ـ الخزانة الصوفية ١٢١
٢ ـ خزانة كتب سيف الدولة ١٢١
٣ ـ خزانة كتب المدرسة النورية ١٢٢
٤ ـ سائر المكتبات الاسلامية القديمة في حلب ١٢٣

ثانياً : خزائن كتب حلب في الزمان الحاضر ١٢٤

١ ـ دار الكتب الوطنية ١٢٤

الفصل السادس خزائن كتب حماة والمعرّة وكفرطاب ١٢٥

اولا : خزائن كتب هذه المدن في الزمان الغابر ١٢٥

١ ـ الخزانة النورية في حماة ١٢٥
٢ ـ خزانة كتب ابي الفداء في حماة ١٢٥
٣ ـ خزائن كتب المعرّة وكفرطاب ١٢٧

ثانياً : خزائن كتب حماة في العصر الحالي ١٢٧

١ ـ مكتبة دار العلم والتربية ١٢٧
٢ ـ المكتبة الخيرية العامة ١٢٧

صفحة

الفصل السابع خزائن كتب دمشق ١٢٨

١ ـ مكتبات دمشق القديمة واندثارها في نكبة تيمور ١٢٨

٢ ـ الكتب الموقوفة على مدارس دمشق ومساجدها ١٣٠

٣ ـ ذخائر مخطوطات الجامع الاموي ١٣٠

٤ ـ مخطوطات المساجد والمدارس في القبة الظاهرية ١٣٣

٥ ـ تعداد المكتبات الملحقة بالمكتبة الظاهرية ١٣٤

٦ ـ دار الكتب الاهلية الظاهرية ١٣٦

٧ ـ مكتبة المجمع العلمي العربي ١٣٧

الفصل الثامن خزانة كتب طرابلس الشام ١٣٩

١ ـ اختلاف الآراء في تاريخ نشأة الخزانة الطرابلسية ١٣٩

٢ ـ فضل بني عمّار على خزانة كتب طرابلس ١٣٩

٣ ـ وصف خزانة كتب طرابلس وعدد مجلداتها ١٤٠

الفصل التاسع خزائن كتب فلسطين وشرق الاردن ١٤١

اولا : مكتبة المسجد الاقصى ١٤١

١ ـ نفائس هذه المكتبة ١٤١

ثانياً : المكتبة الخالدية ١٤٢

١ ـ بنو الخالدي ١٤٢

٢ ـ مؤسس المكتبة الخالدية والمشتركين في تعزيزها ١٤٢

٣ ـ تبويب المكتبة وتنظيمها وعدد مجلداتها ١٤٣

ثالثاً : خزائن كتب شرق الاردن ١٤٣

١ ـ مكتبة قصر رغدان ١٤٤

٢ ـ دار الكتب الاردنية ١٤٤

صفحة

٣ ـ سائر مكتبات شرق الاردن ١٤٥

الفصل العاشر خزائن كتب مكة المكرمة ١٤٦

اولا : مكتبات مكة في العصور الخالية ١٤٦

١ ـ مكتبة المسجد الشريف النبوي ١٤٦

٢ ـ مكتبة الملك الاشرف قايت باي ١٤٧

ثانياً : مكتبات مكة في العصر الحالي ١٤٧

١ ـ خزانة كتب الحرم ١٤٧

٢ ـ مكتبة ماجد كردي ١٤٨

الفصل الحادي عشر مكتبة عارف حكمت بك في المدينة المنورة ١٤٩

١ ـ ادب مؤسس المكتبة وفضله ١٤٩

٢ تسبيل مكتبة عارف حكمت على المدينة المنورة ١٤٩

٣ ـ وصف رحّالة لمكتبة عارف حكمت بك ١٥٠

٤ ـ بدائع هذه المكتبة وراوئعها ١٥٠

الفصل الثاني عشر خزائن كتب اليمن ١٥٢

اولا : مكتبات اليمن في الازمنة السالفة ١٥٢

١ ـ خزانة كتب الملك المؤيد ١٥٢

٢ ـ خزانة كتب الامام محمد بن الحسين ١٥٣

ثانياً : مكتبات اليمن في الزمان الحالي ١٥٤

١ ـ المكتبة العمومية ١٥٤

صفحة

الفصل الثالث عشر خزائن كتب الحويزة ١٥٦

١ ـ خزانة دار الامارة ١٥٦

٢ ـ خزانة نعمة‌الله الجزائري التستري ١٥٦

الفصل الرابع عشر خزائن كتب مرو ١٥٧

١ ـ الخزانة العزيزية ١٥٧

٢ ـ الخزانة الكمالية ١٥٧

٣ ـ خزانة شرف الملك المستوفي وسائر خزائن مرو ١٥٨

الفصل الخامس عشر خزانة كتب مراغا ١٥٩

١ ـ فظائع هولاكو ومقتل آخر خلفاء بغداد ١٥٩

٢ ـ انشاء هولاكو مكتبة مراغا من بقايا المكتبات التي دمّرها ١٥٩

٣ ـ اعجاب ابن العبري بمكتبة مراغا ١٦٠

الفصل السادس عشر خزائن كتب شيراز وجنزة ١٦١

١ ـ خزانة عضد الدولة بن بويه في شيراز ١٦١

٢ ـ خزانة كتب جنزة ١٦١

الفصل السابع عشر الخزانة الرضوية في خراسان ١٦٢

الفصل الثامن عشر خزائن كتب فيروزآباد والري ونيسابور وطوس وساوه ١٦٤

١ ـ دار الكتب في فيروزآباد ١٦٤

٢ ـ بيت الكتب في الريّ ١٦٤

٣ ـ مكتبة مشهد عبد العظيم في الريّ ١٦٥

صفحة

٤ ـ مكتبة مسجد عقيل في نيسابور ١٦٥
٥ ـ مكتبة المشهد الرضوي في طوس ١٦٦
٦ ـ دار كتب ساوه ١٦٦

الفصل التاسع عشر خزائن كتب اردشير وسمرقند واصبهان وخوارزم وهمذان وهراة وبست وغيرها ١٦٧

الفصل العشرون خزائن كتب بخارا ١٧٠

١ ـ تقهقر الخلافة العباسية واستفحال امر ملوك الطوائف ١٧٠
٢ ـ مكتبة الامير نوح السامانى واختلاف ابن سينا اليها ١٧٠
٣ ـ نكبة مكتبة الامير نوح ١٧١
٤ ـ نظم الشاهنامة ١٧١
٥ ـ مكتبة مسعود بك وغيرها من مكتبات بخارا ١٧١
٦ ـ انتزاع جنكزخان مخطوطات بخارا وتحويل صناديقها معالف لخيله ١٧٢

الفصل الحادي والعشرون خزائن كتب الهند ١٧٣

١ ـ لمحة عن المكتبات في الهند الانكليزية ١٧٣
٢ ـ دار الكتب الآصفية في حيدر آباد ١٧٤
٣ ـ خزانة الديوان الهندي ١٧٤
٤ ـ مكتبة امير هندي حوت سبعمائة مخطوط عليها خطوط مؤلفيها ١٧٤
٥ ـ سائر مكتبات الهند الانكليزية ١٧٤
٦ ـ مجمع علمي في حيدر آباد لأحياء الكتب العربية القديمة ١٧٥
٧ ـ المكتبات العربية في الهند النيرلندية ١٧٦

صفحة

الفصل الثاني والعشرون خزائن كتب القاهرة في العصور الغابرة ١٧٧

١ ـ تفوّق مكتبة العزيز بالله على جميع المكتبات الاسلامية ١٧٧
٢ ـ ثروة مكتبة العزيز بالله ومكتبات الامراء ١٧٧
٣ ـ مائة الف مخطوط بديعة الكتابة والتجليد في مكتبة الحاكم بامر الله ١٧٩
٤ ـ فتك الخليفة الحاكم بالعلماء واغلاق دار العلم واعادة فتحها ١٨٠
٥ ـ تحف دار العلم وطرائفها ١٨٠
٦ ـ تمرّد رجال المستنصر واقتسامهم كنوزه ومخطوطاته ١٨١
٧ ـ تطرّف الفاطميين في الجور والفجور وانحلال دولتهم ١٨٢
٨ ـ مكتبة المدرسة الفاضلية ١٨٣
٩ ـ مكتبة المدرسة الكاملية ١٨٤
١٠ ـ مكتبة المدرسة البهائية ١٨٤
١١ ـ مكتبة المدرسة الظاهرية ١٨٥
١٢ ـ مكتبة المدرسة المنكوتمرية ١٨٥
١٣ ـ مكتبة القبة المنصورية ١٨٥
١٤ ـ مكتبة المدرسة الناصرية ١٨٦
١٥ ـ مكتبة الجامع الحاكمي ١٨٦
١٦ ـ مكتبة المدرسة الطيبرسية ١٨٦
١٧ ـ خزانة الكتب الملكية ١٨٦
١٨ ـ خزانة كتب المدرسة السابقية ١٨٦
١٩ ـ خزانة كتب المدرسة المحمودية ١٨٧
٢٠ ـ مكتبة المدرسة البشيرية ١٨٧
٢١ ـ مكتبة مدرسة الجاي ١٨٧
٢٢ ـ مكتبة مدرسة الاستادار ١٨٧

صفحة

٢٣ ـ فتح الاتراك مصر ونقلهم مخطوطات واموالاً على الف جمل ١٨٨
٢٤ ـ سائر المكتبات الاسلامية القديمة في القاهرة ١٨٨
٢٥ ـ سوء ادارة مكتبات المساجد في عهد خلفاء محمد علي ١٩٠

الفصل الثالث والعشرون مكتبات القاهرة في العصر الحاضر ١٩١

اولا : دار الكتب المصرية ١٩١
١ ـ تأسيس الكتبخانة الخديوية وتجهيزها بمخطوطات المساجد ١٩١
٢ ـ تهافت المستشرقين على ابتياع مخطوطات المساجد ١٩٢
٣ ـ مركز الكتبخانة الخديوية وعطف الخديو اسمعيل عليها ١٩٢
٤ ـ تبديل اسم الكتبخانة الخديوية باسم دار الكتب المصرية ١٩٣
٥ ـ المكتبات المضافة الى دار الكتب المصرية ١٩٣
٦ ـ ثروة دار الكتب المصرية ١٩٥
٧ ـ معارض دار الكتب المصرية ١٩٥
٨ ـ مطبوعات دار الكتب المصرية ١٩٦
٩ ـ مديرو دار الكتب المصرية ١٩٧
ثانياً : دار الكتب الازهرية الكبرى ١٩٧
١ ـ قِدَم دار الكتب الازهرية ١٩٧
٢ ـ ذخائر دار الكتب الازهرية ١٩٨
٣ ـ اعتناء مشيخة الازهر بتنظيم مكتبته وتصوير مخطوطاتها النادرة ١٩٩
ثالثاً : مكتبة آل الشرايبي ٢٠٠
رابعاً : اشهر مكتبات القاهرة في الزمان الحاضر ٢٠٠
١ ـ مكتبات الوزارات المصرية ٢٠٠

صفحة

٢ ـ مكتبات المساجد المصرية ٢٠١
٣ ـ مكتبات الجامعة المصرية او جامعة فؤاد الاول ٢٠١
٤ ـ مكتبة دار الآثار العربية ٢٠٢
٥ ـ مكتبة البرلمان المصري ٢٠٢
٦ ـ الخزانة التيمورية ٢٠٣
٧ ـ الخزانة الزكية ٢٠٥
٨ ـ سائر المكتبات الاسلامية الحديثة في القاهرة ٢٠٦

الفصل الرابع والعشرون خزائن كتب الاسكندرية ٢٠٧

١ ـ مكتبة البطالسة ٢٠٧
٢ ـ المكتبات الاسلامية القديمة في الاسكندرية ٢٠٧
٣ ـ دار كتب الحكيم ارسطاطاليس ٢٠٨
٤ ـ المكتبة البلدية ٢٠٨

الفصل الخامس والعشرون خزائن كتب سائر المدن المصرية ٢١٠

١ ـ اهتمام الحكومة المصرية بمكتبات الاقاليم ٢١٠
٢ ـ احصاء عام لمكتبات الاقاليم المصرية ٢١٠

الفصل السادس والعشرون خزائن كتب المغرب بشمال افريقيا ٢١٢

١ ـ اقسام بلاد المغرب الجغرافية في الزمان الحاضر ٢١٢
٢ ـ ثقافة المغرب في العصور الغابرة ٢١٣
٣ ـ مكتبة المهدي عُبيدالله جد الفاطميين ٢١٣
٤ ـ انتشار المكتبات قديماً في المغرب ٢١٣
٥ ـ مكتبة عماد الدولة ابن المحترق ٢١٤

صفحة

الفصل السابع والعشرون خزائن كتب تونس ٢١٥

اولا : مكتبة الجامع الاعظم في القيروان ٢١٥

١ ـ فخامة مكتبة الجامع الاعظم ٢١٥
٢ ـ نكبات مكتبة الجامع الاعظم ٢١٥
٣ ـ خطبة محمد بيرم الخامس عن بقايا مكتبة الجامع الاعظم ٢١٦
٤ ـ تجديد مكتبة القيروان ٢١٧
٥ ـ تنميق الفتيات مصاحف اهدينها يوم الزفاف الى ازواجهن وصيانة بعضها في مكتبة القيروان ٢١٨

ثانياً : مكتبة جامع الزيتونة في تونس ٢١٨

١ ـ عظمة جامع الزيتونة ومكتبته ٢١٨
٢ ـ غارة الاسبان على جامع الزيتونة وعلى مكتبته ٢١٩
٣ ـ تقهقر مكتبات تونس وتجديدها بهمة احمد باي الاول ٢١٩
٤ ـ تحابيس العظماء والعلماء على مكتبة جامع الزيتونة ٢٢٠
٥ ـ اختلال شؤون المكتبة الزيتونية في الاعوام الاخيرة ٢٢٠
٦ ـ ذخيرة المكتبة الزيتونية ٢٢١

ثالثاً : المكتبة العبدلية والمكتبة الصادقية ٢٢١

١ ـ مركز المكتبة العبدلية ٢٢١
٢ ـ اقتصار دخول المكتبة العبدلية على المسلمين فقط ٢٢٢
٣ ـ احتذاء محمد الصادق بالخديو اسمعيل في جمع مخطوطات المساجد وانشاؤه المكتبة الصادقية ٢٢٢
٤ ـ تبرع الكبراء والادباء على المكتبة الصادقية ٢٢٣

رابعاً : سائر المكتبات العامة في تونس ٢٢٣
١ ـ المكتبة الخلدونية ٢٢٣
٢ ـ المكتبة العمومية ٢٢٤
٣ ـ مكتبة جمعية قدماء المدرسة الصادقية ٢٢٤
الفصل الثامن والعشرون خزائن كتب الجزائر او المغرب الاوسط ٢٢٦
اولا : مكتبات المدارس ٢٢٦
ثانياً : المكتبة العربية في بون ٢٢٧
ثالثاً : المكتبة الاسلامية في بوجي ٢٢٧
رابعاً : المكتبة البادیسية في قسنطينة ٢٢٨
الفصل التاسع والعشرون خزائن كتب المغرب الاقصى في العصور الغابرة ٢٢٩
اولا : مكتبات المساجد والزوايا ٢٢٩
ثانياً : مكتبات فاس ٢٣٠
١ ـ مكتبة جامع القرويين ٢٣٠
٢ ـ مكتبة السلطان ابي يوسف يعقوب ٢٣٢
٣ ـ مكتبة الاشراف السعديين ٢٣٢
٤ ـ مكتبة الجامع الاعظم الجديد ٢٣٣
ثالثاً : مكتبة الحكمة في مراكش ٢٣٤
١ ـ النهضة العلمية في خلافة يوسف بن عبد المؤمن ٢٣٤
٢ ـ مضاهاة مكتبة مراكش مكتبتي قرطبة وبغداد ٢٣٥
٣ ـ تفاني ابي العباس الانصاري في خدمة مكتبة الحكمة ٢٣٥
رابعاً : مكتبات مكناس ٢٣٦
١ ـ الخزانة الاسماعيلية ٢٣٦
٢ ـ مكتبة الجامع الاعظم ٢٣٨

صفحة

خامساً : مكتبات سبتة وسائر مكتبات المغرب الاقصى ٢٣٨

١ ـ استيلاء الاسبان على سبتة ونقلهم الكتب منها ٢٣٨

٢ ـ بعض مشاهير علماء سبتة ٢٣٩

٣ ـ سائر مكتبات المغرب الاقصى ٢٣٩

الفصل الثلاثون مكتبات المغرب الاقصى في الزمان الحاضر ٢٤٠

اولا : المكتبة العامة في الرباط ٢٤٠

١ ـ نواة المكتبة العامة وما ضُم اليها من المكتبات ٢٤٠

٢ ـ ذخيرة المكتبة العامة وجهد كبار المستعربين في إنمائها ٢٤١

ثانياً : اشهر المكتبات البلدية في المغرب الاقصى ٢٤٢

الفصل الحادي والثلاثون خزائن كتب الاندلس ٢٤٣

١ ـ حضارة الاندلس ايام عزّ العرب ٢٤٣

٢ ـ مكتبة المستنصر بالله في قصر الزهراء بقرطبة ٢٤٤

٣ ـ مكتبات الوزراء والعظماء في انحاء الاندلس ٢٤٥

٤ ـ عصر الاندلس الذهبي ٢٤٦

٥ ـ تهافت الافرنج على اقتباس حضارة الاندلس ٢٤٨

٦ ـ تنازع عرب الاندلس وزوال ملكهم وانقراض مكتباتهم ٢٤٩

٧ ـ تفجع العرب على سابق مجدهم في الاندلس ٢٥٠

الفصل الثاني والثلاثون خزائن كتب استنبول ٢٥١

١ ـ محاولة الاتراك انشاء حضارة كحضارة العرب ٢٥١

٢ ـ تأسيس الاتراك مكتبات من مخطوطات البلدان التي افتتحوها ٢٥١

صفحة

٣ ـ انتزاع الاتراك من لغتهم كل مسحةٍ عربيةٍ ٢٥٢
٤ ـ تضعضع مكتبات استنبول وصعوبة الانتفاع بكنوزها ٢٥٣
٥ ـ مكتبة علي اميري ٢٥٣
٦ ـ اهم مكتبات استنبول وادماج بعضها في البعض الآخر ٢٥٤
٧ ـ مكتبة مخطوطات عربية في الموسيقى ٢٥٥
٨ ـ وصف احمد زكي باشا مخطوطات سراي طوب قبو ٢٥٥

الفصل الثالث والثلاثون خزائن كتب الروملي والاناضول ٢٥٧

اولا : مكتبات الروملي ٢٥٧

ثانياً : مكتبات الاناضول ٢٥٨

الباب الرابع المكتبات الاسلامية الخاصة ٢٥٩

الفصل الاول خزائن كتب الجمهورية اللبنانية ٢٦٠

اولا : مكتبات بيروت ٢٦٠

١ ـ مكتبة الامير ناصر الدين خضر ٢٦٠
٢ ـ الخزانة الاحدبية ٢٦٠
٣ ـ مكتبة الشيخ مصطفى الغلاييني ٢٦١
٤ ـ الخزانة المحمصانية ٢٦١
٥ ـ مكتبات آل ابي النصر ٢٦٢
٦ ـ مكتبات آل بيهم ٢٦٣
٧ ـ مكتبة الشيخ سعيد اياس ٢٦٣
٨ ـ مكتبة جميل العظم ٢٦٤

صفحة

٩ ـ الخزانة الناصرية ٢٦٤
١٠ ـ سائر المكتبات الاسلامية الخاصة في بيروت ٢٦٥

ثانياً : مكتبات جبل لبنان ٢٦٥

١ ـ الخزانة الارسلانية ٢٦٥
٢ ـ الخزانة الجنبلاطية ٢٦٦
٣ ـ مكتبة غندور زيتونه ٢٦٦

ثالثاً : مكتبات صيدا وجبل عامل ٢٦٧

١ ـ مكتبة الجامع الكبير في صيدا ٢٦٧
٢ ـ مكتبات جبل عامل اجمالا وعيث الجزّار فيها ٢٦٨
٣ ـ اهم المكتبات الخاصة في جبل عامل ٢٦٩

رابعاً : مكتبات طرابلس الشام ٢٧٠

١ ـ مكتبة الشيخ مصطفى الميقاتي ٢٧٠
٢ ـ مكتبة آل كرامي ٢٧٠
٣ ـ مكتبة محمد باشا المحمد ٢٧١
٤ ـ مكتبة آل الجسر ٢٧١
٥ ـ مكتبة آل نشابه ٢٧٢
٦ ـ مكتبة آل المغربي ٢٧٢

الفصل الثاني خزائن كتب سوريا ٢٧٣

اولا : مكتبات دمشق القديمة ٢٧٣

صفحة

١ ـ اشهر الخزائن المحبّسة على الجامع الاموي ٢٧٣
٢ ـ اشهر الخزائن المحبّسة على المدرسة العمرية ٢٧٣
٣ ـ اشهر مكتبات دمشق الخاصة في القرون الغابرة ٢٧٤
٤ ـ مكتبات دمشق الخاصة في القرون الاخيرة ٢٧٥
ثانياً : مكتبات دمشق الحديثة ٢٧٦
١ ـ مكتبة الجامعة السورية ٢٧٦
٢ ـ مكتبة الامير عبد القادر الجزائري ٢٧٧
٣ ـ مكتبة ابي السعود الحسيبي ٢٧٨
٤ ـ مكتبة محمود حمزة وحفيده خليل مردم بك ٢٧٨
٥ ـ مكتبة ابي اليسر عابدين ٢٧٩
٦ ـ مكتبة طاهر الجزائري ٢٧٩
٧ ـ مكتبة جمال الدين القاسمي ٢٨٠
٨ ـ مكتبة آل الطنطاوي ٢٨١
٩ ـ مكتبة عبد المحسن الاسطواني ٢٨١
١٠ ـ مكتبة محمد كرد علي ٢٨١
١١ ـ مكتبة احمد الزيناتي ٢٨٢
١٢ ـ مكتبة آل القوتلي ٢٨٢
١٣ ـ مكتبة الشيخ عبد الرزاق البيطار ٢٨٣
١٤ ـ مكتبة آل الغزّي ٢٨٣
١٥ ـ مكتبة آل اليوسف ٢٨٤
١٦ ـ مكتبات آل الخطيب ٢٨٤
١٧ ـ مكتبة الشيخ عطا الكسم ٢٨٤
١٨ ـ سائر المكتبات الاسلامية الخاصة في دمشق ٢٨٥

صفحة

ثالثاً : مكتبة عبده الخطيب في الصنمين بحوران ٢٨٥

رابعاً : مكتبة دوما ٢٨٦

خامساً : مكتبات حمص ٢٨٦

سادساً : مكتبات حماة ٢٨٧

١ ـ المكتبة النورية ٢٨٧

٢ ـ مكتبة الشيخ سعيد النعساني ٢٨٧

٣ ـ سائر المكتبات الاسلاميه في حماة ٢٨٧

سابعاً : مكتبات حلب في العصور الغابرة ٢٨٨

١ ـ خزانة الفارابي ٢٨٨

٢ ـ خزائن بني جرادة ٢٨٨

٣ ـ خزائن سيف الدين ارغون وبني شحنة وبني الحشاب وغيرهم ٢٨٩

٤ ـ مكتبات جامع منكلي بغا ودار الحديث واوكوز محمد باشا ٢٨٩

٥ ـ الخزانة الاحمدية ٢٩٠

٦ ـ الخزانة العثمانية ومكتبة محمد البخشي ٢٩٠

ثامناً : مكتبات حلب الاسلامية في الزمان الحالي ٢٩١

الفصل الثالث خزائن كتب فلسطين ٢٩٣

اولا : مكتبات القدس الشريف ٢٩٣

ثانياً : مكتبات نابلس ٢٩٤

ثالثاً : مكتبات يافا ٢٩٥

صفحة

رابعاً : مكتبة الجزار في عكا ٢٩٥

خامساً : مكتبة آل دويك في خليل الرحمن ٢٩٦

الفصل الرابع خزائن كتب العراق ٢٩٧

اولا : مكتبات بغداد ٢٩٧

١ ـ المكتبة المرجانية ٢٩٧
٢ ـ المكتبة الازبكية ٢٩٧
٣ ـ المكتبة الخالدية ٢٩٨
٤ ـ مكتبة عيسى العطار ٢٩٨
٥ ـ المكتبة الآلوسية ٢٩٨
٦ ـ مكتبة هبة الدين الشهرستاني ٢٩٨
٧ ـ مكتبة عباس العزاوي ٢٩٩
٨ ـ مكتبة الشيخين ٢٩٩
٩ ـ مكتبة عبد الرحمن النقيب ٣٠٠
١٠ ـ مكتبة احمد نيازي ٣٠٠
١١ ـ مكتبة آل جميل ٣٠٠
١٢ ـ سائر المكتبات الاسلامية الخاصة في بغداد ٣٠١

ثانياً : مكتبات الموصل ٣٠١

ثالثاً : مكتبات دير قنّى واربيل ٣٠٢

١ ـ مكتبة محمد القنّائي بدير قنّى ٣٠٢
٢ ـ مكتبة الملا باكير في اربيل ٣٠٣

صفحة

رابعاً : مكتبات النجف الاشرف ٣٠٣

١ ـ مكتبات آل بحر العلوم ٣٠٣
٢ ـ مكتبة الشيخ جعفر ٣٠٤
٣ ـ مكتبة آل القزويني ٣٠٥
٤ ـ مكتبة نظام الدولة ٣٠٥
٥ ـ مكتبة احمد هلالة ٣٠٥
٦ ـ مكتبة النمازي ٣٠٦
٧ ـ مكتبة بيت عبودي ٣٠٦
٨ ـ مكتبة آل كاشف الغطاء ٣٠٦
٩ ـ الخزانة السماوية ٣٠٧
١٠ ـ مكتبة الطباطبائي ٣٠٧
١١ ـ مكتبة هادي الجعفري ٣٠٧
١٢ ـ مكتبة رضا الاصفهاني ٣٠٨
١٣ ـ مكتبة صادق كمونة ٣٠٨
١٤ ـ مكتبة محمد علي الخونساري ٣٠٨
١٥ ـ مكتبة محمد اليزدي ٣٠٩
١٦ ـ مكتبة ضياء الدين الدخيلي ٣٠٩
١٧ ـ سائر مكتبات النجف الاشرف ٣١٠

خامساً : مكتبات كربلا ٣١٠

١ ـ مكتبة عبد الحسين الطهراني ٣١٠
٢ ـ مكتبة عبد الحسين الكليدار ٣١١
٣ ـ مكتبة آل شهيد ٣١١

صفحة

٤ ـ مكتبة الشيخ زين العابدين ٣١١
٥ ـ مكتبة ميرزا الشهرستاني ٣١١
٦ ـ سائر مكتبات كربلا ٣١٢

سادساً : مكتبات الكاظمية ٣١٢

١ ـ مكتبة محمد الصدر ٣١٢
٢ ـ مكتبة آل السيد حيدر ٣١٢

سابعاً : مكتبات البصرة في العصور الخالية ٣١٣

١ ـ دار كتب البصرة ٣١٣
٢ ـ دار كتب ابي منصور بن شاه مردان ٣١٣
٣ ـ مكتبة القاضي ابي الفرج ٣١٣
٤ ـ مكتبة الامير آقسنقر ٣١٤

ثامناً : مكتبات البصرة في الزمان الحاضر ٣١٤

١ ـ المكتبة العباسية ٣١٤

الفصل الخامس خزائن كتب الحجاز ٣١٦

اولا : مكتبات المدينة المنوّرة ٣١٦

١ ـ المكتبة الحميدية ٣١٦
٢ ـ المكتبة المحمودية ٣١٦
٣ ـ مكتبة رباط سيدنا عثمان ٣١٧

صفحة

٤ ـ مكتبة الصاقزلي ٣١٧
٥ ـ المكتبة البساطية ٣١٧
٦ ـ سائر مكتبات المدينة المنورة ٣١٧

ثانياً : مكتبات جدة ٣١٨

١ ـ مكتبة محمد ناصيف ٣١٨

ثالثاً : مكتبات حائل ونجد ٣١٨

١ ـ مكتبة حائل ٣١٨
٢ ـ مكتبات نجد ٣١٩

الفصل السادس خزائن كتب اليمن ٣٢٠

١ ـ مكتبة الامام محمد بن الحسين ٣٢٠
٢ ـ مكتبة حسن حيدرة الذماري ٣٢٠
٣ ـ مكتبة الحسن بن علي حنش ٣٢١
٤ ـ مكتبة الامام احمد بن المنصور ٣٢١
٥ ـ مكتبة عبد الرحمن العمراني ٣٢٢
٦ ـ مكتبة احمد الكبسي ٣٢٢
٧ ـ مكتبة حسين حلمي باشا ٣٢٢
٨ ـ مكتبة الامام يحيى ملك اليمن ٣٢٣

الفصل السابع خزائن كتب ايران (بلاد فارس) ٣٢٤

اولا . مكتبات طهران ٣٢٥

صفحة

١ ـ الخزانة الشاهانية ٣٢٥
٢ ـ الخزانة الناصرية ٣٢٦
٣ ـ خزانة مجلس النواب ٣٢٦
٤ ـ خزانة حسين آقا ٣٢٦
٥ ـ الخزانة النورية ٣٢٦
٦ ـ سائر مكتبات طهران ٣٢٧

ثانياً : مكتبات اصفهان ٣٢٧

١ ـ خزانة الكتب بمدرسة النظام ٣٢٧
٢ ـ الخزانة الصفوية ٣٢٨
٣ ـ خزانة المجلسي ٣٢٨
٤ ـ سائر مكتبات اصفهان ٣٢٨

ثالثاً : مكتبات تبريز ٣٢٩

١ ـ خزانة الملا علي آقا ٣٢٩
٢ ـ خزانة كتب رشيد الدين ٣٢٩
٣ ـ خزانة علي الايرواني ٣٢٩

رابعاً : مكتبات زنجان ٣٢٩

١ ـ خزانة ميرزا فضل الله ٣٢٩
٢ ـ خزانة ابي عبدالله الزنجاني ٣٣٠
٣ ـ خزانة شيخ الاسلام ٣٣٠

خامساً . مكتبات اردبيل ٣٣٠

صفحة

١ ـ الخزانة الصفوية ٣٣٠

سادساً : مكتبات سيزوار ٣٣١

١ ـ خزانة محمد مهدي العلوي ٣٣١

سابعاً : مكتبات بيرجند ٣٣١

١ ـ خزانة محمد باقر ٣٣١

ثامناً : سائر مكتبات ايران ٣٣٢

الفصل الثامن خزائن كتب الهند ٣٣٣

١ ـ مكتبة حامد حسين في لكنهوا ٣٣٣
٢ ـ مكتبة الشيخ الشيرازي في بمباي ٣٣٤
٣ ـ مكتبة بطنا ٣٣٤
٤ ـ مكتبة محمد اجمل خان في دلهي ٣٣٥
٥ ـ مكتبة آصف الدولة ٣٣٦

الفصل التاسع خزائن كتب مصر ٣٣٧

اولا : مكتبات القاهرة ٣٣٧

١ ـ مكتبة قصر عابدين ٣٣٧
٢ ـ المكتبة الحسينية ٣٣٨
٣ ـ مكتبة حسن الجبرتي ٣٣٩
٤ ـ المكتبة الطهطاوية ٣٤٠

صفحة

٥ ـ مكتبة عبد الهادي نجا الابياري ٣٤١
٦ ـ مكتبة الشيخ علي الليثي ٣٤١
٧ ـ مكتبة الدكتور درّي باشا ٣٤٢
٨ ـ مكتبة اباظة باشا ٣٤٢
٩ ـ مكتبة سامي باشا البارودي ٣٤٣
١٠ ـ المكتبة الآصفية ٣٤٣
١١ ـ مكتبة وليّ الدين يكن ٣٤٤
١٢ ـ مكتبة المنار ٣٤٦
١٣ ـ مكتبة مصطفى نور باشا ٣٤٦
١٤ ـ مكتبة طلعت بك ٣٤٧
١٥ ـ مكتبة مختار بك ٣٤٧
١٦ ـ مكتبة محمد مسعود بك ٣٤٧
١٧ ـ مكتبة الامير محمد علي باشا ٣٤٨
١٨ ـ المكتبة اليوسفية ٣٤٩
١٩ ـ سائر المكتبات الاسلامية الخاصة في القاهرة ٣٥٠

ثانياً : مكتبات الاسكندرية ٣٥٠

١ ـ مكتبة الامير عمر طوسون ٣٥١
٢ ـ مكتبة محمد ابي الفتح الحنفي ٣٥٢
٣ ـ المكتبة العباسية ٣٥٢

ثالثاً : مكتبات سائر المدن المصرية ٣٥٣

١ ـ مكتبة محمد فريد وجدي في بطنابة ٣٥٣

صفحة

٢ ـ مكتبة عبد الرزاق الرافعي في طنطا ٣٥٣
٣ ـ المكتبة الاحمدية في طنطا ٣٥٤

الفصل العاشر خزائن كتب المملكة التونسية ٣٥٥

اولا : مكتبات تونس العاصمة ٣٥٥

١ ـ مكتبة مسجد بيت الباشا ٣٥٥
٢ ـ مكتبة الجنرال محمد بلخوجه ٣٥٦
٣ ـ مكتبة الشيخ محمد النجار ٣٥٦
٤ ـ مكتبة الشيخ صادق النيفر ٣٥٦
٥ ـ مكتبة الشيخ محمد النيفر ٣٥٧
٦ ـ مكتبة السيد الهادي الشريف ٣٥٧
٧ ـ مكتبة السيد محمد بن الامين ٣٥٧
٨ ـ مكتبة الامير الصادق ٣٥٨
٩ ـ مكتبة الملك محمد الهادي ٣٥٨
١٠ ـ مكتبة حسن حسني عبد الوهاب ٣٥٨
١١ ـ مكتبة السيد محمد التركي ٣٥٩
١٢ ـ مكتبة زين العابدين السنوسي ٣٥٩
١٣ ـ مكتبة البشير الخنقي ٣٥٩

ثانياً : مكتبات القيروان ٣٦٠

١ ـ مكتبات جوامع القيروان ٣٦٠
٢ ـ مكتبة ابي الفضل احمد ٣٦٠
٣ ـ مكتبة ابي جعفر احمد بن الجواز ٣٦٠

صفحة

٤ ـ مكتبة عظوم ٣٦٠
٥ ـ مكتبة الشيخ محمد الجودي ٣٦١
٦ ـ مكتبة الشيخ محمد طراد ٣٦١

ثالثاً : مكتبات جربة ٣٦١

١ ـ مكتبة الشيخ محمد الباسي ٣٦١
٢ ـ المكتبة الناصرية ٣٦٢
٣ ـ مكتبة جامع علي الكاتب ٣٦٢
٤ ـ مكتبة جامع الترك ٣٦٢
٥ ـ مكتبة السيد احمد بن ابرهيم ٣٦٣

رابعاً : مكتبات صفاقس ٣٦٣

١ ـ مكتبة علي النوري الصغير ٣٦٣
٢ ـ مكتبة السيد محمد المزيو ٣٦٣
٣ ـ سائر مكتبات صفاقس ٣٦٤

خامساً : مكتبات سليمان ٣٦٤
١ ـ مكتبة آل ماضور ٣٦٤
٢ ـ مكتبة الجامع ٣٦٤

سادساً : مكتبات بنزرت ٣٦٤

١ ـ المكتبة اللزامية ٣٦٤

سابعاً : مكتبات سوسة ٣٦٥

صفحة

١ ـ مكتبة عبد الحميد السقا ٣٦٥
ثامناً : مكتبات المنستير ٣٦٥
١ ـ مكتبة الشيخ محمد مخلوف ٣٦٥
الفصل الحادي عشر خزائن كتب الجزائر او المغرب الاوسط ٣٦٦
اولا : مكتبات عاصمة الجزائر وولايتها ٣٦٦
ثانياً : مكتبات قسنطينة وولايتها ٣٦٨
ثالثاً : مكتبات وهران وولايتها ٣٦٨
الفصل الثاني عشر خزائن كتب المغرب الاقصى ٣٦٩
اولا : مكتبات الرباط او رباط الفتح ٣٦٩
١ ـ الخزانة السلطانية ٣٦٩
٢ ـ مكتبة الشيخ المكي البطاوري ٣٧٠
٣ ـ سائر مكتبات الرباط ٣٧٠
ثانياً : مكتبات فاس ٣٧٠
١ ـ مكتبة الشيخ عبد الحي الكتاني ٣٧٠
٢ ـ مكتبة محمد بن جعفر الكتاني ٣٧١
٣ ـ مكتبة المولى المأمون ٣٧٢
٤ ـ مكتبة الشيخ عبدالله الفاسي ٣٧٢
ثالثاً : مكتبات سلا ٣٧٢
١ ـ المكتبة الناصرية ٣٧٢
٢ ـ مكتبة الشيخ محمد الدكالي ٣٧٣
٣ ـ مكتبة آل الصبيحي ٣٧٣

صفحة

رابعاً : مكتبات مكناس ٣٧٣

١ ـ الخزانة الزيدانية ٣٧٣

٢ ـ سائر مكتبات مكناس ٣٧٤

خامساً : مكتبات مراكش ٣٧٤

سادساً : مكتبات وزّان ٣٧٥

سابعاً : مكتبات سوس ٣٧٥

ثامناً : مكتبات طنجه ٣٧٥

١ ـ الخزانة الكنّونية ٣٧٥

٢ ـ سائر مكتبات طنجه ٣٧٦

تاسعاً : سائر مكتبات المغرب الاقصى في منطقة الحماية الفرنسية ٣٧٦

عاشراً : مكتبات المغرب الاقصى في منطقة الحماية الاسبانية ٣٧٦

الفصل الثالث عشر مكتبة الاوقاف في طرابس الغرب ٣٧٨

الفصل الرابع عشر مكتبات بلاد البربر وصحارى افريقيا ٣٧٩

فهرس خزائن الكتب العربية في الخافقين ٣٨١

وَقَفَ عَلَى طَبْعِهِ

منير الياس وهيبه

القائم باعمال دائرة الدرس والتنسيق بدار الكتب

DATE DUE

JA 12

7 FEB 2011

Circulation Dept. 4

027
T19kA
V.1

027
T19kA
V.1
General Library